القصر

فرانتس كافكا

ترجمة مصطفى ماهر

القصر

تأليف
فرانتس كافكا

ترجمة
مصطفى ماهر

هنــداوي

القصر

فرانتس كافكا

Das Schloss

Franz Kafka

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٩٩ ٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٢٦.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٧١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور مصطفى ماهر.

المحتويات

مقدمة	٧
الأسماء الواردة بالرواية	٢٣
الفصل الأول	٢٥
الفصل الثاني	٤١
الفصل الثالث	٥٩
الفصل الرابع	٦٩
الفصل الخامس	٨١
الفصل السادس	٩٧
الفصل السابع	١٠٩
الفصل الثامن	١١٩
الفصل التاسع	١٢٧
الفصل العاشر	١٣٧
الفصل الحادي عشر	١٤٣
الفصل الثاني عشر	١٤٧
الفصل الثالث عشر	١٥٣
الفصل الرابع عشر	١٧٥
الفصل الخامس عشر	١٨٣
الفصل السادس عشر	٢٣٥
الفصل السابع عشر	٢٤٣
الفصل الثامن عشر	٢٤٩

الفصل التاسع عشر	٢٧٣
الفصل العشرون	٢٨٧

مقدمة

وُلد فرانتس كافكا في الثالث من شهر يوليو عام ١٨٨٣م في مدينة براغ التي كانت في ذلك الوقت تجمَع بين ثقافتَين؛ الثقافة الألمانية من ناحية، والثقافة التشيكية من ناحية ثانية. ويبدو أن الطبقة التي كانت تحمل الثقافة الألمانية كانت هي الطبقة المرموقة التي يتُوق الناس إلى الوصول إليها والاندِماج فيها والسَّير على طريقها. وكانت أسرة كافكا أسرةً في أصلها رقيقة الحال، كان الجد يعمل بالجزارة، ويسعى هو وأولاده باللحم إلى الزبائن، أما الأب فقد رسم لنفسه طريقًا للصعود الاجتماعي سلكه في حزمٍ عنيفٍ، فبدأ بالرحيل من القرية إلى المدينة — براغ — وتزوَّج من واحدة من أصحاب الثَّراء من بين الأُسَر المتكلِّمة باللغة الألمانية، وتمكَّن من احتراف التجارة وكسب المال، ودفع أولاده رغمًا عنهم إلى الاتجاه إلى قطاعات من التعليم والعمل كان يرى فيها دليلًا على الرِّفعة والوجاهة، وكان في مُعاملته أولادَه عنيفًا شديد العُنف، لا يكاد يدع لهم مُتنفَّسًا في حضرته، فاضطرمَت نفس فرانتس كافكا منذ وقت مُبكِّر بنار الثورة على أبيه، واتجه بينَه وبين نفسه إلى الهروب من البيئة القاسية إلى الأحلام أحلام اليقظة وإلى الخيال الإبداعي بعد ذلك، وربما تحمَّلت شخصية فرانتس كافكا بشيءٍ من العصابية التي كان بعض أفراد أسرة أبيه وأسرة أمِّه يُعانون منها. ووجد فرانتس كافكا نفسه في المدرسة الألمانية في براغ، فلما أتمَّها دفعه أبوه إلى دراسة القانون حتى يتمكَّن من الانخراط في سلك الموظَّفين، والاندماج في هذه الطبقة التي تُدير الأمور وتُهيمِن على المقدَّرات. أما فرانتس نفسه فكان يَتمنَّى أن يدرس الفلسفة والآداب والفنون … وشتَّان ما بين الاتجاهَين من تبايُن! وإذا كان فرانتس كافكا قد اضطرَّ إلى إرضاء أبيه بدراسة القانون؛ فقد عرف في الوقت نفسه كيف يُرضي شغفَه بالفلسفة والآداب والفنون، فقرأ وحدَه ما استطاع واستمع إلى كثير ممَّا كان يُلقَى في الجامعة من محاضَرات في هذه التخصُّصات. وأتمَّ كافكا في عام ١٩٠٦م دراسة القانون وحصل على

الدكتوراه، وتدرَّب فترةً في المحاكم شاهَدَ فيها بعينَيه كيف يتمُّ التقاضي، وعرف الصعوبات التي يتعرَّض لها أصحاب الحاجات في متاهات القانون، وكيف يُساقون من مكتب إلى مكتب، ومن دائرة إلى دائرة، يلقفُهم هذا الموظف، ثم ذاك المحامي، ويقعون في براثن هذا المُتعجرِف أو ذاك الأفَّاق، يرجُون الوصول إلى العدالة، وكلَّما اقتربوا منها في ظنِّهم بدَت عنهم في الواقع المرير. وانتقَل بعد فترة التدريب هذه للعمل في شركة للتأمينات العامة ثم إلى مؤسَّسة التأمين على العمال وظلَّ بها حتى استقال لمرضه في عام ١٩٢٢م — وأتاحَت له هذه السنوات الطويلة من العمل معرفة المزيد من أسرار العمل في الدواوين، وتصور الإنسان العصري سجينًا في أغلالها. وانتهى فرانتس كافكا ضحية السُّل في الثالث من يونيو عام ١٩٢٤م، وعمره يقلُّ عن ٤١ سنة قليلًا.

وتتكوَّن الأعمال الأدبية التي خلَّفها كافكا من مجموعة القصص التي نشَرَها في حياته، ومجموعة الروايات التي نُشرَت بعد وفاته ثم طائفة من الرسائل واليوميات والمُذكِّرات. وقد أخرجنا من قبل في مطبوعات «دار الكتاب العربي» ترجمة كاملة لرواية «القضية»، ونُقدِّم اليوم هذه الترجمة لرواية «القصر»، ونرجو أن نتمكَّن من مُتابعة الترجمة حتى تُصبح في متناول يد القرَّاء العرب مجموعة الأعمال الكاملة لكافكا.[١]

أحداث القصر

في وقتٍ مُتأخرٍ من مساء يوم من أيام الشتاء يصلُ رجل اسمه ك (انطق «كا» مُفَخَّمَة) إلى قرية لا نعلم مِن اسمها إلَّا «القرية» تقعُ عند أسفل التلِّ الذي ترتفع عليه مباني القصر، أتى بعد رِحلة على الأقدام ليعمل موظفًا للمساحة بناءً على دعوة يقول إنه تلقَّاها من أصحاب الشأن. ويذهب إلى حانِ الجِسر بالقرية ويحاول أن يقضي الليلة في هدوء حتى يأتي الصباح ويجري اتِّصالاته ويبدأ عمله، ولكن أهل القرية يُواجهونه بالشك والريبة، ولا يتركه صاحب الحان يَبيت إلَّا بعد إجراء اتصال تليفوني مع القصر يسمح بهذا المبيت. ويعتقِد ك أن هذا التصريح بالمبيت يعني أن الأمور كلها تسير على أحسن وجه وأن الشك

[١] انظر مقالنا «القضية لكافكا» في العدد ١١ من مجلة تراث الإنسانية عام ١٩٦٧م؛ ففيه عرض مفصل لحياة فرانتس كافكا وأعماله، وكذلك كتابنا «صفحات خالدة من الأدب الألماني» بيروت ١٩٧٠م، وخاصة ص٤٥٩–٤٨٠ و٦٦٨.

والريبة السابقين لا يزيدان عن أن يكونا من قَبيل الخطأ أو سوء الفهم. وك لا يعرف من أمر القرية والقصر إلا القليل، وهو يظنُّ أن الجراف أو الأمير في القصر رجل عظيم يُحسن تدبير كل شيء، ويعطي الموظَّفين والعاملين لديه أجرًا حسنًا، وكان ك يُمنِّي نفسه بشيءٍ من الكسب يُوفره ويعود به إلى بلده. فلما أصبح الصباح خرج إلى القرية التي كانت تتوارى تحت الثلوج المتراكمة، ونظَر إلى الأفق فوجد القصر فوق التل لا يُغطيه من الثلج إلا القليل وتبين أن القصر يتكوَّن من مجموعة من المباني التي تُوشك أن تكون مدينة صغيرة، وأن له برجًا واحدًا لا يعلم الناظر إليه هل هو برج كنيسة أو مسكن. ثم أطال النظر فتبيَّن أن القصر الذي كان في البداية يظنُّه منيفًا رائعًا لا يزيد عن أن يكون مدينة بائسة من الحجر الهشِّ الذي يتساقط فُتاته ويفقد طلاءه. وتذكر ك بلدته فلم تكن تَقِلُّ تقريبًا عن هذا القصر المزعوم. — وتبيَّن ك حوالَيه في القرية كنيسة ومدرسة، والتقى بمُدرِّس حاول أن يتكلَّم معه عن القصر والجراف، ولكن المُدرِّس لفَتَ نظر ك إلى وجود أطفال أبرياء بجانبهما لا يصحُّ الخوض في هذا الأمر على مسمَع منهم! وسار ك يُحاول أن يصل إلى القصر، ولكنه أحس بالتعب يتملَّكه فجأة. وتبيَّن أن الطريق إلى القصر لا تصل إليه، وإن كانت تصل إلى مكان قريب منه، وأنها مع ذلك طويلة طولًا لا نهاية له. وانحرَف ك عن طريق القصر واتَّجه إلى بيوت القرية، ودخل أحدها فوجَد رجلَين يستحمان في حوضٍ كبيرٍ، وأطفالًا يلعبون ونساءً يَغسلن ورأى امرأة باهتة اللون شاحبة علم أنها تتَّصل بالقصر، أو على حدِّ تعبيره «بنت من القصر»، وأخذه النُّعاس هناك، فلما أفاق قيل له إن عليه أن ينصرف، فخرج. وقابَلَ رجلين مُتشابهَين كل التشابُه علم منهما أنهما مُساعداه، عيَّنهما الديوان له، على الرغم من أنه كان ينتظِر وصول مُساعدَيه الحقيقيَّين ومعهما أجهزة المساحة. واضطرَّ إلى قبول هذَين المساعدَين، وعلم منهما أن الإنسان لا ينبغي له أن يطأ القصر إلَّا بتصريح، وكلَّفهما بالسعي للحصول على تصريح له فأبلغاه بأن القصر يرفض، وحاول هو أن يتَّصل تليفونيًّا بالقصر فلم يَفهم شيئًا. ثم التقى ك بشابٍّ اسمه برناباس علم منه أنه يعمل ساعيًا بين القرية والقصر، وأنه يحمل إليه رسالة من رئيس الإدارة العاشرة واسمه كلم، يُبلغه فيها بأن عليه أن يتَّصل برئيس القرية ليعرف منه تفصيلات مهمَّته، ويُبلغه فيه بأن برناباس وُضع تحت تصرُّفه ليكون همزة الوصل بينه وبين الديوان. وسار ك مُعتمدًا على ذراع برناباس ليتحدَّث معه في أمر الخطاب والرد عليه، وطال السير حتى وصل الاثنان إلى بيت برناباس ورأى ك هناك والدَي برناباس وأختَيه أماليا وأولجا. وما إن تبيَّن ك أن بيت برناباس لا يتَّصل بالقصر حتى

غضب وأراد الانصراف، وانتهز فرصة ذهاب أولجا إلى الحان لإحضار شيء من البيرة، فرافَقَها إلى هناك. ولم يكن هذا الحان هو حان الجسر الذي نزَلَ به في الليلة الماضية، والذي أعطوه به حجرة الخادمة لينام بها حتى يَصدر قرار بشأنه. كان هذا الحان الجديد هو حان السادة. وعلم ك من صاحب حان السادة أن المبيت به مقصور على السادة الذين يَنزلون من القصر إلى القرية، وأن مبيته فيه ضرب من المستحيل. ورأى ك كيف أحاط الخدم بأولجا واسترسلوا معها في الرقص والعبث. وتعرف ك في قاعة الشراب أو خمارة الحان بفريدا خادمة الشراب التي جذبَت انتباهه إليها بنظرتها التي عبَّرت بها عن تفوُّقٍ شديدٍ. وعلم منها أنها عشيقة كلم، وأنها تستطيع أن تُتيح له إمكانية النظر إليه. وبالفعل رفعت سدادة بالباب ونظر ك من خلال ثقب فرأى رجلًا جالسًا: إنه كلم! واتَّفق ك مع فريدا على أن تُمكِّنه من المبيت هنا. وكانت ليلة ارتبط فيها قلباهما بالحب. لقد امتلَك ك فريدا وأصبح يعتقد أنه يمتلك كل شيء بامتلاكه إيَّاها، وكان يعتقد فوق ذلك أنه كسب من كلم شيئًا عظيمًا بالغ العظَمة. وكان على فريدا أن تترك عملها في حان السادة وأن تتبع ك إلى مقرِّه في حان الجسر. وسار الاثنان إلى هناك، وكان المُساعدان يتبعانهما خطوة خطوة ولا يَرضيا بمفارقتهما لحظة، حتى وصلا إلى داخل الحجرة فلم يخرُجا منها. كان ك يغلظ لهما ويرجو التخلُّص منهما أو على الأقل إبعادهما عن ملاحقته حيثما ذهب، وكانت فريدا تَرفق بهما وتحنو عليهما. ومهما يكن من أمر فقد أصاب ك بعض الراحة وأصبح يستطيع التفكير في الذهاب إلى رئيس القرية ليَعرف منه تفصيلات عمله. ولكنه كان في الوقت نفسه، وربما بالدرجة الأولى، مهتمًّا بسبر أغوار القصر ومعرفة حقيقة كلم، وقد جرى بين ك وبين صاحبة حان الجسر حديث طويل حول هذه الموضوعات من ناحية، وحول علاقته بفريدا من ناحية ثانية. والرأي عند صاحبة الحان أن ك أضرَّ بفريدا ضررًا بليغًا بإبعادها عن كلم، وأنه ارتكب حماقة بشعة بذهابه إلى بيت برناباس، وأنه يسعى سعيًا سخيفًا للقاء كلم ولدخول القصر، وأنه قبل هذا كله جاهل شديد الجهل، جاهل على نحو لا سبيل إلى إصلاحه.

وذهب ك إلى رئيس مجلس القرية فوجده مريضًا يُلازم الفراش، وجرى بين الاثنين حديث طويل عن نظام عمل الدواوين وكيف يُمكن أن يحدث أن يُستَدعَى إلى القرية موظَّف مساحة لا حاجة للقرية به، وكان رئيس القرية يخشى أن يُسبب شرحه المطول لروتين الحكومة الجرافية المَلل لمحدِّثه، وكان ك على العكس يجد حديث رئيس القرية مُسلِّيًا. وكيف يمكن ألا تكون القرية بحاجة إلى ك موظفًا للمساحة وقد تلقَّى خطابًا من

كلم اعتبره تأكيدًا لتعيينه في هذا المنصب؟ ولكن رئيس القرية يرى أن هذا الخطاب خطاب خاصٌّ ليست له الصفة الرسمية، وأن ك يستطيع الرحيل إن شاء. ولكن ك رفض الرحيل، وأصرَّ على نيل حقِّه، وكيف يمكنه العودة إلى بلده هكذا وقد خابت رحلته، وتبدَّدت آماله، وضاع ماله، واستحال عليه العثور على عمل مُماثل وارتبط هنا بفتاة وعدها بالزواج؟ وانصرف ك غاضبًا. وما إن وصل إلى الحان حتى تبيَّن أن صاحبة الحان قد قرَّرت طرده من حانها، وأنها اضطُرَّت إلى ملازمة الفراش من فرط ثورتها عليه. فذهب إليها ليُهدئها ودار بينهما حديثٌ طويلٌ، قصَّت في خلاله على ك قصة زواجها وحصولها على الحان، وارتباط هذا كله بكلم الذي كانت عشيقة له، وصِلاتها الكثيرة بأصحاب الحل والربط، ووعدت ك بأن تُحاول توصيل طلبه محادثة كلم بشرط أن يَعِدها هو بألَّا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه. وعندما عاد ك إلى حجرته وجد فريدا مع المُعلم الذي جاء ليبلغ ك بأن رئيس القرية يخشى أن يقوم ك بعمل مُتهوِّر، ولذلك فهو يعرض عليه أن يقبل وظيفة خادم المدرسة حتى تُقرِّر الدواوين الأميرية شيئًا نهائيًّا في مسألته. ورفض ك العرض ثائرًا عليه، ولكنه اضطُرَّ في النهاية إلى قبوله مؤقتًا لأنه يُتيح لفريدا وله مكانًا يسكنان فيه، ومصدرًا للرزق. ولم يكن مكان السكن الجديد سوى حُجرة من حجرتين تتكوَّن منهما المدرسة، سيَسمح لفريدا وك بالنوم فيها ليلًا، على أن يُخلياها مُبكِّرَين قبل حضور التلاميذ. وترك ك فريدا والمُساعدَين وهم يتأهَّبون للانتقال إلى المدرسة، وذهب هو يحاول الالتقاء بكلم. ذهب إلى حان السادة. وهناك بحث عن الثقب الذي كان قد رأى كلم من خلاله بالأمس فلم يَعثر له على أثر. والتقى بيبيي خادمة الخمارة التي خلَفَت فريدا، ودار بينهما حديث علم منه أن كلم ليس بالحجرة، فليست هذه حجرته، وأنه يُوشك على الرحيل الآن بالزحَّافة. وأسرع ك إلى الخارج، وذهب إلى الفناء المغطَّى بالثلوج، ورأى زحَّافة تقف فيه ورأى الحوذي وتكلم معه، وعلم منه أنه يستطيع التسلُّل إلى الزحافة واستخراج زجاجة كونياك منها لكي يشرب منها جرعة، ويشرب منها الحوذي كذلك. ودفع البرد ك إلى قبول النصيحة وركب الزحافة ونَعِم بما فيها من دفء ورفاهية، وشرب شيئًا من الكونياك اشتدَّت به أوصاله. وفوجئ ك بالنور يُضاء ورجل يأتي. ولكن هذا الرجل لم يكن كلم. ودار بين ك وبين هذا الرجل حديثٌ علم منه أنه لن يلتقي بكلم بحال من الأحوال، سواء انتظر أم لم ينتظر. وأصر ك على الانتظار، فأمر الرجل الحوذي بأن يُعيد الزحافة والحصانين إلى الإسطبل. وأيقن ك من أن انتظاره لن يُؤدي إلى نتيجة، فعاد أدراجه إلى الحان وجلس في قاعة الشراب. وهناك سمع صوت انطلاق الزحافة، لقد رحل كلم بعد

أن زالت العوائق من طريقه ونظَّفوا الفناء من آثار الأقدام التي كانت قد ارتسمت فيه. وجاء إليه رجل اسمه مومُوس قدَّم نفسه على أنه سكرتير كلم في القرية، وطلب إليه أن يأتي ليَستجوِبه، فرفض ك رفضًا قاطعًا على الرغم من أن صاحبة الحان — التي كانت حاضرة — نصَحَته بالقبول، فلا يصل شيء إلى كلم إلَّا عن طريق سكرتيره. وقابل ك على الباب وهو يتأهَّب للانصراف، صاحب الحان الذي لامَهُ على أنه لم يقبل أنه يستجوبه مومُوس.

وخرج ك ليذهب إلى المدرسة. وقابل في الطريق المساعدَين ثم برناباس الذي جاء إليه بخطاب من كلم. وفتَحَه ك فوجد أن كلم يتوجَّه إليه بالشكر على ما تمَّ من أعمال الساحة ويحثُّه على أن تصل الأعمال إلى نهايتها المرجوَّة. ودهش ك لمضمون الخطاب؛ فهو أكثر الناس علمًا بأنه لم يَقُم بشيءٍ يمتُّ إلى المساحة بصلة. وتوقَّع ك أن يكون في الأمر خطأ، ورجا برناباس أن يبلغ السيد المدير ردًّا على خطابه التماسه بالمُثول بين يدَيه ولو لفترةٍ صغيرةٍ جدًّا. وسار ك طريقَه إلى المدرسة بين حانق على برناباس لأنه في تصوُّره لا يقوم بالعمل على ما يَنبغي، ومُستميل له لأنه على أية حال الصِّلة الوحيدة بينه وبين القصر. ووجد ك فريدا في المدرسة وقد أعدَّت في أحد الفصلَين مكانًا لسُكناهما، وكان الفصل يحتوي على أجهزة الرياضة البدنية. وتناول ك وفريدا معًا طعام العشاء ولم يكن يُنغِّص على ك راحته شيء أكثر من وجود المُساعدَين معهما والتصاقهما بهما، ومُضايقتهما لهما. ولكن ك لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا للتخلُّص منهما، وكان ينظر بدهشة إلى حنوِّ فريدا عليهما. وحان وقت النوم، وكانت الحجرة باردةً برودة لا سبيل إلى احتمالها، فحطَّم ك مخزن المدرسة بالبلطة وأخرج منه خشب الوقود وأوقد به المدفأة، وتمدَّد وصاحبته على جوال مملوء بالقش، وكلَّف المساعدَين التناوب على ملاحظة المدفأة حتى لا تنطفئ وتبرد الحجرة في هذا الشتاء القارس. وهكذا انقضت الليلة لم يعكر هدوءها إلا مرور قطة على فريدا أثناء نومها، فصحت مفزوعة وقامت تبحث عنها فانتهز أحد المساعدين الفرصة وتمدد مكانها على جوال القش ولم يَبرحه إلَّا بعد أن نَهَرَهُ ك. فلما أصبح الصباح تواتَرَت مُشكلات هذه الحياة المؤقتة التي لا تقوم على مقومات صحيحة. فقد أتى التلاميذ مُبكِّرين على عادتهم، ولكن المدرسة لم تكن قد تهيَّأت بعدُ لبدء الدراسة؛ فلم تتمَّ أعمال النظافة، ولم يحدث شيء من ترتيب، وهذا فصل من الفصلين قد تحوَّل إلى حجرة نوم لا يصحو مَن فيها! وكانت المعلمة جيزا غاضبةً لأنَّ قطتها أُصِيبت بجرحٍ — ربما على أثر معركتها بالليل مع فريدا — ولم يهدأ غضبها إلا بعد أن تكفَّل ك وفريدا بالعناية بالقطة الجريحة،

وكان المُعلم ثائرًا لاضطراب حال المدرسة. وانتهى الأمر بالمعلم إلى فصل ك من العمل، ولكن ك رفض الفصل، فجمع المُعلم التلاميذ جميعًا في الحجرة الأخرى، ونصَح ك بأن يُفكر فيما يفعل وألا يَسترسل في الحماقات. وبدأ ك يُدبر أموره، ففصل المساعدَين اللذَين كان سخطه عليهما قد تجاوز كل حدٍّ، وطارَدَهما ما استطاع، وتركهما خارج المدرسة يقفان وسط الثلوج المتراكمة. وتبين ك أن فريدا حزينة، وأنها بين آسفة على ترك عملها في الحان وساعية إلى دفعه إلى أن يتركا هذا المكان الصعب ويُهاجِرا إلى جنوب فرنسا أو إسبانيا. ولكن ك كان مُصممًا على البقاء. وقرع الباب بعضهم، فظنه ك أنه برناباس أتى إليه بردٍّ من كلم. ولكن القادم لم يكن برناباس بل كان صبيًّا من صبية المدرسة صعب عليه ما حدث فأتى ليواسي ك. واكتشف ك أن هذا الصبي هو ابن المرأة الواهنة التي كان ك قد رآها في يومه الأول بالقرية، والتي قيل له إنها بنت من القصر، وحاول ك بشتى الطرق المُلتوية أن يحمل الصبي على تدبير مقابلة بينه وبين هذه المرأة حتى تُمكنه من الاتصال بالقصر، فاستجاب الصبي ووعده بأن يحاول. واشتد غضب فريدا من ك، واتهمَته بأنه يتجاهلها، وبأنه يدَّعي أنه يريد الوصول إلى كلم وهو في الحقيقة يُخفي نوايا خبيثة. ودافع ك عن نفسه ما استطاع وخرج يلتمس برناباس، وذهب إلى بيته على الرغم من تحذير فريدا إيَّاه من آل برناباس. وكان ك في الحقيقة يريد أن يسأل سؤالًا واحدًا ويَنصرف، ولكنه لبث الساعات يتحدث مع أولجا أخت برناباس التي فتحت قلبها وقصَّت عليه قصة الأسرة والمصيبة التي حلَّت بها.

كانت الأسرة تتمتَّع بسمعة طيبة في القرية، وكان الناس يُحبُّون أفرادها ويحترمونهم، حتى أقامت القرية احتفالًا بفرقة المطافئ حضره أحد مُوظَّفي القصر واسمه سورتيني، وما إن رأى أماليا أخت برناباس الأخرى حتى تعلَّق بها أشد التعلق، وأرسل إليها في الليلة نفسها إلى البيت خادمه محمَّلًا بخطابٍ بذيء يطلب إليها أن تأتي إليه في حان السادة. فغضبت أماليا لكرامتها ومزَّقت الخطاب وألقته في وجه الخادم. وانتشر الخبر في القرية. ولم يكن الخبر الذي انتشر هو دفاع أماليا عن كرامتها وشرفها، بل كان تجاسرها على إهانة خادم سورتيني وسورتيني نفسه لسبب ما لم يكن هناك من يُريد أن يعرفه أو يهتم له. وأصبحت القرية ترى في فعلة أماليا بشاعة لا قِبَل لأحد بها، فانصرف الناس عن أماليا وذويها، وبارت تجارة الأب وتدهورت حالة الأسرة. وحاول الأب أن يتَّصل بالقصر ليُصلح الأمر وليشكو من الظلم ولكنه خسر ماله وصحته ولم يصل إلى شيء. وأخيرًا فكَّرت أولجا في أن تحلَّ المشكلة بطريقتها، فاستسلمت لخدم القصر الذين ينزلون مع

السادة إلى القرية ويُقيمون في حظيرة حان السادة. وتمكَّنت أولجا من الوصول ببرناباس إلى العمل في القصر ساعيًا ليسَت له صفة رسمية؛ فهو يقف في الدواوين الساعات وربما الأيام حتى يجد رسالة يحملها إلى القرية، وكان الخطاب الذي حمَلَه إلى ك هو أول عمل يُكلَّف به. وبينما أولجا وك يتحدَّثان ويتناقشان ويتبادلان الآراء، دقَّ بعضهم الباب فنظرت أولجا وتبيَّنت أنه أحد المساعدين. وتناول ك الخطاب وخرج من الباب الخلفي عبر الحديقة وتسلَّق الجدار ليفاجئ الرجل ويضربه. ولكنه لم يضربه بل دخل معه في حديث فهم منه أن المساعد الآخر قد ذهب إلى القصر ليشكو من أن ك لا يفهم المزاح، ولقد كانت المهمة التي كلَّفهما بها القصر هي مصاحبة ك وتسليته. وعلم ك من هذا المساعد، واسمه يريمياس، أنه التحق بالعمل خادمًا في حان السادة، وأن فريدا كذلك قد تركت المدرسة وعادت إلى عملها في الخمارة، فلم تَعُد تحتمل خيانة ك وذهابه إلى بيت آل برناباس واتصاله بالبنتَين الفاجرتَين. واتجه ك من فوره إلى حان السادة وهو يظنُّ أنه سيتمكَّن من إصلاح ما فسد من أمره مع فريدا. وفي الطريق التقى ببرناباس الذي أبلغه أن السيد أرلانجر، أحد سكرتيرَي كلم الأوائل، يُريد مقابلته، وأنه ينتظره في حجرته بالحان.

واتجه ك إلى الممر الذي تُطلُّ عليه غرف السادة، وهي غرف كثيرة مُتشابهة لا يستطيع الإنسان أن يُميز الواحدة عن الأخرى. وأشار الخادم الذي رافقه إلى هناك إلى واحدة منها، وقال إنها حجرة أرلانجر، وحضَّه على الانتظار حتى يصحو أرلانجر من النوم ويستدعيَه لاستجوابه. وانتظر ك. وبينما ك ينتظر هناك رأى فريدا تحمل صينية فاتجه إليها، وتكلم معها محاولًا إعادة المياه إلى مجاريها، ولكن فريدا أصرَّت على اتهامه بخيانتها وإلى قطع كل صِلة قامت بينهما، وتركته وذهبت إلى حجرتها التي كانت تقيم فيها مع يريمياس. وعاد ك إلى غرف السادة وحاوَل التعرُّف على حجرة أرلانجر فلم يستطع، ولم يكن هناك من يستطيع إرشاده إليها. ففكَّر في أن يفتح أي غرفة وينظر هل أرلانجر بداخلها. فإن لم يجده فقد يجد من يستطيع إرشاده. وساقته هذه الحيلة إلى حجرة سكرتير آخر هو السكرتير بورجل الذي دعاه للدخول، وأجلسه على حافة السرير وأخذ يتحدث معه عن الديوان وعن أعمال الموظَّفين وكيف تجري حتى استبدَّ التعب بـ ك واستغرق في نوم عميق. وصحا ك على صوت يناديه. كان أرلانجر في الحجرة المجاورة وعلم بوجود ك، فطلبه إليه ليتحدث إليه بسرعة قبل أن يَنصرف؛ فقد أزف موعد انطلاقه إلى القصر. وأسرع ك إليه فأبلغه أرلانجر بأن علاقته بفريدا قد تسبَّبت في تركها العمل في الخمارة وقد أدى هذا إلى

شيء من الارتباك الذي ربما أثر على كلم، ولهذا كان من الضروري أن تعود فريدا إلى عملها على الفور. وانصرف أرلانجر. ووقف ك في الممر يرقب توزيع الملفات على غرف الموظفين، وكانت عملية تتمُّ في صعوبة بالغة لأن غرف الموظفين ظلَّت مغلقة أو شبه مُغلقة، وكان الخادم المُكلَّف بالتوزيع لا يستطيع لهذا السبب التفاهم مع الموظَّفين في أمر الملفات التي تخصُّهم. وفجأة دق جرس هناك دقًّا عاليًا مستمرًّا وأتى صاحب الحان وزوجته مُهرولَين وكأن كارثة حلَّت. وتبيَّن ك أن وجوده في هذا المكان في هذا الوقت هو الذي تسبَّب في كل هذه التعقيدات، فلم يكن الموظَّفون يحتملون رؤية شخص مثله في مطلع النهار! واقتيد ك إلى الخمارة حيث قضى الليلة نائمًا على لوحٍ من الخشب. وفي الصباح جرى بينه وبين بيبي حديث طويل عن الفرق بينها وبين فريدا، وعن المِحنة التي تردَّت هي إليها إذ ارتقَت إلى خادمة خمارة ثم انحطَّت بعد ذلك من جديد. إلى مرتبة خادمة حُجرات، وكان رأيها أن ك هو السبب في ذلك. ومهما يكن من أمر فقد جمعت الظروف السيئة بينهما، فما أشبه ما يحدث له بما يجري عليها! واقترحت بيبي على ك أن يأتي خفية إلى حُجرة الخادمات ويعيش معهنَّ دون أن يراه أحد، فإذا جاء الربيع وشاع الدفء وعثر ك على مكان أفضل فله إن شاء أن يغادر حجرة الخادمات، ووضَّحت له أنه بذلك لا يفقد حريته، كل ما سيكون عليه هو أن يختبئ عن الأعين وأن يطيع الخادمات في كل أمر. فلما سأل ك عن الربيع وموعده أجابت بيبي بأن الشتاء في القرية طويل طولًا مُسرفًا، ولكن الربيع سيأتي يومًا ما، فلكلِّ فصلٍ موعده الذي يحلُّ فيه. وشرحت بيبي لـ ك مكان الباب الموصِّل إلى حجرة الخادمات واتفقت معه على الدقات التي ينبغي عليه أن يدقَّها حتى يعرفنه. وأتت صاحبة الحان فجأةً وقطعت عليهما الحديث، وتحدَّثت هي مع ك ثم اصطحبته إلى حجرة ملابسها ليرى الثياب الكثيرة التي تمتلكها لعله يتراجَع عن الفكرة التي تظنُّ أنه قد كوَّنها عن هندامها. لقد كان على ما يبدو يتصور أنها لا تُحسن اختيار ثيابها، فإذا به يتبين أنها مغرمة بالثياب لا تَشبع منها. وصحَّح ك الفكرة قائلًا إنه لم يُقلَّ من شأن هندامها، بل ذهب إلى أنها ليست صاحبة حان فقط، فصاحبة الحان لا شأنَ لها بهذه الثياب، ثم اشتد في التعبير فقال إنه يعني أنها تكذب. وكان ردها عليه أنه كذلك يكذب، فهو ليس مجرَّد موظَّف مساحة. وتنتهي الصفحات التي وصلتنا من الرواية بحكم صاحبة الحان على ك بأنه: إما مجنون أو طفل أو إنسان شرير جدًّا، خطير جدًّا.

حول «القصر»

تشترك هذه الرواية مع كثير من أعمال كافكا في أنها نُشرت بعد وفاته اعتمادًا على مخطوطات لم يكن قد أعدها للنشر، بل ولم يكن يعتقد أنها تَصلُح للنشر على حالتها؛ فقد كانت مُفكَّكة لم يُحدِّد تتابعًا لفصولها ... وكانت تتضمن الكثير من المُحاوَلات في الموضع الواحد ... وكانت تشتمل على فقرات كثيرة مشطوبة ... وكانت مكتوبة في أجزاء كثيرة منها باختزالٍ خاصٍّ. ولكن الرواية كُتِب لها البقاء في أجزاء مطبوعة لأول مرة في عام ١٩٢٦م. وتوالت الطبعات بعد ذلك وقد أضيفت إليها زيادات قال الناشر إنها من المخطوط. ولا تزال الشكوك قائمة إلى الآن حول الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الرواية، وإن كان من المستبعَد أن يكون النص قد تناوله تحريفٌ كبيرٌ.

والمعروف أن هذه الرواية نشأت في الفترة بين عام ١٩٢١ و١٩٢٢م. وكان كافكا قد تعرَّف في عام ١٩٢٠م بميلينا يزينسكا، ابنة أستاذ في جامعة براغ، وزوجة طالب — هو ارنست بولاك — لا يَفرغ من دراسته أبدًا. وكانت ميلينا شخصية فريدة، عميقة الفهم، مُرهَفة الحس، ميَّالة إلى المبالغة وتحطيم القيود؛ فقد ثارت على أبيها فحبَسها في مصحَّة فهرَبَت إلى فيينا، وسارت في طريقها مستقلَّة تفعل ما يحلو لها ... وعلى الرغم من أنها كانت مُتزوجة من ارنست بولاك فقد كانت تسعى إلى الحب الجنوني ولا تجد فيه عيبًا. وعلى الرغم من أن كافكا مال إليها وأحبَّها، فقد سعى إلى ردِّها وكان مريضًا بالسُّل وكان يَكبُرها بسنواتٍ كثيرة (هو ٣٨ وهي ٢٥)، وكان يعرف أنه شخصية صعبة كثيرة الشكوى. ولكنه في الوقت نفسه يعرف أنه لن يستطيع الاستغناء عنها فقد أصبحت له. واستمرت العلاقة بينهما وإن ظلَّت في أغلب الأحوال قاصرة على المراسَلات، ويبدو أنها أثَّرت على فكره وإبداعه تأثيرًا كبيرًا. وكانت هي من أقدر الناس على سبر أغواره، وهي التي قالت مستحضرة حاله: «إن الأمر ليَبدُو كأننا قادرون على الحياة، لأنَّنا لُذنا ذات مرة بالكذب أو العمى أو الحماس أو الاقتناع أو التشاؤم أو غير ذلك. ولكنه هو لم يَلُذ قطُّ بملجأ واقٍ، فهو لا يستطيع مطلقًا أن يكذب، تمامًا كما أنه لا يستطيع أن يسكر. إنه يفتقر إلى الملجأ والمأوى. ولهذا فهو يتعرَّض لكلِّ ما نحن بمنأى عنه، مثل العريان بين المستورِين ... إن وجوده وجود محتوم في أصله وجوهره، وهو يَفتقر إلى كل العناصر التي كان يُمكنها أن تُعينه على تصوير الحياة على نحو ما جميلًا كان أو بائسًا ... وهو زاهد زهدًا عاريًا عن البطولة ... إن البطولة في نظره كذب وجبن ... إنه ليس إنسانًا يتخذ الزهد وسيلة إلى هدف، بل هو إنسان اضطرته شفافيته الفظيعة ونقاوته وعجزه عن قبول الحلول الوسط

إلى الزهد ... إنه على ما أعرف لا يرفض الحياة، بل يرفض هذا النوع من الحياة.» ويبدو أن الزهد الذي تتحدَّث عنه ميلينا زهد من نوع الزهد الصيني الذي نقرأ عنه في «الطريق والفضيلة».[٢]

وفي أواخر العام سافر كافكا إلى مصحة المصدُورين في مالتياري في جبال تاترا العليا (بتشيكوسلوفاكيا) وظل بها عدة أشهر يَلتمِس الشفاء من مرضه الخطير. وكانت حالته المعنوية سيئة تضطرب بين اليأس والخوف، إلا من إشراقات عابرة قليلة. وعاد كافكا إلى براغ في سبتمبر ١٩٢١م دون أن يفيد من المصحة شيئًا، ودون أن تُعينه الإجازة على استجماع نفسه. ولكنه لم يكُفَّ عن الكتابة. حتى كانت بداية عام ١٩٢٢م فشرع يكتب رواية «القصر» ليُعبِّر بها عن ذات نفسه، — وكانت في بداية الأمر رواية ذاتية تبدأ بـ «أنا»، ثم حوَّلها إلى صيغة الغائب بعد ذلك — وليُعبِّر بها عن مجموعة من مشكلات الإنسان عامة، وإنسان عصرنا هذا خاصةً. كان كافكا قد وصل في تأمُّلاته الذاتية إلى أنه أفسد حياته وأضنى بدنه ولم يَصِل إلى شيء، وكان يكيل اللوم لنفسه قبل أن يصبَّ غضبه على المؤثِّرات الخارجية. فها هو ذا يُسجِّل في يومياته: «... لقد لاح لي الأمر كأنني أوتيت مركز دائرة مثلي في ذلك مثل كل إنسان آخر، وكأنَّني أوتيت نصف القطر الموصِّل إلى المركز، مثلي في ذلك مثل كل إنسان آخر، حتى أسير عليه ثم أخط المُحيط الجميل لتكتمل دائرتي حولي. ولكنَّني كنتُ دائمًا لا أبدأ الخطو على نصف قُطر إلا لأقطعه وأبدأ على غيره ... حتى لم يَعُد هناك مكان لمُحاولة جديدة، لم يَعُد هناك مكان بسبب الشيخوخة وضعف الأعصاب، وإن العجز عن المحاولة من جديد ليُساوي النهاية. وأصبحت لا أتقدم خطوة على نصف قطر إلَّا لتسوء حالتي بدلًا من أن تتحسَّن ...» ولعلَّه صنع موظَّف المساحة في القصر شاكلته، فجعله إنسانًا يكثر المحاولة ويُنوعها ولا يصل في النهاية إلى هدف.

أما إنَّ فرانتس كافكا صنع الرواية من حياته فأمر تشهَد عليه العناصر المكوِّنة للمشاهد الرئيسية في «القصر». منظر القرية في القاع والقصر على الربوة العالية، منظر رآه كافكا في تسيراو عام ١٩١٧م ... منظر الدواوين وما يجري فيها منظر عرفه ك في عمله سواء في المحاكم أو في مؤسسة التأمين ... منظر حان السادة اقتبسه كافكا من حانة كان بعض الأدباء يَرتادُونها في فيينا، وكانوا يُسمُّونها فيما بينهم حانة الفاجرات ... ومنظر الثلوج والكنيسة والحديقة وغيرها كثير. وكذلك الشخصيات التي رسمها في الرواية نقَلَها

[٢] انظر الطريق والفضيلة، ترجمة دكتور عبد الغفار مكاوي، سلسلة الألف كتاب.

على طريقته عن شخصيات عرفها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ارنست بولاك ... فيليتسه باور ... ميلينا يزينسكا ... ولكن هذه العناصر الواقعية كانت تتحوَّل على يدَيه إلى عناصر تتجاذَبها المُتناقضات ويُحيط بها التناقُض والغموض.

وعكَف كافكا على الكتابة عندما سافر إلى شبيندلموله في فبراير سنة ١٩٢٢م، فأتمَّ في أربعة أسابيع جزءًا وفيرًا منها، ثم تناولها بعد ذلك عندما عاد إلى براغ، واستمر يكتب حتى شهر يونيو، وأخذها معه إلى بلانا ولوشنيتس ليكملها، فكتب وكتب ثم توقف في سبتمبر ولم يَعُد إليها بعد ذلك.

ويختلف النقَّاد اختلافًا كبيرًا في تفسير رواية «القصر» في مجموعها، ويختلفون اختلافًا أقل في تفسير عناصرها.

فهناك مَن ذهب إلى أن هذه الرواية عمل فني لا يقصد إلى شيء آخر سوى الفن، ولهذا لا محلَّ فيها للأفكار الفلسفية أو المضامين الصوفية أو المفاهيم الاجتماعية. ويرى هذا الفريق من النقَّاد أن كافكا ابتكر هذا النوع من التأليف الفني الذي يقوم على تحويل الأحلام إلى كلام، وأن القارئ يُصيب إذا فهم الرواية على أنها حلم أو مجموعة من الأحلام، ويُخطئ إذا حملها غير ذلك.

وهناك من ذهب إلى أن كافكا أراد أن يُبيِّن بأعماله الأدبية حدود التفكير الإنساني، ويُبيِّن النقطة التي ينتهي فيها المعقول ويبدأ اللامعقول، فهو يَعرض بهذا مشكلة أساسية من المشكلات التي يُعاني منها الإنسان عندما يتورط لسبب أو آخر في الخلط بين المعقول واللامعقول، أو يَضطرِب بصره فلا يُميز بين الاثنين.

وهناك مَن تصور أن كافكا يُريد أن يصور حيرة الإنسان الذي تهفو نفسه إلى المنَّة الإلهية، فهو ينظر إليها في عليائها، ويتطلَّع إليها في أفقِها البعيد، ويُجرِّب كل سبيل يعرض له علَّه أن يصلَ إليها، ولكنه يتورَّط في الخطأ المرة بعد المرة، وينساق تارةً إلى هذه الناحية وتارةً إلى تلك، فلا يقترب من المنَّة، بل يغوص في أعماق الحضيض، وقد يهلك فيه، وقد تُتاح له فرصة حياة هي أدنى حياة.

وهناك مَن أبرز عنصر النقد الاجتماعي فرأى أن كافكا يُصور السادة في القصر المنيف العالي والعامة في القرية المنخفضة البائسة والبلدة يستبدُّون بالأمر كله، ويفعلون بالناس ما يحلوا لهم، ويعتمدون في ذلك على أجهزة خبيثة، وموظَّفين لئام، والعامة يُعانون من الظلم والتجبُّر ويفقدون في المِحنة كل شيء، وقد تفسد ضمائر بعضهم في هذا الجو القاتم فيصطنع لنفسه شيئًا من السلطان يُؤذي به مواطنيه الأبرياء.

وليس هناك شك في أن هذه الدراسات النقدية باتجاهاتها المختلفة قد ألقَت الضوء على جوانب أدب كافكا فاتَّضح منه الكثير، وهو أدب رمزي يحتاج إلى كثير من الجهد للوصول إلى فهمِه لكي يرتاح له الإنسان. والسؤال الأساسي الذي تقوم على إجابته كل محاولة لتفسير الرواية هو: مَن هو كلم؟ ويَرتبط بهذا السؤال سؤال آخر هو: من هو ك؟

كلم رمز اتخذه كافكا ليعبر به عن «مقومات الحياة». إنه ذلك الشيء الذي لا يحتاج الإنسان بالضرورة إلى علمٍ أو حرفةٍ للوصول إليه، فربما وصَل إليه أناس لم يُكلفوا أنفسهم مشقَّة التفكير الكثير، والتعمق في أسرار الكون وغوامض البشر. وليس هذا الشيء واحدًا بالنسبة للناس جميعًا، ولكنه جوهري لا يكون للإنسان كيان بين الناس إلا به. فهذه صاحبة الحان تحلم بكلم أو تعشقه، وبعبارة مجرَّدة من الرمزية، تحلم بمُقومات حياتها، وتجدها في زوج مطيع لها مُنضوٍ لإرادتها، وحان تقوم على تدبيره وتحسن أمره. وصاحبة الحان امرأة بسيطة، وكافكا يرمز إلى بساطتها بالصورة الباهتة التي تحتفظ بها وتحرص عليها، والتي لا تُمثل كلم، بل تمثل الساعي الذي كان الصلة بين كلم وبينها. فهي إذن لم تَرتفع إلى ذلك المستوى الفكري الذي يبحث في مقومات الحياة وكنهها، ويكفيها أنها أحاطت بها على نحو ما، وأن تتحقَّق بها.

أما ك فإنسان أتى إلى مجتمع قائم بحسناته وسيئاته، بميزاته وعيوبه، ليحاول في ستة أيام أن يقيم لنفسه حياة فيه. (والستة أيام رمزٌ استقاه كافكا من قصة الخليقة المعروفة في الأديان السماوية كلها: إنها المدة التي يتكوَّن فيها الكون. والخادمة بيبي، وهي بنت بسيطة ما زالت تسعى لتحقيق مقوِّمات حياة لها في المجتمع، تشير إلى هذه الفترة. فقد سنحت لها فرصة محببة إلى نفسها، وهي فرصة العمل في قاعة الشراب، ولكنها لم تؤتَ الأيام الستة كاملة لتتم فيها بناء كيانها، ولهذا فشلت وعادت أدراجها). أتى ك إذن إلى المجتمع القائم ليعيش فيه. ولكنه أخذ يُحلِّق بفكره إلى آفاق عالية لم يؤتَ القدرة على التحليق فيها. لقد أتى ليعمل موظفًا للمساحة، ثم تبيَّن أن القرية لا تحتاج إليه، فما باله يبقى ويصمم على البقاء؟ وما هي هذه القوة التي يعتمد عليها ليفرض نفسه؟ لقد ذكروا له الأسباب المعقولة التي تجعل من تعيين موظَّف مساحة بها ضربًا من السخف، فهي صغيرة وأهلها لا يتنازعون على حدود ممتلكاتهم. ولكنه كان قد بدأ يُعمِل فكره للتعمق في مقومات الحياة في هذه القرية، فهو يسأل عن الجراف (الأمير)، وعن الديوان، وهو يفرض نفسه بهيئته الحالمة المُتأملة الغريبة على البسطاء الذين لم يألفوا هذا النوع من الناس. إنه يَندفع إلى نوع من السلوك لا طاقة له به: فهو إنسانٌ ضعيفُ البنية سريع التعب، يغلب

عليه النعاس، ويعجز عن المشي، ويكاد يعتمد على الغير ... وهو يُظهر ما لا يُبطن ويُضمر في نفسه ما لا قبل لأحد على معرفته ... وهو عنيد بغير إرادة ... وهو مُكابر ينقض كل رأي، ويدَّعي أنه يعرف كل شيء وهو لا يعرف شيئًا. ولهذا فهو يتورط في الخطأ بعد الخطأ ويضل طريقه، فبدلًا من أن يندفع إلى هدفه مباشرةً يسلك السبل المتطرفة فيحاول غواية فريدا، ويحاول اصطياد كلم في الفناء، ويحاول الوصول بطُرقٍ مُلتوية إلى بنت القصر، ويحاول استغلال أسرة برناباس.

ولكن الرواية تحتمل تأويلات أخرى فنحن لا نعرف ك قبل وصوله إلى القرية، وربما كانت تصرُّفاته المضطربة في القرية نتيجة للظروف السيئة التي تعرض لها. ومهما يكن من أمر ك ومن أمر شخصيته المُضطربة، فإن فساد الأحوال في القرية، وتعسُّف السادة في حكمها يظهران في الصورة التي يرسمها كافكا في الرواية على نحو يثير النفس ويحضُّ على الثورة. فهذا هو أحد السادة على سبيل المثال يعجب بواحدة من بنات الشعب في القرية فلا يتورَّع عن دعوتها إلى الفجور، فلما امتنعَت وأهانت ساعيَه تعرَّضت للضُّر الشديد هي وأسرتها، وتجاهَلَ الناس المشكلة الحقيقية ونظروا إلى المشكلة الفرعية الثانوية وحدها، وما كانت إلا دفاعًا مشروعًا عن النفس. إلى هذا الحد وصل استبداد أهل القصر بأهل القرية. ولقد حاول الوالد أن يردَّ الحق إلى نصابه، وجرَّب الاتصال بأولي الشأن في الديوان ذي القوانين واللوائح فضاع في متاهاته، وخسر صحته وماله، واضطرت البنت الشريفة إلى الصمت يقينًا منها بأنه إذا لم يكن وراء السعي نفعٌ فمن الفِطنة أن يركن الإنسان إلى السكوت، أما البنت الأخرى فقد هَوَت إلى طريق الفجور تريد أن تصل عن طريقه إلى ردِّ شرف الأسرة!

وإذا لم يكن كافكا في أعماله المختلفة يُحدد طريق النجاة الذي يتصوَّره، فإنما يرجع ذلك إلى أنه كان يؤثر أن يُلقي الأسئلة لتستغلَّ بها الأذهان وتحسن فهمها وتجد لها الحلول المناسبة، ويُؤثر أن يعبئ نفس القارئ بالثورة على الظلم والجهل والضلال. وكان كافكا بصفة عامة بعيدًا عن التيارات السياسية، ولكنه كان ينظر إلى تقدُّم الاشتراكية في العالم راضيًا. ولقد روى بعض أصدقائه عنه تعليقًا على الاشتراكية السوفييتية قال فيه: «إن الناس في روسيا يُحاولون إقامة عالم تسُوده العدالة الكاملة.»

وفي عام ١٩٦٣م انعقد في قصر ليبليس قرب ميلنك بتشيكوسلوفاكيا مؤتمر هام لدراسة كافكا وأعماله ومكانته ومكانتها في البلاد الاشتراكية، وكانت أكاديمية العلوم التشيكية هي الداعية إليه. وقدَّم المشتركون دراسات مُختلفة عبَّروا بها عن آرائهم وعن أثر

أدب كافكا في الأعمال الطليعية في العالم المعاصر كله؛ فقد كان طليعة للحرية على طريقته الضاحكة الباكية. وكان من رأي ارنست فيشر، المفكر النمساوي الاشتراكي المعروف، أن كافكا كان يميل إلى تأويل الأشياء المرهونة بعامل الزمن تأويلًا ميتافيزيقيًّا، وإلى تجميد اللحظة التاريخية لتصبح بالنسبة للإنسان حالة دائمة، ولكن استطراده الجدلي من كل إجابة إلى سؤال جديد، ومن كل قضية إلى نقيضِها كان يُحطم هذا التجميد على الدوام.

دكتور مصطفى ماهر

الأسماء الواردة بالرواية

كلم: Klamm

جيرشتيكر: Gerstäcker

فريدا: Frida

أرلانجر: Erlanger

بيبي: Pepi

أرتور: Artur

شفارتسر: Scharzer

يريمياس: Jeremias

برناباس: Barnabas

سورتيني: Sortini

جاردينا: Gardena

سورديني: Sordini

هانس: Hans

بورجل: Bürgel

موموس: Momus

فيسفيست: Westwest

فلابينه: Vallabene

فريتس: Fritz

برونسفيك: Brunswick

فريدريش: Friedrich

أماليا: Amalia

أوسفالد: Oswarld

لازيمان: Laseman

بارتماير: Bartmeier

أوتو: Otto

هنريته: Henriette

جيزا: Gisa

إيميليه: Emilie

أولجا: Olga

الفصل الأول

كان الوقت ليلًا عندما وصل ك. كانت القرية غارقةً في ثلوج كثيفة، ولم يكن الناظر إلى التلِّ الذي يقوم عليه القصر يرى شيئًا؛ فقد كان الضباب والظلام يحيطان به كل الإحاطة، ولم يكن هناك شعاعٌ من نور، ولو خافت، يُظهر شيئًا من ملامح القصر الكبير. ووقف ك طويلًا على الجسر الخشبي الذي يصل من الطريق الزراعية إلى القرية، ورفع بصره إلى أعلى ناظرًا إلى فراغٍ ما هو بفراغ.

ثم سار يبحثُ عن مكان يَأوي إليه في الليل. لم يكن الناس في الحان قد انصرفوا للنوم بعدُ. ولم يكن لدى صاحب الحان حجرة يُؤجره إيَّاها، ولكنه قد دهش واضطرب لمقدم الضيف في هذا الوقت المتأخِّر، عرض على ك أن ينام على جوال قش في قاعة الحان. ووافق ك. كان هناك بعض الفلاحين يحتسون البيرة، ولكن ك لم يشأ أن يذهب ليتسامَرَ معهم، وأحضر بنفسه جوال القشِّ من حجرة الخزين فوق السطح، وتمدَّد عليها قرب المدفأة. كان الجو دافئًا، وكان الفلاحون ساكنين، فتفحَّصهم قليلًا بعينيه المُتعبتين، ثم نام.

وبعد قليل أيقظه بعضهم. وكان هذا الذي أيقظه شابًّا يرتدي ملابس أهل المدن، وجهُه يُشبه أوجه المُمثلين، وعيناه ضيقتان، وحاجباه كثَّان، وكان يقف مع صاحب الحان بجواره. وكان الفلاحون لا يزالون هناك، وكان بعضُهم قد أداروا كراسيهم حتى يروا ويسمعوا على نحو أفضل. واعتذر الشاب بأدبٍ جمٍّ لإيقاظه ك، وقدَّم نفسه إليه على أنه ابن المُشرف على القصر ثم قال: إن هذه القرية ملك القصر، ومن يسكن هنا أو يَقضي ليلته، فهو كمن يسكن أو يقضي ليلته في القصر. وما ينبغي لأحد أن يفعل هذا بدون تصريح من الجراف.[1] أما أنت فليس لديك مثل هذا التصريح أو أنت، على الأقل، لم تُقدِّم هذا التصريح.

[1] لقب من ألقاب الأمراء والنبلاء. (المترجم)

وكان ك قد همَّ بالقعود، ومسح على شعره ليُسوِّيَه، ونظر إلى الرجلَين من أسفل إلى أعلى وقال: ما هي هذه القرية التي ضللتُ السبيل إليها؟ وهل هنا قصر؟

فقال الشاب ببطءٍ بينما أخذ الرجال يهزُّون رءوسهم دهشةً لما فعله ك: طبعًا هنا قصر، قصر السيد الجراف فيستفيست.

وسأل ك وكأنما أراد أن يتأكَّد من أن المعلومات السابقة ليست أضغاث أحلام: وعلى الإنسان أن يحصل على تصريح بقضاء الليلة؟

وكانت الإجابة: لا بد من الحصول على التصريح.

وانصبَّت السخرية على ك شديدة عندما مدَّ الشاب ذراعه وسأل صاحب الحان والجالسين هناك: أم هل ينبغي ألَّا يحصل الإنسان على التصريح؟

وقال ك مُتثائبًا يُبعد الغطاء عن جسمه وكأنه يريد أن يقف: إذن سيكون عليَّ أن أحصل على التصريح.

فسأل الشاب: وممَّن يا تُرَى؟

فقال ك: من السيد الجراف. فلم يَعُد هناك مفرٌّ من ذلك.

فصاح الشابُّ وتراجع إلى الوراء خطوة: الآن، عند مُنتصف الليل، تريد أن تحصل على التصريح من السيد الجراف؟

فسأل ك بفتور: أليس هذا ممكنًا؟ فلماذا أيقظتني إذن؟

وهنا ثار الشاب ثورةً فقد فيها التحكم في أعصابه: يا لها من أخلاق الرعاع! إنني أُطالبك باحترام حكومة الجراف. لقد أيقظتك لأبلغك بأنه ينبغي عليك أن تغادر أراضي الجراف على الفور.

وقال ك بصوتٍ منخفضٍ انخفاضًا واضحًا: كفى مهازل!

ورقد وسحب الغطاء على جسمه وأضاف: إنك أيها الشاب تُبالغ. وسيكون لي غدًا كلام في كيفية تصرُّفك حيالي. وصاحب الحان، والسادة هناك شهود، إذا كنت سأحتاج إلى شهود. ودعني أقول لك إنني مُوظَّف المساحة الذي استقدمه الجراف. وسيأتي مُساعداي غدًا بالعربة ومعهما الأجهزة. ولقد سبقتهما لأنني أحببت ألا تضيع مني فرصة السير في وسط الثلوج. ولكنَّني ضللت الطريق عدة مرات، ووصلت لهذا السبب متأخرًا. أما إن الوقت متأخِّر لا يُناسب الذهاب إلى القصر والإبلاغ بمُقدمي، فهو ما كنت أعرفه بمُفردي، ودون ما حاجة إلى تعليم منك. ولهذا اكتفَيت راضيًا بهذا المخدع، الذي أبَت عليك وقاحتك — وهذه أخفُّ عبارة يُمكنني استعمالها — إلا أن تقضَّه. وبهذا أختم بياناتي، تُصبحون على خير، يا حضرات السادة.

واتجه ك إلى المدفأة. وسمع وراءه من يتساءل في تردُّدٍ: موظَّف المساحة؟

ثم ساد سكون شامل. ولكن الشاب عاد فتمالك نفسه، وقال لصاحب الحان بصوتٍ مكتومٍ، يمكن القول بأنه كتمه مراعاةً لـ ك، مسموع لا يصعب عليه الإلمام به وفهمه: سأسأل تليفونيًّا.

كيف ذلك؟ هل هناك تليفون في الحان في هذه القرية؟ لقد كانوا مُجهَّزين تجهيزًا ممتازًا. كانت التفصيلات تُثير عجب ك ولكنه كان قد توقَّع بطبيعة الحال أن تكون الأمور في مجموعها على هذا النحو. وتبيَّن ك أن التليفون مركب فوق رأسه تقريبًا، ولعله لم يَلتفِت إلى ذلك من قبل لأنَّ النعاس كان يغلبه. وإذا كان على الشاب أن يتَّصل تليفونيًّا فإنه لن يستطيع ذلك دون أن يقلق نوم ك، وهكذا أصبح الأمر رهنًا بـ ك هل يتركه يستعمل التليفون أم يمنعه، وقرر ك أن يسمح بذلك. ولم يكن هناك، والحال هذه، معنى لتصنُّع النوم، ولهذا عاد يَرقُد على ظهره. ورأى الفلاحين يَنكمشُون في رهبة ويتناقشُون، فلم يكن وصول موظَّف المساحة بالشيء الهيِّن. وكان باب المطبخ قد انفتح وملأت زوجة صاحب الحان بجسمها الضخم فتحة الباب، واقترب منها صاحب الحان على أطراف أصابعه ليُبلِّغها. ثم بدأت المكالمة التليفونية. كان مُدير القصر نائمًا، ولكن وكيل القصر، أو على الأحرى أحد وكلائها، رجلٌ اسمه السيد فريتس، موجودًا. وحكى الشاب، الذي ذكر أن اسمه هو شفارتسر، كيف وجد ك، ووصفه بأنه في الثلاثينيات، وأنه يَرتدي الأسمال البالية، وينام على جوال قش، ويضع رأسه على حقيبة ضئيلة من النوع الذي يُحمَل على الظهر، ويضع عصًا ذات عقد على مقربة من يمناه حيث رقد. وقال إنه أثار الشُّبهة بطبيعة الحال، ولما كان صاحب الحان قد أهمل واجبه إهمالًا جليًّا، فإنه وجد أن من واجبه هو، أي واجب شفارتسر، أن يُحقِّق في الأمر تحقيقًا دقيقًا. وقال إن ك تلقى عملية الإيقاظ من النوم، والاستجواب، والتهديد الواجب بالطرد من أراضي الجراف، مغيظًا، ربما بحق، كما اتضح في النهاية، عندما ذكر أنه موظَّف المساحة الذي استقدمه السيد الجراف. وقال إن الواجب الشكلي يفرض بطبيعة الحال على الأقل التحقيق في هذا الادعاء، ولهذا فإن شفارتسر يرجو السيد فريتس أن يستعلم من الإدارة هل تنتظر بالفعل مَقدم موظَّف مساحة، وأن يبلغه بالإجابة على الفور تليفونيًّا.

ثم ساد سكون. كان فريتس يستعلم هناك، وكان من هنا في انتظار الإجابة. وبقي ك في الوضع الذي اتخذه، فلم يتحرَّك أدنى حركة، ولم يَبدُ عليه الفضول، بل كان ينظر أمامه. ولقد أعطته رواية شفارتسر، بما اختلَط فيها من شر وحيطة، صورة عن التكوين

الدبلوماسي الذي أوتي إيَّاه حتى الصغار من أمثال شفارتسر في القصر. كذلك تبيَّن أن إدارة القصر لا تفتقر إلى النشاط، يدلُّ على ذلك أنها تعمل بالليل كذلك وتجيب على ما يبدو بسرعة. فها هو ذا فريتس يدقُّ التليفون. ويبدو أن كلامه كان قصيرًا جدًّا؛ لأن شفارتسر ألقى السماعة مغضبًا ثائرًا وصاح قائلًا: هذا هو ما قلته. ليس هناك أصل على الإطلاق لموضوع موظف مساحة، إنه صعلوك دنيء كذَّاب، ويبدو أنه أشد خطرًا.

وفكر ك لحظة، وتصور أن الجميع، شفارتسر، والفلاحين، وصاحب الحان، وزوجة صاحب الحان، سينقضُّون عليه. وزحف تحت الغطاء منكمشًا ليتفادَى الهجمة الأولى على الأقل. وعاد التليفون يدقُّ من جديد، ويدق — على ما لاح لـ ك — بقوة تفُوق المألوف. وأخرج ك رأسه ببطء. وعلى الرغم من أنه كان من المستبعد أن يكون لهذا الرنين علاقة بموضوع ك، فإنَّ الجميع تسمروا في أماكنهم، وعاد شفارتسر إلى التليفون. وسمع شفارتسر في التليفون بيانًا مُفصلًا مسهبًا قال بعده بصوتٍ منخفضٍ: إنه خطأ إذن؟ هذا شيء يُؤسفني جدًّا. تقول إن مدير المكتب اتصل بنفسه؟ شيء عجيب، شيء عجيب. وكيف يمكنني أن أشرح ذلك للسيد موظَّف المساحة؟

وأرهف ك السمع. إذن لقد عيَّنه القصر موظفًا للمساحة. ولقد كان هذا الخبر من ناحية في غير صالحه؛ لأنه يدل على أنهم في القصر يعرفون عنه كل ما ينبغي معرفته، وأنهم قدَّروا إمكانياته وبدءوا النضال باسِمين، ولكنه كان من ناحية أخرى في صالحه؛ لأنه يُؤكِّد، في رأيه، أنهم لا يحفلون به، وأنه سينعم من الحرية بأكثر مما كان يرجو في بادئ الأمر. وإذا كانوا قد ظنوا أنهم يستطيعون، بما يعرفونه عنه وعن عمله في المساحة — وهي معرفة تُعطيهم بكل تأكيد تفوقًا فكريًّا عليه — أن يُنزلوا الرعب به بصفة مستمرة، فإنهم واهمون، كل ما حدث أن شيئًا من الفزع حلَّ به بسهولة.

وأشار ك إلى شفارتسر الذي كان يقترب منه خجلًا أن يبتعد، ورفض الامتثال لإلحاحه عليه بأن ينتقل إلى حجرة صاحب الحان. ولكنه قَبِل شرابًا منوِّمًا من صاحب الحان، وقَبِلَ من صاحبة الحان طستًا وصابونًا ومنشفة، ولم تكن به حاجة إلى أن يُطالب بإخلاء المكان ممن فيه؛ لأن الرجال اندفعوا خارجين مشيحين بوجوههم حتى لا يكون في مقدورِه أن يتعرَّف عليهم في الغد. وأُطفئ المصباح، ونعم ك أخيرًا بالهدوء. ونام نومًا عميقًا حتى الصباح لم يعكر عليه راحته إلَّا حفيف بعض الفيران مرة أو مرتين على مقربة منه، ولكنه لم يكن أمرًا ذا بال.

وبعد أن تناول ك إفطاره، الذي دفع القصر ثمنه، كما تكفَّل بطعامه كله — على نحو ما علم من صاحب الحان — أراد أن يذهب من فوره إلى القرية. ولكن صاحب الحان،

الذي لم يكن ك — نتيجةً لتصرفه بالأمس — قد تكلَّم معه إلا أقل القليل، كان يحوم حوله برجاءٍ صامت، فأشفق عليه، وسمح له أن يجلس إليه هنيهة.

وقال ك: أنا لم أتعرَّف على الجراف بعد، ولقد سمعت أنه يدفع أجرًا جيدًا للعمل الجيد، فهل هذا صحيح؟ فإن الإنسان، مثلي، عندما يرحل بعيدًا عن الزوجة والولد، يرجو أن يعود بشيء إلى الدار.

وردَّ صاحب الحان قائلًا: ما ينبغي يا سيدي أن تخشى شيئًا من هذه الناحية، فلم نسمع من أحد شكاية من سوء الأجر.

فقال ك: ثم أنا لست من الذين يخجلون، ويمكنني أن أقول رأيي حتى للجراف، وإن كان من الأفضل بطبيعة الحال أن ينهي الإنسان أموره مع السادة وديًّا.

كان صاحب الحان يجلس في مواجهة ك على حافة مسطبة النافذة، فلم يجرؤ على الجلوس جلسة يرتاح فيها أكثر من ذلك، وكان ينظر إلى ك بعينَين واسعتين دَكناوَين خائفتين. وكان في بداية الأمر يقترب من ك اقترابًا شديدًا، وإذا به يبدو كأنه يرجو لو استطاع أن يجري. هل كان يخاف أن يسأله ك عن الجراف؟ هل كان يشكُّ في إخلاص السيد — فقد كان يعتبر ك سيدًا؟ وكان على ك أن يُسرِّي عنه وأن يُلهيه، فنظر إلى الساعة وقال: سيأتي مساعداي عما قريب، فهل سيكون في مقدورك أن تهيِّئ لهما مكانًا للنوم هنا؟

فقال: بكل تأكيد يا سيدي، ولكن ألن ينزلا معك في القصر؟

هل هكذا يُضيِّع بهذه السهولة، وبهذا الرضا، النزلاء الذين يعرضون له، وبخاصة ك الذي أكد له أن مكانه القصر لا محالة؟

وقال ك: لم يتأكَّد هذا حتى الآن، ولا بد أن أرى أولًا العمل الذي ينتظرني. فإذا كان عليَّ أن أعمل هنا أسفل التل، فسيكون الأصوب أن نُقيم هنا. هذا إلى أنني أخشى ألا تروق لي الحياة في القصر فوق التل. إنني أريد أن أكون دائمًا حرًّا.

فقال صاحب الحان بصوت مُنخفِض: أنت لا تعرف القصر.

فقال ك: هذا صحيح، وما ينبغي على الإنسان أن يتسرَّع في الحكم. وأنا لا أعرف حتى الآن عن القصر إلا أنَّ من به عرفوا كيف يختارون العليم بالمساحة. وربما كانت هناك ميزات أخرى.

ونهض ليَخلص منه صاحب الحان الذي كان يعض شفتيه من فرط القلق. لم يكن من السهل اكتساب ثِقة هذا الرجل.

وبينما ك يهم بالانصراف لفتت انتباهه صورة داكنة في إطار داكن معلَّقة على الحائط. وكان ك قد لَمَحَها من مرقده، ولم يميز من البُعد تفصيلاتها، وظن أن الصورة قد نُزعت من الإطار، وأن ما تراه العين هو الظهر الأسود. ولكنها كانت، كما تبين الآن، صورة نصفية لرجل في نحو الخمسين من عمره. وكان الرجل يخفض رأسه على صدره على نحوٍ شديدٍ لم يكَد يكون من الممكن معه أن يرى الناظر شيئًا من عينيه، وبدا أن السبب الحاسم لخفض الرأس هو الجبهة المرتفعة الثقيلة والأنف الكبير المُلتوي لأسفل. وكانت اللحية الكثَّة، التي انضغطت في الذقن نتيجة لوضع الرأس، تبدو مُبتعدة إلى أسفل. وكانت اليد اليسرى تندسُّ، وقد تباعدت أصابعها، في شعره الكثيف، ولم يَعُد يستطيع أن يرفع رأسه.

وسأل ك: مَن هذا؟ هل هو الجراف؟

ووقف أمام الصورة ولم يَلتفت حوله لينظر إلى صاحب الحان.

وقال صاحب الحان: لا إنه ليس الجراف، إنه مدير القصر.

وقال ك: إن لكم لمديرًا جميلًا في القصر، هذه حقيقة. ولكن من المؤسف أن يكون له ابن سيِّئ الخلق.

فقال صاحب الحان: لا.

وجذب ك إلى أسفل قليلًا وهمس في أذنه: لقد كان شفارتسر بالأمس يبالغ، فليس أبوه سوى وكيل القصر، بل أحد صغار الوكلاء.

وفي هذه اللحظة ظن ك صاحب الحان طفلًا. وقال ك ضاحكًا: النذل!

ولكن صاحب الحان لم يشترك معه في الضحك، بل قال: ولكن أباه أيضًا ذو سلطان.

فقال ك: هكذا! إنك تظن أن كل شخص ذو سلطان! فهل تراك تظنني ذا سلطان؟

فقال في خجلٍ ولكن بجد: أنت، أنا لا أعتبرك ذا سلطان.

فقال ك: إذن فأنت تعرف كيف تُحسن الملاحظة. فالحقيقة — وهذا كلام بيني وبينك — إنني لستُ ذا سلطان. ويبدو أنني أُكِنُّ لذوي السلطان من الاحترام ما لا يقلُّ عما تكن أنت لهم، ولكنني لست صريحًا مثلك ولا أعترف بذلك دائمًا.

وربَّت ك على خَدِّ صاحب الحان برفق ليواسيه وليجتذب ميله إليه. فابتسم قليلًا. لقد كان فعلًا صبيًّا بوجهه الناعم الذي يوشك ألا يكون له لون. كيف تزوَّج بهذه المرأة العريضة، المُسنَّة التي يراها الإنسان وراء الطاقة المجاورة تعمل في المطبخ وقد تباعد مرفقاها عن جسمها؟ ولكن ك لم يشأ أن يستمر الآن في سبر أغواره، ولم يشأ أن يُضيِّع الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه في النهاية، واكتفى بأن أعطاه إشارة أن يفتح له الباب، وخرج إلى الصباح الشتوي الجميل.

ورأى فوق التلِّ المرتفِع القصرَ واضح المعالم في الجوِّ الصافي، يزيده وضوحًا ذلك الثلج الذي تراكَم في كل مكان وكوَّن طبقة رقيقة، وعكَس كل أشكالها. ولقد بدا أنَّ ما فوق التلِّ من ثلجٍ أقل بكثير مما في القرية، حيث وجَد ك صعوبة في السير لا تقلُّ عن الصعوبة التي لقيَها بالأمس على الطريق الزراعية. كان الثلج هنا يصل إلى نوافذ الأكواخ ويثقل فوق الأسطح المنخفِضة، أما فوق التل فكانت الأشياء كلها تبرز منطلقة وخفيفة، أو كانت على الأقل تبدو كذلك لمن يتطلَّع إليها من هنا.

وكان القصر — على قدر ما بدا من هنا — يُوافق في مجموعه ما توقعه ك ولم يكن بناءً جيدًا منيفًا، بل كان منشأة ممتدَّة الأطراف تتكون من مبانٍ قليلة من دورين وأخرى كثيرة متقاربة تقاربًا شديدًا. ولو لم يكن الإنسان يعرف من قبل أنها قصر لظنَّها مدينة صغيرة. ورأى ك برجًا واحدًا، ولم يتبيَّن هل هو برج كنيسة، أو برج مسكن. وكانت هناك أسراب من الغربان تحوم حوله.

وتقدَّم ك مُوجهًا عينَيه شطر القصر لا يهتم بشيء سواه. ولكنه عندما اقترب خيَّب القصر توقعاته، فلم يكن سوى مدينة صغيرة بائسة أشد البؤس، تتكوَّن من بيوت قروية، تتميز بميزة واحدة هي أنها تكاد تكون كلها من الحجر. ولكن الطلاء كان قد زال منذ زمنٍ بعيدٍ، وبدأ الحجر هنا يتفتَّت. وتذكر ك عابرًا مدينته الصغيرة، فلم تكن تقلُّ في شيء تقريبًا عن هذا القصر المزعوم. ولو كان ك قد أتى إلى هنا لمشاهَدة هذا القصر فحسب، لكانت رحلته جهدًا يُرثى له، ولكان الأصوب أن يزور وطنه القديم الذي طال غيابه عنه. وأخذ ك يقارن بين برج الكنيسة في بلده وبين البرج الذي فوق التل. كان ذلك البرج، يتجه بلا تردد إلى أعلى مستقيمًا مُتصابيًا، عريض السطح، منتهيًا بالقرميد الأحمر، بناءً دنونيًّا بكل تأكيد — وهل يُمكن أن يكون غير ذلك — ولكنه كان ذا هدف أسمى من عامة البيوت المنخفضة، وتعبيرًا أصفى من التعبير العادي العكر. كان البرج هنا فوق التل — البرج الوحيد الظاهر — برج مبنًى سكني كما اتَّضح لـ ك، ربما برج القصر الرئيسية — بناءً مستديرًا رتيبًا يُغطيه في بعض أجزائه اللبلاب حانيًا عليه، له نوافذ صغيرة، كانت في هذا الوقت تُرسل أشعة وضاحة، وكان في ذلك شيء من الجنون. وكان البناء ينتهي من أعلى بسطح جدرانه مُسنَّنة تندس بشكل مضطرب مرتبك مُفتَّت كأنما رسمتها يد طفل مُهملة أو مرتاعة، وكانت هذه الأطراف المسنَّنة تندسُّ في السماء الزرقاء. وكان الناظر يحسُّ كأنما أراد أحد السكان المُختلين أن يحبس نفسه في أبعد حجرة بالبيت، فخرق السطح، ونهض ليظهر أمام العالم.

ووقَف ك ساكنًا مرة أخرى، وكأنما كانت قدرته على الحكم تزداد عندما يقف. ولكن شيئًا عكَّر عليه سكونه. فقد كانت هناك مدرسة، خلف كنيسة القرية التي وقف بجانبها — والحقيقة أنها كانت كنيسة صغيرة وسَّعوها على هيئة الشونة لتتسع للجمهور الغفير. كانت تلك المدرسة بناءً طويلًا منخفضًا يجمع على نحوٍ عجيبٍ بين صفة البناء المؤقَّت والبناء القديم العتيق، وكانت تقع وراء حديقة مسوَّرة تحوَّلت الآن إلى مساحة من الثلوج. وفي هذا الوقت خرج منها الأولاد مع مُدرِّسهم. وكانوا يحيطون بالمدرِّس في مجموعة متزاحمة وكانت عيونهم مركزة عليه وكانوا يُثرثرون من كل ناحية فلا يكفُّون عن الثرثرة. ولم يفهم ك شيئًا من كلامهم السريع على الإطلاق. ولمح المدرس ك من بعيد، ولقد كان ك على أيَّة حال الإنسان الوحيد عدا مجموعة التلاميذ في تلك المنطقة الواسعة المترامية الأطراف، وكان المُدرِّس شابًّا في مُقتبل العمر قصيرًا، ضيق الكتفَين وإن لم يبدُ لذلك مشيرًا للضحك. وبدأ ك — لأنه كان غريبًا — بتحية الرجل القصير الذي كان يتصنَّع السلطان.

فقال ك: صباح الخير، يا سيدي المدرس.

وسكت التلاميذ فجأة، ولعلَّ هذا السكون المفاجئ أعجب المدرس كتمهيده لكلماته. وسأل المدرس ك على نحو أكثر رقة مما كان يتوقع ولكن بنبرة تنم عن أنه لا يرضى عما فعل ك: أنت تتطلَّع إلى القصر؟

فأجاب ك: نعم. فأنا غريب على المكان لم أنزله إلا بالأمس.

فسأل المدرِّس مسرعًا: فالقصر لا يعجبك؟

فردَّ ك بسؤال وقد اندهش قليلًا: كيف هذا؟

ثم أعاد السؤال بصورةٍ مخفَّفةٍ: هل القصر يُعجبني؟ ولماذا تفترض أن القصر لا يعجبني؟

فقال المدرس: إنه لا يعجب الغرباء.

وحوَّل ك موضوع الحديث حتى لا يَنطق بشيء لا يلقى ترحيبًا، فسأل: لا شكَّ أنك تعرف الجراف؟

فقال المدرس: لا.

وأراد أن ينصرف. ولكن ك لم يتراجع وعاد يسأل: كيف هذا؟ ألا تعرف الجراف؟

فقال المدرس بصوتٍ مُنخفضٍ: وكيف لي أن أعرفه؟

ثم أضاف بصوتٍ مرتفعٍ باللغة الفرنسية: خذ في اعتبارك وجود أطفال أبرياء.

فاستقى ك من هذه العبارة حق توجيه هذا السؤال: هل يمكنني، يا سيدي المدرس أن أزورك؟ فسأبقى هنا مدة ليست بالقصيرة، ولقد بدأت منذ الآن أشعر بشيءٍ من العزلة، فأنا لا أنتمي إلى الفلاحين، ولا أنتمي بطبيعة الحال كذلك إلى القصر.

فقال المدرس: ليس هناك فرق كبير بين الفلاحين والقصر.

فقال ك: ربما. ولكن هذا لا يُغير من وضعي شيئًا. هل يمكنني أن أزورك؟

فردَّ المدرس: أنا أسكن في حارة البجع عند الجزار.

كانت هذه العبارة أقرب إلى بيان العنوان منها إلى الدعوة، ومع ذلك فقد قال ك: حسن. سآتي.

وهزَّ المدرس رأسه واستأنف طريقه مع التلاميذ الذين عادوا إلى التصايُح. واختفوا بعد وقتٍ قليلٍ في حارة صغيرة منحدرة انحدارًا شديدًا.

كان ك مشتَّت الفكر، وكان الحديث قد أغضبه. وأحسَّ لأول مرة منذ وصوله بتعبٍ حقيقيٍّ. لم يكن قد أحس حتى الآن بأن الطريق الطويل قد أتعبه، ولقد سار على قدمَيه أيامًا، هادئًا، خطوة، خطوة. أما الآن فقد ظهرت عواقب الإجهاد المفرط، في وقت غير ملائم بطبيعة الحال. وأحسَّ دافعًا، لا سبيل إلى التغلُّب عليه، إلى التعرف على الجديد، ولكن كل معرفة جديدة كانت تزيد من تعبِه. وهو إذا استطاع اليوم في هذه الحالة أن يُجبر نفسه على الوصول بمسيرته على الأقل إلى مدخل القصر. فقد فعل أكثر ممَّا يطيق.

وهكذا استأنف السير: ولكن الطريق كان طويلًا. ولم يكن الطريق الرئيسي للقرية، يُؤدي إلى تل القصر نفسه، بل كان يؤدي إلى مكانٍ قريبٍ منه، ثم كان يَنحني — وكأنما كان ذلك عن قصد — وإن لم يكن يَبتعِد عن القصر، فلم يكن على أيَّة حال يقترب منه. وظل ك يتوقَّع أن ينتهي به الطريق إلى القصر، وظل لهذا السبب يستمر في السير، ويبدو أنه، نتيجةً لتعبه، تردَّد في ترك الطريق، وتعجَّب في الوقت نفسه لطول القرية طولًا لا ينتهي إلى نهاية. وتوالَت عليه البيوت الصغيرة، والنوافذ التي تكوَّنت طبقة من الثلج على زجاجها، والجليد، ووحشة المكان — وأخيرًا انتزع نفسه من هذا الطريق الذي استبدَّ به، وتلقَّفَته حارة صغيرة ضيقة، كان الجليد بها أكثر كثافة، وكان إخراج الأقدام بعد غوصها فيه عملًا صعبًا، وتصبَّب ك عرقًا، وفجأة وقف، ولم يستطع الاستمرار في السير.

ولم يكن ك وحيدًا في مكان مهجور، كانت هناك عن يمينه وشماله أكواخ الفلاحين. وتناوَل شيئًا من الجليد وصنع منه كرة ألقاها على إحدى النوافذ. فانفتح على التوِّ باب — كان هو أول باب يَنفتح طوال سيره في شارع القرية — وظهر فيه فلاح مسن، ودود،

ضعيف، يرتدي سترة من الفراء ويميل برأسه إلى ناحية. وقال ك: أتسمح لي بأن آتيَ إليكم قليلًا؟ إنني شديد التعب.

ولم يسمع ما قاله الرجل المسن، وتقبل شاكرًا اللوح الذي دفع به الرجل إليه وأنقَذَه به على الفور من الجليد، وما سار إلا بضع خطوات، حتى كان في الحجرة.

كانت تلك الحجرة حجرة واسعة خافتة الضوء، لا يُرَى الداخل فيها من الخارج في أول الأمر شيئًا. وترنَّح ك متعثرًا في إناء الغسيل، فامتدت إليه يد امرأة وسنَدته. وأتى من أحد الأركان صخبٌ شديدٌ يُصدره بعض الأولاد، وتصاعد من ركن آخر دخان يتلوَّى ويُحيل الضوء الخافت إلى ظلام دامس. ووقف ك وكأنه في وسط السحاب. وقال بعضهم: إنه سكران بطبيعة الحال.

– وصاح صوتٌ نبْرتُه نبرةُ أصوات السادة، والظاهر أنه كان موجهًا إلى الرجل المسن: مَن أنت؟ لماذا أدخلته هنا؟ أيصح أن يُدخِل الإنسان إلى هنا كلَّ شيء يجوس في الحواري؟

فقال ك: أنا موظَّف المساحة لدى الجراف.

وحاول على هذا النحو أن يدافع عن نفسه حيال أولئك الذين ظل حتى تلك اللحظة لا يراهم.

وقال صوت نسائي: آه، إنه موظَّف المساحة.

ثم أتت فترة سكون مُطبق. وسأل ك: أنت تعرفينني؟

وقال الصوت ملتزمًا بالإيجاز نفسه: مؤكَّد.

ولم يجد ك خيرًا في أن هناك من يعرفه.

وأخيرًا تبدَّد الدخان قليلًا، واستطاع ك أن يتبين الأمور شيئًا فشيئًا ويبدو أن اليوم كان يوم الغسيل المعتاد. فقد كان هناك بجوار الباب من يغسل. أما الدخان فكان يأتي من الركن الآخر، وكان فيه إناء خشبي كبير لم ير ك من قبل إناءً خشبيًّا في حجمه — كان في حجم سريرَين تقريبًا — يستحم في مائه الذي يتصاعَد بخاره رجلان. أما الركن الأيمن فكان أكثر مفاجأة، وإن لم يكن ك يعرف بدقة كُنهَ المفاجأة. كانت هناك فجوة كبيرة، هي الفجوة الوحيدة في الحائط الخلفي للحجرة، يدخل منها، على الأرجح من الفناء، ضوء جليدي باهت، يضفي على ثوب امرأة كانت تجلس في أقصى الركن على كرسي وثير مُرتفع، وواهنة وكأنها ترقُد، مسحة كأنها مسحة الحرير. وكانت المرأة تحمل رضيعًا إلى صدرها. وكان هناك بعض الأولاد، يدلُّ منظرهم على أنهم من أولاد الفلاحين، يلعبون حولها، أما هي فقد بدا عليها أنها ليسَت منهم؛ لأن المرض والضعف يُضفيان على الفلاحين بطبيعة الحال سمة الرقة.

وقال أحد الرجلين: اجلس.

كان هذا الرجل كث اللحية، وكان له علاوة على اللحية شارب، وكان يفتح من تحته فمه دائمًا لاهثًا ولا يقفله، وكان منظره يُثير الضحك، وأشار بيده من فوقه حافة الإناء الخشبي إلى خزانة هناك، ورشَّ في هذه الأثناء شيئًا من الماء الدافئ على وجه ك كله. وكان هناك من يجلس فوق الخزانة ناعسًا حالمًا، إنه الرجل المسن الذي أدخل ك. وكان ك راضيًا شاكرًا للسماح له بالجلوس. وها هو ذا يجلس ولا يهتمُّ به أحد. كانت المرأة المشتغلة بالغسيل، وهي امرأة شقراء الشعر، في ريعان الصبا، تُغني بصوت مُنخفِض أثناء العمل، وكان الرجلان في الحوض يضربان بأرجلهم ويتلويان، وكان الأولاد يريدون الاقتراب منهما، ولكنهما كانا يردانهم برش ماء كثيف عليهم، أما المرأة التي في الكرسي الوثير، فكانت ترقد كالميتة، ولم تكن حتى تنظر إلى الطفل الذي تحمله إلى صدرها، بل كانت تنظر نظرة غير محدَّدة إلى أعلى.

ولا بد أن ك تطلَّع طويلًا إليها، إلى هذه الصورة الجميلة الحزينة غير المتغيرة، ولا بد أنه استغرق بعد ذلك في النوم؛ لأنه عندما أفزعه صوت عالٍ من نومه، كان يركن رأسه على كتف الرجل العجوز بجواره. كان الرجلان قد فرغا من الاستحمام، وكان الأولاد. قد نزلوا في الحوض وأخذوا يعبثون فيه، والمرأة الشقراء تراقبهم. ووقف الرجلان يرتديان ملابسهما أمام ك. وتبيَّن أن الرجل ذا اللحية الكثة والصوت الصارخ هو أقل الرجلين شأنًا. ذلك أن الرجل الثاني، لم يكن أطول قامة من ذي اللحية الكثيفة، وكانت لحيته أخف بكثير من لحية الآخر، كان رجلًا هادئًا، ذا أناة في التفكير، وكان عريض البدن، عريض الوجه، وكان يُطأطئ رأسه. وقال: يا سيادة موظف المساحة، لا يمكن أن تبقى هنا. وأرجو ألا تؤاخذني على قلة الأدب هذه.

وقال ك: وأنا لا أريد أن أبقى، كل ما كنت أريده هو أن أرتاح. ولقد ارتحت، وسأنصرف الآن.

وقال الرجل: يبدو أنك تدهش لقلَّة إكرام الضيف، ولكن إكرام الضيف ليس من عادتنا، فنحن لسنا بحاجة إلى ضيوف.

وفرح ك بهذه الكلمات الصريحة، وكان النوم قد أنعشه قليلًا، وجعله أكثر قدرة على السمع من ذي قبل، وإذا هو الآن يتحرك بمزيد من الانطلاق، ويضع عصاه مرة هنا، ومرة هناك، ويقترب من المرأة في الكرسي الوثير، وكان ك أطول مَن بالحجرة قامةً.

وقال ك: مؤكَّد. فما حاجتكم إلى الضيف؟! ولكن الناس يحتاجون رغم ذلك من حين لآخر إلى ضيف، إلى، موظف المساحة. على سبيل المثال.

فقال الرجل بتُؤَدة: لا أعرف. وإذا كانوا قد استدعوك، فلا بد، على ما يبدو، أنهم يحتاجون إليك. وهذه حالة استثنائية. أما نحن، صغار الناس، فنتمسك بالقاعدة، وليس لك أن تؤاخذنا على ذلك.

فقال ك: لا. لا. بل أنا مدين لكم بالشكر، لكم وللجميع هنا.

واستدار ك فجأة، على غير انتظار من أي إنسان، وقفز قفزة فوقف أمام المرأة. ونظرت المرأة إلى ك بعينين واهنتين زرقاوين، وكان هناك منديل حريري شفاف يتدلى من فوق رأسها إلى منتصف جبينها، وكان الرضيع ينام على صدرها. وسأل ك: من أنت؟

وقالت وكأنها تقذف الإجابة قذفًا، ولم يكن واضحًا هل تصبُّ التحقير على ك أو على إجابتها هي: بنت من القصر.

حدث هذا كله في لحظة واحدة، وإذا بالرجلين يقفان، هذا إلى يمين ك وذاك إلى شماله، صامتَين، كأنَّما لم تكن هناك وسيلة أخرى للتفاهُم، وجراه بكل قوة إلى الباب. وفرح العجوز بشيء ما في هذا وصفَّق بيدَيه. وكذلك الغسالة ضحكت وهي عند الأولاد الذين أحدثوا فجأة صخبًا شديدًا كأنهم أصابهم جنون.

أما ك فكان قد وصل إلى الحارة، ووقف الرجلان بالباب يَرقُبانه. وكان الجليد قد عاد إلى السقوط، ومع ذلك فقد بدا كأن الضوء ازداد شيئًا من الوضوح. وصاح الرجل ذو اللحية الكثيفة وهو لا يُطيق صبرًا: إلى أين تريد الذهاب؟ هذا هو اتجاه القصر، وذاك اتجاه القرية.

ولم يُجِب ك عليه، بل اتجه إلى الآخر الذي لاحَ له على الرغم من تفوُّقه أسهل في المعاملة قائلًا: مَن أنت؟ إلى مَن أزجي شكري على الوقت الذي أمضيته هنا؟

وكانت الإجابة: أنا المعلِّم الدباغ لازيمان. وليس عليك أن تشكر أحدًا.

وقال ك: حسن. ولعلَّنا نلتقي مرة أخرى.

فقال الرجل: لا أظن.

وفي هذه اللحظة صاح الرجل ذو اللحية الكثيفة رافعًا يده: صباح الخير يا أرتور. صباح الخير يا يريمياس.

والتفَتَ ك خلفه. معنى هذا أنَّ هناك في هذه القرية أناس يظهرون في الحواري. كان هناك شابان يأتيان من ناحية القصر، كانا مُتوسِّطَي القامة، رشيقَين، يرتديان ملابس ضيقة، وكان وجهاهما كذلك مُتشابهين تشابهًا شديدًا. كانت بشرتهما بنية داكنة، وكانت لهما لحية مدبَّبة تبرز بسوادها الشديد فوق البشرة. وكانا يسيران على الرغم من أحوال

الطريق بسرعة تُثير الدهشة، ويحركان ساقيهما الرشيقتين بإيقاعٍ منتظمٍ. وصاح الرجل ذو اللحية الكثة: ماذا وراءكما؟

ولم يكن من الممكن التفاهم معهما إلا بالصياح؛ لأنهما كانا يسرعان ولا يتوقَّفان. وردا صائحين وهما يضحكان: عمل.

– أين؟

– في الحان.

وصاح ك فجأة بصوت أعلى من أصوات الآخرين جميعًا، فقد كانت حاجته كبيرة إلى أن يأخذه الرجلان معهما: وأنا كذلك ذاهب إلى هناك.

ولم يكن ك ينتظر الكثير من وراء التعرف عليهما، ولكنهما لاحا له رفيقَين طيبين يبثان فيه النشاط في الطريق. ولقد سمعا كلمات ك، وأومآ برأسَيهما ولكنهما مرَّا دون توقف.

كان ك لا يزال واقفًا في الجليد، لا يجد رغبة في رفع قدمه من الجليد، ليدسَّها بعد قليل في أعماقه. أما المعلم الدباغ ورفيقه، وقد فرحا بالتخلص من ك، فقد دفعا بنفسيهما، وهما لا يزالان ينظران خلفهما إلى ك، من خلال الباب المردود إلى داخل البيت شيئًا فشيئًا، وإذا ك يقف وحيدًا يحيط به الجليد من كل جانب. وخطر بباله: لولا وقوفي هنا مصادفةً، وليس عن عمدٍ، لكان ذلك داعيًا لشيء من اليأس.

وهنا انفتح في الكوخ ناحية اليسار شباك صغير جدًّا، كان لونه وهو مقفول أزرق شديد الزرقة، ربما نتيجة لشدة بياض الجليد، وكان ضئيلًا حتى وقت فتحه، لم يظهر وجه المُطلَّة كله، بل عيناها الدكناوان الشائختان. وسمع ك صوتًا نسائيًّا مرتعشًا يقول: إنه يقف هنا.

وقال صوت رجالي: إنه موظَّف المساحة.

ثم أقبل الرجل إلى النافذة وسأل على نحو ليس بالغليظ، وإن نمَّ عن أن الرجل مهتمٌّ بأن يكون كل شيء في الشارع أمام بيته على ما ينبغي له أن يكون: مَن تنتظر؟

فقال ك: إنني أنتظر زحافة أستقلها.

فقال الرجل: ليس هذا طريق مواصلات.

فقال ك مستنكرًا: ولكن هذا هو الطريق المؤدِّي إلى القصر.

فقال الرجل بشيء من صلابة الرأي: ومع ذلك، ورغم ذلك، فليس هذا طريق مواصلات.

ثم صمت الاثنان. ويبدو أن الرجل كان يُفكر في شيء؛ لأنه ظل فاتحًا الشباك الذي كان الدخان يتصاعد منه. وقال ك ليساعده: إنه طريق رديء.

فلم يَزِد عن أن قال: نعم، طبعًا.

ومع ذلك فقد قال بعد هنيهة: إن شئتَ أركبتُكَ زحافتي.

فقال ك فرحًا: أرجوك أن تفعل. ماذا تطلب ثمنًا لذلك؟

فقال الرجل: لا شيء.

وتعجَّب ك أشد التعجب. فأردف الرجل موضحًا: إنك موظف المساحة، وتنتمي إلى القصر. إلى أين تريد أن أنقلك بالزحافة؟

فقال ك على عجلٍ: إلى القصر.

فقال الرجل على الفور: إذن فلن أنقلك.

فقال ك معيدًا كلمات الرجل ذاتها: إنني أنتمي إلى القصر.

فقال الرجل في صدود.

– ربما.

فقال ك: إذن فخُذني إلى الحان.

فقال الرجل: حسن. سآتي حالًا بزحافتي.

ولم يكن كل هذا يحمل طابع الود، بل كان يبدو كنوع من السعي الأناني الخائف الذي يوشك أن يكون متزمِّتًا، لإبعاد ك عن المكان الذي وقف فيه أمام البيت.

وانفتح باب الفناء، وخرجت منه زحفة صغيرة لنقل الأحمال الصغيرة، زحافة مُنخفضة، بلا مقاعد، يجرها حصان ضعيف، وجاء خلفها رجل، مقوس الظهر، خائر القوة، يعرج، وكان وجهه نحيلًا، محتقنًا، مُصابًا بالبرد، وكان يبدو صغيرًا جدًّا من أثر الشال الصوفي الذي لفَّه الرجل لفًّا محكمًا حول رأسه. كان الرجل ظاهر المرض ولقد خرج خاصةً لينقل ك. وعبَّر ك عن هذا المعنى، ولكن الرجل ردَّه عن ذلك بإشارة من يده. ولم يعرف ك منه إلا أنه الحوزي جيرشتيكر، وأنه لم يختر هذه الزحافة المُتعِبة، إلا لأنها كانت جاهزة، ولو أراد أن يُخرج أخرى، لاحتاج إلى وقتٍ طويلٍ. وقال وهو يُشير بالسوط إلى مؤخر الزحافة: اجلس هنا.

فقال ك: بل سأجلس بجوارك.

فقال جيرشتيكر: سأسير أنا على قدماي.

فسأله ك: لماذا؟

فعاد جيرشتيكر يقول: سأسير أنا على قدماي.

وأصيب الرجل بنزلة سعال رجَّته رجًّا شديدًا اضطرَّ معه أن يثبت ساقَيه في الجليد وأن يعتمد بيدَيه على حافة الزحافة. فلم يقل ك شيئًا غير الذي قاله وجلس على مؤخر الزحافة، وهدأ ما أصاب الرجل من سعال شيئًا فشيئًا، وسارت الزحافة.

وها هو ذا القصر فوق التل، وقد احتواه في هذا الوقت المبكر ظلام عجيب، يَبتعِد مرة أخرى، وكان ك يرجو أن يصل إليه اليوم، فإذا هو الآن يُودعه، ويبدو أن الواجب كان يُحتِّم ألا يمر هذا الوداع المؤقَّت دون أية تضحية، فدوَّى هناك رنين ناقوس، يهتز ببهجة، ناقوس جعل القلب على الأقل للحظة ينتفض، وكأنما انتفض القلب لأنه يُهدده — ذلك أن هذا الرنين البهيج كان في الوقت نفسه رنينًا مؤلمًا — يُهدِّده بتحقيق ما كان يتوق إليه في غير اطمئنان. ثم سكت هذا الناقوس الكبير بعد قليل، وحلَّ محله ناقوس صغير ضعيف رتيب، لعله كان فوق التل، ولعله كان في القرية. وكان هذا الرنين يتَّفق على نحو أفضل بطبيعة الحال مع انزلاق الزحافة البطيء والحوزي الذي كان يثير الأسى ويمثل في الوقت نفسه الصلابة التي لا تلين.

وصاح ك فجأة: يا أنت!

كانا قد اقتربا من الكنيسة، ولم يَعُد الطريق إلى الحان بعيدًا، فسمح ك لنفسه بشيء من المخاطرة. وأردف ك يقول: إنَّني أدهش لأنك تجرؤ على السير بي هنا وهناك، على مسئوليتك فهل لك أن تفعل هذا؟

ولم يعبأ جيرشتيكر واستمر يخطو خطاه إلى جانب حصانه المسكين. وصاح ك: هيه.

وتناول شيئًا من الجليد من الزحافة وكوَّره وأصاب به جيرشتيكر في أذنه. وهنا وقف والتفَت خلفه، فلما رآه ك عن قربٍ شديدٍ — وكانت الزحافة قد تقدَّمت بعض الشيء — عندما رأى هذا الجسم المقوس، الذي حلَّ به الضُّر على نحو ما، وهذا الوجه الأحمر الواهن الناحل بخدَّيه اللذين يختلفان أحدهما عن الآخر على نحو ما، فهذا مُنبسِط وذاك أجوف، وفمه المفتوح الذي يعبر عن التنبُّه والإصغاء، والذي لم يَعُد به بضعة أسنان متفرقة، اضطر إلى أن يكرر العبارة التي قالها من قبل عن نية سيئة، ويُعيدها عن أسًى، متسائلًا هل يحتمل أن يعاقب جيرشتيكر لنقله ك بالزحافة. فسأله: ماذا تريد؟

سأل الرجل هذا السؤال على نحو ينمُّ عن عدم التفهم، ولم ينتظر تفسيرًا، بل صاح في الحصان أن يسير، واستأنفا طريقهما.

الفصل الثاني

عندما أوشكا على بلوغ الحان — وإنَّما تبيَّن ك ذلك من انحناء الطريق — كانت الدنيا، لدهشته، قد أظلمت كلَّ الظلمة. فهل غاب مدةً طويلة إلى هذا الحد؟ إنه لم يغبْ على قدر حسابه سوى ساعةٍ أو ساعتين، ولقد خرج من الحان في الصباح، ولم يشعر بحاجةٍ إلى الطعام، ولقد كان ضوء النهار يغمر الدنيا متسقًا منذ وقت قصير، وإذا به يستحيل إلى ظلمة حالكة. وقال ك في نفسه: أيام قصيرة! أيام قصيرة!

وانزلق من فوق الزحافة واتجه إلى الحان.

وكان صاحب الحان يقف على أعلى السلم الأمامي الصغير، واستحسن ك هذا أشد الاستحسان — وكان صاحب الحان يحمل مصباحًا يرفعه إلى أعلى ويضيء له السبيل. وتذكَّر ك الحوذي على نحو عابر، فوقف، وإذا صوت سعال يتناهى إليه من الظلام: إنه الحوذي. هه، إنه سيراه بطبيعة الحال فيما بعد. فلما وصل إلى صاحب الحان الذي حيَّاه بتواضع، تبيَّن أن هناك رجلين يقف كل منهما على أحد جانبي الباب. فتناول المصباح من يد صاحب الحان وأضاء الاثنين، فإذا هما الرجلان اللذان قابلهما من قبلُ وناداهما البعض: أرتور ويريمياس. إنهما يُحييان الآن تحيةً عسكرية. وتذكَّرَ أيام الجندية، هذه الأيام السعيدة، وضحك، ثم سأل وهو ينظر من هذا إلى ذاك: مَن أنتما؟

فأجابا: مساعداك.

وأكَّد صاحب الحان كلامهما قائلًا: إنهما مساعداك.

وسأل ك: كيف هذا؟ أنتما مساعداي القديمان اللذان استدعيتهما ليَلحقا بي، واللذان أنتظر وصولهما؟

فأكَّدا ذلك. وقال ك بعد هنيهة: حسنٌ. حسنٌ أنكما وصلتما.

ثم قال ك بعد هنيهة أخرى: لقد تأخَّرتما تأخرًا شديدًا، أنتما مهملان.

وقال أحدهما: لقد كان الطريق طويلًا.

وقال ك مكررًا الكلام نفسه: كان الطريق طويلًا ... ولكنَّني قابلتكما وأنتما قادمان من القصر. وقالا دون إضافة تفسير أو تبرير: نعم.

وسأل ك: وأين الأجهزة؟

فقالا: ليس معنا أجهزة.

فقال ك: أين الأجهزة التي ائتمنتكما عليها؟

فعادا يقولان: ليس معنا أجهزة.

فقال ك: آه، هل أنتما كسائر البشر. أتفهمان شيئًا في المساحة؟

فقالا: لا.

فقال ك: إذا كنتما مساعديَّ القديمَين فلا بد أنكما تفهمان في المساحة. ودفعهما أمامه إلى داخل البيت.

ثم جلس الثلاثة أقرب إلى الصامتين في قاعة الحان يحتسون البيرة إلى منضدة صغيرة، كان ك في الوسط، وكان المُساعدان عن يمينه وشماله. وكانت هناك منضدة أخرى يجلس إليها بعض الفلاحين مثل الليلة الماضية. وقال ك وهو يُقارن وجهَيهما كما فعل من قبل مرارًا: إن أمري معكما لصعبٌ. كيف يمكنني أن أفرِّق بينكما؟ إنكما لا تختلفان إلا في الاسم، وإنكما فيما عدا هذا متشابهان!

وتعثَّر برغمه، ثم عاد يقول: متشابهان كما تتشابه الحيَّات.

وابتسما وقالا مدافعين عن أنفسهما: ولكن الناس يُفرِّقون بيننا عادةً على نحو طيب.

وقال ك: أعتقد هذا. ولقد كنت شاهدًا على ذلك، ولكنني أرى بعيني وأنا لا أستطيع بهما أن أفرِّق بينكما. ولهذا فأنا سأعاملكما كأنكما رجلٌ واحد وسأدعوكما أرتور، فهذا اسم أحدكما، أليس كذلك؟

وسأل أحدهما: ربما اسمك أنت؟

فقال هذا: لا. أنا اسمي يريمياس.

فقال ك: هذا ما لا يهمني. سأدعوكما معًا أرتور. فإذا أرسلت أرتور إلى مكان ما، فعليكما بالذهاب معًا، وإذا كلَّفتُ أرتور بعملٍ، فعليكما الاشتراك فيه معًا، وفي هذا ضرر كبير عليَّ، لأنني لن أستطيع أن أستخدمكما في عملينِ مختلفين، ولكن فيه خير لي؛ لأنكما ستحملان معًا مسئولية ما أكلفكما به من عمل. ولا يهمني كيف تقسمان العمل بينكما، وما ينبغي على أيٍّ منكما أن يلقي التبعة على الآخر، فأنتما في نظري رجل واحد.

وفكَّرا في هذا ثم قالا: سيكون هذا ثقيلًا علينا.

فقال ك: لا يُمكن إلا أن يكون كذلك. سيكون هذا بطبيعة الحال ثقيلًا عليكما. ولكن الأمر سيبقى كما قلت.

وكان ك قد لاحظ هنيهة أن أحد الفلاحين يحوم حول المنضدة، وأخيرًا أجمع هذا أمره على شيء واتجه إلى أحد المساعدَين وهمَّ أن يهمس إليه بشيء. فقال ك: معذرة.

ثم ضرب على المنضدة بيده وهبَّ واقفًا وأردف يقول: هذان مُساعداي، ونحن الآن مشغولون بمناقشة. وليس لأحد الحق في إزعاجنا.

فقال الفلاح خائفًا: متأسِّف. آه. متأسف.

وعاد القهقرى إلى جماعته.

وقال ك وقد عاد إلى الجلوس: هناك شيء ينبغي عليكما أن تراعياه قبل كل ما عداه، وهو أنه ليس لكما أن تتكلَّما مع أحد دون تصريح منِّي. فأنا هنا غريب، وإذا كنتما مساعديَّ القديمَين فأنتما كذلك غريبان. ولهذا ينبغي علينا نحن الغرباء الثلاثة أن نتضامن. هيا نتعاهد على ذلك!

ومَدا يدَيهما في تهافت ولهفة إلى ك. وقال ك: ليُرجع كلٌّ منكما يديه! ولكن أمري قائم. وسأذهب الآن للنوم، وأنصحكما كذلك بالذهاب للنوم. لقد ضيعنا اليوم بلا عمل، وينبغي علينا أن نبدأ غدًا مبكرين. وعليكما أن تُجهزا زحافة للانتقال إلى القصر، وأن تكونا مستعدَّين بها في الساعة السادسة صباحًا أمام البيت.

وقال أحدهما: حسنٌ.

ولكن الآخر قاطعه: إنك تقول حسنًا، مع أنك تعلم أن هذا مستحيل.

فقال ك: سكوت! إنكما تريدان البدء في الشجار.

ولكن أولهما عاد يقول: إنه على حق! من المستحيل أن يدخل غريب القصر بلا تصريح.

– وأين يطلب الإنسان التصريح؟

– أنا لا أعرف، ولكني أعتقد أن الإنسان يطلبه من مدير القصر.

– إذن فلنطلب التصريح تليفونيًّا، اتصلا فورًا بمدير القصر.

فجريا إلى التليفون وأجريا الاتصال — وكم كانا يتزاحمان على التليفون! كانا يبدوان مُطيعين طاعة مضحكة — وسألا هل يصح أن يأتي ك معهما في الغد إلى القصر. وجاءت الكلمة «لا» وسمعها ك وهو عند المائدة. ولكن الإجابة كانت مفصلة: «لا غدًا ولا في أي يوم آخر.»

فقال ك: سأتَّصل أنا تليفونيًّا.

وهبَّ واقفًا. وبينما كان ك ومساعداه — باستثناء حادثة الفلاح — لا يلفتون نظر الموجودين إلا قليلًا، أثارت ملاحظته الأخيرة اهتمام الجميع. وإذا هم يهبُّون واقفين مع ك، وعلى الرغم من أن صاحب الحان حاول أن يردهم، فقد تجمعوا عند التليفون على هيئة نصف دائرة. وكان الرأي الغالب بينهم أن ك لن يتلقى إجابة. واضطر ك إلى أن يرجوهم التزام الهدوء مبينًا أنه لم يطلب سماع آرائهم.

وجاء من سماعة التليفون أزيز لم يعهده ك من قبل عند استعمال التليفون، وكان هذا الأزيز، يلوح كأنما كانت تحدثه أصوات أطفال لا حصر لهم، ولم يكن هذا الأزيز أزيزًا بمعنى الكلمة بل كان غناءً تؤديه أصوات بعيدة، متناهية البعد، ينطلق من بينها، على نحو مستحيل؛ وعلى خط مستقيم صوت واحد مرتفع وقوي يصفع الأذن، وكأنه يريد أن يندس إلى أعمق من السمع المسكين. وأنصت ك دون أن يتصل، وأسند ذراعه على منضدة التليفون، واستغرق في الإنصات.

ولا يعلم ك كم من الوقت مر عليه وهو يرهف السمع، ولكنه ظل هكذا حتى شدَّه صاحب الحان من سترته قائلًا إن رسولًا أتى إليه. وصاح ك غير مُتمالك نفسه: ابعد!

ولعلَّه صاح بهذا في التليفون؛ لأنَّ شخصًا ما كان على الطرف الآخر. وجرى هذا الحوار.

– هنا أوزفالد. مَن هناك؟

كان الصوت قاسيًا، مُتعجرِّفًا، فيه عيب صغير من عيوب النطق، على نحو ما بدا لـ ك، حاول أن يُعالجه بمزيد من القسوة. وتردَّد ك في ذِكر اسمه، فلم يكن يستطيع حيال التليفون أن يدافع عن نفسه، وربما صرخ فيه الآخر صرخة مُهلكة وربما ألقى السماعة، فسدَّ ك على نفسه سبيلًا لعله لا يَفتقِر إلى الأهمية. وأدى تردد ك إلى غضب الرجل فعاد يقول: مَن هناك؟

ثم أضاف: كم أتمنى ألا تكثر الاتصالات التليفونية من هناك، فقد كانت هناك مكالمة منذ لحظة.

ولم يُعلق ك على هذه الملاحظة بشيء، وقدَّم نفسه بتصميم مفاجئ: هنا مساعد السيد موظَّف المساحة.

– أي مساعد؟ أي سيد؟ أي موظَّف مساحة؟

وخطر ببال ك مكالمة الأمس، فقال بإيجاز: اسأل فريتس.

ودهش ك لأن عبارته أدَّت إلى نتيجة. ودهش أكثر للوحدة التي تنتظم العمل هناك، فقد جاءت الإجابة: لقد فهمت! إنه موضوع موظَّف المساحة الذي لا ينتهي إلى نهاية أبدًا! نعم! نعم! ثم ماذا؟ وأي مساعد أنت؟

فقال ك: يوزف.

وكانت همهمة الفلاحين خلف ظهره تُسبِّب له شيئًا من الاضطراب، ويظهر أنهم لم يكونوا مُوافقين على تقديمه نفسه تقديمًا غير صحيح. ولكن ك لم يكن لدَيه وقت للاهتمام بهم؛ لأن المكالمة شغلته تمامًا. وعاد الصوت يسأل من جديد: يوزف؟ إن المساعدين هما …

وصمت قليلًا، ويبدو أنه كان يسأل آخر عن اسمَي المساعدَين.

– أرتور ويريمياس.

فقال ك: هذان هما المساعدان الجديدان.

– بل هما القديمان.

– إنهما القديمان. أما أنا، فالمساعد القديم، وقد لحقت اليوم بالسيد موظَّف المساحة.

وهنا صرخ الصوت: لا.

فسأل ك هادئًا كما كان: فمَن أنا إذن؟

ومرت فترة سكوت قال بعدها الصوت بعيب النُّطق نفسه، وإن أصبح أكثر عمقًا، وأجدر بالاحترام: أنت المساعد القديم!

وأنصت ك إلى نبرة الصوت وأوشك ألا يعي السؤال الذي تناهى إلى سمعه: ماذا تريد؟

ولكم ودَّ لو وضع السماعة. فلم يعد يرجو شيئًا من وراء هذه المكالمة. ولكنه سأل بسرعة سؤال المضطر: متى يمكن لسيدي أن يأتي إلى القصر؟

وجاءت الإجابة: لن يكون له هذا أبدًا.

وقال ك: حسنٌ.

وأعاد السماعة إلى مكانها.

وكان الفلاحون من خلفه قد اقتربوا منه اقترابًا شديدًا. وكان المساعدان مشغولَيْن، وهما ينظران إلى ك نظرات جانبية، بحجز الفلاحين عنه. ويبدو أنها كانت مجرَّد ملهاة، فقد تراجع الفلاحون شيئًا فشيئًا، راضين بنتيجة المكالمة. وإذا رجل يشق مجموعة الفلاحين من الخلف بخطوات سريعة وينحني أمام ك ويقدم إليه رسالة. وأمسك ك بالرسالة في يده وتطلع إلى الرجل الذي لاح له في تلك اللحظة أكثر أهمية. وكان هناك شَبَهٌ كبير بينه وبين المساعدَين. كان رشيقًا مثلهما، ضيق الثياب مثلهما، مرنًا سريعًا مثلهما، ومع ذلك فكان

يختلف عنهما اختلافًا بيِّنًا. وكم ود ك لو كان هذا الرجل مساعدًا له. ولقد ذكَّره قليلًا بالمرأة ذات الرضيع التي رآها عند المعلم الدباغ. فقد كان يلبس ثوبًا أبيض أو يكاد لونه يكون كذلك، ولم يكن الثوب مصنوعًا من الحرير، بل كان ثوبًا شتويًّا كالثياب الأخرى، ولكنه كان يتَّسم بما يتَّسم به الثور الحرير من رقة ومهابة. وكان وجهُه مشرقًا وصريحًا، وكانت عيناه واسعتَين. وكانت ابتسامته تُوحي بالأمل على نحو غير مألوف. ولقد مسح بيده على وجهه وكأنما أراد أن يطرد هذه الابتسامة، ولكنه لم يوفَّق في ذلك، وسأله ك: مَن أنت؟

فقال: أنا اسمي برناباس. وأنا أعمل ساعيًا.

كانت شفتاه تنفتحان وتنقفلان أثناء الكلام في رجولة ولكن في رقة أيضًا. وسأله ك: أيُعجبك هذا؟

وأشار ك إلى الفلاحين ولم يكن اهتمامه بهم قد قلَّ، وكانوا يرفعون نحوه وجوهَهم المعذبة ... لقد بدت جماجمهم كأنما كُبست من أعلى فتفرطَحَت، وكأنما تكوَّنت قسمات وجوههم وسط آلام الضرب، وهكذا شفاههم الغليظة وأفواههم المفغورة، وكانوا ينظرون، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه لا يبصرون، ذلك أن نظرتهم كانت أحيانًا تتوه، وتتركز، قبل أن تعود، على أي شيء لا أهمية له. ثم أشار ك بعد ذلك إلى مساعدَيه اللذَين كانا يتعانقان ويبتسمان وقد ألصق الواحد منهما خده بخد صاحبه، ولم يكن الإنسان يعرف هل كانا يَبتسمان في تواضُعٍ أو في تهكم. أشار ك إلى كل هذا، وكأنما كان يقدم إليه حاشية فرضتها عليه ظروف خاصة، وتوقع — كانت في توقُّعه ثقة حرص عليها كل الحرص — أن يُميِّز بينه وبينهم. ولكن برناباس لم يتلقَّف السؤال في براءة كاملة بطبيعة الحال — وكان ذلك ظاهرًا، وترك السؤال يمر عليه عابرًا، كما يفعل الخادم المهذب حيال كلمة من سيده لا تكون موجَّهة إليه إلا في ظاهرها، ولم يزد عن أن نظر حوالَيه اتباعًا للسؤال، وحيًّا بيده بعض المعارف من بين الفلاحين وتبادَلَ كلمات مع المساعدَين، وجرى هذا كله في حريةٍ واستقلال، دون أن يختلط بهم. وعاد ك إلى الخطاب في يده في خيبة — ولكن بدون خجل — وفتَحَه. كان الخطاب ينصُّ على ما يلي:

«أيها السيد المحترم.

إنك، كما تعلم، قد قُبِلت للعمل في الخدمة الأميرية. ورئيسك المباشر هو رئيس مجلس القرية، وهو الذي سيُبلغك بكل تفاصيل عملك وشروط الأجر، وأنت مسئول أمامه. ومع ذلك فلن أبعد عيني عنك، وسيقوم برناباس، الذي

يحمل إليك هذا الخطاب، بسؤالك من حين لآخر عن رغباتك، وسيتولَّى نقلها إليَّ. ولسوف تجدُني دائمًا مستعدًّا، على قدر الإمكان، للقيام بما يُرضِي. فأنا أحرص على أن يكون عمالي راضين.»

ولم يكن التوقيع واضحًا، ولكن الاسم كان مطبوعًا بجواره: رئيس الإدارة العاشرة.

وقال ك لبرناباس الذي انحنى أمامه: انتظر.

ونادى على صاحب الحان وطلب منه أن يقتاده إلى الحجرة؛ لأنه كان يريد أن ينفرد بالخطاب فترة من الوقت. وتذكَّر في هذه الأثناء أن برناباس، على الرغم من الميل الشديد الذي يميله إليه، لا يختلف عن أن يكون ساعيًا، وأمر له بشيء من البيرة. وانتبه إلى كيفية تقبُّله إيَّاها. ولقد ظهر أنه تقبَّلها مُرحِّبًا، وشرع على التو يشرب منها. ثم ذهب ك مع صاحب الحان. ولم يكن هذا قد استطاع أن يُدبِّر لـ ك في المبنى الصغير سوى حجرة صغيرة على السطح، وحتى تدبير هذه الحجرة كان محفوفًا بالصعاب؛ لأنه اضطر إلى تدبير مكان آخر لخادمتين كانتا تنامان فيها. والحقيقة أن ما حدث لم يزد عن إخراج البنتين من الحجرة، فقد ظلت الحجرة على حالها لم يتناولها تغيير، ولم يكن السرير الوحيد مكسوًّا بملاءة، بل كانت عليه بضع مخدات، وغطاء، تُركت كما كانت في الليلة الماضية. وكانت هناك على الجدران بعض صور القدِّيسين، وبعض الصور الفوتوغرافية لجنود. إنهم لم يفعلوا شيئًا بالحُجرة، حتى مجرَّد التهوية، والظاهر أنهم يرجون ألا يُقيم الضيف الجديد طويلًا، ولهذا لم يفعلوا شيئًا للتمسك به. ولكن ك كان راضيًا بكل شيء، فلفَّ نفسه بالغطاء، وجلس إلى المنضدة، وبدأ يقرأ الخطاب مرة أخرى على ضوء شمعة.

لم يكن الخطاب على وتيرة واحدة، كانت به مواضع يدور فيها الحديث إليه، كأنه رجل حرٌّ، له إرادة مُعترف بها، من هذه المواضع مطلع الخطاب، والموضع الذي يتناول رغباته. ثم كانت هناك مواضع يُعاملونه فيها، بصراحة أو مواراة، كأنه عامل صغير لا يكاد يلحظه أحد من مقرِّ هذه الرئاسة، ولسوف يبذل الرئيس الجهد لكيلا يُبعد عينَيه عنه. أما رئيسه فليس سوى رئيس مجلس القرية، بل إنه مسئول أمامه، وربما لم يكن له من زميل في هذا سوى شُرطي القرية. لقد كانت تلك بلا شك متناقضات. وكانت واضحةً للعين. مما يدلُّ على أنها كانت مقصودة. وخطرت ببال ك فكرة جنونية عابرة تُصوِّر له أنه ربما كان السبب هو تردد الإدارة في هذا الأمر. لقد رأى خيارًا يعرض له صريحًا، لقد ترك له أن يتصرَّف في تعليمات الخطاب بما يريد: له أن يُقرر إن شاء أن يُصبح عاملًا في القرية وله امتياز الارتباط بصلة، لا تزيد عن أن تكون صلة ظاهرية، بالقصر، أو أن يصبح عاملًا

ظاهريًّا في القرية يُحدد علاقة عمله كلها بناءً على أخبار برناباس. ولم يتردَّد ك في الاختيار، وما كان له أن يتردَّد بعد الخبرات التي أُتيحت له حتى الآن. إنه عندما يكون عاملًا في القرية، بعيدًا قدر المستطاع عن السادة في القصر، فسيستطيع أن يبلغ شيئًا في القصر؛ ذلك أن أهل القرية الذين كانوا يسلكون حياله مسلك الريبة، سيبدءون في الكلام، عندما يصبح هو، لا نقول صديقًا لهم، بل مواطنًا مثلهم لا يختلف عن جيرشتيكر أو لازيمان ... ولا بدَّ أن يحدث هذا بسرعة، فكل شيء رهن به ... عند ذاك تنفتح له بضربة واحدة، وبكل تأكيد، الطرق، التي كانت ستظلُّ إلى الأبد لا مقفلة فحسب، بل مستترة، إن ظل الأمر رهنًا بالسادة في عليائهم، رهنًا بتفضلهم. حقيقةً إن ثمة خطرًا كان قائمًا وكان مؤكدًا في الخطاب بما فيه الكفاية، وهو أنه سيكون عاملًا. كان الخطاب مليئًا، بعبارات الخدمة، الرئيس، العمل، شروط الأجر، المسئولية، العامل ... وحتى ما كان الخطاب يحتويه غير ذلك من أمور أكثر شخصية، كان قائمًا على وجهة النظر هذه. إذا كان ك يريد أن يكون عاملًا، ففي استطاعته أن يكون عاملًا، بكل جدٍّ رهيب، ودون أن يكون له أن ينصرف بنظره إلى أي مُنصرف. وكان ك يعلم أنه لا يتعرض لتهديد بإكراه حقيقي، ولم يكن يخشى الإكراه، وبالذات هنا، ولكنه كان يخشى قوة البيئة المُيَئِّسَةِ، قوة الاعتياد على الخيبة، وقوة المؤثرات غير الظاهرة في كل لحظة، ولكنه كان ينبغي عليه أن يجرؤ على منازلة هذا الخطر. ولم يكن الخطاب يخفي، أن ك، إذا وصل الأمر إلى النضال، سيكون عليه أن يجسر على الابتداء. كان الخطاب يُعبر عن هذا بخفة، وما كان ليلحظه إلا ضمير قلق — ضمير قلق، لا ضمير مُثقَل — يعبر عنه في كلمتين هما «كما تعلم» عند الحديث عن قبوله في الخدمة. كان ك قد تقدَّم للعمل، ولقد علم، على نحو ما جاء بالخطاب، أنه قد قُبِلَ.

وأزاح ك صورة من الحائط وعلَّق الخطاب على مسمار. إنه سيُقيم في هذه الحجرة، ويَنبغي أن يعلق الخطاب هنا.

ثم نزل ك إلى قاعة الحان. كان برناباس يجلس مع المُساعدَين إلى منضدة صغيرة. وقال ك بغير مناسبة، لا لسبب إلا لأنه فرح برؤية برناباس: آه، أنت هنا.

وانتفَض برناباس واقفًا من فوره. وما كاد ك يدخل، حتى نهض الفلاحون ليَقتربوا منه، فقد اعتادوا على أن يلاحقوه دائمًا. وصاح ك: ماذا تريدون مني؟

ولم يغضب الفلاحون، واستداروا عائدين إلى أماكنهم. وقال أحدهم على سبيل الشرح، وهو يبتعد، ببساطة وبابتسامة لا سبيل إلى تأويلها، اتخذها بعض الآخرين: إن الإنسان يسمع دائمًا شيئًا جديدًا.

ولعق شفتَيه وكأنما كان الشيء الجديد طعامًا يؤكل.

ولم يقل ك شيئًا يرمي إلى التصالح؛ فقد كان من الخير أن يلتزموا حياله بقليل من الاحترام. ولكنه ما كاد يجلس إلى برناباس حتى أحسَّ بتنفُّس أحد الفلاحين في قفاه، أتى، على حد قوله، ليأخذ المَلَّاحة، ولكن ك هب واقفًا، من فرط غضبه، فجرى الفلاح بعيدًا دون أن يأخذ الملَّاحة. لقد كان من السهل فعلًا النَّيل من ك، كان يكفي مثلًا، تحريض الفلاحين عليه، ولقد لاح له هذا الإقبال العنيد عليه، أكثر شرًّا من إدبار الآخرين عنه، ثم إن إقبالهم ليس إلا إدبارًا، فلو أن ك ذهب ليجلس إليهم، لَما ظلُّوا جالسين إلى المائدة. ولم يمنع ك من إحداث ضجة، إلا وجود برناباس. ولكنه استدار نحوهم مُهددًا، وكانوا هم كذلك قد استداروا نحوه. فلمَّا رآهم يجلسون هكذا، كلٌّ في مكانه، دون أن يتحادَثوا، ودون أن يكون بينهم رباط ظاهر، فلم يكن يَربطهم بعضهم إلى البعض إلا التحديق فيه، ظن أن ما يجعلهم يُلاحقونه ليس الشر على الإطلاق، ربما كانوا بالفعل يُريدون منه شيئًا، ولم تكن لدَيهم القدرة على التعبير عنه، وربما كانت تلك مجرد صبيانية متأصِّلة في هذا المكان … ألم يكن صاحب الحان يتصرَّف تصرفًا صبيانيًّا وهو يمسك بكلتا يدَيه كوب بيرة كان المفروض أن يحمله إلى بعض الجالسين، ويقف ساكنًا، ينظر إلى ك، ولا يتنبَّه إلى نداء زوجته التي كانت تطل من طاقة المطبخ الصغيرة؟

والتفت ك إلى برناباس وقد ازداد هدوءًا، ولكم ودَّ أن يبعد المساعدَين، ولكنه لم يجد حجة يتذرَّع بها. ولقد كانا على أية حال ينظران صامتَين إلى البيرة أمامهما. وبدأ ك حديثه قائلًا: لقد قرأتُ الخطاب. هل تعرف مضمونه؟

فقال برناباس: لا.

وكانت نظرته تبدو أكثر تعبيرًا من كلماته. وربما أخطأ هنا بالخير كما أخطأ بالشر مع الفلاحين، عندما تشبَّث بما في وجوده من طيبة. وقال: إنَّ الخطاب يتحدث عنك، ذلك أنه ينبغي عليك من حين لآخر أن تنقل الأخبار بيني وبين الإدارة، ولهذا السبب اعتقدت أنك تعرف فحوى الخطاب.

وقال برناباس: لقد تلقَّيت أمرًا بتوصيل الخطاب، وبالانتظار حتى تتم قراءته، وبالعودة برد شفهي أو تحريري إذا رأيت ضرورة لذلك.

فقال ك: حسنٌ. ليست هناك حاجة إلى الكتابة. أبلغ السيد الرئيس، ما اسمه؟ فأنا لم أستطع قراءة التوقيع.

فقال برناباس: كلم.

– إذن فأبلغ السيد كلم شُكري على قبوله، وكذلك على ودِّه الخاص، الذي أعرف، وأنا شخص لم يثبت جدارته هنا بعد بحال من الأحوال، كيف أقدره قَدرَه. ولسوف أتصرَّف على نحو يطابق مراميه كل المطابقة. وليست لديَّ اليوم رغبات خاصة.

وطلب إليه برناباس، وقد أصغى بدقة، أن يسمح له بأن يعيد عليه الرسالة، أعادها برناباس كلها بنصِّها لم يتبدَّل منه شيء. ثم نهض ليستأذن في الانصراف.

كان ك قد ظلَّ طوال الوقت يتفرَّس في وجهه، وها هو ذا يتفرَّس فيه مرة أخيرة. كان برناباس في مثل طول ك تقريبًا، ومع ذلك فقد لاحت نظرتُه كأنها تهبط من أعلى إلى أسفل، لتصل إلى ك، ولكن فيما يوشك أن يكون تواضعًا؛ فقد كان من المحال أن يُخجل هذا الرجل أيَّ إنسان. حقيقةً أنه كان ساعيًا لا يزيد، ولم يكن يعرف فحوى الخطابات التي يُكلَّف بنقلها، ولكن نظرته، وابتسامته، ومشيته كانت تلوح كرسالة، وإن لم يكن يعرف من أمرها شيئًا. ومدَّ ك إليه يده مُصافحًا، ويبدو أن تلك الحركة فاجأته، فلم يكن يريد إلا أن ينحني.

فلمَّا انصرف — وكان قد استند إلى الباب بكتفِه قبل أن يفتحه وشمل القاعة بنظرة لم يقصد بها شخصًا بعينه — قال ك لمساعدَيه: سأُحضر من الحجرة رسوماتي، ثم نتناقَش في العمل القادم.

وأرادا أن يذهبا معه. فقال: انتظرا.

ولكنَّهما ظلَّا يريدان الذهاب معه. فاضطرَّ ك إلى إعادة الأمر بمزيد من الحدَّة.

لم يكن برناباس في المدخل. ولكنه لم يكن قد انصرف إلا توًّا. ولم يرَه ك أمام البيت، وكان الجليد يتساقط من جديد. وأخذ يُنادي: برناباس.

فلم يتلقَّ إجابةً. هل تراه لم يخرج بعدُ؟ لم يكن هناك احتمال آخر. ومع ذلك فقد صاح ك بكل قوته هاتفًا بالاسم. ودوَّى الاسم خلال الليل المطبق على المكان. وتلقَّى ك من بعيد ردًّا خافتًا. إذن فقد ابتعدا بُعدًا شديدًا. ونادى عليه ك أن يعود، ثم ذهب لمُلاقاته، والتقيا في موضع لم يكن في الإمكان رؤيته من الحان.

وقال ك وهو لا يستطيع التغلُّب على رعشة صوته: يا برناباس. لقد أردتُ أن أقول لك شيئًا آخر. ولقد لاحظت أن هناك سوء تدبيرٍ في اعتمادي على مجرَّد قدومك مصادفةً، عندما أحتاج إلى شيء من القصر. ولو لم ألحَق بك الآن مُصادفةً — وأنت تطير، وكنت أظنُّ أنك ما تزال في الحان — فمَن يعلم كم من الوقت كنتُ سأنتظر حتى تأتيَ مرة أخرى.

فقال برناباس: يُمكنك أن ترجو الرئيس أن أحضر إليك دائمًا في أوقات معيَّنة تُحدِّدها أنت.

فقال ك: ولكن هذا لن يكفي، فربما مرَّ عام دون أن أحتاج إلى إبلاغ شيء إلى القصر، وربما جَدَّ بعد انصرافك بربع ساعة شيءٌ لا سبيل إلى تأجيله.

فقال برناباس: هل أبلغ الرئيس أنه ينبغي أن تقوم بينكما صلة أخرى غيري؟

فقال ك: لا، لا. مطلقًا. وأنا إنما أشرت إلى هذا الأمر إشارتي إلى أمرٍ ثانوي. ومن حُسن الحظ أنني لحقت بك هذه المرة.

فقال برناباس: هل نعود إلى الخان حتى تُكلِّفَني بالمهمة الجديدة؟

وخَطا بالفعل خطوة إلى هناك، فقال ك: يا برناباس، ليست هناك ضرورة لذلك، سأسير معك شيئًا من الطريق.

وسأل برناباس: لماذا لا تُريد الذهاب إلى الخان؟

فقال ك: لأنَّ الناس هناك يزعجونني. ولقد رأيت بنفسك إلحاح الفلاحين.

فقال برناباس: يُمكننا أن نذهب إلى حجرتك.

فقال ك: إنها حجرة الخادمات، حجرة قذرة مكتومة، ولقد أردت أن أسير معك قليلًا حتى لا أبقى فيها …

وأضاف ك ليتغلَّب نهائيًّا على تردُّده: … ولكن ينبغي عيك أن تدَعَني أتعلَّق بذراعك، فأنت تسير أكثر اطمئنانًا.

وتعلَّق ك بذراعه. وكان الظلام حالكًا. ولم يرَ ك وجهه، ولم يرَ هيئته إلا في غير وضوح، وكان قد حاول قبل هنيهة أن يتحسَّس ذراعه.

واستجاب برناباس، وابتعدا عن الخان. حقيقةً أن ك أحسَّ أنه لم يكن يستطيع، رغم الجهد الذي بذله، أن يسير بخُطى برناباس، وأحسَّ بأنه يُعرقل حركته الحرة، وأن كل شيء سينتهي، في الظروف العادية، إلى الفشل نتيجة لشيء ثانوي من هذا القبيل، عندما يسيران في الحارات الجانبية، وما هي إلا مثل هذه الحارة التي غاص ك في جليدها صباح اليوم، ولم يكن ليخرج منها إلا أن يحمله برناباس. ولكنه أبعد عنه هذه المخاوف، وخفَّف عنه التزام برناباس الصمت. وإذا كانا سيَسيران صامتين، فإن التقدم سيكون بالنسبة لبرناباس الهدف الوحيد لهما.

وسارا، ولم يكن ك يعرف إلى أين، لم يكن يستطيع أن يتبيَّن شيئًا. لم يعرف حتى هل مرَّا على الكنيسة وتجاوزاها أو لا. ولقد أدَّى الجهد الذي سبَّبه له المشي إلى أنه لم يستطع أن يسيطر على أفكاره. فقد اضطربَت أفكاره بدلًا من أن تبقى مركزة على الهدف. كان الوطن لا يفتأ يخطر بباله، وكانت ذكرياته تغمره. تذكر كنيسة كانت هناك في الميدان

الرئيسي، كانت تحوطها من ناحية المقابر القديمة، وكان يحوطها من الناحية الأخرى جدار عالٍ لم يتسلَّقه إلا عددٌ قليل جدًّا من الصبية، ولم يتمكَّن ك من تسلُّقه عندما كان صبيًّا. ولم يكن ما يدفع الصِّبية إليه فضول، فلم تكن في المقابر أسرار، ولقد دخلوا إليها من خلال الباب الحديدي الصغير مرارًا، ولكنهم كانوا يريدون قهر هذا الجدار العالي الزلق. وذات صباح، وكان الميدان الخالي الهادئ يفيض بالنور — متى رآه ك من قبل أو من بعد وضَّاحًا هكذا؟ — تمكن ك من تسلُّقه بسهولة لم يعهدها من قبل. لقد تسلقه في موضع ارتدَّ منه من قبل مرارًا، تسلقه دَفعةً واحدة، وكان يحمل بين أسنانه عَلمًا صغيرًا. وتدحرج الحجر مُتساقطًا، ولكن ك كان قد وصل إلى أعلى. وثبَّت العَلم، ونشَرَته الريح، ونظر إلى أسفل، إلى الجمع المصطفِّ في دائرة، وتجاوز الأكتاف إلى الصلبان المائلة إلى الأرض. لم يكن هناك إلى الآن مَن هو أكبر منه. وتصادف أن مرَّ المدرس، فنظر إلى ك نظرة غاضبة أنزله بها من فوق الجدار العالي. وأصيب ك أثناء القفز، بجرحٍ في ركبته، ولم يصل إلى البيت إلا بشقِّ الأنفس، ولكنه كان قد وقف فوق الجدار. وتصور ك في ذلك الوقت أن الإحساس بهذا النصر سيكون دعامة تستند عليها حياة طويلة، ولم يكن هذا الذي لاح له آنذاك من قبيل السخف، فها هو ذا يعود إليه بعد سنوات طويلة، في ليلة الجليد، وهو يتأبط ذراع برناباس، فيمده بالعون.

وتعلَّق بذراع برناباس على نحو أشد، وكان برناباس يوشك أن يجره، وظلَّ الصمت قائمًا لا يقطعه أيهما بكلام. ولم يعرف ك عن الطريق إلا ما تبيَّنه من حالة الشارع، وهو أنهما لم ينحرفا إلى حارة جانبية. وقرر ألا يجعل صعوبة من صعوبات الطريق، أو خشية من عدم التمكُّن من العودة، تحول بينه وبين الاستمرار في السير. وليس هناك شك في أن قوته ستكفي لكي يستمر برناباس في جرِّه. ثم هل الطريق لا تنتهي إلى نهاية؟ ولقد لاح له القصر بالنهار هدفًا يسيرًا، وليس من شك في أن الساعي يعرف أقصر طريق إليه.

ووقف برناباس. أين كانا؟ هل انقطع الطريق؟ هل سيَستأذن برناباس من ك في الانصراف؟ لن يتمكَّن برناباس من ذلك. فقد كان ك يتشبَّث بذراعه بقوة كانت تُؤلمه هو نفسه. أم هل حدث الشيء الذي لا يُمكن تصديقه؟ هل هما الآن في القصر أو أمام بواباته؟ ولكنهما، على قدر ما كان ك يعرف، لم يصعدا مرتفعًا. أم هل اقتاده برناباس في طريق تصعد على نحو غير ملحوظ؟ وسأل ك بصوت منخفض، وكأنما كان يسأله لنفسه أكثر مما كان يسأل برناباس: أين نحن؟

فقال برناباس على النحو نفسه: في البيت؟

في البيت؟ والآن يا سيدي انتبه حتى لا تنزلق إلى أسفل، فالطريق مُنحدِر.

– منحدر؟

ثم قال برناباس: لم تبقَ سوى خطوات قليلة.

وها هو ذا يقرع بابًا.

وفتحت الباب بنت، ووقفا على عتبة حجرة كبيرة في ظلمة توشك أن تكون حالكة، فلم يكن هناك سوى مصباح بترولي ضئيل فوق مائدة في مؤخِّرة المكان إلى اليسار. وسألته البنت: مَن هذا الذي يأتي معك يا برناباس؟

فقال: موظف المساحة.

وأعادت البنت الإجابة بصوت مرتفع متجهة إلى المائدة. وهنا نهض شخصان متقدمان في السنِّ، رجل وامرأة، وكذلك بنت أخرى. وحيَّا الجميع ك. وقدَّم برناباس الجميع إليه، كان هؤلاء والدَيه، وأختَيه أولجا وأماليا. ولم ينظر ك إليهم، أو يكاد ألا يكون قد نظر إليهم وخلع عنه بعضهم سترته المُبتلة ليُجففها عند المدفأة. وترك ك ذلك يحدث.

إذن فلم يكن الاثنان في بيتهما، لقد كان برناباس وحده في بيته. ولكن لماذا كانا هنا؟ وانتحى ك ببرناباس جانبًا وسأله: لماذا ذهبت إلى البيت؟ أم هل تسكنون في دائرة القصر؟

وأعاد برناباس عبارة: في دائرة القصر؟

قالها وكأنه لا يستطيع فهْم ك. فقال ك: إنك يا برناباس كنت تُريد الذهاب من الحان إلى القصر.

فقال برناباس: لا يا سيدي، لقد كنتُ أريد أن أذهب إلى البيت. وسأذهب إلى القصر في الصباح المبكِّر، فأنا لا أنام هناك مطلقًا.

فقال ك: هكذا. أنت لم تكن تُريد الذهاب إلى القصر، بل كنت تريد الحضور إلى هنا.

ولاحت ابتسامة برناباس لـ ك واهنةً، ولاح برناباس نفسه له أكثر تفاهةً. وقال ك: ولماذا لم تَقُل لي هذا؟

فقال برناباس: إنك يا سيدي لم تسألني، لقد كنتَ تُريد أن تُكلِّفني بمهمة، ولم تُرد أن تكلفني بها لا في قاعة الحان ولا في حجرتك، ولهذا فكَّرت في أنك تستطيع أن تُكلفني هنا بالمهمة في بيت أهلي، دون أن يُقلقك مقلق. وسيخلي الجميع المكان عندما تأمر بذلك. ولك، إن راقك المكان، أن تبيت هنا. ألم أحسن التصرُّف؟

ولم يستطع ك الإجابة. لقد حدث خطأ. إذن، خطأ دنيء وضيع. وكان ك قد أسلم نفسه إليه ووثق فيه كل الثِّقة. لقد ترك سترة برناباس الضيقة الحريرية اللامعة تخلب لبَّه، تلك السترة التي أخذ الآن يفك أزرارها، فظهر من تحتها قميص غليظ قذر رمادي

كثير الرُّقع فوق صدر عبدٍ قوي صارم البدن. وكان كل شيء حوله لا يُطابق هذا فحسب، بل يفوقه، الأب العجوز المريض الذي يتقدَّم بيدَيه المتحسِّستَين أكثر مما يتقدم بساقيه المتصلبتَين الزاحفتين في بطء — والأم التي تعقد يديها على صدرها ولا تستطيع لبدانتها أن تتقدَّم إلا بخطًى متناهية الضآلة. ومنذ دخل ك تحرَّك الوالدان من ركنَيهما نحوه، ولم يَصلا إليه بعدُ. أما الأختان، وهما شقراوان تشبه الواحدة منهما الأخرى، وتُشبهان برناباس، وإن كانت تقاطيعهما أكثر حدة من تقاطيعه، فكانتا بنتَين طويلتين قويتَين، ولقد وقفتا حول القادمين تنتظران كلمة تحية من ك. ولكنه لم يستطع أن يقول شيئًا. ولقد كان ك يعتقد أن كل شخص في القرية يتسم حياله بالأهمية، ويبدو أنه كان مصيبًا في هذا الاعتقاد، إلا أن هؤلاء الناس بالذات كانوا لا يُهمونه على الإطلاق. ولو كان في حالة يستطيع فيها أن يقطع الطريق وحده عائدًا إلى الحان، لانصرف من فوره. ولم تكن إمكانية الذهاب في الصباح الباكر إلى القصر مع برناباس تُغريه. لقد كان يودُّ أن يَنفذ إلى القصر الآن. في الليل، لا يلتفت إليه أحد، ينفذ إليه وراء برناباس، ولكن ذلك البرناباس الذي كان يبدو له حتى ذلك الحين أقرب الناس هنا إلى نفسه، والذي ظنَّ أنه مُرتبط بالقصر ارتباطًا وثيقًا يزيد زيادة كبيرة على رتبته الظاهرة. أما مرافقة ابن هذه الأسرة، الذي ينتمي إليها كل الانتماء، والذي جلس معها إلى المائدة وتناول الطعام معها، مرافقة هذا الرجل الذي لا يحقُّ له حتى مجرد النوم في القصر — وهذا شيء له دلالته — مُرافقته والتشبث بذراعه في وضح النهار، كان يلوح له محاولة مضحكة لا أمل فيها.

وجلس ك على قاعدة إحدى النوافذ، مُصممًا على أن يقضي عليها الليلة، وعلى ألا يطلب من هذه الأسرة خدمة أخرى غير هذه الخدمة، ولاح له أهل القرية الذين أبعدوه، أو الذين خافوا منه، أقل خطورة؛ لأنَّهم في واقع الأمر كانوا يُحيلونه إلى نفسه، ويُعينونه على جمع قواه. أما هؤلاء الذين يلوحون كأنهم يعينونه، والذين لم يقتادوه إلى القصر، بل اقتاده في حركة تنكُّرية صغيرة إلى أسرتهم، فكانوا يُشتِّتون انتباهه، سواء عمدوا إلى ذلك أو لم يعمدوا، وكانوا يعملون على هدم قواه. ولم يحفل بالنداء الذي وجَّهوه إليه يدعونه إلى مائدة الأسرة، وظل جالسًا على قاعدة النافذة مُطأطئ الرأس.

وهنا نهضت أولجا، أكثر الأختين رقة، وكانت تُبدي شيئًا من خجل البنات، وذهبت إلى ك، ورَجَته أن يأتي إلى المائدة. وقالت إنَّ الخبز وشحم الخنزير جاهزان، أما البيرة فستذهب لإحضارها. وسأل ك: من أين؟

فقالت: من الحان.

ولقيَ كلامها ترحيب ك الشديد. فرجاها ألا تحضر بيرة، بل أن ترافقه إلى الحان؛ لأن لديه أعمالًا مهمَّة هناك يريد أن ينجزها. وتبيَّن أنها لا تريد أن تذهب إلى الحان البعيد الذي ينزل فيه، بل إلى حانٍ آخر قريب، أشد القرب، هو حان السادة. ومع ذلك رجاها ك أن تسمح له بمرافقتها، وهو يفكر في أنه ربما أتيحت له هناك فرصة للمبيت، ومهما تكن، فهي أفضل بكثير من النوم هنا في أحسن سرير. ولم تُجب أولجا على الفور، بل نظرت خلفها إلى المائدة. وكان أخوها قد نهض، وهزَّ رأسه بالموافقة وقال: إذا كانت تلك هي رغبة السيد.

ولقد أوشكت هذه الموافقة على أن تدفع ك إلى أن يتراجع في طلبه، فلم يكن هذا الرجل ليُوافق إلا على أشياء عديمة القيمة: فلما تشاوروا في الأمر، وهل سيُسمح لـ ك بدخول الحان، وأبدوا جميعًا شكَّهم في ذلك، أصر ك على الذهاب معها، دون أن يبذل جهدًا في اختلاق سبب مفهوم يُبرر به طلبه. كان على هذه الأسرة أن تقبله كما هو، ولم يكن على نحوٍ ما يحسُّ حيالها بالخجل. ولم يكن هناك شيء يُشككه في ذلك إلا أماليا بنظرتها الجادة، المستقيمة، الجامدة التي ربما اتَّسمت بشيء من البلادة.

وعلم ك وهو في الطريق القصر إلى الحان — وكان قد تعلَّق بذراع أولجا وتركها تجرُّه أو تكاد، كما فعل من قبل مع أخيها، فلم يكن يستطيع غير ذلك — أن هذا الحان مخصَّص في الحقيقة للسادة الذين يأتون من القصر لقضاء شيءٍ في القرية، فهم يأكلون هناك، ويبيتون أحيانًا. وكانت أولجا تتكلم مع ك بصوت خفيض، كأنه يعبر عن ودٍّ، وكان ينعم بالسير معها، كما نَعِم من قبل بالسير مع أخيها أو يكاد. وكان ك يصدُّ الإحساس بالارتياح، ولكنه كان موجودًا في نفسه.

كان الحان من الخارج يُشبه أشد الشبه الحان الذي كان ك يُقيم فيه. ويبدو أنه لم يكن هناك على الإطلاق فروق كبيرة في القرية، ولكن ك بدأ يُلاحظ الفروق الصغيرة: كان للسُّلم الأمامي حاجز، وكان هناك مصباح جميل مُثبت فوق الباب. وعندما دخلا هفهف قماش فوق رأسَيهما، وكان هذا القماش راية تحمل الألوان الجرافية. وقابلهما عند المدخل على الفور صاحب الحان، ويبدو أنه كان يقوم بجولةٍ تعمَّد القيام بها، ونظر صاحب الحان بعينَين صغيرتَين مُتفحِّصتَين أو ناعستين إلى ك عابرًا وقال: ليس للسيد موظف المساحة أن يذهب إلا إلى قاعة الشراب.

فقالت أولجا في اهتمام بأمر ك: بكل تأكيد. إنه إنما يُرافقني لا أكثر.

أما ك فقد تنكَّر لجميل أولجا وتملَّص منها وانتحى بصاحب الحان جانبًا. وانتظرت أولجا في هذه الأثناء صابرة عند نهاية المدخل. وقال ك لصاحب الحان: إنَّني أودُّ أن أبيت هنا.

فقال صاحب الحان: هذا للأسف مستحيل. ويبدو أنك لم تعرف بعدُ أن هذا الحان خاص بسادة القصر دون سواهم.

وقال ك: ربما كانت تلك هي الأوامر. ولكن من المُمكن بكل تأكيد أن تدَعَني أنام في ركن بأيِّ مكان.

فقال صاحب الحان: كم كنتُ أودُّ غاية الود أن أحقق لك رغبتك، ولكنها، بغض النظر عن صرامة الأوامر التي تتحدَّث أنت عنها حديث الغريب، مُستحيلة التحقيق لأن السادة حسَّاسون إلى أقصى حد. وأنا أوقن من أنهم عاجزون، على الأقل بغير تمهيد، عن احتمال منظر شخص غريب. فلو أنَّني تركتك تبيت هنا، واكتُشفت بطريقة المصادفة — والمصادفات دائمًا في صفِّ السادة — فلن تكون النتيجة ضياعي أنا فحسب، بل وضياعك أنت كذلك. ولقد يبدو هكذا مضحكًا، ولكنه حقيقة.

كان هذا السيد الرفيع المتزمت، الذي ضغط بإحدى يديه على الحائط، ووضع الأخرى في وسطه، وصلب ساقيه، وانحنى قليلًا إلى ك، وتحدث إليه في ودٍّ، لا يكاد يبدو عليه الانتماء إلى القرية، وإن كان ثوبه الأسمر لا يبدو إلا ثوبًا من النوع الذي يرتديه الفلاحون في المناسبات.

وقال ك: أنا أُصدِّقك تمامًا، وكذلك لا أُقلل من شأن الأوامر وإن كنتُ قد استعملت عبارات تَفتقِر إلى الكياسة. ولكنَّني أريد أن ألفتَ نظرك إلى شيء: إن لي علاقات لها قيمتها في القصر، وستكون لي مُستقبلًا علاقات أعظم قيمة، وهي ستحميك من كل خطر قد ينشأ نتيجة مبيتي هنا، وتضمَن لك أنني قادر على الشكر كاملًا غير ممنون على صنيع صغير تقدمه إليَّ.

فقال صاحب الحان: أنا أعرف.

ثم عاد يقول: أنا أعرف هذا.

وكان من المُمكن أن يلحَّ ك في طلبه، ولكن إجابة صاحب الحان هذه شتت أفكاره، ولهذا سأل فقط: هل يبيت الليلة هنا كثير من السادة؟

فقال صاحب الحان يُغريه على نحو ما: إن الوضع اليوم من هذه الناحية طيب، فلم يبقَ هنا سوى سيدٍّ واحد.

وظلَّ ك عاجزًا عن الإلحاح، وإن ظلَّ يرجو أن يكون صاحب الحان قد قبله للمبيت، ولهذا لم يسأل إلا عن اسم السيد. فقال صاحب الحان مقالة مَن يذكر شيئًا ثانويًّا: كلم.

ونظر خلفه إلى زوجته التي أتَت ترتدي ثيابًا قديمة مهلهلة على نحو غريب، كثيرة الثنيات، والكشكشات، من تلك الثياب، الأنيقة التي تَرتديها نساء المدن. ولقد جاءت تطلب

صاحب الحان؛ لأن السيد الرئيس كان يريد شيئًا ما. وقبل أن ينصرف صاحب الحان، التفت مرةً أخرى إلى ك، وكأنما كان القطع في أمر المبيت من شأن ك ولم يعد من شأنه هو. ولم يستطع ك أن يقول شيئًا، خاصةً وأن وجود رئيسه هنا قد أذهله. ولسببٍ ما، لم يستطع أن يُفسِّره لنفسه، أحس ك أنه ليس حرًّا في مواجهة كلم كما كان في مواجهة القصر. ولو اكتشفه كلم هنا لما أدى هذا إلى الرعب على النحو الذي تصوَّره صاحب الحان، بل إلى سخف مؤسِف، ولكان كمن يسبب باستهتاره ضرًّا لإنسان ينبغي عليه أن يقابله بالعرفان والشكر. وأحزنه أشد الحزن أن يرى وهو في مثل هذه الحيرة ما كان يخشاه من نتائج كونه تابعًا عاملًا وأن يتبين أنه غير قادر على التغلُّب عليها وقد بدت هنا واضحة جلية. وهكذا وقف، وعض شفتَيه ولم يقل شيئًا. وعاد صاحب الحان ينظر إلى ك مرة ثانية قبل أن يتوارى في الباب. وتبعه ك بنظره، ولم يتحرَّك من مكانه حتى أتت أولجا وجرَّته بعيدًا. وسألته أولجا: ماذا كنت تريد من صاحب الحان؟

فقال ك: كنتُ أريد المبيت هنا.

فقالت أولجا مندهشةً: ولكنَّك ستبيت عندنا.

فقال ك: نعم، بكل تأكيد.

وترك لها مهمَّة تأويل الكلمات.

الفصل الثالث

كان هناك في قاعة الشراب بالحان، وهي حجرةٌ كبيرة خالية الوسط تمامًا، فلاحون يجلسون عند الحيطان إلى براميل أو فوقها، وكان هؤلاء الفلاحون يختلفون في منظرهم عن الفلاحين الذين في الحان الآخر حيث ينزل ك. كان هؤلاء أكثر نظافة وأكثر تشابُهًا بما يلبسون من ثياب مصنوعة من قماش غليظ رمادي مائل إلى الصفرة، وكان ثيابهم تتكوَّن من سترة منفوخة وسراويل لاصقة بالسيقان. كان هؤلاء الرجال قصار القامة، يبدون لأول وَهلة مُتشابهين أكثر التشابه بوجوههم المنبسطة ذات العظام البارزة والخدود المستديرة. وكانوا جميعًا هادئين، لا يكادون يتحرَّكون، ولم يتابعوا الداخلين إلا بنظرات أرسلوها في بطء وبلادة. ومع ذلك فقد أحدثوا، لكثرتهم وهدوئهم، تأثيرًا ما على ك. فتناول من جديد ذراع أولجا، ليبين على هذا النحو لهؤلاء الرجال سبب وجوده هنا. ونهض في أحد الأركان رجل، تعرفه أولجا، وهَمَّ أن يتَّجه نحوها، ولكن ك لفَّها بالذراع الذي كان يتعلَّق به ذراعها إلى الناحية الأخرى. ولم يكن في استطاعة إنسان غيرها أن يلحظ ذلك، ولقد سكتت عليه ونظرت إلى جانب وهي تبتسم.

وكانت هناك فتاة اسمها فريدا هي التي تُقدِّم البيرة إلى الحاضرين، وكانت فريدا هذه شقراء قصيرة القامة، حزينة العينين هزيلة الخدين، لا تجذب الانتباه، ولكنها كانت تفاجئ الإنسان بنظرة ذات تفوق خاص. وما إن وقعت هذه النظرة على ك، حتى أحسَّ كأنها أنجزت بهذه النظرة كل الأمور الخاصة به، والتي لم يكن ك نفسه يعلم بوجودها، ولكن النظرة كانت تقنعه بأنها موجودة. ولم يكفَّ ك عن التطلع إلى فريدا من الجانب حتى عندما كانت تتحدث مع أولجا. ولم يبدُ على أولجا وفريدا أنهما صديقتان؛ فقد تبادلتا قليلًا من الكلمات الفاترة. وأراد ك أن يحرك الحديث بشيء فسأل مباشرة: أتعرفين السيد كلم؟

فانفجرت أولجا ضاحكة. وسألها ك غاضبًا: لماذا تضحكين؟

فقالت وهي تستمرُّ في الضحك: أنا لا أضحك.

فقال ك: لا تزال أولجا بنتًا كثيرة العبث كالأطفال.

وانحنى فوق المنصة ليجذب نظر فريدا إليه مرة أخرى على نحو شديد ... ولكنها كانت تميل برأسها، وقالت بصوت منخفض: أتريد أن ترى السيد كلم؟

فرجاها ك أن تمكنه من ذلك. فأشارت إلى باب إلى يسارها مباشرةً وقالت: هنا ثُقب صغير يُمكنك أن تنظر من خلاله.

فسأل ك: وهؤلاء الناس هنا؟

فمطَّت شفتها السُّفلى وجذبت ك إلى الباب بيد ناعمة مفرطة النعومة. وشمل ك بنظرته من خلال الثقب، الذي يبدو أنه اتُّخذ لأغراض الملاحظة والمراقبة، الحجرة المجاورة كلها تقريبًا.

كان السيد كلم يجلس إلى مكتب في وسط الحجرة، في كرسي وثير مستدير، يُنيره مصباح كهربائي مُنخفضٌ إنارةً شديدة، كان سيدًا متوسِّط الطول، ممتلئ البدن، ثقيل الظل. وكان وجهه لا يزال ناعمًا، ولكنَّ خدَّيه كانا يتدليان إلى أسفل قليلًا من أثر السن. وكان شاربه الأسود يمتدُّ على الجانبَين طويلًا. وكانت هناك نظارة مركَّبة على أرنبة أنفه، مائلة، تعكس الضوء، وكانت تواري العينين. ولو جلس السيد كلم إلى المائدة يواجهها تمامًا، لما استطاع ك أن يرى منه إلا جانبه، ولكن كلم كان ملتويًا ناحيته، ولهذا رأى ك وجهه كاملًا. كان السيد كلم يركن مرفقَه الأيسر على المائدة، أمَّا يده اليمنى التي كان يمسك بها سيجارة فكانت ترتكن على ركبته. وكان هناك فوق المائدة كوب بيرة. ولما كانت حافة المائدة عالية فإن ك لم يستطع أن يرى على وجه الدقة هل كانت هناك مطبوعات أو مكتوبات فوقها، ولاحت له المائدة خالية. على أنه آثر الاطمئنان، ورجا فريدا أن تنظر من خلال الثُّقب وتأتيه بالخبر اليقين. ونظرًا لأنها كانت في الحجرة منذ قليل، فقد استطاعت، دون مشقة، أن تؤكد له أنه لم يكن هناك على المائدة شيء من مطبوعات أو مكتوبات. وسأل ك فريدا هل ينبغي عليه أن ينصرف، فقالت له إنه يستطيع أن ينتظر ما شاء. وكان ك الآن وحده مع فريدا. لأن أولجا كانت، على قدر ما تبيَّن عابرًا، قد ذهبت إلى الرجل الذي تعرفه، وجلست على برميل وأخذت تطوِّح قدمَيها. وقال ك هامسًا: يا فريدا، هل تعرفين السيد كلم معرفة جيدة جدًّا؟

فقالت: آه نعم. معرفة جيدة جدًّا.

ومالت إلى جانب ك، وأخذت تنظم بطريقة عابثة، لفتت نظر ك الآن، بلوزتها الخفيفة، ذات الفتحة الواسعة، المصفرة اللون، التي كانت تبدو غريبة على جسمها النحيل. ثم قالت: أتذكر ضحك أولجا؟

فقال ك: نعم، البنت الشقية!

فقالت على سبيل التوفيق: آه، لقد كان هناك سبب يدعو للضحك. لقد سألتني هل أعرف كلم، وأنا ...

وهنا اعتدلَت قليلًا في غير إرادة منها، ومرَّت نظرتها الظافرة التي ترتبط بالكلام أي ارتباط من فوق ك، ثم أكملت: وأنا عشيقته.

فقال ك: عشيقة كلم؟

فأومأت برأسها. فقال ك مبتسمًا حتى لا يدع كثيرًا من الجِد يقوم بينهما: إذن فأنت بالنسبة إليَّ شخصية محترمة.

فقالت فريدا دون أن تتقبَّل ابتسامته: ليس فقط بالنسبة إليك.

وكان ك يمتلك وسيلة ضد تكبُّرها فاستعملها إذ سألها: هل كنت في القصر؟

فلم ترتبك لأنها أجابت: لا، ولكن ألا يكفي أن أكون هنا في قاعة الشراب؟

ويبدو أن طموحها كان مسعورًا، وأنها كانت تريد أن تشفي غليله في ك. وقال ك: طبعًا هنا في قاعة الشراب، أنت تفهمين عمل الخمارة.

فقالت: بالضبط. ولقد بدأت بالعمل خادمة في حظيرة حان الجسر.

فقال ك فيما يشبه التساؤل: بهاتين اليدَين الناعمتَين؟

ولم يكن هو ذاته يعلم هل كان يتملَّقها أو كان بالفعل قد وقع تحت سيطرتها. على أن يدَيها كانتا بالفعل صغيرتين رقيقتين. وإن كان في مقدور الإنسان أن يقول إنهما كانتا ضعيفتَين تافهتين. وقالت: لم يلتفت إلى ذلك أحدٌ في ذلك الوقت، وحتى الآن!

وتطلع إليها ك متسائلًا. ولكنها هزَّت رأسها ولم تُرِد الاستمرار في الكلام. فقال ك: إنَّ لك بطبيعة الحال أسرارك، ولا شك في أنك لن تتكلَّمي عنها مع شخص تعرفتِ عليه منذ نصف الساعة، ولم يؤتَ فرصة ليحكيَ لك عن حاله.

لقد كانت تلك ملاحظة في غير موضعها، كما اتَّضح فيما بعد، لقد أيقظ بها فريدا من غفوة لم تكن في صالحه. فتناولت من شنطة جلدية كانت تعلقها في حزامها قطعة صغيرة من الخشب وسدَّت بها ثقب الباب، وقالت لـ ك، وهي تبذل جهدًا واضحًا، لكيلا يلاحظ أن تغييرًا طرأ على فكرها: أما أنت فأنا أعلم كل شيء عنك، أنت موظَّف المساحة.

ثم أضافت: والآن ينبغي عليَّ أن أذهب إلى العمل.

وذهبَت إلى مكانها خلف مائدة الخدمة، بينما نهض بعض الناس هنا وهناك حاملين أكوابهم الفارغة إلى فريدا يُريدون أن تملأها لهم. وكان ك يريد أن يعود إلى الحديث معها على نحو لا يلفت النظر، فأخذ كوبًا فارغًا من الرف وذهب إليها، وقال: ما زال هناك شيء أريد أن أسأل عنه يا آنسة فريدا. إن الارتقاء من خادمه في حظيرة إلى فتاة تُقدم المشاريب في خمارة، كل شيء خارق للمألوف، ويتطلَّب جهودًا خاصَّة، فهل يعني هذا بالنسبة لإنسانٍ مثلك الوصول إلى الهدف النهائي؟ هذا سؤال أحمق. ولكنَّني أرى في عينيك — وأرجو ألا تسخري مني — أن الغلبة ليسَت لنضال الماضي، بقدرِ ما هي لنضال المستقبل. ولكن مقاومة العالم للإنسان كبيرة، وهي تزداد كِبَرًا، كلما كبُرت الأهداف، وليس من العيب أن يَضمن الإنسان المكافح مساعدة رجل صغير عديم النفوذ، إذا كان هو كذلك مكافحًا. وربما استطعنا ذات مرة أن نتحدَّث معًا في هدوء، بعيدًا عن هذه العيون الكثيرة التي تُحملِق فينا.

وقالت: أنا لا أعرف ماذا تريد.

ولم تظهر في نبرتها هذه المرة، على غير إرادتها، انتصارات حياتها، بل ظهرت فيها أيضًا ضروب خيبة لا نهائية. وراحت تقول عاقدة يدَيها: هل تراك تريد أن تَنتزعني من كلم؟ يا للسماء!

قال ك، وكأنه تعب من طول الريبة: لقد نفذتِ إلى أعماقي، ولقد كان هذا هو هدفي الذي أخفيته أشد الإخفاء. عليك أن تهجري كلم، وأن تُصبحي عشيقتي. والآن يُمكنني أن أنصرف.

ونادى ك: يا أولجا. هيا إلى البيت.

وأطاعت أولجا، وانزلقت من فوق البرميل، ولكنَّها لم تتخلَّص بسرعة من الأصدقاء الذين أحاطوا بها. وهنا قالت فريدا بصوت مُنخفِض وهي تنظر نظرة تهديد إلى ك: متى يُمكنني أن أتكلم معك؟

فسأل ك: هل يُمكن أن أبيت هنا؟

فقالت فريدا: نعم.

– هل يُمكن أن أبقى الآن هنا؟

– اذهب أولًا مع أولجا إلى الخارج، حتى أستطيع التخلص من الناس هنا. ويُمكنك أن تعود بعد هنيهة.

فقال ك: حسنًا.

وانتظر ك أولجا نافذ الصبر. ولكن الفلاحين لم يتركوها تَنصرِف؛ لأنهم كانوا قد ابتكروا رقصة تدور حول أولجا. وكانوا يُحيطون بها على هيئة دائرة، وكانوا يُصدرون صيحة واحدة، فيتقدَّم أحدهم إلى أولجا، فيُحيط خصرها بيده ويدور بها بضع مرات، وكان دوران الراقصين يشتد سرعة، وكانت صيحاتهم الجائعة، المتحشرجة تَندمِج معًا شيئًا فشيئًا فتكاد تُصبح صيحة واحدة. أمَّا أولجا، التي كانت من قبل تُريد أن تخرج ضاحكة خارج الدائرة، فكانت تترنَّح بين هذا وذاك وقد تدلى شَعرها في كل ناحية. وقالت فريدا: إنهم يَبعثون إلى هنا بمثل هؤلاء الناس!

وعضَّت في غضبها على شفتَيها الرقيقتَين. فسأل ك: ومَن هؤلاء؟

فقالت فريدا: إنهم خدم كلم. لقد درج على إحضار هؤلاء الناس الذين يُسبب لي وجودهم الاضطراب الشديد. إنني لا أعرف، يا سيادة موظَّف المساحة، الكلام الذي قلته لك اليوم. فإذا كان ما قلته لك شيئًا قبيحًا فأرجو أن تسامحني، فإن وجود هؤلاء الناس هو السبب. إنهم أنذل وأمقت مَن عرفت! وعليَّ مع ذلك أن أصب البيرة في أكوابهم. ولكم رجوت كلم ألا يأتي بهم! فهل من واجبي أن أحتمل خدم السادة الآخرين؟! أكان يمكنه أن يخفف عني، ولكن رجائي لم يُفِدْ شيئًا! إنهم يندفعون، قبل قدومه بساعة، إلى هنا، اندفاع البهائم إلى الحظيرة. ولا بد أن يذهبوا الآن بالفعل إلى الحظيرة التي ينتمون إليها. ولو لم تكن أنت هنا، لفتحت باب كلم عنوة، ولكان على كلم أن يطردهم بنفسه.

فسأل ك: ولكن ألا يسمع؟

فقالت فريدا: لا، إنه نائم.

وصاح ك: كيف هذا. تقولين إنه نائم؟ ولكنَّني عندما نظرت إلى الحجرة كان مستيقظًا، وكان يجلس إلى المنضدة.

فقالت فريدا: إنه يجلس هكذا دائمًا. وعندما رأيته كان نائمًا. وهل كنت أدعك تنظر، لو لم يكن نائمًا؟ وهذا الوضع الذي رأيته هو الوضع الذي يتَّخذه عندما ينام. إن السادة ينامون كثيرًا، وهذا شيء لا يكاد الإنسان أن يفهمه. وهل كان يستطيع أن يحتمل هؤلاء الناس، لو لم يكن قد نام كثيرًا؟ لا بدَّ أن أطرهم أنا الآن بنفسي.

وتناولت سوطًا من أحد الأركان وقفزت قفزةً واحدة عالية، غير مُطمئنة تمامًا، وكأنها قفزة حَمَلٍ صغير، مندفعة نحو الراقصين. واتجهت في بادئ الأمر نحوهم، وكأنها كانت راقصة جديدة أتت إليهم، وبدا عليها لحظة أنها توشك أن تلقي السوط جانبًا، ولكنها رفعته وصاحت: باسم كلم، اذهبوا إلى الحظيرة! كلكم إلى الحظيرة!

وتبيَّنوا أن الأمر جدٌّ، وشرعوا، وقد تملَّكهم خوف لم يفهمه ك، يندفعون إلى المؤخرة، وانفتح باب تحت ضغط أوائلهم، فنفذ منهم هواء الليل، واختفى الجميع مع فريدا ويبدو أنها كانت تدفعهم إلى الحظيرة.

وسمع ك وسط السكون الذي خيم فجأة وقع خطًى في المدخل. وقفز إلى بعيد يلتمس على نحو ما شيئًا من الأمن، فاختفى وراء منضدة الخدمة وكانت تلك هي الإمكانية الوحيدة للاختفاء. حقيقةً إنه لم يكن ممنوعًا من البقاء في قاعة الشراب، ولكنه كان يريد أن يبيت هنا، ولهذا كان يتحاشى أن يراه إنسان. فما أن انفتح الباب، حتى انزلق تحت المنضدة. ولم تكن هناك خطورة في اكتشافه هناك، ولو تعلَّل بأنه اختفى من الفلاحين الذين استرسلوا في الصخب والعنف، لما كان تعلُّله بعيدًا عن التصديق. وكان القادم هو صاحب الحان الذي صاح: يا فريدا.

وأخذ يقطع القاعة جيئةً وذهابًا عدة مرات.

ومن حُسن الحظ أن فريدا أتت بعد قليل ولم تُشِر إلى ك بشيء بل اشتكت من الفلاحين فقط، وذهبت وراء المنضدة بحثًا عن ك. واستطاع ك أن يلمس قدمها، وأحسَّ عند ذاك بالأمن. ولما لم تشر فريدا إلى ك انتهى الأمر بصاحب الحان إلى أن سأل هو عنه قائلًا: وأين موظَّف المساحة؟

وكان صاحب الحان بصفة عامة رجلًا مهذبًا اكتسب أدبًا رقيقًا من مخالطته المستمرة الحرة لأصحاب الرتب الرفيعة، ولكنه كان يتكلم مع فريدا على نحو يتسم بمزيد من الاحترام، وكان هذا الأسلوب يلفت النظر؛ لأن صاحب الحان كان صاحب العمل وكانت فريدا عاملة، عاملة ممتازة بجرأةٍ لا مراء فيها. وقالت فريدا: لقد نسيتُ موظَّف المساحة تمامًا.

ووضعت قدمها الصغيرة على صدر ك. وأكملت: لا بد أنه انصرف منذ مدة طويلة.

وقال صاحب الحان: ولكنَّني لم أره، ولقد كنت طوال الوقت تقريبًا في المدخل.

وقالت فريدا ببرود: إنه ليس هنا.

فقال صاحب الحان: لعله اختبأ. وإن الانطباع الذي أحدثه فيَّ يجعلني أتوقع منه مثل هذه الأعمال.

وقالت فريدا: لا أظنُّ أن لديه مثل هذه الجرأة.

وضغطت فريدا بقدمها على ك ضغطًا أكثر شدة. لقد كان في كيانها شيء من المرح والانطلاق لم يلحظه ك من قبلُ. وها هو ذا يتجاوز بها الحد بشكلٍ خارق للمألوف فتقول فجأة ضاحكةً: لعلَّه يكون مختبئًا هنا تحت المنضدة!

وانحنت إلى ك، وقبلته قبلة عابرة ثم هبت واقفة وقالت آسفة: لا، إنه ليس هنا!

وكذلك صاحب الحان تصرَّف على نحو يثير الدهشة عندما قال: إنني متضايق جدًّا لأنني لا أعرف على وجه اليقين هل انصرف أم لم ينصرف. فليست المسألة مسألة السيد كلم فحسب، بل مسألة الأوامر كذلك. والأوامر تشملك أنت أيضًا يا آنسة فريدا كما تشملني. أنت مسئولة عن قاعة الشراب، أمَّا أنا فسأفتش بقية البيت. تُصبحين على خير. وأتمنى لك نومًا هادئًا.

ولم يكن صاحب الحان قد غادر القاعة بعدُ عندما أطفأت فريدا النور الكهربي وذهبَت إلى ك تحت المنضدة. وقالت هامسة: حبيبي! حبيبي الحلو!

ولكنها لم تلمس ك، بل رقَدَت على ظهرها، وكأنما أغمي عليها من فرط الحب، وبسطت ذراعيها، فلا شك أن الوقت كان يبدو أمام حبها السعيد طويلًا طولًا لا نهاية له، وأطلقت زفرات كانت أقرب إلى التنهُّد منها إلى التغني بأغنية صغيرة. ثم هبت مذعورة لأن ك ظل ساكنًا يُفكر، وشرعت تشده كما يفعل الأطفال، وقالت: هيا بنا! إننا نكاد نختنق هنا أسفل المنضدة.

وتعانقا، وكان الجسم الصغير يحترق في يدي ك، وتدحرجا في غيبوبة حاول ك دائمًا أن ينجو بنفسه منها دون أن يتمكن، وتدحرجا بضع خطوات، وارتطما ارتطامًا مكتومًا بباب كلم، ورقدا فيما وقع على الأرض من بقايا البيرة وغيرها من قاذورات. ومرت ساعات، ساعات من التنفُّس المشترك، والنبض المشترك، كان ك خلالها يحس بأنه يضل السبيل أو أنه يتوغل في الغربة توغلًا لم يحدث لإنسان من قبل، يتوغل في غربة ليس فيها ما يشبه الوطن حتى الهواء فيها كان غريبًا، يكاد الإنسان من فرط غربته أن يختنق فيه. ولم يستطع ك من فرط المغريات المجنونة أن يفعل شيئًا أكثر من الاستمرار في السير، الاستمرار في الضلال. وهو لهذا لم يحسَّ في بداية الأمر بالفزع، بل أحس بغشاوة تحيطه بالسلوى، حتى جاءه صوت عميق، فيه نبرة الأمر ونبرة الاستهتار معًا، من حجرة كلم يُنادي على فريدا. فتلقف ك الصيحة ونقلها إلى أذن فريدا قائلًا: يا فريدا.

وهمَّت فريدا أن تهبَّ ملبية تستجيب في ذلك لطاعة غريزية شكلية في ذاتها، ولكنها ما لبثت أن فكرت وتذكرت أين هي، وتمدَّدت، وضحكت في سكون وقالت: لن يخطر ببالي أن أذهب إليه، لن أذهب إليه أبدًا.

وأراد ك أن يعترض على كلامها، وأن يدفعها إلى الذهاب إلى كلم، وشرع يبحث عن بقايا قميصها، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئًا، فقد كان سعيدًا غاية السعادة لإمساكه

بفريدا بين يدَيه، ولكنه كان سعيدًا وخائفًا معًا؛ لأنه كان يتصور أن فريدا إذا ضاعت منه، فسيضيع منه كل شيء لدَيه. وكأنما ازدادت فريدا بمُوافقة ك قوةً، فقبضت يدها، وضربت بالقبضة على الباب وصاحت: أنا مع موظَّف المساحة! أنا مع موظف المساحة!

وهنا لزم كلم السكون. ولكن ك نهض وركع بجوار فريدا ونظر إليها في ضوء الفجر المضطرب. ماذا حدث؟ أين كانت آماله؟ ماذا كان في استطاعته أن ينتظره من فريدا بعد ما انكشف كل شيء؟ لقد ظلَّ ليلة بطولها يتقلب هنا في بقايا البيرة على الأرض — وإن رائحتها لتدور الآن بعقله — بدلًا من أن يلتزم بالحذر على قدر ضخامة العدو وضخامة الهدف. وقال بصوت خفيض: ماذا فعلت؟ لقد ضعنا أنت وأنا.

وقالت فريدا: لا، أنا وحدي التي ضِعت. ولكنني كسبتك. كن هادئًا. وانظر الآن كيف يضحك الاثنان.

وقال ك: مَن؟

والتفَتَ خلفه. كان مساعداه يجلسان على المنضدة، وقد بدا عليهما السهر، ولكنهما كانا مَرِحَين. كان مرحهم هذا هو المرح الذي ينبع من تأدية الواجب بإخلاص. وصاح ك فيهما وكأنهما كانا مسئولَين عن كل شيء.

– ماذا تُريدان هنا؟

وبحث حواليه عن السوط الذي كان مع فريدا في الليلة الماضية. وقال المساعدان: كان علينا أن نبحث عنك لأنك لم تنزل إلينا في قاعة الحان. ولقد بحثنا عنك عند برناباس وأخيرًا وجدناك هنا. ولقد جلسنا هنا طوال الليل. فليسَت الخدمة بالأمر السهل.

فقال ك: إنني أحتاج إليكم بالنهار، لا بالليل. اغربا عنِّي.

ولكنَّهما قالا دون أن يتحرَّكا: والوقت نهار.

وكان الوقت بالفعل نهارًا، وانفتح باب الفناء، واندفع الفلاحون داخلين ومعهم أولجا التي كان ك قد نسيَها تمامًا. كانت أولجا نشيطة كما كانت بالليل على الرغم من سوء حال ملابسها وشَعرها. وما إن دخلت بالباب حتى بحثت عيناها عن ك، وقالت والدموع تكاد تنهمر من مآقيها: لماذا لم تذهب معي إلى البيت؟

ثم قالت: من أجل بنت كهذه؟!

وكررتها مرارًا. كانت فريدا قد اختفت لحظة، وإذا هي تعود ومعها صرة صغيرة بها بعض الملابس. وانتحت أولجا جانبًا وقد تملَّكها الحزن. وقالت فريدا: والآن يُمكننا أن نذهب.

كان من البديهي أنها تعني بالذهاب إلى حان الجسر. وسار الركب؛ ك وفريدا وخلفهما المساعدان. وأظهر الفلاحون كثيرًا من الاحتقار لفريدا، وكان هذا شيئًا بديهيًّا؛ لأنها كانت حتى تلك اللحظة تسيطر عليهم. بل إنَّ أحد الفلاحين تناول عصا وتظاهر بأنه يريد أن يمنعها من الانصراف إلا أن تقفز من فوق العصا. ولكن نظرة منها كانت كافية لإبعاده. وتنفَّس ك ملء رئتيه في الخارج حيث الجليد. ولقد كانت سعادته بالمكان الطلق كبيرة، مكَّنته من احتمال صعوبة الطريق وحده في هذه المرة. ولو كان ك وحده، لسار أفضل من الآن. فلمَّا وصل إلى حان الجسر ذهب من فوره إلى حُجرته ورقَد في سريره، وأعدَّت فريدا قريبًا منه فراشًا لها على الأرض. وكان المساعدان قد دخلا الحجرة، فأخرجهما ك منها، فعادا من خلال النافذة، ولم يستطع ك لفرط تعبه أن يطردهما مرة أخرى. وأتت صاحبة الحان خصوصًا لتحية فريدا التي نادَتها «أماه»، وكانت التحية القلبية مصحوبة بقُبلات وعناق طويل لم يفهم ك من أمرها شيئًا. ولم يكن الهدوء في الحُجرة الصغيرة هدوءًا بمعنى الكلمة، فكثيرًا ما كانت الخادمتان تأتيان وتُحدثان ضجة بأحذيتهما الرجالية الطويلة الثقيلة، تُريدان إما إحضار شيء أو أخذ شيء. وإذا كانتا تحتاجان إلى شيء من الأشياء الكثيرة المختلفة التي تكدست على سرير ك، فقد كانتا تشدَّانه من تحته دون مراعاةً له. وكانت الخادمتان تحييان فريدا تحية الندِّ للند. وعلى الرغم من هذا الصخب فقد لزم ك السرير طوال النهار والليل. وكانت فريدا تُعينه على الحاجات البسيطة. فلما نهض في الصباح التالي أخيرًا وقد انتعش كل الانتعاش، كان ذلك هو اليوم الرابع في إقامته بالقرية.

الفصل الرابع

كان ك يودُّ أن يُسِرَّ إلى فريدا بحديث، ولكن المساعدَين — وكانت فريدا تمزح وتضحك معهما أحيانًا — كانا يعوقانه عن ذلك بوجودهما الذي يَفرضانه فرضًا. والحقيقة أنهما كانا يكتفيان بالقليل؛ فقد جلسا على جلبابين قديمين من جلابيب النساء في ركن من الحجرة على الأرض. وكان همُّهما، كما قالا لفريدا، ألا يقلقا السيد موظَّف المساحة، وألا يشغلا إلا أقل مكان ممكن، وكانا يقومان من أجل هذا الهدف — بطبيعة الحال وهما يهمسان ويضحكان ضحكًا مكتومًا — بمحاولات مختلفة لضم أذرعهما وسيقانهما، حتى تكورا معًا، ولم يكن ك يرى إلا كرةً كبيرة في ظلام أحد الأركان. ومع ذلك فقد كان ك يعلم من خبراته في وضح النهار، أنهما يُجيدان الملاحظة، وأنهما دائمًا يحملقان في ك، فيصطنعان عبث الصبية، وينظران من خلال أيديهما وكأنها منظار مقرب أو ما شابه ذلك من العبث، أو يحملقان فيه ويلوحان كأنهما يصلحان من لحيتَيهما وكانا يهتمان بهما اهتمامًا كبيرًا ويُقارنان بينهما مرات لا حصر لها من حيث الطول والكثافة، ويحتكمان إلى فريدا.

وكثيرًا ما كان ك ينظر من سريره إلى ما يفعله الثلاثة ولا يحفل به مطلقًا.

فلمَّا أحس بأنه أوتي من القوة ما يُمكِّنه من مغادرة الفراش، أسرع الجميع إليه لخدمته. ولكنه لم يكن قد بلغ من القوة ما يمكنه من رفض خدماتهم، ولاحظ أنه انتهى بهذا إلى نوعٍ ما من التبعية إليهم، يُمكن أن تؤدِّي إلى عواقب وخيمة، ولكنه كان مضطرًّا إلى ترك الأمور تسير سَيرها. ولم يكن من المستقبَح على أيَّة حال أن يجلس إلى مائدة ويتناول قهوة جيدة أحضرتها فريدا، ولا أن يتدفَّأ إلى المدفأة التي حمتْها فريدا، ولا أن يرسل المساعدَين المتحمِّسَين المُتعثِّرَين صاعدَين نازلَين الدرج ليُحضِرا الماء والصابون والمشط والمرآة، ثم ليُحضرا كأسًا صغيرة من خمر الروم طلبها ك بصوت مُنخفِض ولكنه مفهوم.

وقال ك في غمرة هذه الأوامر والخدمات، يحفزه المزاج المعتدل أكثر مما يحفزه الأمل في النجاح: اذهبا الآن، اذهبا كلاكما، لم أَعُد الآن في حاجة إليكما، وأريد أن أتكلم وحدي مع الآنسة فريدا.

فلمَّا لم يرَ على وجهيهما مقاومة واضحة، قال لهما على سبيل التعويض: وسنذهب نحن الثلاثة بعد ذلك لرئيس مجلس القرية، فانتظراني تحت في القاعة. ومن الغريب أنهما انصاعا لأمره، وإن قالا قبل أن ينصرفا: من الممكن أن ننتظر هنا.

وأجاب ك: أنا أعرف هذا، ولكني لا أريد.

وتضايَق ك — أو لعله استحسن على نحو ما — عندما جلست فريدا على حِجره بعد خروج المساعدَين مباشرةً، وقالت له: فيمَ غضبك يا حبيبي من المساعدَين؟ لا ينبغي أن يكون لنا أسرار تخفيها عليهما. إنهما مخلصان.

فقال ك: آه. مخلصان! إنهما يُحملقان فيَّ دائمًا، وهذا شيء سخيف، ولكنه شيء بشع.

فقالت: أظن أنني أفهمك.

وتعلَّقت برقبته، وأرادت أن تقول شيئًا ولكنها لم تستطع الاستمرار في الكلام. ولما كان الكرسي مجاورًا للسرير فقد مالا ناحيتَه وانقلَبا فيه. وها هما هذان يرقدان ولكنَّهما لم يكونا مُستسلمَين كما كان بالليل. كانت هي تبحث عن شيء، وكان هو يبحث عن شيء، في عنف، وكلٌّ منهما يعقص أساريره، ويدسُّ رأسه في صدر الآخر، كانا يبحثان، وكان عناقهما، وكان جسماهما المُضطربان لا يجعلانهما يَنسيان واجبهما، واجب البحث، بل يُذكرانهما به. كانا ينبشان في جسمَيهما، كما تنبش الكلاب اليائسة في الأرض. وكانا يمران بلسانَيهما كلٌّ على وجه الآخر التماسًا لسعادة أخرى في يأسهما وعجزهما. حتى أسكنهما التعب وجعلهما يحسَّان بالامتنان أحدهما حيال الآخر. وصعدت الخادمتان إليهما، وقالت إحداهما للأخرى: انظري كيف يرقدان!

وألقت عليهما ملاءة رأفةً منها بهما.

فلما تخلَّص فيما بعد من الملاءة، ونظر حواليه، وجد — ولم يدهش هو لما وجد — المساعدَين قد عادا إلى ركنهما، وكانا كل منهما يحضُّ صاحبه، وهو يشير بإصبع إلى ك، على الجد، وأداء التحية الواجبة. وكانت هناك كذلك، صاحبة الحان تجلس ملتصقة بالسرير، وترفي جوربًا، وهو عمل صغير لم يكن يتناسب إلا قليلًا مع جسمها الهائل الذي أوشك أن يُظلم الحجرة. وقالت وهي ترفع وجهها الذي ارتسمت فيه طيات الشيخوخة وإن ظل في مجموعه كتلة منبسطة، ولعله كان في زمانه وجهًا جميلًا: إنني أنتظر منذ وقت طويل.

كانت كلماتها تحمل نغمة اللوم، وكان لومًا في غير موضعه؛ لأن ك لم يطلب إليها أن تأتي. ولهذا فقد أكَّد كلماتها بهزة من رأسه فقط، ثم اعتدل في الجلسة. وكذلك نهضت فريدا، وتركت ك واستندت إلى كرسي صاحبة الحان. وقال ك وهو مهوش الفكر: ألا يمكن تأجيل هذا الذي تُريد السيدة صاحبة الحان قوله لي، حتى أعود من عند رئيس مجلس القرية؟ فهناك حديث هام أريد إجراءه هناك؟

فقالت صاحبت الحان: هذا الحديث أكثر أهمية، صدقني، يا سيادة موظف المساحة. ويبدو أن الأمر هناك أمر عملٍ، أما الأمر هنا فأمر إنسان أمر فريدا، خادمتي العزيزة.

فقال ك: آه! طبعًا! ولكني لا أعرف لماذا تترك هذه المسألة لنا نحن.

فقالت صاحبة الحان: السبب هو الحب، والاهتمام.

وجذبت رأس فريدا إليها، وكانت فريدا وهي واقفة، لا تصل إلا إلى كتف صاحبة الحان وهي جالسة. وقال ك: ما دامت فريدا تثق فيك هذه الثقة، فلا يُمكن إلا أن أقف منك نفس الموقف. ولما كانت فريدا قد قالت منذ قليل إن المساعدَين مخلصان، فنحن إذن أصدقاء فيما بيننا. ولهذا يمكنني أن أقول لك، يا سيدتي صاحبة الحان، إنني أعتقد أن أفضل شيء هو أن نتزوَّج، فريدا وأنا، وفي أقرب وقت. وأنا للأسف لن أستطيع أن أعوِّض فريدا عما فقدته بسببي، أعني وظيفتها في حان السادة، وصداقتها لكلم.

ورفعت فريدا وجهَها وكانت عيناها مليئتين بالدموع، ولم يكن فيهما أي تعبير عن الانتصار.

وقالت: لماذا أنا بالذات؟ لماذا وقع الاختيار عليَّ أنا بالذات؟

وسأل ك وصاحبة الحان معًا: ماذا تعنين؟

وقالت صاحبة الحان: إنها، الطفلة المسكينة، مُرتبكة! مرتبكة لالتقاء الكثير من السعادة مع كثير من التعاسة. وكأنما أرادت فريدا أن تؤكد هذه الكلمات فارتمَت على ك وقبلته بعنف وكأنما لم يكن في الحجرة غيرهما، ثم خرَّت أمامه تبكي، وتُعانقه، وهي راكعة. وبينما أخذ ك يداعب شَعر فريدا بيديه، سأل صاحبة الحان: يبدو أنك ترَين أنني على حقٍّ؟

فقالت صاحبة الحان: إنك رجل شريف.

وكانت الدموع تحبس صوتها هي الأخرى، وكانت تبدو واهنة قليلًا وتتنفس بصعوبة. ومع ذلك فقد وجدت لديها القوة لتقول: لا بدَّ من التفكير الآن في الضمانات التي ينبغي أن تُقدمها إلى فريدا، فأنت، على الرغم من احترامي الكبير لك، رجل غريب، لا يُمكنك أن

تستشهد بأحد، وظروفك العائلية غير معروفة هنا. ولهذا فإن الضمانات ضرورية، وهذا شيء لا شك في أنك تُقدره، يا سيادة موظَّف المساحة، ولقد أوضحت أنت نفسك ما تَفتقِده فريدا نتيجة لعلاقتها بك.

وقال ك: بكل تأكيد. ضمانات! بطبيعة الحال! والأفضل تقديمها أمام الموثق، وربما تدخلت كذلك إدارات رسمية أخرى. ولكن هناك شيء لا بدَّ أن أنهيَه قبل الزواج. لا بد أن أتكلم مع كلم.

فقالت فريدا: هذا محال!

ونهضَت قليلًا وضغطت نفسها قليلًا إلى ك ثم أضافت: يا لها من فكرة!

وقال ك: لا بد! وإذا استحال عليَّ أن أقوم أنا بهذا، فعليكِ أن تقومي لي به.

وقالت فريدا: أنا لا أستطيع، يا ك، أنا لا أستطيع. لن يتكلم كلم معك أبدًا.

وسأل ك: فهل يتكلم معك أنت؟

فقالت فريدا: لا! لا معك ولا معي، هذه أمور مستحيلة استحالة تامة.

والتفت إلى صاحبة الحان وقد بسطت ذراعيها وقالت: أترَين يا سيدتي صاحبة الحان ماذا يطلب؟!

وقالت صاحبة الحان وقد أصبحت هيئتها مفزعة بعد أن اعتدلت في جلستها وباعدت بين ساقيها وأبرزت ركبتيها الضخمتين من الثوب الرقيق: إنك لعجيب الشأن، يا سيادة موظَّف المساحة.

وسأل ك: ما هي علة الاستحالة؟

وقالت صاحبة الحان: سأشرح لك.

وكانت نبرة صوتها تدلُّ على أن هذا الشرح ليس آخر جميل تصنعه بل أول عقوبة تقدمها. قالت: سأشرح لك. حقيقةً أنني لا أنتمي إلى القصر، وأنني لست إلا امرأة، ولست إلا صاحبة حان، حانٍ وضيع — وهو ليس وضيعًا، ولكنه يوشك أن يكون وضيعًا — ولعلك لهذا تُقلِّل من شأن شرحي، ولكنَّني كنتُ في حياتي يقظة مُفتَّحة العينين، ولقد خالطتُ الكثيرين، وحملتُ عبء الحان كله على كاهلي؛ لأن زوجي، وإن كان إنسانًا طيبًا، ليس صاحب حان، ولن يفهم أبدًا معنى المسئولية. وأنت على سبيل المثال مَدين لإهماله — فقد كنت وأنا في مساء ذلك اليوم خائرة القوى أكاد أقع من فرط الإجهاد — بأنك الآن في القرية. وبأنك تجلس في السرير هنا في سلام وأمان.

وسأل ك وقد استيقظ من نوع التشتُّت الذي كان قد تملَّكه وانفعل من فرط الفضول أكثر ممَّا انفعل من الغضب: كيف هذا؟

فصاحت صاحبة الحان مرة أخرى وهي ترفع السبابة في وجه ك: أنت مدين لإهماله وحدَه دون غيره.

وحاولت فريدا أن تهدئها. فقالت صاحبت الحان بحركة سريعة من جسمها كله: ماذا تُريدين؟! لقد سألني السيد موظف المساحة ولا بد أن أجيب. وإلا كيف يفهم أمرًا بديهيًّا لدينا، وهو أن السيد كلم لن يكلمه أبدًا، وأنا أقول لن يكلمه وينبغي أن أقول لن يستطيع أن يكلمه أبدًا. أتسمع يا سيادة موظف المساحة؟! إن السيد كلم سيد من القصر، وهذا في حد ذاته يعني، بغض النظر عن وظيفة كلم الأخرى، أنه رفيع الرُّتبة. فمَن أنت يا مَن تطلب بتواضُع موافقتك على الزواج؟ أنتَ لستَ من القصر، وأنت لست من القرية، أنت لستَ شيئًا. ولكنك للأسف مع ذلك شيء، أنت غريب، أنت شخص زائد، شخص في الطريق، شخص تنشأ بسببِه المتاعب، شخص تخرُج الخادمتان بسببه من حجرتهما، شخص لا نعرف نواياه، شخص يُغوي صغيرتنا العزيزة الحبيبة فريدا ولا نستطيع أن نعطيه إيَّاها زوجة. وأنا لا أوجِّه إليك اللوم في الحقيقة بسبب هذا كله. أنت كما أنت. ولقد رأيت من قبل في حياتي الكثير؛ وأصبح في استطاعتي أن أحتمل مثل هذا المنظر. ولكن تصور ماذا تطلب! إنك تطلب أن يُكلمك رجل مثل كلم! لقد سمعتُ في ألم أن فريدا تركتكَ تنظر من ثقب الباب، إنك، عندما فعلَتْ هي ذلك، كنتَ أنت قد أغوَيتها. فقل لي كيف احتملتَ منظر كلم؟ لا ينبغي أن تجيب، فأنا أعرف، لقد احتملتَه جيدًا جدًّا. فليس في مقدورك أن ترى كلم فعلًا، وليس هذا غرورًا مني، فأنا نفسي لا أستطيع أن أراه. وأنت تقول إنك تُريد أن يتكلَّم كلم معك. إنه لا يتكلم مع أهل القرية، ولم يحدث قط أن تكلم مع أحد من القرية. ولقد نالت فريدا امتيازًا عظيمًا، امتيازًا سأظل أفخر به حتى مماتي، وهو أنه على الأقل اعتاد أن يُنادي اسمها، وأنها كانت تستطيع أن تُحدثه ما شاءت، وأنها تلقَّت التصريح بثقب الباب، ولكنه لم يتكلَّم معها. أما إنه كان أحيانًا ينادي فريدا، فلا يعني بالضرورة أنه كان يودُّ الحديث إليها، كل ما في الأمر أنه كان ينادي اسم فريدا — وأين هذا الذي يعرف نواياه؟ — وأما أن فريدا كانت تأتي مسرعة، فهذا شأنها — وإذا كان لا يعترض على دخولها، فما هذا إلا لطيبته، ولا يُمكن لإنسان أن يؤكد أنه كان يناديها بمعنى الكلمة. ولقد انتهى هذا الذي كان إلى الأبد، انتهى نهائيًّا بطبيعة الحال، وربما ظل كلم يهتف باسم فريدا، هذا مُمكن، ولكنها، البنت التي استسلمت لك، لن يسمح لها بكل تأكيد بأن تدخل إليه. وهناك شيء لا أستطيع أن أفهمه برأسي المسكين، وهو أن بنتًا، يقولون عنها إنها عشيقة كلم — وأنا شخصيًّا أعتبر هذه مبالغة شديدة — تدعك تلمسها مجرد اللمس.

فقال ك: هذا شيء عجيب عجيب بكل تأكيد!

وأجلس ك فريدا على حجره، فانصاعت لذلك على الفور وإن طأطأت رأسها. ثم راح يقول: ولكن هذا يُثبت، على ما أعتقد، أن الأمور لا تسير كلها على النحو الذي تعتقدين أنها تسير عليه. فأنتِ مثلًا على حق في قولك إنني بالقياس إلى كلم لا شيء، وإذا طلبت الآن أن أتكلَّم مع كلم، ولم أتراجع عن ذلك حتى رغم شروحك، فليس معنى ذلك أنني أستطيع أن أحتمل منظر كلم بدون باب يفصل بيننا، أو أنني لن أجري خارجًا من الحُجرة عند ظهوره، ولكن مثل هذا الخوف، وإن كان له ما يُبرره، لا يعتبر في نظري سببًا يمنعني من أن أجازف. فإذا تمكنت من أن أصمد له، فلن تكون هناك ضرورة لكي يتكلم معي، يكفيني أن أرى الانطباع الذي تحدثه فيه كلماتي، فإذا لم تحدث كلماتي انطباعًا، أو إذا لم يُصغِ إليها، فقد كسبت شيئًا وهو أنني تكلمت بحرية أمام واحد من أولي السلطان. أما أنتما — أنت يا سيدتي صاحبة الحان بمعرفتك العظيمة بالحياة والناس، وأنت يا فريدا يا مَن كنتِ حتى الأمس عشيقة كلم … ولست أرى سببًا في التخلي عن كلمة عشيقة — فيُمكنكما بكل تأكيد أن تُدبِّرا لي بسهولة فرصة الحديث مع كلم. وإذا لم تعرض طريقة أخرى لذلك إلا طريقة اللقاء في حان السادة، فلا بأس، ولعله لا يزال اليوم كذلك هناك.

وقالت صاحبة الحان: هذا محال! وإنني لأرى أنك تَفتقِر إلى القُدرة على الفهم. ولكن قل لي عمَّ تريد أن تتكلَّم معه؟

فقال ك: عن فريدا بطبيعة الحال.

وتساءلت صاحبة الحان: عن فريدا؟

اتجهت إلى فريدا وهي لا تُصيب فهمًا: أتسمعين يا فريدا، إنه ريد أن يتكلَّم عنك مع كلم! هو يتكلم مع كلم!

فقال ك: آه! إنك يا سيدتي صاحبة الحان امرأة حاذقة، تبعثين على الاحترام، ولكنَّك تفزعين لكل صغيرة. إنني أريد أن أتكلم معه عن فريدا، وهذا شيء ليس بالهائل، بل هو شيء بديهي. لأنك تُخطئين إذا اعتقدت أن فريدا أصبحت عديمة الأهمية في نظر كلم، منذ اللحظة التي ظهرتُ أنا فيها. إنك تُقللين من شأنه إذا ظننتِ هذا. إنني أحسُّ تمام الإحساس، بأنني أتجاوز الحدود إن أنا أردت أن أعلمك شيئًا في هذا الصدد، ولكنَّني مُضطرٌّ لذلك. لا يمكن أن تكون علاقة كلم بفريدا قد تغيرت بسببي. فإما أنه لم تكن هناك بينهما علاقة جوهرية — وهذا ما يقوله أولئك الذين يُشرِّفون فريدا باسم عشيقته — فهي اليوم ليست قائمة كذلك، وإما أنه كانت هناك علاقة، ولا يمكن في هذه الحالة أن تَضطرب

بسببي؛ لأنني كما قلتِ، والصواب في جانبِكِ، لا شيء في نظر كلم. هذه أشياء يظنها الإنسان في اللحظة الأولى لفزعه ظنًّا، ولكنه عندما يُفكر أقل تفكير، لا يلبث أن يردها إلى الصواب. ولندع فريدا تقول رأيها في هذا.

وقالت فريدا وقد سبحت بنظرها إلى بعيد، ووضَعَت خدَّها على صدر ك.

– إنَّ الأمر بكل تأكيد كما قالت الأم، إن كلم لم يَعُد يريد أن يعرف عني شيئًا. وليس السبب في ذلك بطبيعة الحال هو أنك، يا حبيبي أتَيت، فهذا أمر لا يمكن أن يهزَّه. لكني أعتقد أن لقاءنا تحت منضدة الخدمة كان من عمله! تباركَتْ تلك الساعة ولا لُعنت!

كانت كلمات فريدا حلوة، فأغمض ك عينيه لحظات ليدع هذه الكلمات تتغلغل فيه، ثم قال ببطء: إذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فهذا أدعى إلى ألا يكون هناك سبب للخوف من محادَثة كلم.

فقالت صاحبة الحان وهي تنظر إلى ك من أعلى إلى أسفل: حقًّا! إنك تُذكرني أحيانًا بزوجي! إنه عنيد وفجٌّ مثلك! لم يمضِ عليك في المكان إلا بضعة أيام، وتدَّعي أنك تعرف كل شيء أحسن من أهله، أحسن مني أنا المرأة المسنة، ومن فريدا التي رأت وسمعت الكثير في حان السادة! وأنا لا أنكر أن الإنسان يستطيع أحيانًا أن يحقِّق شيئًا ضد اللوائح وضد التقاليد القديمة، ولكنَّني لم أشهد شيئًا من هذا القبيل، هناك أمثلة على ذلك، هذا محتمل. ولكن الإنسان حتى في هذه الحالة، لا يمكن أن يصل عن هذا الطريق الذي تسلكه أنت إذ تقول دائمًا «لا» «لا»، ولا تعتمد إلا على مخِّك، وتضرب صفحًا عن النصائح التي تصدر عن أطيب نية. فهل تظنُّ أنني مهتمة بك؟ هل اهتممت بك عندما كنت بمفردك؟ ولو أنني فعلت ذلك لكان خيرًا ولجنَّبتك بعض الأشياء. الشيء الوحيد الذي قلته آنذاك بشأنك قلته لزوجي. لقد قلت له: «ابتعد عنه!» وكان الأحرى بي أن أفعل ذلك أنا الآن، ولكن فريدا جرَّتني الآن إلى مسألة يقوم عليها مصيرها. وأنت مدين لفريدا — سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك — بأنني أبدي لك اهتمامًا واحترامًا. وليس من حقك أن تطردني بكل بساطة؛ لأنك مسئول أمامي مسئولية قاسية؛ لأنني الوحيدة التي ترعى فريدا الصغيرة رعاية الأم لأولادها. من الممكن أن تكون فريدا على حقٍّ، من الممكن أن يكون كل ما جرى مشيئة كلم، ولكني لا أعرف عن كلم شيئًا الآن، وأنا لن أتكلم معه أبدًا، فوصولي إليه مُحال، أما أنت فتجلس هنا، وتحتجز عزيزتي فريدا، وأنا كذلك — ولماذا أخفي عليك هذا — أحتجزك. نعم، أنا أحتجزك. وما عليك إلا أن تُحاول، أيها الشاب، إذا أخرجتك من البيت، أن تجد سكنًا في أي مكان بالقرية، حتى ولو في عشة من عشش الكلاب.

فقال ك: شكرًا، وهذه كلمات صريحة، وأنا أصدقك تمامًا. إذن فوضعي يفتقر إلى الاطمئنان كل الافتقار، ووضع فريدا مُرتبط كذلك بوضعي.

فقاطعته صاحبة الحان صائحة في غضب: لا، إن وضع فريدا لا علاقة له في هذه الناحية بوضعك. ففريدا تنتمي إلى بيتي، وليس لإنسان الحق في أن يقول إن وضعها يفتقر إلى الاطمئنان.

فقال ك: حسنًا، حسنًا. أنا أقرُّ لكِ بأنك على حق في هذا، خاصةً وأن فريدا، لأسباب لا أعلمها، تخاف منكِ خوفًا مفرطًا، على ما يبدو، ولا تستطيع أن تتدخَّل. لنَبقَ مؤقتًا عند موضوعي أنا. إن وضعي يفتقر إلى الاطمئنان إلى أقصى حد، هذا ما لا تُنكرينه، بل إنك تجتهدين في إثباته. وهذا الأمر مثله مثل كل ما تقولين، أمر ليس صحيحًا تمام الصحة، بل إلى حد كبير فقط. فأنا على سبيل المثال أعرف مكانًا طيبًا جدًّا للمبيت، وهو تحت تصرُّفي.

وصاحت فريدا وصاحبة الحان في وقت واحد وفي شغف شديد وكأنما كانت أسبابهما واحدة: أين؟ أين؟

فقال ك: عند برناباس.

وصاحت صاحبة الحان: الحثالة! الحثالة الأنذال! عند برناباس! أتسمعان!

واتجهت إلى الركن وكان المساعدان قد برزا منذ وقت طويل، ووقفا يتأبَّط أحدهما زراع الآخر وراء صاحبة الحان، التي بدت كأنها تحتاج إلى سند، وأمسكت بيد أحدهما وقالت: أتسمعان أين يعبث السيد! في بيت أسرة برناباس! إنه ينال هناك بطبيعة الحال مكانًا للمبيت! ليته بات هناك ولم يَبِت في حان السادة. ولكن أين كنتما؟

وقال ك قبل أن يشرع المساعدان في الإجابة: سيدتي صاحبة الحان، إنهما مساعداي، أنت تعاملينهما كأنما كانا مساعدَيك أنت، وحارسَين عليَّ. إنني مستعد لمناقشتك بكل أدب في كل آرائك، إلا في رأيك في مساعديَّ؛ لأن المسألة واضحة كل الوضوح. إنني لذلك أرجوك ألا تتكلَّمي مع مساعدي، وإذا لم يُجدِ رجائي نفعًا، فسأمنع مساعديَّ من الإجابة.

فقالت صاحبة الحان: إذن ليس لي أن أتحدث إليكما!

وضحك الثلاثة، ضحكت صاحبة الحانة ساخرة، ولكن أكثر رقة مما توقَّع ك، وضحك المساعدان بأسلوبهما المعهود الذي يعني الكثير ولا يعني شيئًا، ويرفض كل مسئولية.

وقالت فريدا: لا ينبغي أن تغضب. بل عليك أن تفهم انفعالنا الفهم الصحيح. أما إننا ينتمي أحدنا إلى الآخر الآن، فأمر يرجع الفضل فيه، إن شئنا، إلى برناباس وحده، وأنا عندما رأيتك للمرة الأولى في الخمارة، وكنت داخلًا تتأبَّط ذراع أولجا، كنت لم تكن الشيء

الوحيد الذي لا يُثير اهتمامي؛ فقد كانت كل الأشياء تقريبًا لا تُثير اهتمامي. ولقد كنت أنا آنذاك غير راضية على أشياء كثيرة، وكانت هناك أشياء تغضبني. ولكن أي نوع من عدم الرضا، وأي نوع من الغضب؟ لقد أهانني على سبيل المثال أحد الزبائن في الخمارة — وكان الزبائن دائمًا يتعقَّبونني — ولقد رأيت أنت الرجال هناك، وكان يأتي مَن هُم أقبح منهم، فليس خدم كلم بأقبح الرجال — قلت إن أحد الزبائن أهانني. فماذا كان معنى ذلك بالنسبة إليَّ؟ لقد أحسست كأن هذا الذي يحدث قد حدث قبل سنين عديدة، أو كأنه لم يحدث لي على الإطلاق، أو كأنَّني أسمع البعض يحكي لي عنه أو كأني قد نسيتُه. ولكنني لا أستطيع أن أُصوِّره، ولا أستطيع حتى أن أتصوره؛ فقد تغيَّر كل شيء منذ أن هجرني كلم.

وقطعت فريدا روايتها، ومالت برأسها حزينة، وعقدت يديها على حجرها.

وصاحت صاحبة الحان: أرأيت!

ولاح عليها كأنما لا تتكلَّم بلسانها بل بلسان فريدا، وتقدمت ناحيتها حتى أصبحت تجلس بجانبها، وراحت تقول: أرأيت يا حضرة موظَّف المساحة نتائج أفعالك عليَّ! وعلى مساعدَيك كذلك، ولم يَعُد لي أن أتكلم معهما، أن يروا هم أيضًا نتائج أفعالك ليتعظوا! لقد انتزعتَ فريدا من أسعد حالٍ أوتِيَتْه، ولقد تمكَّنتَ من ذلك؛ لأن فريدا لم تستطع، لرقتها الصبيانية المفرطة، أن تحتمل النظر إليك مُتأبطًا ذراع أولجا، وقد بدا عليك أنك وقعت في براثن العائلة البرناباسية. فأنقذتك وراحت هي ضحية ذلك. والآن وقد حدث هذا. بعد أن ضيعت فريدا كل ما كان لديها لقاء سعادة الجلوس على ركبتك، تأتي أنت وتمثل دور المنتصر، فقد عرضت لك إمكانية المبيت عند برناباس. ولعلك تريد أن تبرهن بذلك على أنك مستقلٌّ عني. ولو قد بت عند برناباس، لكنت قد أصبحت بكل تأكيد مستقلًّا عني، استقلالًا كان سيُحتِّم عليك أن تترك بيتي في الحال، بأقصى سرعة.

فقال ك: أنا لا أعرف خطايا أسرة برناباس.

وفي هذه الأثناء رفع فريدا بحذر، وكأنها شيء لا حياة فيه، وأجلسها ببطء على السرير، ونهض هو نفسه واقفًا، ثم قال: ولعلَّكِ على صواب في ذلك، ولكني كنتُ على صواب بكل تأكيد، عندما رجوتكِ أن تتركي مسائلنا، مسائلي ومسائل فريدا، لنا نحن وحدنا. لقد ذكرت من قبل شيئًا عن الحب والاهتمام، ولكني لم أتبيَّن منهما شيئًا، بل على العكس تبينت الكراهية والسخرية والطرد. فإذا كنتِ قد سعيت لفصلي عن فريدا، أو لفصل فريدا عني، فلقد أبديت مهارة كبيرة في ذلك، ولكنك، على ما أعتقد، لن تُوفَّقي في ذلك، وإذا حدث

ونجحت في ذلك فسوف — واسمحي لي هنا بتهديد غامض — تندمين ندمًا مريرًا. أما فيما يختص بالمسكن الذي تَمنحينني إيَّاه — ولا بد أنك تعنين به هذا الجُحر البشع — فليس من المؤكد بحال من الأحوال أنك تفعلين ذلك بمحض إرادتك، ويبدو أن هناك أمرًا بهذا الخصوص من ديوان الجرافية. ولسوف أُبلغها بأنك أنذرتِني بالإخلاء، وإذا ما حصلت على مسكن آخر، فلعلك تتنفَّسين بارتياح، أما أنا فسأتنفَّس من أعماقي. وسأذهب الآن من أجل هذه المسألة وغيرها من المسائل إلى رئيس مجلس القرية، وأرجو على الأقل أن تهتمِّي بفريدا وقد آذيتِها بما فيه الكفاية بكلامك الذي تزعُمين أنه نابع من حنان الأم.

ثم اتجه إلى المساعدين وقال: هيا بنا.

وتناول خطاب كلم من المسمار الذي كان قد علَّقه عليه وهمَّ بالذهاب. وكانت صاحبة الحان تنظر إليه صامتة، فلما وضع يده على مقبض الباب قالت: يا حضرة موظَّف المساحة. ما زال هناك شيء أحب أن أزودك به في طريقك، فأنت، مهما قلت من كلام، ومهما أهنتني أنا المرأة العجوز، زوج فريدا في المستقبل. وهذا هو السبب الوحيد الذي أقول من أجله إنك حيال الظروف القائمة هناك جاهل جهلًا بشعًا، وإن الإنسان ليفقد الوعي عندما يستمع إليك، وعندما يقارن في فكره ما تقوله وتراه بالوضع القائم فعلًا. وإن جهلك هذا الجهل لا يُمكن إصلاحه دفعة واحدة، بل ربما كان إصلاحه من المستحيل. ولكن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تتحسَّن، إذا صدقتني وجعلت جهلك دائمًا نُصب عينيك. عند ذاك ستُصبح على سبيل المثال أكثر عدلًا حيالي، وستبدأ في الإحساس بالفزع الذي حلَّ بي — وما زالت نتائج هذا الفزع باقية — عندما تبينت أن صغيرتي الحبيبة قد تركت مَن يمكن تسميتُه بالنسر لتَعصِب عينيها بعصابة العمى، وإن العلاقة في حقيقتها لأشد سوءًا، وإني لأحاول أن أنساها وإلا لما استطعت أن أتكلَّم معك كلمة هادئة آه ها أنت ذا تغضب مرةً أخرى. لا، لا تنصرف الآن، اسمع هذا الرجاء قبل أن تَنصرِف: عليك، في كل مكان تذهب إليه، أن تعي دائمًا أنك أجهل الناس هنا، وعليك أن تأخذ نفسك بالحذر. إنك هنا عندنا، حيث يحميك وجود فريدا، تستطيع أن تثرثر بما يشغل قلبك؛ هنا يمكنك مثلًا أن تظهرنا على نيتك في التحدث إلى كلم، ولكني أرجوك، أرجوك، لا تفعل هذا في الواقع.

ونهضت وكانت تترنَّح من فرط الانفعال، وذهبت إلى ك وأمسكت يده ونظرت إليه متوسِّلة. فقال لها ك: إنني لا أفهم، يا سيدتي صاحبة الحان، لماذا تُذلِّين نفسك وتتوسَّلين إليَّ من أجل مثل هذا الموضوع. إذا كنت تقولين إنه من المستحيل عليَّ أن أتكلم مع كلم، فأنا لن أصل إلى ذلك، سواء رجوتني أم لا. أما إذا كان من الممكن أن أتكلم معه، فلماذا لا أفعل،

خاصةً وأن سقوط اعتراضك الرئيسي سيجعل مخاوفك مشكوكًا فيه جدًّا. وأنا بطبيعة الحال جاهل، وهذه حقيقة ستظل قائمة، وفي هذا ما يحزنني أشد الحزن. ولكن الجهل له فائدته، فالجاهل يجرؤ على الكثير، ولهذا فإنني سأظل، إلى حين، وعن طيب خاطر، أحمل الجهل وتبعاته التي لا شكَّ في أنها سيئة، طالما كانت لديَّ القوة الكافية. وهذه التبعات لا تمس في جوهرها سواي، ولهذا فأنا لا أفهم لماذا تتوسَّلين. وليس هناك شك في أنك ستظلين ترعين فريدا، ولو اختفيت أنا كليةً من مجال أبصارها، فإن هذا لا يمكن في رأيك أن يعني إلا سعادتها. فلماذا تخافين؟ إنك لا تخافين!

– والجاهل يظن كل شيء ممكنًا.

وهنا فتح ك الباب، وأكمل: إنك لا تخافين على كلم؟

وتابعته صاحبة الحان بنظرها صامتة وهو ينزل الدرج مسرعًا ومن خلفه المساعدان.

الفصل الخامس

لم يكن ك يحسُّ تجاه الحديث الذي سيجري بينه وبين رئيس مجلس القرية إلا بالقليل من القلق، وكان يوشك هو نفسه أن يدهش لذلك. وحاول ك أن يُفسر ذلك بأن التعامل الرسمي مع الدواوين الحكومية قد أصبحت، بعد خبراته حتى ذلك الحين، شيئًا سهلًا جدًّا بالنسبة إليه … وكان السبب في ذلك من ناحية أن هناك مبدأ محددًا على ما يبدو لمعالجة مسألته وأنه من الناحية الظاهرية في صالحه جدًّا، ومن ناحية ثانية أن العمل الرسمي يتَّسم هنا بتناسق مدهش يحسُّ به الإنسان كاملًا حتى في المواضيع التي لا يلوح فيها موجودًا. ولم يكن ك، إذا فكر في هذه الأشياء أحيانًا، بعيدًا عن اعتبار وضعه مقبولًا على الرغم من أنه كان دائمًا يقول لنفسه بعد أن تعتريه حالات الارتياح هذه أن الخطر إنما يَكمن فيها دون سواها.

ولم يكن التعامل المباشر مع الدواوين بالعمل الصعب المفرط الصعوبة؛ لأن الدواوين كانت — مهما حسن نظامها — تُدافع باسم سادة بعيدين غير ظاهرين عن أشياء بعيدة غير ظاهرة، بينما كان ك يناضل من أجل شيء حي قريب، من أجل نفسه هو، وكان علاوة على ذلك يناضل، على الأقل في الوقت الأول، بإرادته؛ لأنه كان المهاجم. ولم يكن يناضل من أجل نفسه فقط، ولكنه كان، على ما يبدو، يناضل من أجل قوة أخرى، لم يكن يعرفها، ولكنه كان يؤمن بها نتيجة لإجراءات الدواوين. ولكن الدواوين كانت بتساهُلِها الشديد في موضوعات ك غير الجوهرية — ولم تكن موضوعات ك حتى ذلك الوقت تزيد على ذلك — تحرم ك من إمكانية بلوغ انتصارات صغيرة خفيفة، وتحرمه إلى جانب ذلك بما يتصل بهذه الإمكانية من الرضا، ومن الثقة التي تنبع منها والتي تقوم على أسس طيبة الثقة في مجابهة ضروبٍ أوسع وأكبر من النضال، لقد كانت الدواوين بدلًا من هذا تترك ك، في حدود القرية فقط، يتحرَّك حيثما شاء، وكانت تُدلِله وتُضعفه بذلك، وتمنع

كل نضال منعًا أساسيًّا، وتنقله إلى الحياة الغريبة العكرة، الخارجة على نطاق الدواوين والتي يستحيل على الإنسان الإحاطة بها كل الاستحالة. كان من المُمكن، والحال هذه، إن لم يأخُذ على الدوام حذره، وعلى الرغم من تلطُّف الدواوين معه، وعلى الرغم من وفائه بمهامِّه الوظيفية المُفرطة السهولة، فإنه ينخدع بجميلٍ يلُوح له أنه صنع به، فيسير في حياته خارج نطاق الوظيفة سيرة لا احتياط فيها تنتهي به ذات يوم إلى التحطم، وتنتهي بالديوان الظريف اللطيف، ضد إرادته إلى حد ما، ولكن باسم نظامٍ عامٍّ غير معروف له، إلى الذهاب إليه والتخلص منه. وماذا كانت حياته خارج نطاق الوظيفة؟ لم يرَ ك من قبلُ في أي مكان تداخُل الحياة والوظيفة إلى هذا الحد، حتى إنه كان يظن أحيانًا أن الحياة والوظيفة قد تبادلا أماكنهما. فما هو، على سبيل المثال معنى السلطة الشكلية التي كان كلم يمارسها على عمل ك، إذا ما قورنت هذه السلطة بالسلطة التي كان كلم يمارسها حقيقةً في حجرة نوم ك! ولهذا فالصواب أن يأخذ الإنسان نفسه بأسلوب أخرق، بنوع من الاسترخاء حيال الدواوين، وإن ظل الحذر الشديد والنظر إلى كل الاتجاهات والتدقيق قبل كل خطوة ضرورة دائمة.

وتبين ك أن مفهومه عن الدواوين هنا صحيح عندما التقى برئيس مجلس القرية. كان الرئيس، وهو رجل لطيف سمين حليق، مريضًا يعاني من النقرس الحاد، ولهذا استقبل ك وهو في السرير. وقال: إذن فهذا هو السيد موظَّف المساحة لدينا.

وأراد أن يَقعُد لتحيتِه، ولكنه لم يستطع، وألقى نفسه مرة أخرى في فراشه، وهو يُشير مُعتذرًا إلى ساقيه. وأحضرت امرأة ساكنة، بدت في الضوء الخافت بالحجرة ذات النوافذ الصغيرة، والستائر التي تزيد من ظلمتها، كأنها شبح، كرسيًّا وثيرًا قدمته إلى ك ووضعته عند السرير ... وقال الرئيس: اجلس، اجلس يا حضرة موظف المساحة، وقل ماذا تتمنى.

وطالع ك خطاب كلم، وأضاف إليه بعض الملحوظات. وأحس مرة أخرى بالسهولة الخارقة للمألوف في التعامل مع الدواوين. كانت الدواوين تحمل كل عبء بمعنى الكلمة، وكان في استطاعة الإنسان أن يحملها بما يشاء، بينما يظلُّ الإنسان حرًّا لا يحمل شيئًا. وتلوَّى الرئيس في فراشه متبرمًا، وكأنه أحسَّ بهذا على طريقته. وأخيرًا قال: لقد عرفت، كما لاحظت يا سيادة موظف المساحة، بالمسألة كلها، أما أنني لم أتخذ إجراءً حتى الآن، فسيرجع أولًا إلى مرضي، وثانيًا إلى أنك لم تأتِ، فظننت أنك صرفت النظر عن الموضوع. أما وأنك تكرَّمت وأتيت إليَّ بنفسك، فلا بد أن أقول لك بطبيعة الحال الحقيقة الكريهة كاملة.

لقد قلت إنهم قبلوك موظفًا للمساحة، ولكننا للأسف لا نحتاج إلى موظَّف مساحة. فليس له أدنى عمل هنا. فحدود ممتلكاتنا الصغيرة معلَّمة، وكل شيء مسجل تسجيلًا منظمًا صحيحًا، ولا يحدث إلا فيما ندر أن يتغير المُلاك، أما الصناعات القليلة على الحدود فإننا نسويها بأنفسنا. فما حاجتنا إلى موظف مساحة؟

وعلى الرغم من أن ك لم يسبق له أن فكر في هذا من قبل، فقد كان مُقتنعًا في ذات نفسه بأنه كان يتوقع مثل هذا الخبر. ولهذا السبب قال من فوره: إن هذا ليفاجئني أشد المفاجأة. وإنه ليُحدِث بكل حساباتي وتقديراتي الاضطراب. وليس لي إلا أن آمُلَ أن يكون هناك خطأ.

فقال الرئيس: لا، للأسف، إن الأمر على نحو ما قلت لك.

فصاح ك: وكيف يُمكن هذا؟ إنني لم أقم بهذه الرحلة التي لا نهاية لها، لكي تُعيدوني الآن من حيث أتيت.

فقال الرئيس: هذه مسألة أخرى ليس القطع فيها من شأني، ولكني أستطيع أن أشرح لك على أية حال كيف أمكن حدوث هذا الخطأ. فمن الممكن في ديوان كبير، كالديوان الجرافي، أن يأمر قسمٌ ما بهذا، وأن يأمر قسم آخر بذاك، ولا يعلم قسم بشيء عما يجري في الآخر. والحقيقة أن التفتيش الأعلى دقيق إلى أقصى حدٍّ، ولكنه يأتي بطبيعته متأخِّرًا، ولهذا كان من المُمكن أن تحدث اضطرابات بسيطة. وهذه الاضطرابات دائمًا بطبيعة الحال صغائر مُتناهية الضآلة مثل حالتك على سبيل المثال. ولم يَحدث أن نما إلى علمي أن خطأً حدث في الأشياء الكبيرة. ولكن الأخطاء التي تحدث في الصغائر كثيرًا ما تكون أخطاءً مؤسِفة. أما فيما يتعلق بحالتك، فأنا أريد — دون أن أخفي أسرار الوظيفة، فأنا في هذه الناحية لستُ موظفًا بما فيه الكفاية، إنما أنا فلاح، وسأبقى فلاحًا — أن أحكي لك خط سير الموضوع بصراحة. منذ وقت طويل، ولم يكن قد مضى عليَّ في رئاسة القرية إلا بضعة أشهر، صدر أمر، لا أذكر من أيِّ قسم من الأقسام، جاء به على النحو القاطع المميز للسادة، أنه ينبغي استدعاء موظَّف مساحة وأن على مجلس القرية أن يُعدَّ ما يلزم لعمله من خطط ورسومات، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر مختصًّا بك؛ لأنه قديم يرجع إلى أعوام كثيرة مضت، ولو لم أكن مريضًا في الفراش لما كان لديَّ الوقت الكافي لتذكُّر مثل هذه الأمور السخيفة غاية السخف.

وقطع كلامه فجأة مناديًا زوجته: ميتسي.

وكانت تتحرَّك حركة خفيفة في الحجرة، وتقوم بعمل غير مفهوم.

ثم قال الرئيس لزوجته: من فضلك، ابحثي في الدولاب هناك، لعلك تعثرين فيه على الأمر. ثم قال لـ ك شارحًا: إنه يرجع إلى الفترة الأولى لعملي، وكنتُ في ذلك الوقت أحتفظ بكل شيء.

وفتحت المرأة الدولاب على الفور، وتطلَّع إليها ك والرئيس. وكان الدولاب يعج بالأوراق. فلما فتحته تدحرجت منه حزمتان من حزم الملفات كانتا مربوطتين مدورتين كما تُربط حزم الحطب، فقفزت المرأة إلى جانب مرتاعة. وقال الرئيس موجهًا البحث في فراشه: لا بد أنه إلى أسفل، إلى أسفل.

وأطاعت المرأة وألقت بالملفات، ممسكةً إيَّاها بكلتا ذراعيها، إلى خارج الدولاب لتصل إلى الأوراق التي إلى أسفل. وملأت الأوراق نصف الحجرة. وقال الرئيس وهو يهز رأسه: هذا دليل على أن عملنا كثير، وما هذه الأوراق إلا جزء صغير. أما الكمية الرئيسية فأنا أحتفظ بها في الشونة، على أن الغالبية العظمى من الأوراق ضاعت، فمَن هذا الذي يستطيع أن يحتفظ بكل هذه الأوراق ... ولكن الكثير في الشونة.

ثم اتجه إلى زوجته مرة أخرى: هل تعتقدين أنك ستجدين الأمر؟ عليك أن تبحثي عن ملف مكتوب عليه كلمة «موظف المساحة» وتحتها خطٌّ بالأزرق.

وقالت المرأة: الظلام هنا شديد، سأذهب لإحضار شمعة.

وخرجت من الحجرة سائرةً فوق الأوراق.

وقال الرئيس: إن زوجتي دعامة كبيرة لي في هذا العمل الرسمي الصعب الذي ينبغي عليَّ أن أؤديه بجانب عملي الأصلي. حقيقة إنني لديَّ مَن يساعدني في الأعمال الكتابية، أعني المدرس، ولكن إنجاز كل شيء مستحيل، وهناك الكثير الذي يبقى بلا إنجاز، مجموعًا في هذه الخزانة.

وأشار إلى دولاب آخر وقال وهو يرقد واهنًا، ولكنه كان فخورًا: وهو يزيد زيادة مُسرفة عندما أكون مريضًا.

وقال ك عندما عادت المرأة بالشمعة وركعت أمام الدولاب تبحث عن الأمر: ألا يمكن أن أساعد زوجتك في البحث؟

وهز الرئيس رأسه مبتسمًا وقال: لقد قلتُ من قبل أنه ليست لديَّ أسرار في وظيفتي أخفيها عليك، ولكنَّني لا أستطيع أن أصل إلى حدٍّ تركك تبحث بنفسك في الملفات.

وساد السكون الحجرة، فلم يكن الإنسان يسمع إلا صوت حفيف الأوراق، بل إنَّ الرئيس نعس قليلًا. ودقَّ بعضهم الباب فالتفت ك خلفه فإذا هما بطبيعة الحال المساعدان.

ولكنَّهما كانا على أية حال مُهذبَين قليلًا فلم يندفعا داخل الحجرة، بل همسا من خلال الباب الذي كان مفتوحًا فتحة صغيرة: إن البرد شديد علينا من الخارج.

وسأل الرئيس مفزعًا: مَن هذا؟

فقال ك: إنهما مساعداي، ولا أعرف أين أدعهما ينتظراني؛ فالبرد شديد في الخارج، وهما شخصان مزعجان لا مكان لهما هنا.

فقال الرئيس متلطفًا: إنهما لن يُقلقاني، دعهما يدخلان، آه، إنني أعرفهما. إنهما من معارفي القدامى.

فقال ك بصراحة: ولكنهما يقلقاني.

ونقل بصره من المساعدَين إلى الرئيس إلى المساعدين ووجد الثلاثة يضحكون ضحكة واحدة. ثم قال على سبيل المحاولة: ما دمتما هنا، فابقيا وساعدا السيدة زوجة الرئيس في البحث عن ملفٍّ مكتوب عليه «موظف المساحة» وتحتها خط بالأزرق.

ولم يعترض الرئيس. لقد سمح للمساعدين بما منع ك من فعله، فارتميا على الأوراق، وكانا يقلبان في التل أكثر مما كانا يبحثان، وبينما كان أحدهما يتهجى كلمة، كانا الآخر ينتزع الورقة من يده. أما المرأة فكانت تركع أمام الخزانة الفارغة، ولم يعد يبدو عليها أنها تبحث وكانت الشمعة على أية حال بعيدة جدًّا عنها.

وقال الرئيس وهو يبتسم ابتسامة تنمُّ عن رضا ذاتي وكأنما كانت الدنيا كلها ترجع إلى أوامره هو دون أن يكون هناك إنسان يستطيع أن يفهم ذلك حتى ولو على سبيل الظن: إنك تقول إن المساعدين يُقلقانك، ولكنهما مساعداك أنت.

فقال ك بفتور: لا، لقد ارتميا عليَّ هنا.

فقال الرئيس: كيف تقول ارتميا عليَّ! إنك تريد أن تقول إنهم قد عُينا لك.

وقال ك: آه عُينا لي، ويمكنك أن تقول أيضًا سقطا عليَّ كما يسقط الجليد؛ فقد كان تعيينهما يفتقر إلى كل تدبير.

فقال الرئيس: لا يحدث شيء هنا عن غير تدبير.

ونسيَ كل شيء حتى ما في قدمه من ألم وجلس معتدلًا. فقال ك: لا شيء … فما أمر استدعائي للعمل هنا؟

فقال الرئيس: وكذلك استدعاؤك جاء بعد وزن وتدبير، ولكن بعض الظروف الثانوية تدخَّلت وأحدثت اضطرابًا، وسأثبت لك ذلك بناءً على الملفات.

فقال ك: ولكن أحدًا لن يعثر على الملفات.

فصاح الرئيس: لن يعثر؟ يا ميتسي ابحثي من فضلك بسرعة. ومع ذلك فأنا أستطيع أن أحكي لك الحكاية أولًا بدون ملفات. لقد أجبنا على الأمر الذي حدثتُك عنه بالشكر، ذاكرًا أننا لا نحتاج إلى موظَّف مساحة. ويبدو أن هذه الإجابة لم تصل إلى القسم الأصلي، ولأسميه «أ»، بل وصلت خطأً إلى قسم آخر، ولأسميه «ب». وظل القسم «أ» بلا إجابة، وكذلك القسم «ب» لم يتسلم إجابتنا كاملة للأسف، إما لأن محتويات الملف بقيَت عندنا، أو لأنها ضاعت في الطريق — ولكنها بكل تأكيد لم تَضِع في القسم نفسه، وأنا ضامن لذلك — المهم أن ما وصل إلى القسم «ب» لم يكن سوى غلاف الملف ولم يكن مُبيَّنًا عليه سوى أن الملف الذي بداخله يختص بموضوع موظف المساحة، ولم يكن في الحقيقة موجودًا، وكان القسم «أ» ينتظر أن تصله إجابتنا. حقيقةً أنه كان قد سجَّل مذكرات بالموضوع، ولكن ما حدث شيء يقع بطبيعة الحال من حين لآخر على الرغم من الدقة في إنجاز الأعمال، وهو أن الموظف المختص اطمأن إلى أننا سنُجيب على الخطاب، وأنه إما أن يستدعيَ منظف المساحة أو، إذا دعت الحاجة، يستمر في التراسل معنا بخصوص الموضوع. وكانت النتيجة أنه أهمل المذكرات، وأن الموضوع كله انطوى في النسيان. أما القسم «ب» فقد وقع غلاف الملف فيه في يد موظَّف مشهور بدقته، واسمه سورديني، وهو إيطالي، وأنا، العليم بالأمور، لا أفهم لماذا يظلُّ مثل هذا الرجل بما له من كفاءات في هذه الوظيفة التي تُوشك أن تكون وظيفة من الوظائف الدنيا. وبطبيعة الحال أعاد إلينا هذا السورديني غلاف الملف الفارغ لنُكمله. وكان قد انقضى على خطاب القسم «أ» الذي أشرت إليه وقت طويل يقدر بالشهور بل بالأعوام، والوضع البديهي هو أن الملفَّ إذا سار في طريقه الصحيح، يصل عادةً في اليوم نفسه على أكثر تقدير ويتمُّ إنجازه في اليوم نفسه. أما إذا ضلَّ طريقه مرة — فعليه، والنظام على هذا الامتياز في الدقة، أن يجتهد في العثور على الطريق الخطأ اجتهادًا شديدًا وإلا فإنه لن يجده — فإن إنجازه يحتاج إلى وقت طويل بطبيعة الحال. فلما تلقَّينا مذكرة سورديني، لم نكن نتذكر الموضوع إلا على نحو غير واضح، وكان عبء العمل يقع في ذلك الوقت على اثنين فقط، ميتسي وأنا، فلم يكن المدرس قد عين لنا بعدُ، ولم نكن نحتفظ بصور المكاتبات إلا ما كانت له منها أهمية شديدة، باختصار، لم نستطع إلا أن نجيب إجابة تفتقر إلى التحديد كل الافتقار، قائلين إننا لا نعرف شيئًا عن هذا الاستدعاء، إننا في غير حاجة إلى موظف مساحة.

وهنا قطع الرئيس كلامه، وكأنما كان قد اندفع في الحماس إلى حد أبعد مما ينبغي أو كأنما كان من الممكن على الأقل أن يندفع إلى حد أبعد مما ينبغي: ولكن ألا تُسبب لك الحكاية مللًا؟

فقال ك: لا، إنها تُسليني.

فقال الرئيس: أنا لا أحكيها لك للتسلية.

فقال ك: إنها تُسليني بمعنى أنها تُتيح لي فرصة الإبصار بالاضطراب المضحك الذي يقطع أحيانًا في أمر وجود إنسان من البشر.

وقال الرئيس جادًّا: إنك لم تبصر بشيء بعدُ ... ويمكنني الآن أن أستمر في قصتي: «لم يرضَ رجل كسورديني بطبيعة الحال بإجابتنا، وأنا أعجب بهذا الرجل على الرغم من أنه يُمثل في نظري العذاب كله. إنه يشكُّ في كل إنسان، حتى الإنسان الذي أتاحت له فرص لا حصر لها أن يعرف عنه أنه في غاية الجدارة بالثقة. تجده في الفرصة التالية يشك فيه كما لو كان لا يعرفه أو كما لو كان قد عرف عنه أنه نذل دنيء. وأنا أستصوب هذا الأسلوب وأرى أن الموظف ينبغي أن ينهج هذا المنهج. ولكني لا أستطيع أن أتبع هذا المبدأ، فإنه يتعارَض مع طبيعتي. وأنت ترى مثلًا، كيف أعرض عليك، أنت الأجنبي، كل شيء بصراحة، فأنا لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر. أما سورديني فقد تملَّكه الشك حيال إجابتنا. ونشأت مراسلات كثيرة. كان سورديني يسأل لماذا خطر ببالي فجأة أنه لا ينبغي استدعاء موظف مساحة، وأنا أجيب مستعينًا بذاكرة ميتسي المُمتازة بأن الاقتراح الخاص بهذا الموضوع جاء من الديوان (وكنا قد نسينا بطبيعة لحال منذ مدة طويلة أنه جاء من قسمٍ آخر غير قسم سورديني.) وكان يعود فيسأل لماذا لم أذكر هذه المكاتبة إلا الآن، فأردُّ عليه بأنني لم أتذكر إلا الآن، فيكتب سورديني بأن هذا عجيب جدًّا، وأرد أنا بأن هذا ليس عجيبًا مطلقًا في مسألة طالت هذا الطول، فيعود سورديني إلى القول بأن هذا عجيب فعلًا لأنَّ المكاتبة التي تذكرتها لا وجود لها، فأردُّ أنا قائلًا إنها بطبيعة لحال غير موجودة لأن الملف كله ضاع، فيكتب سورديني بأنه لا بد أن هناك مذكرة بخصوص المكاتبة الأولى. ولكن هذه المذكرة لا وجود لها. وهنا ترددت لأنني لم أجرؤ على القول، ولأنني لا أعتقد بأن القسم الذي يعمل فيه سورديني يمكن أن يخطئ. ولعلك، يا سيادة موظف المساحة، تلوم سورديني في سرك؛ لأنه لم يأخذ كلامي في الاعتبار، ولم يسأل على الأقل عن الموضوع في الأقسام الأخرى. ولو أنك فكرت في هذا، لأخطأت، وأنا لا أريد أن يعلق بهذا الرجل، ولا حتى في فكرك أي عيب. فهناك مبدأ يقوم عليه العمل في الديوان، وهو ألا نضع إمكانية الخطأ في حسابنا مطلقًا. وهذا المبدأ له في النظام الممتاز الشامل للديوان ككل ما يُبرِّره، وهو ضروري إذا كان المطلوب هو الوصول إلى أقصى سرعة في إنجاز الأعمال. لم يكن إذن لسورديني أن يستفهم لدى الأقسام الأخرى، ولو استفهم لديها ما أجابته؛ لأنها كانت ستتبيَّن أن الأمر يدور حول البحث في إمكانية حدوث خطأ.»

وقال ك: أرجو أن تسمح لي يا سيادة الرئيس أن أقاطعك بسؤال. ألم تذكر من قبل أن هناك ديوانًا للتفتيش؟ وأن العمل على النحو الذي وصفته ليُسبِّب للإنسان الاضطراب والقلق، إذا تصور أنه ليس هناك تفتيشًا.

فقال الرئيس: إنك صارم جدًّا. ولكن ضاعف صرامتك ألف مرة. ومع ذلك فلن تكون شيئًا بالقياس إلى الصرامة التي يأخُذ بها الديوان نفسه. إنَّ هذا السؤال الذي ألقيته لا يُمكن أن يصدر عن إنسان غريب. هل هناك دواوين للتفتيش؟ ليست هناك إلا دواوين للتفتيش. وهي بطبيعة الحال ليست مختصة بالتوصل إلى الأخطاء بمعناها الغليظ، فهذه الأخطاء لا تقع، ولا حتى إذا حدث مرة أن وقع خطأ، كما في حالتك، فمَن له أن يقول نهائيًّا، إنه خطأ.

فصاح ك: هذا شيء جديد عليَّ تمامًا.

فقال الرئيس: إنه شيء قديم عندي جدًّا. وأنا لا أختلف عنك في الاعتقاد بأن خطأً وقع، ولقد مرض سورديني نتيجة لحيرته في هذا الأمر مرضًا شديدًا، ولقد اكتشفت دواوين التفتيش الأولى التي يرجع إليها الفضل في إظهار أصل الخطأ أنَّ المسألة فيها خطأ. ولكن مَن له أن يدَّعي أن دواوين التفتيش الثانية ستصل إلى الحكم نفسه، ثم الثالثة وما بعدها ... وما بعدها؟

فقال ك: ربما. وأنا لا أريد أن أتدخَّل في مثل هذه الآراء، وأنا أسمع للمرة الأولى عن دواوين التفتيش هذه ولا أستطيع بطبيعة الحال أن أفهمها، ولكني أعتقد أنه يجب هنا الفصل بين أمرَين: أولًا ما يجري في الدواوين وما يمكن على هذا النحو أو ذاك اعتباره من أمر الدواوين، وثانيًا أنا، الشخص الواقعي، أنا الذي أقف خارج الدواوين والذي يتهدَّدُني ضرٌّ من الدواوين، ضر هو من الحمق بحيث إنني لا أستطيع للآن أن أصدِّق مدى خطورته. أما الأمر الأول فيَنطبِق عليه على ما يبدو، هذا الذي قصصته عليَّ، يا سيادة الرئيس، بمعرفة فنية خارقة للمألوف، محيرة للألباب. وأما الأمر الثاني، أنا، فأرجو أن أسمع كلمة بشأنه.

فقال الرئيس: سأَصل إليه أيضًا. ولكنك لن تفهم ما سأقوله بهذا الشأن إلا إذا ذكرت لك بعض الأشياء على سبيل التمهيد. والحقيقة أن إشارتي الآن إلى دواوين التفتيش إشارة سابقة لأوانها. ولهذا أعود إلى الخلافات مع سورديني. قلت إن مقاومتي بدأت تهِن تدريجيًّا. ذلك أن سورديني إذا حقق أقل تقدُّم حيال أي إنسان، اعتبر نفسه منتصرًا؛ لأنَّ انتباهه وطاقته وحضور بديهته تزداد نتيجة لذلك، ويُصبح منظره فظيعًا بالنسبة لمَن يُهاجمه، رائعًا بالنسبة لأعداء مَن يهاجمه. ولما كنت أنا قد شهدت منظره في الحالة الثانية،

ولهذا فإنني أستطيع أن أحكي عنه، كما أفعل الآن. ثم إنني لم أتمكَّن قط من رؤيته رأي العين، فهو لا يستطيع أن ينزل إلى هنا؛ لأنه يحمل عبء عمل مفرط في الضخامة، ولقد وصفوا لي حجرته قائلين، إن جدرانها كلها مغطاة بتلال من حِزم الملفات الضخمة المكوَّمة بعضها فوق البعض، وليست هذه الملفات سوى تلك التي يحتاج إليها فيما يقوم به في ذلك الوقت من عمل؛ ونظرًا لأن الملفات تستخرج من التلال وترد إليها بلا انقطاع وبسرعة كبيرة، فإن هذه التلال لا تفتأ أن تنهار محدثة ضجَّة، وهذا الضجيج المستمر المُتتابع المتلاحق هو الميزة التي أصبحت تُميِّز مكتب سورديني. نعم، إن سورديني موظف نشيط، وهو يهتم بأصغر حالة اهتمامه بأكبر حالة.

فقال ك: إنك يا سيدي الرئيس، تُسمي حالتي دائمًا أصغر حالة، ومع ذلك فقد شغَّلت موظفين كثيرين شغلًا كثيرًا، هي إذا كانت في أول الأمر صغيرة جدًّا، فإنها قد أصبحت نتيجة لحماس الموظفين من أمثال سورديني حالة كبيرة. وهذا شيء يُؤسَف له، وهو ضد إرادتي على خط مستقيم؛ لأنَّ طموحي لا يصل إلى التسبب في قيام وانهيار أعمدة من الملفات تختص بي، بل إلى أن أعمل في هدوء موظفًا للمساحة عند منضدة رسم صغيرة.

فقال الرئيس: لا. ليست حالتك حالة كبيرة. وليس هناك، من هذه الناحية سبب يدعوك إلى الشكوى، إن حالتك واحدة من أصغر الحالات بالقياس إلى الحالات الصغيرة. وليست كمية العمل هي التي تُحدد رتبة الحالة، إنك ما تزال بعيدًا عن فهم الديوان إن كنت تعتقد هذا الاعتقاد. وحتى إذا كانت كمية العمل هي التي تحدد الرتبة، فإن حالتك لن تزيد عن أن تكون واحدة من أضأل الحالات، فالحالات العادية، أي الحالات التي ليس بها ما يسمى أخطاء، تستدعي الكثير من العمل، والكثير من العمل المفيد بطبيعة الحال. ثم إنك لا تعرف العمل الحقيقي الذي تسبَّبت عنه حالتك وسأحكي لك الآن عنه. في بداية الأمر أخرجني سورديني من الموضوع ولكن موظفيه كانوا يأتون إلى هنا، وشهد حان السادة الكثير من الاستجوابات والمحاضر التي تعرَّض لها البارزون من أعضاء مجلس القرية. وكان الكثيرون منهم في جانبي. أما الاضطراب الذي حدث لم يُحدثه إلا القلة. ومسألة المساحة مسألة قريبة إلى الفلاحين، الذين ظنوا أن هناك اتفاقات سرية ومظالم، ووجدوا علاوة على ذلك زعيمًا تزعمهم، وكان أن اعتقد سورديني، اعتمادًا على البيانات، إنني لو كنت قد عرضت الأمر على مجلس القرية، لما صوَّت الجميع ضد استدعاء موظف مساحة، ولأدَّى هذا إلى تحول الشيء البديهي — عدم الحاجة إلى موظف مساحة — على الأقل إلى شيء مشكوك فيه. وبرز في هذا المقام خاصةً رجل اسمه برونسفيك أنت لا تعرفه طبعًا، وهو ليس رجلًا رديئًا، ولكنه غبي، يسرح في الخيال، وهو نسيب لازيمان.

وسأل ك وهو يصف الرجل الكث اللحية الذي رآه عند لازيمان: نسيب المعلم الدباغ؟

فقال الرئيس: نعم، هو.

وقال ك، وهو يُوشك أن يلقي الكلام على عواهنه: وأنا أعرف أيضًا زوجته.

فقال الرئيس: هذا ممكن.

ثم صمت. وعاد ك يقول: إنها جميلة، ولكنها شاحبة بعض الشيء ومُتوعِّكة. وهي من القصر؟

وكان ك ينطق العبارة الأخيرة على نحو يوشك أن يكون سؤالًا ... ونظر الرئيس إلى ساعته وسكب شيئًا من دواء في معلقة وتجرعه مسرعًا.

وعاد ك يسأل في غلظة: يبدو أنك لا تعرف من القصر إلا الدواوين؟

فأجاب الرئيس بابتسامة تجمع بين السخرية والامتنان: نعم. وهي الأهم. أما فيما يتعلَّق ببرونسفيك، فإننا إذا استطعنا أن نخرجه من جماعتنا، لكنا جميعًا سعداء، ولما كانت سعادة لازيمان نفسه بأقل من سعادتنا. ولكن برونسفيك اكتسب في ذلك نفوذًا، حقيقةً أنه ليس خطيبًا، ولكنه يُصرِّح بصوت عالٍ، وهذا يكفي البعض، وهكذا انتهى الأمر بي إلى أن اضطررت إلى طرح المسألة على مجلس القرية، وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذي حقَّقه برونسفيك؛ لأن مجلس القرية لم يكن، بأغلبية كبيرة، يريد أن يعرف شيئًا عن موظَّف المساحة. وهذه الحادثة كذلك ترجع إلى زمن بعيد، ولكن المسألة لم تركن بمرور الوقت إلى الهدوء، من ناحية بسبب دقة سورديني الذي حاول أن يكشف عن دوافع الأغلبية والمعارضة بإجراء بحوث غاية في الدقة، ومن ناحية أخرى بسبب غباء وطموح برونسفيك الذي كانت له صلات خاصة مُختلفة بالدواوين فاستطاع باختراعات جديدة من محض خياله أن يُحركها. ولم يَدَع سورديني برونسفيك يخدعه — وأنَّى لبرونسفيك أن يخدع سورديني؟ — لكنه، كي لا ينخدع، كان بحاجة إلى دراسات جديدة، وكان إذا أوشك على الفراغ منها، ابتكر برونسفيك شيئًا جديدًا — فبرونسفيك كثير الحركة، وهذه ناحية من نواحي غبائه. وأصل الآن إلى صفة خاصة من صفات جهاز الدواوين عندنا. فهو، بقدر ما هو دقيق، حسَّاس إلى أقصى حد. فعندما يطول بحث مسألة من المسائل، يحدث أحيانًا — ودون أن تكون الدراسات الخاصة بها قد انتهت — أن يَنطلِق إنجازًا لها فجأة كالبرق من جهة لم يكن أحد يتوقَّع الإنجاز منها، ولا يمكن فيما بعد تحديدها، وغالبًا ما يكون الإنجاز صحيحًا، وإن ظل على أية حالٍ مُتعسفًا. إن ذلك ليحدث وكأنما لم يَعُد جهاز الدواوين يحتمل التوتُّر الذي ظلت تُثيره فيه مسألة واحدة، قد تكون قليلة الأهمية،

السنين الطوال، فاتخذ هو القرار، دون مُعاونة من الموظفين. وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن معجزة حدثت فلا شك أن موظفًا ما أنجز المسألة بخطاب دونه، أو أنجزها دون كتابة خطاب، المُهم أننا لا نستطيع على الأقل من هنا، ولا حتى من الديوان، أن نعرف الموظف الذي اتخذ القرار في هذه المسألة، ولا الأسباب التي انبنى عليها قراره. ولا تبين ذلك إلا دواوين التفتيش فيما بعد، ونحن لا نعرف شيئًا عما تصل إليه هذه الدواوين من نتائج، وهي نتائج لا يكاد يكون هناك مَن يهتم بها. وهذه القرارات، كما قلت، ممتازة في غالبية الأحيان، وليس فيها ما يُسبب الضجر إلا شيء واحد، وهو أن الإنسان لا يعلم عنها بطبيعة الحال إلا مُتأخرًا، في وقت يكون فيه مُستمرًّا في التشاور النشيط بشأنها بينما هي قد أنجزت منذ وقت طويل. وأنا لا أعرف، هل صدر قرار من هذا النوع في موضوعك أم لا — هناك ما يوحي بالإيجاب، وهناك ما يوحي بالسلب — فإذا كان القرار قد صدر، فمعنى هذا أن طلب الاستدعاء قد أرسل إليك، وأنك قد قمتَ بالرحلة الطويلة إلى هنا، وضاع في هذا وذاك الوقت الكثير، بينما ظل سورديني يعمل في معالجة المسألة حتى حل به الإعياء، وظل سورديني يحيك المؤامرات وبقيت أنا أتعرض للعذاب من الجانبَين. وأنا أشير إلى هذه الإمكانية مجرد إشارة، ولكني أعرف عن يقين ما يلي: إن أحد دواوين اكتشف أن سؤالًا خرج من القسم «أ» قبل سنوات عديدة إلى مجلس القرية بخصوص موظَّف مساحة دون أن ترد إليه إجابة. ولقد سألوني مؤخرًا، واتضحت المسألة كلها، واكتفى القسم «أ» بإجابتي التي قلت فيها إننا لا نحتاج إلى موظف مساحة، وأصبح على سورديني أن يقرَّ بأنه لم يكن المختص بهذه المسألة، دون ما ذنب بطبيعة الحال، وإنه بذل جهدًا كثيرًا، مهلكًا للأعصاب دون ما فائدة. لم يَنهمِر علينا من كافة الجهات كالمعتاد، سيل جديد من العمل، لم تكن حالتك حالة صغيرة — ويمكن القول أنها أصغر حالة بين الحالات الصغيرة — ولكننا قد تنفَّسنا الصعداء جميعًا، حتى سورديني نفسه على ما أعتقد، إلا برونسفيك فقد ظل يغمغم، ولكن ما فعله كان مضحكًا، والآن تصور، يا حضرة موظف المساحة، مدى خيبة أملي، عندما أجدك الآن، بعد أن انتهت المسألة نهاية سعيدة — ولقد انقضى منذ ذلك الحين وقت كثير — تظهر فجأة، ويبدو الأمر كأن المسألة ستعود من أولها. وأظن أنك تفهم أنَّني مُصمِّم تصميمًا عنيدًا على ألا أسمح بذلك بحال من الأحوال ما دام الأمر في مقدوري.

فقال ك: بلا شك. ولكني أفهم شيئًا آخر فهمًا أفضل، وهو أنني أتعرَّض هنا لاستغلال بشعٍ، بل تتعرَّض له كذلك القوانين نفسها. ولسوف أعرف كيف أقاومه فيما يتعلق بشخصي.

فسأل الرئيس: وماذا تريد أن تفعل؟

فقال ك: لا يُمكن أن أكشف عنه.

فقال الرئيس: وأنا لا أريد أن أُلِحَّ، ولكني ألفت نظرك لشيء؛ وهو أنك تجد فيَّ — لا أقول صديقًا، فنحن غريبان تمامًا، ولكن — زميلًا أو نحو ذلك ... أما أن تُقبل هنا موظَّفًا للمساحة، فأمر لن أسمح له. ويمكنك فيما عدا هذا أن تلجأ إليَّ دائمًا في ثقة، بطبيعة الحال في حدود سُلطتي وهي ليست كبيرة.

فقال ك: إنك دائمًا تتحدث عن قبولي موظفًا بالمساحة، ولكن قبولي قد تمَّ فعلًا، وهذا هو خطاب كلم.

فقال الرئيس: خطاب كلم. إنه قيِّم وجدير بالاحترام لتوقيع كلم عليه. وهو توقيع يبدو سليمًا من التزوير، وفيما عدا ذلك فأنا لا أجرؤ أن أُعبر عن ذلك وحدي ... يا ميتسي.

هكذا نادى زوجته. ثم صاح قائلًا: ماذا تعملون؟

ويبدو أن المُساعدَين وميتسي، وقد انحسر عنهم الانتباه مدة طويلة لم يجدوا الملف المطلوب، فأعادوا كل شيء إلى الدولاب، وأرادوا إغلاقه فلم يتمكَّنوا من ذلك لأن الملفات وقد ألقيت بغير انتظام برزت إلى الخارج بروزًا مفرطًا. ففكر المساعدان في فكرة نفَّذاها ... وهي أنهما أرقدا الدولاب على ظهره، وحشرا فيه الملفات حشرًا ثم جلسا على بابه وجلست معهما ميتسي وحاول ثلاثتُهم كبسَه إلى أسفل شيئًا فشيئًا.

وقال الرئيس: إنهم لم يعثروا على الملف ... هذا شيء يؤسف له. ولكنك تعرف الحكاية الآن، ونحن في الحقيقة لم نَعُد في حاجة إلى الملف، ولا شك أننا سنجده، ولعله عند المدرس، فلديه ملفات كثيرة ... والآن تعالَي يا ميتسي إلى هنا بشمعتك وطالعي على الخطاب.

وأقبلت ميتسي، وبدت الآن أكثر حلكة وأكثر غموضًا ممَّا كانت عندما كانت تَجلس على حافة السرير وتستند إلى الرجل القوي المليء بالحياة، والذي كان يُحيطها بذراعه. إلا وجهها الصغير فقد أصبح الآن في ضوء الشمعة يَلفت النظر بخطوطه الواضحة القوية التي كان وهن الشيخوخة يُخفِّف من حدتها. وما كادَت تنظر إلى الخطاب حتى عقدت يدَيها قليلًا وقالت: إنه من كلم.

ثم قرآ معًا الخطاب، وتهامسا وأخيرًا — وبينما كان المساعدان يصيحان «عظيم» ... لأنهما كانا قد كبسا باب الدولاب وأغلقاه بعد طول جهد، وكانت ميتسي تَنظر ممنونة إليهما — قال الرئيس: إنَّ ميتسي ترى رأيي تمامًا، يمكنني الآن أن أجرؤ على الإفصاح عنه. هذا الخطاب ليس مكاتبة رسمية، بل هو خطاب خاص. وهذا شيء يتَّضح من عبارة

«أيها السيد المحترم» التي يبدأ بها. هذا علاوة على أنه لم تأتِ به كلمة واحدة تعني أنك قُبلتَ موظفًا للمساحة، كل ما فيه حديث عام عن الخدمة الأميرية، هو ليس صريحًا مُلزمًا، فهو يقول فقط إنك قبلت، كما تعلم، وعبارة كما تعلم تعني أن مهمَّة إثبات قبولك مُلقاة على عاتقك. وفي الختام أُحلتَ عليَّ، من الناحية الرسمية، أنا وحدي، رئيس القرية، باعتباري رئيسك المباشر، الذي عليه أن يبلغك بكل التفصيلات، وهو ما قد فعلت مُعظمه. وهذه كلها أمور واضحة مُفرطة الوضوح بالنسبة لَمَن يعرف كيف يقرأ المُكاتبات الرسمية ويعرف نتيجة لهذا كيف يقرأ المُكاتبات غير الرسمية ويفهمها فهمًا أحسن. أما أنت، كغريب، لا تتبيَّن ذلك، فهو ما يثير عجبي، والخطاب لا يعني في مجموعه شيئًا آخر سوى أن كلم ينوي أن يهتم بك شخصيًّا في حالة قبولك في الخدمة الأميرية.

فقال ك: إنك يا سيادة الرئيس تُجيد تأويل الخطاب ... بحيث تحيله إلى توقيعٍ على ورقة خالية ألا تتبيَّن أنك بفعلك هذا تحط من قدر اسم كلم الذي تدَّعي أنك تجلُّه؟

فقال الرئيس: هذا خطأ. إنني لا أنكر أهمية الخطاب، وأنا لا أحطُّ من شأنه بتأويلي، بل على العكس. إن خطابًا خاصًّا من كلم ليَكتسي بطبيعة الحال من الأهمية أكثر مما تَكتسي المكاتبة الرسمية. ولكن الأهمية التي تَنسبها أنت له، هي بالضبط ما ليس له.

وسأل ك: أتعرف شفارتسر؟

فقال الرئيس: لا. هل تراكِ تعرفينه أنت يا ميتسي؟ وهي لا تعرفه ... لا نحن لا نعرفه.

فقال ك: هذا شيء عجيب! إنه ابن أحد وكلاء القصر.

فقال الرئيس: يا عزيزي موظَّف المساحة، كيف يُمكنني أن أعرف أبناء جميع وكلاء القصر؟

فقال ك: حسنًا. إذن فعليك أن تُصدقني؛ إنه ابن أحد وكلاء القصر. ولقد حدَث بيني وبين هذا الشفارتسر يوم وصولي بالذات احتكاك سخيف، فاتصل تليفونيًّا بوكيلٍ للقصر اسمه فريتس ليستعلم، فعلم منه أنني قد قُبلتُ موظفًا للمساحة. فكيف تفسر هذا يا سيادة الرئيس؟

وقال الرئيس: هذا شيء يسير جدًّا. إنك لم تتعامل من قبل مع دواوينِنا. وجميع التعاملات معها لا تزيد ولا تنقص عن أن تكون ظاهرية، وأنت لجَهلك بالأحوال تعتبرها واقعية. أمَّا فيما يتعلق بالتليفون. فيُمكنك أن تجول ببصرك عندي، أنا الذي أتعامل كثيرًا مع الدواوين، فلن تجد تليفونًا. أما في الحانات وفيما شابهها، فيُمكن أن يُؤدي التليفون خدمات طيبة، مثل جهاز الموسيقى الأوتوماتيكي، وهو لا يزيد عنه في شيء. هل استعملت

التليفون هنا مرةً؟ نعم؟ إذن فلعلَّك تفهمني. ويبدو أن التليفون يعمل في القصر على نحو ممتاز، ولقد حكى لي البعض أنهم في القصر لا يكفُّون عن الاتصال تليفونيًّا، وهذا من شأنه بطبيعة الحال، التعجيل بإنجاز الأعمال. ونحن نسمع هذه الاتصالات التليفونية التي لا تنتهي هنا بتليفوناتنا المحلية على هيئة شوشرة وغناء، ولا شكَّ أنك سمعت هذا. وهذه الشوشرة وهذا الغناء هما الشيء الوحيد الصحيح الجدير بالثقة الذي تنقلُه إلينا التليفونات هنا، وكل ما عدا ذلك خداع. وليس هناك اتصال تليفوني مباشر مع القصر، وليس هناك سنترال ينقل مكالماتنا التليفونية، فإذا اتصل الإنسان من هنا بالقصر، دقت الأجراس في كل التليفونات بالأقسام الدنيا، أو على الأصح، في كل التليفونات، إلا إذا أوقفت أجراسها — وهذا ما أعرفه يقينًا — ويحدث من حين لآخَر أن يحتاج بعض الموظفين المنهكين إلى شيء من التسلية، وخاصةً في المساء أو الليل، فيشغل الجرس، وهنا نتلقَّى إجابة، ولكن هذه الإجابة لا تزيد عن أن تكون مزاحًا. وهذا شيء بديهي جدًّا. فأين هذا الذي يطالب بأن يكون له حق الاتصال التليفوني بشأن موضوعات شخصية صغيرة وسط الأعمال البالغة الأهمية التي تسير بسرعة جنونية متزايدة؟ وأنا لا أفهم كيف يمكن حتى لغريب أن يعتقد أنه عندما يتصل مثلًا بسورديني، فإن سورديني هو فعلًا مَن يرد عليه! إن الذي يرد عليه هو على الأحرى كاتب صغير من قسم آخر. كذلك من المُمكن أن يحدث في ساعة محظوظة أن يريد الإنسان الاتصال بكاتب صغير، فإذا بسورديني هو الذي يجيب. ولهذا فإنه بطبيعة الحال من الأفضل أن يبتعد الإنسان عن التليفون، قبل أن تصدر عنه أول نَبرة.

فقال ك: لم أعتبره على هذا النحو، فلم أكن أعرف هذه التفصيلات. والحقيقة أنني لم أكن أثق في هذه الاتصالات التليفونية كثيرًا، وكنت أعرف أن الشيء الوحيد الذي له أهمية فعلية هو أن يعرف الإنسان شيئًا من القصر مباشرةً أو يصل فيه هو إلى شيء.

فقال الرئيس معلقًا على إحدى الكلمات: لا. إن هذه الاتصالات التليفونية لها أهمية فعلية، وكيف يمكن ألا تكون كذلك؟ كيف يُمكن أن تكون المعلومات التي يعطيها موظَّف من القصر مجرَّدة من الأهمية؟ ولقد أشرت إلى ذلك بالنسبة لخطاب كلم. كل ما في الأمر أن هذه التصريحات ليس لها أهمية رسمية. فإذا أنتَ أضفتَ عليها أهمية رسمية، أخطأت. أما أهميتها الخصوصية من ناحية الصداقة أو العداوة فهي كبيرة جدًّا، وربما كانت أكبر من أيِّ أهمية رسمية إطلاقًا.

وقال ك: حسنًا. إذا قبلنا جدلًا بأن الأحوال على هذا النحو، فمعنى هذا أن لي عددًا كبيرًا من الأصدقاء الطيبين في القصر. فنظرة دقيقة إلى الموضوع تدلُّ على أن الخاطر الذي

طرأ قبل سنين طويلة على ذلك القسم باستدعاء موظف مساحة، كان عملًا وديًّا خياليًّا، ثم تتابعت الأعمال في الفترة التالية الواحد تلو الآخر، حتى انتهت إلى نهاية سيئة، هي اجتذابي إلى هنا ثمَّ تهديدي بالرمي.

وقال الرئيس: هناك حقيقة ما في مفهومك. وأنت على صوابٍ في أن تعبيرات القصر لا ينبغي أن تُؤخذ حرفيًّا. والحذر ضروري في كل مقام، ليس هنا فقط، وهو يزداد ضرورة كلما ازداد تعبير القصر أهمية. أما ما قلته عن اجتذابك إلى هنا، فأنا لا أستطيع أن أفهمه. ولو أنك تتبَّعت شروحي على نحو أفضل، لعلمت أن مسألة استدعائك إلى هنا مسألة أصعب من أن نجيب عليها في أثناء محادثة صغيرة هنا.

فقال ك: وهكذا تظلُّ النتيجة هي أن كل شيء مُبهَم مُستعصٍ على الحل إلى أن أُرمى.

وقال الرئيس: ومَن الذي أراد أن يجرؤ على رميك يا سيادة موظَّف المساحة؟ إن غموض الأسئلة المبدئية الموجَّهة إليك يعني معاملتك بغاية الأدب، ولكن يبدو أنك مُفرط الحساسية. ليس هناك مَن يمنعك من الرحيل، ولكن هذا لا يعني رميك.

فقال ك: آه يا سيادة الرئيس! ها أنت ذا تعود فترى بعض الأشياء بوضوح مُسرف. وإنني ذاكر لك الآن بعض الأشياء التي تمنعني من الرحيل من هنا: التضحية التي تحمَّلتُها عندما تركت داري ورحلت، الرحلة الطويلة الشاقة، الآمال التي عقدتها على قبولي هنا، وكانت كلها آمالًا لها ما يُبرِّرها، افتقاري الكامل إلى المال، استحالة عثوري الآن على عملٍ مُماثل في بلدي، وأخيرًا، وليس هذا أقل الأسباب، عَرُوسي وهي من أبناء هذا المكان.

وقال الرئيس دون أن يُفاجأ من الأحوال: آه، فريدا. أنا أعرف. ولكن فريدا لا شكَّ ستتبعُك حيثما ذهبت. أما فيما يتعلق بالموضوعات الأخرى فهناك تدابير معيَّنة تدعو إليها الضرورة، وأنا سأكتب تقريرًا أبعث به إلى القصر. فإذا أتى قرار أو إذا كانت هناك ضرورة قبل صدوره لاستجوابك مرةً أخرى، فسأستدعيك. هل أنت موافقٌ على ذلك؟

فقال ك: لا! مُطلقًا! إنني لا أريد مِنَّة من القصر، أنا أريد حقي.

وقال الرئيس لزوجته التي كانت لا تزال جالسةً مُلتصقة به وكانت تعبث تائهة حالمة بخطاب كلم الذي صنعت منه مركبًا، فأخذه ك منها مفزوعًا: يا ميتسي! يا ميتسي! لقد عادَت ساقي تؤلمني، لا بد أن نجد الكمادات.

ونهض ك واقفًا وقال: فأستأذن أنا في الانصراف.

وقالت ميتسي وكانت قد أعدَّت مرهمًا: نعم، فتيَّار الهواء شديد.

والتفت ك خلفه، وإذا بالمساعدَين، وقد أخذهما حماسهما في العمل، وما كان قطُّ حماسًا في موضعه، قد فتحا، عند سماعهما ملاحظة ك، مصراعَي الباب. ولم يستطع

ك — لحرصه على حماية حجرة المريض من البرودة المندفعة إليها اندفاعًا شديدًا — إلا أن ينحني أمام الرئيس انحناءة عابرة. ثم جرى، جاذبًا المساعدين معه، خارج الحجرة وأسرع بإقفال الباب.

الفصل السادس

كان صاحب الحان يَنتظره أمام الحان. وما كان صاحب الحان ليجرؤ على الحديث إليه إن لم يسأله هو، ولذلك سأله ك عما يريد. فسأله صاحب الحان وهو ينظر إلى أسفل: هل وجدت سكنًا جديدًا؟

فقال ك: إنك تسأل بتكليفٍ من زوجتك. فهل أنت تابع لها إلى هذا الحد؟

فقال صاحب الحان: لا، أنا لا أسأل بتكليفٍ منها. ولكنها ثائرة جدًّا، وتعيسة بسببك، فهي لا تستطيع العمل، بل ترقد في السرير وتتنهَّد وتشكو بلا توقف.

وسأل ك: هل ينبغي أن أذهب إليها؟

فقال صاحب الحان: أرجوك أن تفعل. ولقد كنتُ أريد أن أستدعيك وأنت عند الرئيس، وتصنتُّ على الباب ولكنكما كنتما تتحادثان، ولم أشأ أن أسبِّب لكما إزعاجًا، وكذلك كنتُ قلقًا على زوجتي، فجريت عائدًا إليها، ولكنها لم تسمح لي بالدخول إليها، فلم يعد أمامي من شيء أفعله سوى انتظار قدومك.

فقال ك: إذن فهيَّا بنا، بسرعة، وسأُهدئها على الفور.

وقال صاحب الحان: ليتك تتمكَّن من تهدئتها!

وسارا خلال المطبخ الصغير، كانت هناك ثلاث أو أربع خادمات، كل واحدة بعيدة عن الأخريات، فتجمدن في العمل الذي كنَّ يَقُمن به مصادفةً، عندما رأين ك. وكان تنهُّد صاحبة الحان يُسمع في المطبخ، وكانت ترقد في تحويطة بلا نوافذ، لا يفصلها عن المطبخ سوى جدار خشبي خفيف. ولم يكن بالتحويطة مكان يتسع إلا لسرير مُزدوج كبير ودولاب. وكان السرير موضوعًا بحيث كان يمكن النظر منه إلى المطبخ كله ومراقبة العمل.

ولم يكن في استطاعة مَن بالمطبخ أن يرى شيئًا تقريبًا مما في التحويطة؛ فقد كانت مُظلمة تمامًا، لا يظهر منها إلا بريق مفرش السرير الأبيض-الأحمر. ولم يكن الإنسان يستطيع أن يتبين التفصيلات إلا بعد أن يدخل وتتعوَّد عيناه على الظلمة.

وقالت صاحبة الحان واهنة: وأخيرًا أتيت!

كانت ترقُد على ظهرها ممدَّدة الأطراف، ويبدو أن التنفس كان يُسبِّب لها آلامًا، وكانت قد أزاحت اللحاف بعيدًا. وكانت وهي في السرير تبدو أكثر شبابًا منها وهي في كامل ثيابها، ولكنها كانت تضع على رأسها طاقية من نسيج الدانتيلا الرقيق، أصغر من رأسها صِغرًا مفرطًا، تتأرجَح على شَعرها المصفوف، وكانت تلك الطاقية تجعل ما بالوجه من تدهور يبدو مثيرًا للشفقة. وقال ك برقة: وكيف كان يُمكنني أن آتي؟ إنك لم تبعثي إليَّ بمَن يستدعيني.

وقالت صاحبة الحان بعناد المرضى: ما كان ينبغي عليكَ أن تتركني أنتظر هذا الوقت كله.

ثم قالت مُشيرة إلى حافة السرير: اجلس.

وقالت للآخرين: أمَّا أنتم فانصرفوا.

وكان المساعدان، علاوة على الخادمات، قد اندفعا إلى التحويطة. وقال صاحب الحان: وأنا كذلك أريد أن أنصرف يا جاردينا.

وسمع ك لأول مرة اسم المرأة. وقالت صاحبة الحان ببطء: طبعًا.

ثم أضافت تائهة وكأنها كانت مشغولةً بأفكار أخرى: ولماذا كنتَ تبقى أنت بالذات؟

فلمَّا تراجع الجميع إلى المطبخ — ومن بينهم المساعدان في هذه المرة، وكانا يُلاحقان إحدى الخادمات — كانت جاردينا من التنبه بحيث وعت أن مَن بالمطبخ يستطيع أن يسمع كل شيء يقال هنا؛ لأن التحويطة لم يكن لها باب، ولهذا أمرت الجميع بأن يتركوا المطبخ كذلك. وأطاعوا على الفور.

ثم قالت جاردينا: من فضلك يا حضرة موظَّف المساحة. هناك في مقدمة الدولاب مباشرةً شال معلق، أرجوك أن تناولني إياه، فأنا أريد أن أتغطى به، إنني لا أحتمل اللحاف نظرًا لضيق صدري.

فلما أحضر ك إليها الشال قالت: انظر، إنه شالٌ جميل، أليس كذلك؟

ورأى ك أنه شال صوف عادي، فتحسَّسه مرة أخرى إرضاءً لها ولكنه لم يقل شيئًا. وقالت جاردينا وهي تلتف به: نعم، إنه شالٌ جميل.

وهكذا استلقت مطمئنة، ولاحت كأنَّ كل ما بها من ألمٍ قد تبدَّد، بل إن شَعرها الذي كان قد اضطرب نتيجة رقادها خطر ببالها، فقعدت هنيهة وأحسنت من تصفيفه قليلًا حول الطاقية. وكانت جاردينا غزيرة الشَّعر.

ولم يُطِق ك صبرًا فقال: لقد كلفتِ مَن سألني عمَّا إذا كنت قد اتخذت سكنًا جديدًا.

فقالت صاحبة الحان: أنا كلفت مَن سألك؟ لا، هذا خطأ.

– لقد سألني عن ذلك زوجك منذ قليل.

فقالت صاحبة الحان: هذا ما يُمكنني تصديقه. لقد تضاربت معه. لقد أبقاك هنا في الوقت الذي لم أكن فيه أريدُك هنا، أما الآن وقد سعدت بوجودك هنا، فإنه يَدفعك إلى الرحيل. هكذا يتصرف دائمًا.

فقال ك: إذن فأنت قد غيَّرت رأيك في هذا التغيير الشديد؟ في ظرف ساعةٍ أو ساعتَين؟

وقالت صاحبة الحان بصوت أكثر ضعفًا: أنا لم أُغيِّر رأيي. هات يدك. هكذا. والآن عِدْني بأن تكون صريحًا كل الصراحة معي وأنا أريد أن أكون صريحةً كل الصراحة معك.

فقال ك: حسنًا. ولكن مَن الذي سيبدأ؟

فقالت صاحبة الحان: أنا.

ولم يكن يبدو عليها أنها تُريد أن تُهوِّن على ك الأمر، بل كان يبدو عليها أنها مُتلهِّفة على أن تكون هي البادئة بالكلام.

وأخرجت من تحت المرتبة صورة فوتوغرافية وقدَّمَتها إلى ك وقالت في أسلوب الرجاء: انظر إلى هذه الصورة.

وتقدَّم ك خطوة ناحية المطبخ ليتمكَّن من رؤيتها على نحوٍ أفضلَ. ولكنه لم يكن من السهل حتى هناك التعرف على شيء في الصورة، التي كانت قد بهتَت وتثنَّت وتعفَّصت وتبقَّعت تحت وطأة السنين. فقال ك: إنها للأسف ليست في حالة جيدة.

فقالت صاحبة الحان: للأسف! للأسف! ولكن عندما يحمل الإنسان صورة معه أينما ذهب عامًا بعد عام، فإنها تُصبح على هذه الحالة. ولكنك إذا دقَّقت النظر فيها، فستتبيَّن كل شيء، بكل تأكيد. ثم إنني أستطيع أن أساعدك، قل ماذا ترى في الصورة، إنني أفرح دائمًا عندما أسمع شيئًا عن الصورة. ماذا ترى؟

فقال ك: أرى شابًّا.

فقالت صاحبة الحان: بالضبط. وماذا يعمل؟

– إنه يرقد، على ما أظن، على سرير، ويتمطَّى ويتثاءب.

فضحكت صاحبة الحان، وقالت: هذا خطأ كلُّه.

وصمَّم ك على وجهة نظره قائلًا: ولكن هذا هو السرير، وها هو ذا يرقد هنا.

فقالت صاحبة الحان مغضبةً: دقِّق النظر. هل هو يرقد فعلًا؟

وهنا قال ك: لا، إنه لا يرقد، إنه يهيم، وأنا أتبين الآن أن هذا الشيء ليس خشب السرير، بل هو على ما يبدو خيط، والشاب يَقفز قفزة عالية.

فقالت صاحبة الحان مسرورة: نعم، إنه إذن يقفز. وهكذا يتمرَّن السُّعاة الرسميون. لقد كنت أعرف أنك ستتبين ما في الصورة. أترى كذلك وجهه؟

فقال ك: إنني لا أرى من الوجه إلى القليل. يبدو أنه يبذل جهدًا كبيرًا لأن الفم مفتوح، والعينين مُطبقتان والشَّعر هفهاف.

فقالت صاحبة الحان معبرةً عن تقديرها: عظيم جدًّا. لا يمكن لإنسانٍ لم يرَه من قبل أن يتبيَّن من الصورة أكثر من ذلك. ولكنه كان شابًّا جميلًا. ولقد رأيته أنا مرة واحدة رؤية عابرة، ولكني لن أنساه أبدًا.

فسأل ك: ومَن هذا؟

فقالت صاحبة الحان: الساعي الذي استدعاني كلم عن طريقه إليه للمرة الأولى.

ولم يستطع ك أن يُصغي بدقة، فقد شتت صوت قرع على الزجاج انتباهه. وما لبثَ أن اكتشف سبب الإقلاق. كان المساعدان يقفان في الفناء في الخارج، وكانا يَقفزان مُتنقلَين من قدم إلى أخرى. وتصنَّعا السعادة لرؤية ك مرة أخرى، وكان كلٌّ منهما يريه لصاحبه من فرط السعادة، وكانا في أثناء ذلك لا يكفَّان عن القرع على شباك المطبخ. وأشار ك إليهما إشارة تهديد، فكفَّا عن فعلتهما على الفور، وحاول كلٌّ منهما أن يدفع صاحبه إلى الخلف، ولكنهما كانا يتماسكان من جديد، وإذا هما عند النافذة من جديد. وأسرع ك إلى التحويطة التي لم تكن أنظار المساعدين تصل إليها من الخارج والتي لم يكن يضطرُّ وهو فيها إلى النظر إليهما. ولكن الدق على الزجاج على نحو يعبر عن التوسل والرجاء ظلَّ يُلاحقه هناك مدة طويلة.

وقالت صاحبة الحان مُلتمسة له العذر وهي تشير إلى الخارج: المساعدان مرة أخرى!

ولكنها لم تكن منتبهةً إليه. كانت قد أخذت منه الصورة ونظرت إليها وسوَّتها ودسَّتها مرة أخرى تحت المرتبة. كانت حركاتها قد ازدادت بطئًا، لا نتيجة للتعب، ولكن تحت وطأة الذكرى. كانت تريد أن تحكي لـ ك، ولكن الحكاية أنستها إياه. وأخذت تعبث بشراريب الشال وظلَّت كذلك برهةً، رفعت بعدها نظرها إلى أعلى، ومسحت بكفها على عينيها وقالت: وهذا الشال كذلك من كلم. وكذلك الطاقية الصغيرة. الصورة والشال والطاقية هي الذكريات الثلاث التي لديَّ عنه. وأنا لستُ شابة مثل فريدا، ولست طموحة مثلها، ولست رقيقة الحس مثلها، فإنها رقيقة الحس جدًّا. إنني باختصار أعرف كيف

أسير في الحياة، ولكن لا بد أن أعترف، بأنني لو لم أكن أملك الأشياء الثلاثة، لما كنت قد احتملت البقاء هنا هذه المدة الطويلة، بل لما كنتُ، على الأرجح، احتملتُ البقاء هنا يومًا واحدًا. وربما بدت لك الأشياء الثلاثة قليلة، ولكن انظر: إن فريدا التي كانت على صِلة بكلم فترة طويلة جدًّا لا تمتلك شيئًا واحدًا للذكرى، ولقد سألتها، ولكنَّها حالمة طماعة. أما أنا، التي ذهبت إلى كلم ثلاث مرات فقط — فلم يَعُد يرسل في طلبي ولا أعرف لماذا — فقد أخذت هذه الأشياء للذكرى، وكأني كنتُ أتوقَّع أن وقتي معه سيكون قصيرًا. وينبغي على الإنسان بطبيعة الحال أن يهتمَّ هو بهذه الأمور؛ لأنَّ كلم نفسه لا يعطي شيئًا، ولكن إذا ما رأى الإنسان شيئًا مناسبًا عنده، ففي الإمكان أن يرجوه وأن يناله.

وأحسَّ ك بعدم الارتياح حيال هذه القصص على الرغم من أنها كانت تمسُّه جدًّا.

وسأل ك وهو يتنهَّد: متى كان هذا كله؟

فقالت صاحبة الحان: قبل أكثر من عشرين سنةً، أكثر من عشرين سنة بكثير.

فقال ك: إلى هذا المدى يستمر الإخلاص لكلم. ولكن ألا تتبيَّنين يا سيدتي صاحبة الحان، أنك بمثل هذه الاعترافات تُسبِّبين لي قلقًا شديدًا عندما أفكِّر في زواجي المستقبل؟

ووجدت صاحبة الحان أنه من غير اللائق أن يحاول ك أن يندس هنا بمسائله، فنظرت إليه من الجانب غاضبة. فقال ك: لا تغضبي، يا سيدتي صاحبة الحان. إنني لا أقول كلمة واحدة ضد كلم، ولكني بتأثير قوة الأحداث دخلت في علاقات ما مع كلم. وهذا شيء لا يُمكن لأكبر مُعجب بكلم أن يُنكره. المهم. أن النتيجة هي أنني في كل مرة يأتي فيها ذِكر كلم، لا بدَّ أن أفكِّر في نفسي. هذا شيء لا يُمكن تغييره. وأنت يا سيدتي صاحبة الحان.

وهنا أمسك ك بيدها المتردِّدة، وراح يكمل: أنت تذكُرين كيف انتهَت محادثتنا الأخيرة نهاية رديئة، ونحن نُريد هذه المرة أن ننتهي من المحادثة في وئام.

فقالت صاحبة الحان وهي تطأطئ رأسها: أنت على حقٍّ. ولكن لا تُعرِّضني لما يسوءُني. وأنا لستُ أكثر حساسية من الآخرين، بل على العكس، ولكن كل إنسان له جوانب حساسة، وهذا هو الجانب الحساس عندي.

وقال ك: وهو للأسف أيضًا الجانب الحساس لديَّ، ولكني سأتحكَّم في نفسي بكل تأكيد. والآن اشرحي لي، يا سيدتي صاحبة الحان، كيف يُمكنني بعد الزواج أن أتحمل هذا الإخلاص البشع حيال كلم، على فرض أن فريدا تُشبهك في هذه الناحية؟

وأعادت صاحبة الحان غاضبة: الإخلاص البَشِع؟ هل هذا إخلاص؟ إنني مُخلصةٌ لزوجي، أما كلم؟ فلقد جعل منِّي ذات مرة عشيقة له، وهل في إمكاني أن أفقد هذه الرتبة

أبدًا؟ وكيف يمكنك أن تحتمل هذا مع فريدا؟ آه، يا حضرة موظَّف المساحة، مَن أنت حتى تجرؤ على السؤال هكذا؟

فقال ك محذرًا: يا سيدتي صاحبة الحان!

وقالت صاحبة الحان مُنصاعة أنا أعرف، ولكن زوجي لم يسأل مثل هذه الأسئلة. ولست أعرف مَن التي تُسمى تعيسة، أنا في ذلك الوقت، أو فريدا الآن. فريدا التي تركت كلم عمدًا، أو أنا التي لم يَعُد يستدعيها. ربما فريدا وإن لم يبدُ عليها أنها تعرف ذلك تمامًا. ولكن أفكاري كانت دائمًا تحت سيطرة نحسي دون ما سواه؛ لأنني كنت لا أكفُّ عن التساؤل، وما زلت في الحقيقة لا أكف للآن عن التساؤل: لماذا حدث هذا؟ لقد استدعاك كلم ثلاث مرات، ثم لم يَستدعِك مرة رابعة، ولم تأتِ المرة الرابعة مطلقًا. وهل كان هناك في ذلك الوقت شيء يشغلني أكثر من هذا؟ وفي أي موضوع، غير هذا، كان يمكنني أن أتكلم مع زوجي، الذي تزوجتُه بعد ذلك بقليل؟ لم يكن لدينا أثناء النهار وقتٌ؛ لأننا كنا قد أخذنا الحان في حالة بائسة، وكان علينا أن نجتهد في تحسينها. وفي الليل؟ لقد ظلت أحاديثنا لأعوام طويلة تدور حول كلم وحدَه، وحول أسباب تغيُّر فكره. وعندما كان زوجي ينعس أثناء هذه الأحاديث، كنتُ أوقظه لنستمر فيها.

وقال ك: والآن، إذا سمحتِ، سأسألكِ سؤالًا شديد الغلظة.

وصمتَت صاحبة الحان.

فقال ك: إذن فليس لي أن أسأل. وهذا يكفيني.

فقالت صاحبة الحان: بطبيعة الحال، هذا يكفيك، وهذا بالذات، إنك تُسيء تأويل كل شيء، حتى الصمت. إنك لا تستطيع إلا أن تتصرَّف على هذا النحو. ولكني أسمح لك بالسؤال.

فقال ك: إذا كنت أسيء تأويل كل شيء، فلعلِّي أسيء التأويل حتى سؤالي نفسه، ولعله ليس شديد الغلظة. لقد كنتُ أريد أن أعرف كيف تعرفتِ بزوجك وكيف وصل هذا الحان إلى حوزتك؟

وقطبت صاحبة الحان جبينها ولكنها قالت بنفس الروح: تلك قصة بسيطة جدًّا. كان أبي حدادًا، وكان هانس، زوجي الحالي، سايسًا للخيل عند مُزارعٍ كبير، وكان يأتي كثيرًا إلى أبي. وكان ذلك بعد لقائي الأخير مع كلم، وكنتُ تعيسة جدًّا، وإن لم يكن لي أن أتردَّى إلى التعاسة الشديدة؛ لأن الأمور كلها كانت تسير على ما يرام، وكان بُعدي عن كلم بِناءً على قرار منه، أي كان أمرًا صحيحًا. ولكن أسباب قراره كانت غامضةً … ولم يكن لي

أن أبحث فيها، ولكنه لم يكن لي أن أتردَّى إلى التعاسة. المهم أنني كنت تعيسة، وإنني لم أكن أستطيع العمل، وأنني كنتُ أجلس النهار كله في الحديقة الصغيرة أمام دارنا. وهناك رآني هانس، وكان يأتي إليَّ ويجلس إليَّ أحيانًا، ولم أشكُ له، ولكنه كان يعرف الأمر، ولما كان صبيًّا طيبًا، فقد حدث ذات مرة أن بكى معي. ولما مرَّ صاحب الحان القديم على حديقتنا الصغيرة ذات مرة، وكانت زوجته قد تُوفِّيت، واضطرَّ لذلك إلى ترك هذه الحرفة — ثم إنه كان مسنًّا — ورآني جالسة فيها، وقف وعرض علينا مباشرةً أن نستأجر الحان، ولم يكن يُريد شيئًا مقدمًا، لثقته فينا، وكذلك جعل الإيجار منخفضًا جدًّا. ولم أكن أريد أن أكون حملًا ثقيلًا على أبي، وكان كل شيء عدا ذلك هينًا، وهكذا قدمت يدي إلى هانس وأنا أفكِّر في الحان وفي العمل الجديد الذي كان يمكن أن يأتيني بشيء من النسيان. هذه هي الحكاية.

وساد السكون هنيهة. ثم قال ك: لقد كانت طريقة صاحب الحان في التصرف جميلة، ولكنها لم تكن حذرة، أم هل كانت لديه أسباب خاصة للثقة فيكما؟

وقالت صاحبة الحان: لقد كان يعرف هانس جيدًا؛ لأنه كان عمَّه.

فقال ك: هو ذاك إذن. وهل بدا على أسرة هانس أنها كانت مهتمة اهتمامًا كبيرًا بالاقتران بك؟

فقالت صاحبة الحان: ربما. لا أعرف. وأنا لم أهتمَّ قط بمعرفة ذلك.

فقال ك: لا بد أن الأمر كان كذلك، إذا كانت الأسرة مُستعدة للتضحية إلى هذا الحد ووضع الحان في يديكِ دون ما ضمان.

فقالت صاحبة الحان: لم يكن ذلك حمقًا منها، على ما تبيَّن فيما بعد. فقد وضعتُ كل ثقلي في العمل، وكنت قويةً ابنة حداد، ولم أكن بحاجة لا إلى خادمة ولا إلى خادم، وكنت أعمل في كل مكان، في الخمارة، في المطبخ، في الحظيرة، في الفناء، وكنتُ أجيد الطهي لدرجة أنني طردتُ بعض الزبائن إلى حان السادة، لأنهم لم يجتمعوا في الظهر في قاعة الحان، وأنت لا تَعرف زبائن الظهر عندنا، وكانوا في ذلك الوقت أكثر من الآن، وهرَب منهم الكثيرون بعد ذلك. ولم يقف ما تمكَّنَّا من إنجازه عند حد دفع الإيجار في موعده، بل تجاوزه إلى أن تمكنَّا بعد سنوات قليلة من شراء كل شيء، وأصبح الحان لنا خالصًا من كل دَين. ثم حدث شيء هام آخر بعد ذلك، وهو أنني بطبيعة الحال تحطَّمتُ وأُصبتُ بمرض القلب وأصبحت امرأة عجوزًا. ولعلك تظن أنني أكبر من هانس بسنوات كثيرة، والحقيقة أنه لا يَصغُرني إلا بسنتَين أو ثلاث سنوات، ولكن الشيخوخة لم تظهر عليه أبدًا؛ لأن العمل

الذي يقوم به — تدخين الغليون والاستماع إلى الزبائن ثم تنظيف الغليون من بقايا التبغ وإحضار القليل من البيرة أحيانًا — عمل لا يبلغ بأحدٍ الشيخوخة.

فقال ك: إن جهودكِ لجديرة بالإعجاب، هذا شيء لا شك فيه. ولكنَّنا تكلمنا عن الوقت السابق على زواجكما، ولقد يبدو من الغريب أن تكون أسرة هانس ألحَّت على أن يتم الزواج مع هذه التضحية المالية أو على الأقل مع تحمُّل هذه المخاطر الجسيمة التي يعنيها وتتمثَّل في التنازُل عن الحان، في وقت لم يكن فيه من أمل سوى طاقتك على العمل، ولم تكن تلك الطاقة للأسرة معرفة بها، وطاقة هانس على العمل، ولا بدَّ أن الأسرة كانت تعرف أنها غير موجودة.

فقالت صاحبة الحان واهنة: آه، إنني أعرف الهدف الذي ترمي إليه، وإلى أي حدٍّ يجانبك الصواب. لا، لم يكن لكلم أيُّ أثر في هذه الأمور كلها. ولماذا كان يتكفل بي، أو على الأصح كيف كان يُمكنه أن يتكفل بي؟ إنه لم يعد يعرف أي شيء عني. إنه لم يعد يبعث في طلبي، وكانت تلك علاقة تدلُّ على أنه قد نسيني. إنه عندما يكفُّ عن استدعاء شخص ما إليه، فهذا يعني أنه نسيه نسيانًا تامًّا. وأنا لم أرد أن أتحدَّث بشيء من هذا أمام فريدا. وليس هذا مجرد نسيان، إنه أكثر من ذلك. فإن الشخص الذي ننساه، يُمكن أن نذكره ثانيًا. ولكن هذا مستحيل لدى كلم. إن الشخص الذي يكف عن استدعائه، شخص قد نسيه تمامًا لا بالنسبة للماضي فحسب، ولكن بالنسبة للمستقبل أيضًا وعلى نحو قاطع. وأنا عندما أبذل الكثير من الجهد أستطيع أن أتبع سبيل أفكارك، أفكارك التي لا معنى لها هنا، والتي ربما كانت في الغربة التي أتيت منها أفكارًا نافذة لها صلاحيتها. ومن الممكن أن تصل بأفكارك إلى الجنون الذي يحملك على الاعتقاد في أن كلم قد أعطاني هانس زوجًا حتى لا يُصبح لديَّ ما يعوقني عن الذهاب إليه إذا ما استدعاني إليه في المستقبل. وأين هذا الرجل الذي يُمكن أن تكون له القُدرة على منعي من الجري إلى كلم إذا لوَّح إليَّ؟ هذه حماقة. حماقة مطبقة. وإن الإنسان ليضطرب أشد الاضطراب إذا خالجته هذه الحماقة.

وقال ك: لا ينبغي أن نبلغ هذا الاضطراب الشديد، وأنا لم أذهب بأفكاري إلى هذا المدى الذي تَفترضين أنني وصلت إليه، وإن كنت — والحق يقال — قد سلكتُ السبيل إليه. كل ما في الأمر أنني اندهشت مؤقتًا لأن الأسرة عقدت كثيرًا من الآمال على هذه الزيجة، وأن آمالها تحقَّقت بالفعل، وإن كلَّفكِ هذا قلبك وصحتك. والحقيقة أن فكرة وجود علاقة بين كل هذه الوقائع وكلم كانت تفرض نفسها عليَّ، ولكنها لم تكن قد وصلت، أو لم تكن قد وصلت بعدُ، إلى هذه الوقاحة التي تُصوِّرين بها الأمور، وتقصدين من ورائها على ما يبدو

إلى الإغلاظ لي، لأنك تجدين في ذلك متعة. فلك هذه المتعة! ولكن فكرتي كانت تتلخص فيما يلي: إن كلم كان على ما يبدو هو الدافع إلى الزواج. فلو لم يكن كلم، لما كنتِ قد ترديت إلى التعاسة، ولما كنتِ قد جلست ساكنة في الحديقة الصغيرة أمام الدار، ولو لم يكن كلم لما رآكِ هانس هناك، ولو لم تكوني حزينة لما تجاسَرَ هانس الخَجول على التوجه إليك بحديث، ولو لم يكن كلم لما وجدت نفسك وهانس تذرفان الدموع، ولو لم يكن كلم لما رآكما العم الطيب صاحب الحان تجلسان في وئام معًا، ولو لم يكن كلم، لما استهترت بالحياة، ولما كانت النتيجة زواجك بهانس. كل هذه أمور فكرتُ أن لكلم بها شأنًا ليس بالقليل. ولكن فكرتي لا تنتهي عند هذا الحد، بل تصل إلى أبعد منه. فلو أنكِ لم تسعَي إلى النسيان، لما كنتِ قد عملت في الحان دون اعتبار لصحتك، ولما كنتِ قد نهضت به. وهذه ناحية أخرى نجد فيها كلم كذلك. ثم إن كلم، بغضِّ النظر عن ذلك، هو السبب في مرضك؛ لأن قلبك كان قبل الزواج يعاني من الإنهاك نتيجة للحب الفاشل. وتبقى مسألة وحيدة هي الشيء الذي اجتذب أهل هانس إلى هذا الزواج على نحو شديد. لقد ذكرت أنت نفسك أن الوصول إلى درجة عشيقة لكلم وصولٌ إلى رتبة لا سبيل إلى فقدانها. ولعلَّ هذا هو السبب الذي اجتذبهم. هذا إلى أنني أعتقد أن طالع السعد الذي ساقكِ إلى كلم — هذا على فرض أنه كان طالع سعد، ولكنك أنت تُؤكِّدين ذلك أنه — ملكٌ لك، وأنه لذلك يبقى معك، ولا يتركك بسرعة وفجأة كما فعل بك كلم.

وسألت صاحبة الحان: هل أنت جادٌّ في هذا كله؟

وقال ك بسرعة: نعم جادٌّ. ولكنني أعتقد أن أسرة هانس لم تكن فيما ذهبت إليه من آمال على حقٍّ تمامًا، ولم تكن على خطأ تمامًا، وأعتقد كذلك أنني أعرف الغلطة التي ارتكبتها. فكل الأمور تبدو من الناحية الظاهرية ناجحة، بالنسبة إلى هانس، فقد تحقَّقت له رعاية طيبة، وقد تزوج امرأة جسيمة، ووصل إلى سمعة طيبة، وأصبح الحان بلا ديون. ولكن الأمور ليست كلها في الحقيقة ناجحة، فليس من شكٍّ في أنه كان سيجد سعادة أكثر لو أنه تزوج بنتًا بسيطة أحبها وكان أول حب كبير في حياتها. وإذا كان هو — وعلى ذلك تلومينه كثيرًا — يقف في قاعة الحان أحيانًا كالتائه فما ذلك إلا لأنه يحسُّ بنفسه فعلًا كالتائه — دون أن يكون لهذا السبب تعيسًا، بكل تأكيد، فأنا أعرفه الآن معرفة تُمكنني من الحكم بذلك — وليس من شكٍّ أيضًا في أن هذا الشاب الجميل الفطين كان يُمكن أن يكون أكثر سعادة مع امرأة أخرى، وأعني بأكثر سعادة: أكثر استقلالًا وأكثر نشاطًا وأكثر رجولةً. وأنت كذلك، لستِ بكل تأكيد سعيدة، ولقد قلت، إنك ما كنت تستمرين في الحياة،

لو لم تكن لديك الذكريات الثلاث، ثم أنكِ مريضة بالقلب. هل معنى هذا أن الأسرة كانت فيما ذهبت إليه من آمال على خطأ؟ لا أظن ذلك. لقد كانت البركة دائمًا فوقك، ولكن أحدًا لم يفهم كيف يستنزلها.

وسألت صاحبة الحان وكانت تتمدَّد على ظهرها وتنظر إلى السقف: فما الذي كان ينبغي عليهم فعله ولم يفعلوه؟

فقال ك: أن يسألوا كلم.

فقالت صاحبة الحان: وبهذا نكون قد وصلنا مرة أخرى إليكَ.

فقال ك: أو إليكِ. فموضوعاتنا متصلة الحدود.

فسألت صاحبة الحان: ماذا تريد إذن من كلم؟

كانت صاحبة الحان قد قعدت، ونفَضَت المخدات حتى تستطيع أن تستند إليها قاعدة، وأخذت تنظر في عيني ك محدقةً فيهما. وأردفت: لقد حكيتُ لك موضوعي بصراحة ولعلك كنت تستطيع أن تتعلَّم منه شيئًا. فقل لي الآن بصراحة مُماثلة: عما تريد أن تسأل كلم؟ والحقيقة أنني لم أستطع إلا بكل جهد أن أقنع فريدا بأن تصعد إلى حُجرتها وأن تبقى بها، فقد كنتُ أخشى ألا تتكلمَ في حضرتها بصراحة كافية.

فقال ك: ليس لديَّ ما أُخفيه. وأنا أريد بادئ ذي بدء أن أوجِّه انتباهك إلى شيء. لقد قلت إن كلم ينسى على الفور، وهذا أولًا يبدو لي بعيدًا عن التصديق، وهو ثانيًا غير قابل للإثبات. وما هو على ما يبدو إلا أسطورة تفتَّقت عنها قرائح البنات التي كنَّ يُنعمن بالحظوة لدى كلم. وأنا أدهش لأنك تُصدقين أسطورة سخيفة إلى هذا الحد.

فقالت صاحبة الحان: ليست أسطورةً. إنها خلاصة الخبرة العامة.

فقال ك: إنها بدعةٌ من المُمكن دحضها ببدعةٍ أخرى. وهناك فارق آخر بين حالتك وحالة فريدا. فالقول بأن كلم لم يَعُد يستدعي فريدا إليه، قول بشيء لم يحدث على الإطلاق. فهو قد استدعاها ولكنَّها لم تتبعه. بل إنه من المحتمل أن يكون في انتظارها دائمًا.

وصمتت صاحبة الحان وأخذت تُلاحظ ك بنظرة تروح بها وتجيء، ثم قالت: إنني أريد أن أنصت إلى كل ما تنوي قوله هادئة. وأن تتحدث بصراحة، خير من أن تخفي شيئًا خوفًا عليَّ. وليس لي إلا رجاءٌ واحد. وهو ألا تستعمل اسم كلم. سمِّه «هو» أو ما شئت، ولكن لا تُسمِّه باسمه.

فقال ك: لك ما تُريدين عن طيب خاطرٍ. ولكن الشيء الذي أريده منه شيء يصعب التعبير عنه. إنني أريد أولًا أن أراه عن قُربٍ، ثم أريد بعد ذلك أن أسمع صوته، ثم أريد

أن أعرف موقفَه من زواجنا. أما الطلب الذي قد أتوجَّه به إليه فرهن بسير الحديث. وقد يتناول الحديث أمورًا مختلفة، ولكن أهم شيء بالنسبة إليَّ هو أن أقف أمامه. فأنا لم أتكلم حتى الآن مع موظف حقيقيٍّ مباشرةً. ويبدو أن الوصول إلى هذا أصعب مما كنت أتصور. أما الآن فقد أصبح لي الحق في أن أتكلم معه على اعتبار أنه شخص عادي، وهذا في اعتقادي أسهل تحقيقًا. فمن حيث هو موظَّف، لا يمكنني أن أكلمه إلا في مكتبه الذي قد يكون بعيد المنال، أو في القصر، وهو مكان الوصول إليه أمر مشكوك فيه، أو في حان السادة. أما من حيث هو إنسان عاديٌّ، فيمكنني أن أكلمه في كل مكان، في البيت، في الشارع، حيثما تمكنت من الالتقاء به. أما أنني في هذه الحالة سأكون واقفًا في مواجهة موظَّف أيضًا، فأمر يطيب لي الرضا به، وإن لم يكن هو هدفي الأول.

وقالت صاحبة الحان وهي تواري وجهها في المخدات وكأنها تقول شيئًا لا حياء فيه: حسنًا. إذا كنت سأستطيع بفضل اتصالاتي وعلاقاتي توصيل طلبك محادَثة كلم فهل تعدني بألا تفعل شيئًا من تلقاء نفسك حتى تتنزَّل الإجابة؟

فقال ك: هذا ما لا يمكنني أن أعدَكِ به على الرغم من أنني أحب أن أُحقِّق لكِ كل رغبة ونزوة. ولكن الأمر ملحٌّ، وخاصةً بعد النتيجة غير الطيبة التي انتهى إليها حديثي مع الرئيس.

فقالت صاحبة الحان: وهذا اعتراض لا اعتبار له؛ لأن الرئيس شخص تافه تمامًا. ألم تلحظ ذلك؟ وما كان يمكنه أن يبقى يومًا واحدًا في مركزه لو لم تكن هناك زوجته التي تدبر كل شيء.

وسأل ك: ميتسي؟

فأومأت صاحبة الحان برأسها. وقال ك: لقد كانت حاضرة.

وسألت صاحبة الحان!

فقال ك: لا، ثم إنني لم أحسَّ بأنها يمكن أن تعبِّر عن رأي.

فقالت صاحبة الحان: هه، هكذا تخطئ في تقدير كل شيء هنا. المهم: أن ما قرره الرئيس بشأنك لا أهمية له، وسأتكلَّم مع المرأة عندما تسنح فرصة. وإذا أنا وعدتك الآن بأن إجابة كلم ستأتي في غضون أسبوع على أكثر تقدير، فهل ينتفي كل سبب لديك كان يدعوك إلى عدم الإذعان لي؟

فقال ك: ليس هذا كله حاسمًا. ولقد قرَّ قراري، وسأُحاول أن أنفذه إذا أتت إجابة الرفض. وما دامت لديَّ هذه النية مقدمًا، فلا يُمكنني أن أكلِّف مَن يرجو لي محادثة. وإن

مسعاي الذي قد يعتبر — بدون هذا الرجاء — محاولة جريئة — ولكن طيبة النية — ليتحوَّل إذا اصطدم الرجاء بالرفض إلى ثورة صريحة. وهذا بطبيعة الحال أشد سوءًا.

فقالت صاحبة الحان: أشد سوءًا؟ إنها ثورة على أية حال. والآن افعل ما تريد. ناوِلني الثوب.

وارتدت الثوب دون أن تَكترث بـ ك وأسرعت إلى المطبخ. وكانت أصوات تنم عن القلق قد تناهت إلى السمع من ناحية قاعة الحان منذ وقت ليس بالقصير. وكان بعضهم قد دقَّ على الطاقة. وكان المساعدان قد دفعا الطاقة مرة وصاحا من داخلها بأنهما جائعان. ثم ظهرت فيها بعض الوجوه الأخرى. وتناهى إلى الأذن غناء خفيض اشتركت فيه أصوات كثيرة.

كان حديث ك مع صاحبة الحان قد عطَّل طعام الغداء بطبيعة الحال عطلًا شديدًا. ولم يكن الطعام قد أُعدَّ، وكان الزبائن قد اجتمعوا. على أن أحدًا لم يجرؤ على عصيان أمر صاحبة الحان بمنع الدخول إلى المطبخ. فلما أبلغ أولئك الذين نظروا من الطاقة بأن صاحبة الحان مقبلة، جرت الخادمات إلى المطبخ، وعندما دخل ك إلى قاعة الحان، اندفعت جماعة غفيرة تثير كثرتها الدهشة، تزيد على العشرين، من النساء والرجال، يرتدون ملابس تدلُّ على أنهم من الأقاليم وإن لم تكن ملابس الفلاحين، عائدة من الطاقة حيث تجمعت، إلى الموائد ليضمن كلٌّ لنفسه مكانًا. إلا في ركن من القاعة كان زوجان يجلسان مع بعض الأولاد، ومال الرجل، وكان رجلًا لطيفًا أزرق العينين أشيب الرأس واللحية منفوش الشَّعر، على الأولاد وأخذ يدقُّ بسكينِه إيقاع أغنية يغنيها الأولاد، وكان يبذل بغير انقطاع محاولات ليكتم الغناء، ولعلَّه كان يُريد بالغناء أن ينسى الأولاد ما بهم من جوع. واعتذرت صاحبة الحان للجماعة بكلمات ألقتها في استهتار، ولم يوجه إليها أحد لومًا. وتلفَّتت تبحث عن صاحب الحان، الذي كان قد لاذ منذ وقت طويل بالفرار على ما يبدو نتيجةً لدقة الموقف. ثم سارت متباطئة إلى المطبخ. ولم تَعُد تنظر إلى ك الذي أسرع إلى حجرته للقاء فريدا.

الفصل السابع

وفي الحُجرة التقى ك بالمعلم. وكانت فريدا قد نشطت في إعداد الحُجرة حتى كاد ألا يعود من الممكن التعرُّف عليها. فأحسنت تهويتها، ونظَّمت السرير، وأبعدت حاجيات الخادمتين — تلك الكراكيب المقيتة، بما فيها من صور — وفرشت على المنضدة مفرشًا أبيض اللون مشغولًا، وكانت تلك المنضدة، بقرصها الذي كوَّنت القذارة عليه طبقة صُلبة، تحملق في الإنسان أينما ذهب. أما الآن فقد أصبح من الممكن استقبال الضيوف. إلا أن ملابس ك الداخلية القليلة، التي يبدو أن فريدا قد غسلتها، ونشرتها إلى المدفأة لتجفَّ، كانت تسيء إلى رونق الحجرة قليلًا. كان المعلم وفريدا يجلسان إلى المنضدة، ونهضا واقفَين عندما دخل ك. وحيَّتْ فريدا ك بقُبلةٍ، أما المعلم فقد انحنى قليلًا. واعتذر ك، وكان تائه الفكر مُضطرب النفس بعد الحديث مع صاحبة الحان؛ لأنه لم يستطع أن يزور المعلم حتى الآن، وكأنه افترض أن المعلم قد فرغ صبره لعدم زيارة ك له، فأتى يزوره بنفسه. أما المعلم فيبدو أنه تذكَّر شيئًا فشيئًا، بطريقته الكريمة، أن شيئًا يشبه الزيارة قد جرى الاتفاق بينهما عليه ذات مرة. فقال ببطء: إنك أنت، يا حضرة موظف المساحة، الغريب الذي تكلمت معه قبل بضعة أيام في ميدان الكنيسة!

فقال ك باختصار: نعم.

لقد أصبح عليه أن يرضى هنا في حجرته بما كان قد سكت عنه قديمًا في عزلته. وتحوَّل إلى فريدا وتشاور معها في أمر الزيارة الهامة التي كان يريد أن يقوم بها من فوره والتي كان يريد أن يذهب إليها وهو يلبس أحسن ما يُمكن أن يلبسه. ونادت فريدا في الحال، ودون أن تسأل ك المزيد، على المُساعدَين، وكانا مشغولَين بتفحُّص المفرش المشغول، وأمرتهما بأن ينظفا ثياب ك وحذائه الطويل تنظيفًا مُتقنًا في الفناء السفلي، وكان ك قد بدأ يخلعها. أما هي فقد أخذت قميصًا من الغسيل المنشور على الحبل وأسرعت إلى المطبخ لتكويه.

وأصبح ك الآن وحدَه مع المعلِّم الذي كان يجلس هادئًا إلى المنضدة وتركه ينتظر قليلًا، وخلع القميص، وبدأ يغتسل عند الحوض. وبدأ، وهو يُوليه ظهره، يسأله عن سبب قدومه.

وقال المعلم: لقد أتيت بتكليفٍ من رئيس مجلس القرية.

وكان ك مستعدًّا للاستماع إلى التكليف الذي أتى به المعلم. ولما كانت كلمات ك لا تصل إلى المعلم واضحةً نتيجة لانهمار الماء، حتى صعب عليه فهمُها، فقد اضطرَّ المعلم إلى الاقتراب والارتكان إلى حائط قرب ك. واعتذر عن اغتساله، وعن اضطرابه، مُبررًا ذلك بأن الزيارة التي ينوي القيام بها مُلحَّة. وعبر المُعلم على هذا الكلام تعبيرًا وقال: لقد كنتَ قليل الأدب حيال السيد رئيس مجلس القرية، وهو الرجل المسن الجليل صاحب الأفضال كثيرة الخبرة.

فقال ك وهو يجفف نفسه: لا أعرف أنني كنتُ قليل الأدب حياله. أما أنَّني كنتُ مُضطرًّا للتفكير في أشياء أخرى غير السلوك المهذب، فهذا صحيح؛ لأن الموضوع كان يدور حول وجودي الذي تُهدِّده تدبيرات دنيئة تسترسل فيها الدواوين، ولا حاجة بي إلى ذِكر تفصيلاتها أمامك، فأنت عضو عامل في هذه الدواوين! هل شكا رئيس القرية من مسلكي؟

فقال المعلم: ولِمَن يشكو؟ وحتى لو كان هناك مَن يشكو له، فهل يُمكن أن يشكو رئيس القرية؟ كل ما في الأمر أنني كتبتُ محضرًا صغيرًا عن مُحادثتك — اعتمادًا على ما أملاني من بيانات — ومنه علمت غير قليل عن طيبة السيد الرئيس وعن نوع إجاباتك.

وقال ك، وهو يبحث عن المشط الذي لا بدَّ أن فريدا وضعته وهي تُرتب الحجرة في مكانٍ ما غير الذي كان به: كيف هذا؟ ما هذا المحضر؟ أهكذا يقوم شخص لم يكن موجودًا أثناء المحادثة بكتابة محضر في غيابي ويَجري ذلك بعد انتهاء المحادثة؟ هذا شيء جميل. ولماذا المحضر؟ هل كان هذا إجراءً رسميًّا؟

فقال المعلم: لا، إنه إجراء نصف رسمي، إنه أيضًا نصف رسمي. ولقد كتبناه لأنَّ كل شيء لدينا يسير في نظام دقيق. والمهم أن المحضر موجود، وإنه لا يشرفك.

وقال ك على نحو أكثر هدوءًا، وكان قد انزلق إلى السرير، ووجد المشط الذي طال بحثه عنه: ليكن المحضر موجودًا. فهل أتيت لتُخبرني بذلك؟

فقال المعلم: لا، ولكني لستُ آلة أوتوماتيكية، ولهذا أتيت لأقول لك رأيي. أما التكليف الذي أتيت به، فهو دليل آخر على طيبة السيد الرئيس. وأنا أؤكِّد أن هذه الطيبة من الأمور التي لا أستطيع فهمها، وإنني لا أنفذ التكليف إلا تحت ضغط مركزي وإجلالي للسيد الرئيس.

وكان ك قد فرغ من الاغتسال وتمشيط شَعره، وجلس إلى المنضدة ينتظر قميصه وثيابه، ولم يكن مُشتاقًا لمعرفة ما أتى المعلم به إليه، وكان مُتأثرًا برأي التحقير الذي عبَّرت عنه صاحبة الحان حيال الرئيس. وقال ك وهو يُفكر في المشوار الذي اعتزم عليه: يبدو أن الوقت تجاوز الظهر؟

ثم أصلح التعبير وقال: لقد كنت تُريد أن تبلغني شيئًا من الرئيس.

فقال المعلم وهو يهزُّ كتفَيه وكأنه ينفض عن كاهله كل مسئولية ذاتية: نعم. إنَّ السيد الرئيس يخشى، إذا تأخر حسم مسألتك، أن تقوم بنفسك بعملٍ متهور. وأنا، عن نفسي، لا أفهم لماذا يخشى هذا. والرأي عندي أن الأفضل أن تفعل ما تُريد. فنحن لسنا حُفَّاظًا عليك، وليس علينا واجب الجري وراءك ووراء مساعيك. النهاية. السيد الرئيس يرى رأيًا آخر. إن القرار الحاسم لمسألتك، قرار من شأن الدواوين الأميرية، وهو بطبيعة الحال لا يستطيع استعجاله. ولكنه يُريد أن يتَّخذ، في إطار صلاحياته، قرارًا مُؤقتًا، كريمًا بحق، ولك أنت وحدك أن تقبله. إنه يعرض عليك مُؤقتًا وظيفة خادم مدرسة.

ولم يَكَد ك يهتمُّ في أول الأمر بما عُرض عليه، ولكنه رأى أن مجرد عرض شيء عليه شيء لا يتجرَّد من الأهمية. إن ذلك يدل على أنه، حسب رأي الرئيس، يستطيع في سبيل الدفاع عن نفسه أن يفعل أشياء ينبغي على مجلس القرية أن يبذل جهودًا معينة حيالها ليقيَ نفسه. وإنه ليدلُّ على الاهتمام بالموضوع. ولا بد أن المُعلم، الذي انتظر هنا طويلًا، والذي كتب قبل ذلك المحضر، قد أتى إلى هنا يدفعه الرئيس إلى ذلك دفعًا. وما إن رأى المعلِّم أنه قد حمل ك على التفكير حتى استمر في حديثه قائلًا: ولقد اعترضت أنا على ذلك. فأشرت إلى أنه لم تكن هناك حتى الآن حاجة إلى خادم للمدرسة؛ فالسيدة زوجة خادم الكنيسة تُنظم المدرسة من حينٍ لآخر تحت إشراف الآنسة جيزا المعلمة. وأنا ألقى العذاب مع الأولاد، ولا أريد أن يتسبَّب لي تعيين خادم للمدرسة في مزيد من الغيظ. وأجاب السيد الرئيس بأن المدرسة قذرة جدًّا. فرددتُ عليه قائلًا إن الحقيقة توجب علينا أن نُقرِّر أن القذارة ليست شديدة. وأضفت: وهل سيتحسَّن الحال عندما نُعيِّن رجلًا خادمًا للمدرسة؟ لا، بكل تأكيد. فبغض النظر عن أنه لا يفهم في هذه الأعمال، تتكوَّن المدرسة من فصلين اثنين كبيرين، بلا حجرات إضافية، ومعنى هذا أن خادم المدرسة سيقيم بالضرورة مع عائلته في أحد الفصلَين فيكون فيه النوم وربما الطبخ، ولا يُمكن بطبيعة الحال أن يُؤدي هذا إلى مزيد من النظافة. ولكن السيد الرئيس أشار إلى أن هذه الوظيفة نجدة لك في المِحنة، وأنك ستبذل كل جهد لتحسن القيام بها. وأشار الرئيس كذلك إلى أننا سنكَسِب معك كذلك جهود زوجتك

ومساعدَيك مما سيُؤدِّي إلى أن المدرسة بل وحديقة المدرسة كذلك ستكونان في نظام مثالي. ولكني نقضَت هذا الرأي بسهولة. وأخيرًا لم يستطع السيد الرئيس أن يذكر شيئًا آخر في صالحك، وضحك وقال إنك موظَّف مساحة وإنك ستتمكَّن لذلك من تخطيط الأحواض في الحديقة تخطيطًا مستقيمًا جميلًا. وليست هناك بطبيعة الحال وسيلة للاعتراض على النكت، ولهذا خرجتُ محمَّلًا بالتكليف إليك.

فقال ك: إنك يا حضرة المعلم تُسبِّب لنفسك همًّا لا داعيَ له، فلا يمكن أن يخطر ببالي أن أقبل هذه الوظيفة.

فقال المعلم: عظيم! عظيم! إنك ترفض بلا تحفظٍ.

وتناول المعلِّم القبَّعة وانحنى وانصرف.

وأتت فريدا بعد قليل ترتسم الحيرة على وجهها، وأعادت القميص دون كي، ولم تجب على أسئلة ك. وأراد ك أن يسرِّي عنها فحكى لها عن المعلم والعرض الذي أتى به. وما كادت تسمع ذلك حتى ألقت القميص على السرير وانصرَفت مرةً أخرى. ثم عادت، عادت بصحبة المعلم الذي كان يبدو غاضبًا ولم يُسلم. ورجته فريدا أن يأخذ نفسه بشيء من الصبر — ويبدو أنها كانت قد توجَّهت إليه بالرجاء نفسه عدة مرات وهما في الطريق إلى هنا — ثم جرَّت ك من خلال باب جانبي لم يكن ك يعرف عنه شيئًا إلى سطحٍ مُجاور وحكت له، وقد انتهى أمرها إلى الانفعال وضيق التنفس، عما حدث لها. فقد غضبت صاحبة الحان لأنها أذلَّت نفسها باعترافاتها لـ ك، وأكثر من ذلك باستسلامها له في موضوع تدبير مقابلة مع كلم. ثم لم تصل بذلك كما قالت، إلى شيء، وتعرضت فوق ذلك لصدود فاتر ولئيم، وقررت ألا تستمر في قبول وجود ك في دارها. وقالت له إذا كانت له صلات بالقصر فليُفِد منها اليوم بسرعة؛ لأنَّ عليه أن يترك الدار اليوم، بل الآن، ولن تعود صاحبة الحان إلى قبوله للسُّكنى لديها إلا بأمرٍ رسمي وإكراه مباشر. وقالت إنها تأمُل ألا يصل الأمر إلى هذا الحد؛ لأنها هي أيضًا لها صلاتها بالقصر وستعرف كيف تجعلها تتصرَّف. وأضافت أنه إنما نزل في الحان نتيجةً لإهمال صاحب الحان، ثم إنه تشدَّق صباح اليوم أمامها بأن هناك مكانًا للنوم جاهزًا تحت تصرُّفه. أما فريدا فلها أن تبقى بطبيعة الحال، وإنها — أي صاحبة الحان — ستكون تعيسة تعاسة عميقة إذا خرجت فريدا مع ك، وستظلُّ هي الآن المرأة المسكينة التي تعاني من مرض القلب، في المطبخ تُفكر وتبكي خائرة بجانب الفرن. ولكن كيف يمكنها أن تتصرَّف على نحوٍ آخر والأمر، على الأقل في تصوُّرها، يمسُّ كرامة ذِكرى كلم مباشرة؟ هذا هو موقف صاحبة الحان. أما هي، فريدا، فستتبع ك حيثما

ذهب في الثلوج الهاطلة والجليد المُتراكم، وما يحتاج هذا بطبيعة الحال إلى تأكيده بكلام، ولكن وضعها على أية حال وضع سيئ جدًّا، لهذا فقد استحسنَت عرْض المعلم ورحَّبت به بفرح كبير، وإذا كانت الوظيفة غير مناسبة لـ ك، فقد جاء في العرض بوضوح أنها وظيفة مؤقَّتة، ما عليهما إلا أن يكسبا الوقت، وسيجدان بسهولة إمكانية أخرى حتى إذا جاء القرار النهائي الحاسم في غير صالح ك. وأخيرًا صاحت فريدا وقد تعلقت برقبة ك: وإذا اضطُررنا فلنهاجر، فماذا يستبقينا في القرية؟ وعلينا يا حبيبي أن نَقبل العرض مؤقَّتًا. ولقد أوعدت المعلم فقل له «موافق» لا أكثر، ولننتقِل إلى المدرسة.

وقال ك: هذا شيء قبيح!

ولم يقصد ما قاله بجدٍّ تامٍّ لأن موضوع السكن لم يكن يهمه إلا قليلًا، وكان إلى جانب هذا يَرتعد من شدة البرد وهو في ملابسه الداخلية فقط على هذا السطح الذي كان يتعرَّض دون ما ساتر من حائط أو شباك إلى ريح باردة قارسة. ثم أكمل: لقد أحسنتِ ترتيب الحجرة الآن، ثم نُضطرُّ الآن إلى تركها! إنَّني لا أستطيع أن أقبل هذه الوظيفة إلا كارهًا، كارهًا، وإن ضعتنا الحالية أمام هذا المعلم الصغير لتحزُّ في نفسي، ولسوف يصبح هذا رئيسي. ليتنا نستطيع أن نبقى هنا هنيهة، فلعل وضعي يتغيَّر عصر اليوم. وإذا كان من المُمكن أن تبقى أنت على الأقل هنا، فيُمكننا الانتظار ويمكننا أن نعطي المعلم إجابة غير محدَّدة. أما أنا فسأجد مكانًا أنام فيه، وإن احتاج الأمر، عند برنا.

وهنا سدَّت فريدا فمه بيدها وقالت خائفةً: إلا هذا! لا تقلْ هذا مرةً أخرى! إنني أتبعك في كل شيء إلا هذا! سأبقى، إذا أردت، هنا وحدي، وإن كان هذا يحزنني أشد الحزن. وإذا أردت فلنرفض الطلب وإن كنا بذلك نتصرَّف، في رأيي، تصرفًا شديد الخطأ؛ ذلك أنك إذا وجدت إمكانية أخرى، وليكن ظهر اليوم، فلنا بطبيعة الحال أن نترك المدرسة، ولن يمنعنا أحد. أما فيما يختص بضعتنا أمام المعلم، فدعني أتصرف حتى لا تكون كذلك، وسأتكلَّم أنا معه، وقف أنت صامتًا بجانبنا، ولن يكون عليك في المستقبل أن تتصرف حياله على نحو آخر، لن يكون عليك، إن لم تشأ، أن تتكلَّم معه، وسأكون أنا في الحقيقة العاملة تحت إمرته، بل لن أكون حتى أنا؛ لأنَّني أعرف نواحي الضعف فيه، وهكذا فإننا لا نخسر شيئًا إن قبلنا الوظيفة، بل إننا لنخسر الكثير إذا رفضناها، فإنك لن تجد، ولا حتى لك وحدك، مكانًا للنوم في القرية، مكانًا للنوم لا أخجل منه باعتباري زوجتك في المستقبل. وإذا أنت لم تجد مكانًا تنام فيه، فهل يُمكن أن تطلب مني أن أنام هنا في الحجرة الدافئة، بينما أنا أعلم أنك تهيم على وجهك في الليل والبرد؟

وقال ك الذي كان يضع ذراعيه متقاطعتين على صدره ويضغط بكفَّيه على ظهره التماسًا لقليل من الدفء: إذن فليس أمامنا إلا أن نُوافق. تعالَي.

فلمَّا دخلا الحجرة أسرع إلى المدفأة، ولم يهتمَّ بالمعلِّم الذي كان يجلس إلى المنضدة ثم أخرج ساعته وقال: لقد تأخَّر الوقت.

فقالت فريدا: ولكننا اتَّفقنا تمامًا الآن يا حضرة المعلم. إننا نقبل الوظيفة.

فقال المعلم: حسنٌ. ولكن الوظيفة معروضة على السيد موظَّف المساحة. وينبغي عليه هو أن يتكلم.

وساعدت فريدا ك قائلةً: طبعًا. إنه يقبل الوظيفة. إنك تقبلها يا ك؟

وهكذا استطاع ك أن يحصر تعبيره عن رأيه في مجرَّد كلمة «نعم» التي لم يوجهها إلى المعلم بل إلى فريدا. وقال المعلم: بقي هناك شيء، وهو أن أوضِّح لك واجباتك في الوظيفة حتى ينتهي اتفاقنا مرةً واحدة. عليك، يا حضرة موظَّف المساحة، يوميًّا أن تنظِّف فصلَي المدرسة، وأن تدفئهما، وأن تقوم بالإصلاحات الصغيرة في المبنى وفي معدَّات التعليم والرياضة بنفسك، وأن تخلي الطريق خلال الحديقة من الجليد، وأن تقوم بالمشاوير التي أكلفك بها أو تكلفك بها الآنسة المدرِّسة وأن تتولى في وقت الدفء أعمال الحديقة كلها، ولك نظير ذلك، الحق في أن تسكن في أحد الفصلَين حسب اختيارك، ولكن ينبغي عليك، إذا لم يكن الفصلان مشغولين، وكان الفصل الذي تسكن فيه هو بالذات المطلوب للتدريس، أن تُغادره وتقيم في الفصل الآخر. وليس مسموحًا لك بالطبخ في المدرسة، وسيتكفل مجلس القرية بطعامك وطعام أسرتك في الحان. أما أنه عليك أن تسلك سلوكًا يتناسَب مع كرامة المدرسة، وإنه لا يصح أن يشاهد التلاميذ من حياتك المنزلية مناظر نابية فشيء لا أذكره إلا بصفة ثانوية، فأنت رجل متعلِّم ولا بد أن تعرف هذا من تلقاء ذاتك. وأحب أن أشير في هذا المقام إلى أنه ينبغي عليك أن تجعل علاقتك بالآنسة فريدا في أقرب وقتٍ مُمكن علاقة شرعية. وسوف يُحرَّر عقد يشمل هذه الأمور كلها وبعض الأمور الصغيرة الأخرى، وسيكون عليك أن توقِّعه عندما تنتقل إلى المدرسة مباشرة.

ولاح هذا كلُّه في نظر ك غير ذي أهميةٍ. وكأنما لم يكن فيه ما يعنيه أو على أية حالٍ ما يربطه. وكانت عجرفة المعلم هي الشيء الذي أثاره ... وقال ك بغير اكتراثٍ: نعم، هذه هي الواجبات العادية.

وأرادت فريدا أن تمحو شيئًا من أثر هذه الملاحظة فسألَت عن المرتَّب. فقال المعلم: أما مسألة دفع مرتَّب فلن يبدأ التفكير فيها إلا بعد انقضاء فترة اختبار مدتها شهر.

وقالت فريدا: سيكون هذا صعبًا علينا. أنَتزوَّج بغير مال تقريبًا؟ أَنخلُق من العدم ما نحتاج إليه في حياتنا؟ ألا يمكننا، يا حضرة المعلم، أن نتقدَّم بمذكرة إلى مجلس القرية نرجو فيها صرف مرتب صغير عاجل؟ أتنصحنا بذلك؟

فقال المعلم وكان يوجه كلامه دائمًا إلى ك: لا، إن مثل هذه المذكرة لا يُمكن أن تؤدي إلى نتيجة إلا إذا أوصيت أنا بذلك، وأنا لن أوصي. وما تقديم الوظيفة إليك إلا جميل، وما ينبغي أن يبالغ الإنسان في صُنع الجميل إذا أراد أن يظل واعيًا بالمسئولية العامة.

وهنا تدخَّل ك قائلًا: أما فيما يختصُّ بصنع الجميل، يا حضرة المعلم، فأنا أعتقد أنك تخطئ، فصانع الجميل هو أنا.

فقال المعلم مُبتسمًا لأنه اضطر ك إلى الكلام: لا. وأنا أعرف الأمر أدقَّ المعرفة. إن حاجتنا إلى خادم المدرسة مثل حاجتنا إلى موظَّف المساحة. إن خادم المدرسة وموظف المساحة كلاهما ثقل معلَّق في عنقنا. ولسوف أجهد فكري إجهادًا كبيرًا لأتوصل إلى أسبابٍ أبرِّر بها هذه المصروفات أمام مجلس القرية. والأفضل والأقرب إلى الحقيقة أن أُلقي بالطلب على المنضدة أمام المجلس وألَّا أبرِّر شيئًا.

وقال ك: وهذا هو الرأي الذي أراه أنا أيضًا. ينبغي عليك أن تقبَلني ضد إرادتك. ينبغي عليك أن تقبَلَني على الرغم من أن ذلك يتسبَّب لك في كثير من التفكير العسير. وإذا كان هناك إنسان يُضطرُّ إلى قبول آخر، وإذا كان هذا الآخر يسمح بأن يقبل، فإنه هو الذي يصنع الجميل.

فقال المعلم: شيءٌ غريب. وما هذا الذي يمكن أن يضطرَّنا إلى قبولك؟ إنَّ قلب الرئيس الطيب، المفرط في الطيبة هو الذي يضطرُّنا. وإنني لا أرى يا حضرة موظَّف المساحة، أنه ينبغي عليك أن تَنصرِف عن بعض الخيالات قبل أن تُصبح خادمًا نافعًا للمدرسة. ومثل هذه الملاحظات التي تتقدَّم بها لا يُمكن أن تؤدي بطبيعة الحال فيما يتعلَّق بمنحك مرتب إلى خلْق الجو المناسِب إلا قليلًا. هذا إلى أنني أتبيَّن للأسف أن سلوكك سيتسبَّب لي في المتاعب. فأنت تتباحَث معي طوال الوقت وأنت لا تلبس سوى الملابس الداخلية، وإنني لأنظر إليك هكذا المرة تلو المرة ولا أكاد أصدِّق.

فقال ضاحكًا وهو يصفق: نعم. ما أبشعَ المساعدَين! أين هما؟

– وأسرعت فريدا إلى الباب. وتبيَّن المعلم أنه لم يَعُد من الممكن الحديث إلى ك، فسأل فريدا متى ستَنتقِل للسُّكنى في المدرسة. فقالت: اليوم.

فقال المعلم: إذن فسأحضر صباح الغد مبكرًا للتفتيش.

ولوَّح بيده للتحية، وأراد أن يخرج من الباب الذي فتحَتْه فريدا لتخرج هي منه، فاصطدم بالخادمتَين اللتين أتيتا بحاجياتهما للإقامة من جديد في الحجرة. واضطرَّ المعلم إلى أن ينفذ من بينهما، فما كانتا لترتدَّا مهما كان مَن يواجههما، وتبعته فريدا. وقال لهما ك، وكان في هذه المرة راضيًا عنهما كل الرضاء: إنكما على عجلٍ. إننا لا نزال هنا، ومع ذلك فأنتما تأتيان بحاجياتكما لتُقيما في الحُجرة؟ فلم يجيبا وحرَّكتا صرتي الحاجيات مضطربتَين ورأى ك الأسمال القَذِرة المعروفة تتدلَّى منهما. وقال: إنَّكما على ما يبدو لم تغسلا ملابسكما من قبلُ قط.

ولم يَقُل ك هذا الكلام غاضبًا، بل قاله على نحوٍ فيه شيء من العاطفة ولاحظت الخادمتان منه ذلك وفتَحَتا في وقتٍ واحد فمهما القاسي وأبرزتا أسنانهما الجميلة القوية الحيوانية وضحكتا بلا صوتٍ. وقال ك: ادخلا، ورتِّبا أشياءكما في الحجرة، فهي حجرتكما.

ولكنهما كانتا مترددتَين — ولعل الحجرة بدَت لهما مُتغيرة تغيرًا شديدًا — فأمسك ك إحداهما بذراعها ليقتادها. ولكنه تركها من فوره. لشدة الدهشة التي ارتسمَت على نظرتهما التي ركَّزتاها — بعد تفاهُم سريع بينهما — على ك ولم تُحوِّلاها عنه. وقال ك وهو يحاول أن يرد عنه إحساسًا كريهًا: لقد نظرتما إليَّ بما فيه الكفاية.

ثم تناول الثياب والأحذية الطويلة التي أحضرتها فريدا، ومن ورائها المساعدان يتبعانها في خجلٍ. وكان ك لا يفهم ولم يفهم في هذه المرة أيضًا، لماذا تعامل فريدا المساعدين بهذه الأناة. وكانت فريدا قد وجدت المساعدَين بعد طُول بحثٍ، يجلسان هادئَين ويتناولان طعام الغداء، وكان المفروض أن يُنظِّفا الثياب، ولكنهما كوراها على حجرَيهما، وأصبح عليها أن تُنظِّف هي كل شيء بنفسها، وعلى الرغم من ذلك فلم تتشاجَر فهي التي تعرف كيف تتحكَّم في نفسها مع الرعاع، وأخذت تحكي، في وجودهما، عن إهمالهما، وكأنها تحكي عن نكتة، بل إنها ربَّتت على خدِّ أحدهما ربتًا رقيقًا وكأنها تُداعبه. وقرر ك أن يُوبِّخها على ذلك في أول فرصة، أما الآن فكان وقت الانصراف قد أزف. وقال ك: على المساعدَينِ أن يبقيا هنا ليساعداك على الانتقال.

ولم يكن المساعدان موافقَين على ذلك، لقد كانا بعد الشبع والبهجة يرجوان القيام بشيء من الحركة، وقالت فريدا: ستبقيان هنا بكل تأكيدٍ.

فانصاعا لها، وسأل ك: أتعرفين إلى أين أنا ذاهبٌ؟

فقالت فريدا: نعم.

فقال ك: ومع ذلك فأنت لا تمنعينني.

فقالت: ستلقى الكثير من العقبات. وهل تفيد كلماتي؟

وقبَّلت ك مودعةً، وأعطته ربطة فيها خبز وسجق كانت قد أحضرتهما معها من أسفل لأنه لم يكن قد تناول طعام الغداء، وذكرته بأنه ينبغي عليه أن يعود إلى المدرسة مباشرةً، ورافقته واضعة يدها على كتفِه حتى خرج من الباب.

الفصل الثامن

كان ك في بداية الأمر مسرورًا لأنه تخلَّص من تزاحم الخادمتَين والمساعدَين في الحجرة الحارة. وكذلك كانت درجة حرارة الجو دون درجة التجمُّد، فكان الجليد أكثر صلابةً، وكان السير عليه أكثر سهولةً. وكان الظلام قد بدأ بطبيعة الحال في الحلول، فأسرع ك الخُطى.

وكان القصر، الذي بدأت خطوطه تتحلَّل، يقبع في السكون كحاله دائمًا، ولم يكن ك قد رأى قط أقلَّ إشارةٍ تدل على أن الحياة تتَّصل فيه، ولعلَّه لم يكن من الممكن أن يتبين الناظر من هذا البُعد شيئًا، ولكن العينين كانتا تلتمسان ذلك ولم تكونا تريدان الرضا بهذا السكون. وكان ك أحيانًا عندما يتطلع إلى القصر يحسُّ كأنه يتطلع إلى شخص يجلس هناك هادئًا ينظر أمامه لا غارقًا في التفكير مُنصرفًا عن كل شيء، بل حرًّا طليقًا غير عابئ، وكأنه وحدَه لا ينظر إليه أحد، وإن اضطرَّ إلى تبيُّن أن هناك مَن ينظر إليه، ولكن ذلك لم يكن يؤثر أدنى أثر في هدوئه، والحقيقة — ولم يكن أحد يعلم إن كان ذلك سببًا أو نتيجة — أن النظرات لم تكن تَثبت عليه بل كانت تنزلق من فوقه. ولقد اشتدَّ هذا الانطباع قوة نتيجة للظلام المبكر. كان ك كلَّما أطال النظر قلَّ ما يتبيَّنه، وازداد انغماس كل شيء في الظلام عمقًا.

وعندما وصل ك إلى حان السادة، وكان مُظلمًا لم يوقد به نور، انفتحت نافذة في الدور الأول وأطلَّ منها شابٌّ بدِينٌ حليق الوجه يَرتدي سترة من الفراء وظلَّ بالنافذة وحيَّاه ك، فلم يبدُ عليه أنه ردَّ التحية حتى ولا بأقل إيماءةٍ من رأسه. ولم يلتقِ ك لا في مدخل الحان ولا في قاعة الخمارة، وكانت رائحة البيرة المتروكة أقبح من المرة الماضية، وهذا شيء لم يعهد ك مثله في حان الجسر. وذهب ك من فوره إلى الباب الذي كان قد تطلَّع من خلاله مؤخرًا إلى كلم، وضغط باحتراس على المقبض، ولكن الباب كان مغلقًا. فحاول أن يتحسَّس الموضع

الذي كان به الثقب، ولكن السدادة كانت مُحكمة الصنع بقدْر الثقب على ما يبدو، لدرجة أنه لم يستطع أن يتوصَّل إلى مكان الثقب، ولهذا أشعل عود ثقاب. وهنا أفزعته صيحة. وإذا ببنتٍ شابَّة تجلس مُتكوِّرة على نفسها في الركن بين الباب ومنضدة الشراب قريبًا من المدفأة، وكانت تحملق فيه في ضوء عود الثقاب بعينين ناعستين فتحتهما بجهد شديد. ويبدو أنها كانت خليفة فريدا. وما لبثت أن تماسكت نفسها، وأضاءت النور الكهربائي وبدأ تعبير وجهها غاضبًا، وهنا تعرفت على ك. وقالت مبتسمةً: آه، السيد موظف المساحة!

ومدَّت إليه يدها وقدَّمت نفسها بقولها: أنا اسمي بيبي.

كانت قصيرة القامة، حمراء البشرة، بادية الصحة، وكانت تضمُّ شَعرها الكثيف الفارع الأشقر المائل إلى الحمرة في ضفيرة قوية، وكان شَعرها علاوة على ذلك يتجعَّد حول وجهها، وكانت ترتدي فستانًا لا يناسبها، فستانًا مُسترسلًا مصنوعًا من قماش رمادي لامع، وكان بعضهم قد ضمَّهُ من أسفل على نحوٍ صبياني فجٍّ مُضطرب بشريط حريري ينتهي بحلقة، حتى ضاق الفستان عليها وعرقلَها. وسألت عن فريدا وهل ستعود عما قريب. لقد كان السؤال يوشك أن يصل إلى حدِّ الإيذاء ثم قالت: لقد استدعوني، بعد ذهاب فريدا، إلى هنا على عجلٍ، فليس من الممكن استخدام كل مَن هبَّ ودبَّ في هذا العمل، ولقد كنت حتى الآن خادمة خصوصية، وليس هذا تغييرًا طيبًا بالنسبة لي. فالعمل بالمساء والليل هنا مُتعب جدًّا، ولا أكاد أستطيع احتماله، ولستُ أدهش لترك فريدا إيَّاه.

فقال ك ليبين أخيرًا ما بين فريدا وبينهما من فرْقٍ تتغافَل عنه: لقد كانت فريدا هنا راضيةً جدًّا.

فقالت بيبي: لا تُصدِّق هذا، ولكن فريدا تستطيع أن تتحكَّم في نفسها على نحو لا يستطيع كل إنسان بسهولة. فهي إذا أرادت ألا تعترف بشيء، تستطيع أن تمتنع عن الاعتراف به، ولا يكون في مقدور إنسان أن يتبيَّن أن لدَيها شيئًا ينبغي أن تعترف به. ولقد خدمت هنا عدة سنوات معها، وكنَّا دائمًا ننام معًا في سرير واحد، ولكني لم أكن موضع سرِّها، ولا شك أنها لا تفكر الآن فيَّ. ولعل صديقتها الوحيدة هي العجوز صاحبة حان الجسر، وهذا شيء له مغزاه.

فقال ك وأخذ في الوقت نفسه يبحث عن مكان الثقب في الباب: فريدا خطيبتي.

فقالت بيبي: أنا أعرف هذا، ولذلك حكيت لك ما حكيت. ولو لم أكن أعرف هذا لَما كان لكلامي معنًى.

فقال ك: لقد فهمت. إنك تُريدين أن تقولي إنه ينبغي عليَّ أن أفخر بأنني ربحت فتاةً كتومة إلى هذا الحد.

فقالت: نعم.

وضحكت راضيةً كأنما استمالها ك إلى اتِّفاق سريٍّ حول فريدا.

ولم تكن كلماتها في الحقيقة هي التي شغلت ك وألهَته قليلًا عن البحث، وإنما كان الذي شغل ك وألهاه عن البحث هو ظهورها ووجودها في هذا المكان. والحقيقة أنها كانت أصغر سنًّا كثيرًا من فريدا، تكاد ألا تكون قد تجاوَزَت سن الطفولة، وأن ثيابها كانت تُثير الضحك، ويبدو أنها اتخذتها لتُناسب تصورها المبالغ فيه عن أهمية خادمة الخمارة وكانت على حقٍّ في تصوُّرها هذا؛ لأن تلك الوظيفة — التي لم تكن مناسبة لها مُطلقًا — قد أعطيت لها، دون أن تتوقَّعها ودون أن تكون خليقة بها، بصفة مؤقَّتة فقط، فلم تحصل حتى على الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كانت فريدا تحملها دائمًا في حزامها ولم يكن ما تدَّعيه من عدم الرضا بالوظيفة شيئًا آخر سوى التكبُّر. ومع ذلك فيبدو أنها، على الرغم من سذاجتها الصبيانية. كانت على علاقة بالقصر؛ فقد كانت — إن لم تكن قد كذبت — تعمل خادمة خصوصية. ولم تكن تعي ما تملك، بل كانت تضيع الأيام نائمةً هنا، ولو أن ك عانق هذا الجسم الصغير البدين ذا الظهر المستدير قليلًا، لما كان من المُمكن أن يُؤدي هذا إلى تجريدها مما تملك. كان ك يستطيع أن يمسَّ هذا الجسم فينشط للطريق الصعب. إذن فلعلَّ أمرها لا يختلف عن أمر فريدا؟ آه، لا، بل يختلف. وما على الإنسان أن يتذكر نظرة فريدا ليفهم هذا الاختلاف. وما كان ك ليقرب بيبي بحالٍ من الأحوال. ولكنه اضطر الآن إلى أن يغطي عينيه هنيهة لما استبد به من شره وهو ينظر إليها.

وقالت بيبي: ما ينبغي أن يظلَّ النور مضاء.

وأطفأت النور، ثم قالت: لقد أضأتُه لأنك أفزعتني أشد الفزع. ماذا تريد هنا؟ هل نسيَتْ فريدا شيئًا؟

فقال ك وهو يُشير إلى الباب: نعم، في هذه الحجرة المجاورة، نسيت مفرش منضدة، أبيض اللون مشغولًا.

فقالت بيبي: آه، مفرشها، إنني أذكره، لقد أحسنَت شغله، ولقد ساعدتُها أنا فيه، ولكنه لا يكاد يمكن أن يكون في هذه الحجرة على ما أظن.

فقال ك: ولكن فريدا تعوَّدت ذلك. ومَن الذي يسكن في هذه الحجرة؟

فقالت بيبي: لا أحد. إنها حجرة السادة. فيها يشرب السادة وفيها يأكلون، أعني أنها مخصصة لهذا الغرض ولكن غالبيتهم يبقون في حجراتهم في الدور العلوي.

فقال ك: لو علمتُ أنه ليس بالحجرة الآن أحد، لوددتُ جدًّا أن أدخل وأبحث عن المفرش. ولكنني غير متأكد من ذلك. فكلم على سبيل المثال اعتاد على أن يجلس فيها كثيرًا.

فقالت بيبي: كلم ليس فيها الآن بكل تأكيد، فهو يوشك على الانصراف، والزحافة تَنتظرُه في الفناء.

وغادر ك قاعة الشراب من فوره وبدون أن يُقدم أي تفسير، وكان وهو يسير في المدخل ينظر إلى داخل الدار بدلًا من أن ينظر إلى باب الخروج وما هي إلا خطوات حتى كان قد وصل إلى الفناء. يا لسكون وجمال هذا المكان! كان الفناء مربعًا يقوم المبنى على ثلاثةٍ من أضلاعه، وكان الضلع الآخر يطلُّ على شارعٍ — شارعٍ فرعي لم يكن ك يعرفه — يفصله عنه جدارٌ مرتفع أبيضَ وبوابة كبيرة ثقيلة كانت عند ذاك مفتوحة. وكان المبنى يبدو من ناحية الفناء أكثر ارتفاعًا مما يبدو من ناحية الواجهة. وكان الدور الأول على الأقل مكتمل البناء تمامًا، وكان مظهره عظيمًا؛ لأنه كان محاطًا ببهوٍ خشبي مُغلق إلى مستوى العينين إلا شقًّا صغيرًا. ورأى ك — وكان ينظر إلى الفناء من مكانه في الجناح الأوسط من المبنى، من الزاوية التي يتصل بها بالجناح الجانبي المقابل — مدخلًا للمبنى، مفتوحًا بلا باب. وكان هناك أمامه زحافة مُظلمة مُقفلة علق بها حصانان. ولم يكن هناك سوى الحوذي الذي توقَّع ك على البعدِ وجودَه في الظلام وإن لم يكد تبينه.

وسار ك واضعًا يدَيه في جيبيه، حريصًا يتلفَّت، قريبًا من الجدار، فقطع ضلعَي الفناء حتى وصل إلى الزحافة. وكان الحوذي — وهو أحد الفلَّاحين الذين كانوا مؤخرًا في قاعة الحان — قد رآه غارقًا في الفراء فاترًا وهو يَقترب ونظر إليه كما ينظر الإنسان إلى سير إحدى القطط. وكذلك عندما وقف ك عنده وحيَّاه، بل عندما اضطرب الحصانان قليلًا لظهور إنسان من وسط الظلام فجأة، ظلَّ الحوذي بليدًا لا يعبأ بشيء ألبتَّة. ولقي هذا المسلك من ك أشد ترحيبٍ. فلما وصَل إلى الجدار أخرج الطعام وذكر فريدا بالامتنان لحسن رعايتها إيَّاه، وأخذ في أثناء ذلك يختلس النظرات إلى داخل المبنى. كان هناك درج مربع مفتوح يؤدِّي إلى أسفل حيث يتعامد عليه ممرٌّ مُنخفِض يبدو أنه كان عميقًا. وكان كل شيء نظيفًا مطليًّا باللون الأبيض وكان كل شيء محدد المعالم واضح الخطوط.

واستمر الانتظار أكثر ممَّا اعتقد ك. كان قد فرغ منذ مدةٍ من طعامه، وأصبح البرد يُؤذيه، وكان الظلام قد استحال إلى حلكة دامسة، ولم يكن ك قد ظهر. وقال صوت خَشِن انطلق فجأة قريبًا من ك قُربًا شديدًا حتى ارتعدَت فرائصه: قد يطُول طولًا شديدًا!

كان المتحدث هو الحوذي الذي كان يتمطَّى ويتثاءب بصوت عال وكأنه صحا لتوه من النوم وسأله ك: ما هذا الذي قد يطول طولًا شديدًا؟

ولم يكن ك غاضبًا للانزعاج لأنَّ السكون المستمر والتوتر الدائم كانا قد ثقُلا عليه. وقال الحوذي: إلى أن تَنصرف.

ولم يفهم ك مقصده، ولكنه لم يسأله، واعتقد أنَّ هذه هي أفضل وسيلة لدفع هذا الرجل المتكبِّر إلى الكلام. لقد كان السكوت عن الإجابة هنا في الحُلكة الدامسة شيئًا يوشك أن يكون حافزًا على الكلام. وهذا هو بالفعل ما حدث؛ فقد سأل الحوذي بعد هنيهة: أتُريد شيئًا من الكونياك؟

فقال ك دون أن يُفكر فقد أغراه العرض إغراءً شديدًا وهو يرتعد: نعم.

فقال الحوذي: إذن فافتح الزحَّافة، وستجد في الحقيبة الجانبية بعض الزجاجات فتناول إحداها واشرب ثم ناولني إيَّاها. إن الفراء الذي أرتديه يَجعل من الصعب عليَّ أن أنزل.

وتضايَق ك لاضطراره إلى تأدية أعمال من هذا النوع، ولكنه، وقد تبسَّط مع الحوذي، أطاع على الرغم ممَّا كان في ذلك من خطرٍ، فقد كان من المُمكن أن يُفاجئه كلم عند الزحافة. وفتح الباب العريض، وكان يُمكنه أن يستخرج على الفور الزجاجة من الحقيبة المركَّبة على الناحية الداخلية من الباب، ولكن الباب المفتوح أغراه بالدخول في الزحافة، فلم يَستطِع أن يُقاوم الإغراء. وكان يريد أن يجلس بداخلها لحظةً. وتسلَّل إلى الداخل. كان الدفء في داخل الزحافة خارقًا للمألوف، وظلَّ على حالته لم يتغيَّر على الرغم من أن الباب ظلَّ مفتوحًا على سعته فلم يجرؤ ك على إغلاقه. ولم يعرف ك وقد جلس، هل كان هذا الذي جلس عليه مقعدًا، فقد غرق في أغطيةٍ ومخدات وفراء، وتبيَّن أن الجالس يستطيع أن يتحرَّك في كل الاتجاهات وأن يتمدَّد ما شاء، فما يزداد إلا تمتُّعًا بالنعومة والدِّفء. ومدَّ ك ذراعيه، وسند رأسه على المخدات التي كانت تعرض له في كل ناحية، ونظر من الزحافة إلى المبنى المُظلم. لماذا يتأخَّر قدوم كلم إلى هذا الحد؟ وتمنَّى ك، وكان الدفء قد خدره بعد طول وقوفه في الجليد، أن يأتي كلم بعد طول الانتظار. ولم يخطر بباله، أن الأفضل ألا يراه كلم في هذا الوضع، إلا على نحوٍ مبهم. ولقد ساعده على هذا النسيان مسلك الحوذي الذي كان يعرف أنه في الزحفة وتركه فيها، دون أن يطلب منه حتى الكونياك. كان هذا المسلك من الحوذي فيه تأدبٌ حيال ك، ولكن ك كان يريد أن يخدمه. ومدَّ ك يده في تثاقل، دون أن يُغيِّر وضعه، إلى الحقيبة الجانبية، ولكنه لم يمدها إلى الحقيبة المركبة في الباب المفتوح — فقد كان هذا الباب بعيدًا — بل مدَّها خلفه، إلى حقيبة الباب المقفل، ولم يغير هذا من الأمر شيئًا، فقد كانت هناك في هذه الحقيبة كذلك زجاجات. وأخرج منها واحدة وفتح السدادة وشمَّ ما بالزجاجة، فابتسم رغمًا عنه، لأنَّ الرائحة كانت حلوة، ناعمة أحسَّ حيالها بإحساس الإنسان عندما يسمع من شخص يُحبُّه حبًّا شديدًا مدحًا وكلمات طيبة

دون أن يعلم الموضوع الذي تدور حوله ودون أن يُريد أن يعلم عنه شيئًا، سعيدًا بأن الذي يقوله هو هذا الشخص. وتساءل ك مُرتابًا:

أيُمكن أن يكون هذا كونياك؟

وتذوَّق بدافعٍ من الفضول. عجبًا! لقد كان كونياك، وكانت له حرارة وكان يَبعث دفئًا. ما أغرب تغيره. عندما يشرب الإنسان منه! إنه يتحوَّل من مشروب ذي رائحة شذية حُلوة، إلى مشروب لا يَليق إلا بالحوذية. وسأل ك نفسه وكأنَّما كان يلوم نفسه:

أيُمكن هذا؟

وشرب جرعة أخرى.

وهنا أضاء المكان — وكان ك في تلك اللحظة يتجرَّع جرعة طويلة — وظهر نور كهربائي في داخل الدرج والممرِّ والمدخل وفي الخارج فوق الباب. وتناهى إلى السمع صوت خُطًى تَنزِل الدَّرَج، فسقطت الزجاجة من يد ك وسال ما فيها على الفراء، فقفَز ك خارجًا من الزحَّافة، وتمكن في عُجالته من إغلاق بابها، فصدرت عن ذلك ضجَّة عالية، وخرج بعد قليل أحد السادة مِن المبنى وسار ببطء. وكان الشيء الوحيد الذي طابت له نفس ك هو أن هذا الرجل لم يكن كلم، أو هل كان هذا بالضبط هو الشيء الذي أسف ك له؟ كان القادم هو السيد الذي كان ك قد رآه في نافذة الدور الأول. كان رجلًا في مُقتبَل العمر، ذا حسنٍ مُفرط، وبشرة بيضاء مُشربة بحمرة، وكان يبدو جادًّا عابسًا. وكذلك تطلَّع ك إليه عبوسًا، ولكن ك كان يقصد نفسه بهذه النظرة العبوسة. كان الأحرى به أن يُرسل مساعديه إلى هنا، فهما أيضًا قادران على التصرف على النحو الذي تصرَّف هو عليه. وقف أمامه السيد صامتًا، وكأنما لم يكن يجد لما كان يريد أن يقوله نفَسًا كافيًا في صدره العريض المفرط في العرض. ثم قال السيد: هذا شيء بشعٌ.

ثم دفع القبَّعة قليلًا عن جبهته. كيف هذا؟ يبدو أن السيد لم يكن يعلم شيئًا عن وجود ك في الزحافة، ولكنه مع ذلك كان يجد شيئًا ما بشعًا؟ هل يقصد يا ترى أن ك نفذ حتى الفناء؟ وسأل السيد بصوت أكثر انخفاضًا، مُطلقًا زفرة، مُستسلمًا لما لا سبيل إلى تغييره: كيف أتيت إلى هنا؟

يا لها من أسئلة! ويا لها من أجوبة! هل ينبغي يا ترى على ك أن يُعبِّر للسيد بنفسه تعبيرًا صريحًا يُؤكد به أن الطريق الذي بدأه بكثير من الأماني والآمال كان بلا جدوى؟ واتجه ك إلى الزحافة، بدلًا من أن يجيب، وفتحها وأخرج قبَّعته التي كان قد نسيَها بداخلها. ولاحظ أثناء ذلك أن الكونياك كان يتساقَط على سلَّم الزحافة.

ثم اتجه مرةً أخرى إلى السيد. لم يَعُد الآن يخشى أن يُبيِّن له أنه كان في الزحافة. ولم يكن هذا الأمر هو أسوأ الأمور. وكان يَنوي، إذا سئل، وإذا سئل فقط ألا يُخفي أن الحوذي هو نفسه الذي دفعه على الأقل إلى فتح الزحافة. أما أسوأ الأُمور حقًّا فقد كان مُفاجأة السيد له بحيث لم يكن لديه وقت ليَختبئ منه حتى يستطيع أن ينتظر مقدم كلم دون أن يشوِّش عليه مُشوِّش، أو لعلَّه كان افتقاره إلى أنَّ البديهة الحاضرة التي كان من شأنها أن تُملي عليه أن يظلَّ في الزحافة ويقفل الباب ويَنتظِر جالسًا على فراء كلم حتى يأتي أو يَنتظِر طالما كان هذا السيد قريبًا. ولكنه لم يكن بطبيعة الحال يعلم مَن الذي سيأتي، فربما كان القادم هو كلم نفسه، وفي هذه الحالة، كان من الأفضل بطبيعة الحال أن يَستقبِله وهو خارج الزحافة. نعم، كان هناك أشياء كثيرة كان لا بد من تدبرها ولم يعد هناك الآن معنى لتدبرها، لأن كل شيء قد انتهى.

وقال السيد: تعالَ معي.

ولم يكن يتكلَّم بأسلوب الأمر، ولكن الأمر، وإن لم تنطوِ عليه الكلمات، كان في حركة من اليد. أتى بها صغيرة مستهترة مقصودة صاحب بها كلماته. وقال ك: إنني أنتظِر هنا شخصًا.

ولم يكن بذلك يعبِّر عن أمل في نجاح، بل عن مجرَّد مبدأ. وعاد السيد يقول مُصممًا تمام التصميم، وكأنما أراد أن يُبين أنه لم يَشكَّ قط في أن ك ينتظر أحدًا: تعالَ.

وقال ك بانتفاضة من جسمِه كله: إنني إذا ذهبتُ معك فلن أقابل مَن انتظرته.

وكان ك على الرغم من كل ما حدث يحسُّ بأن ما توصَّل إليه حتى الآن نوع من الاستحواذ لا يتمسك به إلا تمسكًا ظاهريًّا، ولكنه لا يفرط فيه بناءً على أمرٍ أيِّ أمر. وقال السيد بطريقة فيها تعبير صارم عن رأيه، وفيها في الوقت نفسه انصياع واضح لتفكير ك: إنك لن تُقابله على أيَّة حال سواء انتظرت أو انصرفت.

فقال ك عنيدًا، فما كان بكلِّ تأكيد ليرضى بأن تصرُّفه من هنا مجرَّد كلمات نطق بها هذا الشاب: إذن فأنا أُفضِّل ألا أقابله بعد أن أكون قد انتظرته.

وهنا أغلق السيد عينَيه هنيهة مائلًا برأسه إلى الخلف على نحوٍ مُترفع، وكأنما أراد أن يعود من غباء ك إلى عقله هو، ومر بطرف لسانه على شفتيه وكان فمه مفتوحًا قليلًا، ثم قال للحوذي: فكَّ الحصانين.

واضطرَّ الحوذي، مطيعًا للسيد، ناظرًا إلى ك من جانبٍ نظرة غاضبة، إلى أن ينزل برغم الفراء الذي كان يلبسه، وشرع، في تردُّد شديد — وكأنما كان يَنتظِر لا أن يُصدر

السيد أمرًا مضادًّا، بل أن يُغير ك فكره — يقود الحصانَين بالزحافة إلى الخلف قريبًا من الجناح الجانبي الذي كان يَبدُو أن الإسطبل مُتَّخذ فيه وراء بوابة كبيرة. ورأى ك نفسه يبقى بمفرده، كانت الزحافة تبتعد من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان السيد الشاب يبتعد سالكًا الطريق الذي كان ك قد أتى منه، وكان الاثنان يتحركان ببطء شديد، وكأنما كانا يريدان أن يَبينا لـ ك أنه ما زال يَحتكِم على سُلطة استرجاعهما.

وربما كانت له هذه السُّلطة. ولكنها لم تكن لتُفيده بشيء. إن استعادة الزحَّافة تعني أن يطرد نفسه بنفسِه من هنا. وهكذا بقي وحده ساكنًا، الوحيد الذي تمسَّك بالموقع، ولكن النصر الذي حقَّقه كان نصرًا لا فرح فيه. أخذ يَنقُل بصره بين السيد والحوذي على التوالي. كان السيد قد بلغ الباب الذي كان ك قد ولج إلى الفناء من خلاله، ونظر السيد خلفه مرةً أخرى، وظنَّ ك أنه رآه يهز رأسه من فرط العناد ثم التفت إلى الناحية الأخرى بحركة قصيرة حاسمة تَنطوي على التصميم واتجه إلى المدخل واختفى فيه. أما الحُوذي فقد بقيَ مدَّة أطول في الفناء؛ لأنَّ الزحافة كانت تتطلَّب الكثير من العمل، وكان عليه أن يفتح بوابة الإسطبل الثقيلة، وأن يُعيد الزحافة إلى مكانها سائرًا بها إلى الخلف، ثمَّ كان عليه أن يفكَّ الحصانَين وأن يسوقهما إلى الزريبة، وكان الحُوذي يقوم بهذه الأعمال كلها جادًّا، عاكفًا على نفسه تمامًا، دون أن يُراوِدَه أمل في خروج قريب بالزحافة. وكانت حركات الحوذي الصامتة التي لم تصحبها نظرة إلى هذه الناحية أو إلى تلك تلوح لـ ك تأنيبًا أكثر عنفًا من تصرف السيد حياله. فلما انتهى الحوذي من عمله في الإسطبل، وسار في خط مُنحرف خلال الفناء، بخطوات بطيئة مترنحة، وأقفل البوابة الكبيرة، ثم عاد — وكان يُؤدِّي هذا كله ببطء شديد دون أن يرفع بصره عن آثار أقدامه في الجليد — ثم أقفل على نفسه باب الإسطبل وأطفأ كل الأنوار الكهربائية فلَم تُضِئ، ولم يبقَ من النور سوى ما انبعث من الشق في البهو الخشبي وكان لا يفتأ يشدُّ إليه النظرة الزائغة، بدا لـ ك كأنهم جميعًا قطَعُوا جميع الروابط بينهم وبينه، وكأنه أصبح الآن بطبيعة الحال أكثر حريةً من أيِّ وقتٍ مضى، وكأنه يستطيع أن ينتظر في هذا المكان — وهو المكان المحرَّم — كما يحلو له وكأنه كسب هذه الحرية على نحو لا يكاد يستطيعه آخر، وكأنه لا يوجد إنسانٌ يحقُّ له أن يمسَّه أو يطرده أو حتى أن يُكلمه. ولكنه كان مُقتنعًا اقتناعًا لا يقلُّ قوة بأنه ليس هناك في الوقت نفسه شيء أكثر سخفًا ويأسًا من هذه الحرية، من هذا الانتظار، من هذه الحرمة.

الفصل التاسع

وانتزع نفسه وعاد إلى المبنى، ولم يسرِ في هذه المرة بحذاء الجدار بل اجتاز الجليد، وقابل في المدخل صاحب الحان الذي حيَّاه صامتًا وأشار له إلى باب قاعة الخمَّارة، فاتَّبع ك إشارته لأنه كان يرتعد من شدة البرد، ولأنه كان يريد أن يرى أناسًا، ولكنه أصيب بخيبة شديدة لأنه لم يرَ هناك سوى السيد الشاب يَجلس إلى منضدة صغيرة يبدو أنها وُضعت خصوصًا له؛ لأنهم كانوا يكتفُون في الحان عادةً بالبراميل، وكانت صاحبة حان الجسر تقف أمامه. وكانت بيبي مُعتزةً بنفسها، تميل برأسها إلى الخلف، وتبتسم ابتسامتها المعهودة تعي كرامتها وعيًا لا نقضَ له، وتهزُّ ضفيرتها في كل حركة تأتي بها، وكانت تسرع وتسرع، لتأتي بالبيرة ثم بالحبر والريشة؛ لأنَّ السيد كان قد بسط أمامه أوراقًا وأخذ يقارن البيانات التي كان يجدُها تارةً في هذه الورقة وتارةً في تلك الورقة عند نهاية المنضدة، وكان في هذه اللحظة يريد أن يكتب شيئًا. أما صاحبة الحان فكانت تنظر من عليائها هادئة، تمطُّ شفتَيها قليلًا كأنها تلتمس الراحة، فتشمل ببصرها السيد والأوراق جميعًا، وكأنها قد قالت كل ما كان ينبغي أن تقوله وكأنه لقي الترحيب. فلمَّا دخل ك قال السيد رافعًا بصره قليلًا إليه ثم خافضه بعد ذلك ليغرق في الأوراق: ها هو ذا السيد موظَّف المساحة أخيرًا.

وكذلك عبرت صاحبة الحان على ك بنظرة غير عابئة لا يظهر فيها شيء من الاندهاش. أما بيبي فيبدو أنها لم تلحَظ ك إلا عندما ذهب إلى منضدة المشروبات وطلب شيئًا من الكونياك.

واستند إلى المنضدة ووضع يده على عينَيه ولم يهتمَّ بأي شيء. ثم ارتشف رشفة من الكونياك، وأعاده لأنه لم يستسغْه. وقالت بيبي باختصار: السادة كلهم يشربونه.

وسكت البقية، وغسلت الكأس ووضعَتها على الرف. فقال ك: السادة لديهم أفضل منه.

فقالت بيبي: ربما. أما أنا فليس لديَّ غيره.

وبهذا فرغت من خدمة ك، وعادت إلى خدمة السيد الذي لم يكن يحتاج إلى شيء، فأخذت تسير خلفه جيئةً وذهابًا على هيئة قوس، وتُحاول على نحو مقبول أن تُلقي نظرة من فوق كتفَيه إلى الأوراق. ولكن فضولها وتصنُّعها كانا بلا معنًى، واستنكرتهما حتى صاحبة الحان التي قطَّبت حاجبيها.

وفجأة أرهفت صاحبة الحان السمع، وحملقت في الفراغ وهي مندمجة في الإصغاء كل الاندماج. والتفت ك حوالَيه، فلم يسمع شيئًا غريبًا، ولم يبدُ على الآخرين أنهم يسمعون شيئًا، ولكن صاحبة الحان جرَت على أطراف أصابعها بخطوات كبيرة إلى الباب في المؤخرة — ذلك الباب الذي يُؤدي إلى الفناء — وأطلَّت من خلال ثقب المفتاح، ثم اتجهت إلى الآخرين بعينين فاغرتَين، ووجه محتقن، وأشارت إليهم بإصبعها أن يُقبلوا، وأخذوا يتناوبون النظر من خلال الثقب، واختصَّت صاحبة الحان بطبيعة الحال بأكبر نصيب، وكذلك بيبي نالت نصيبًا كبيرًا، أما السيد فكان يبدو بالنسبة إليهم أكثر فتورًا. وعادت بيبي وعاد السيد بعد قليلٍ، إلَّا صاحبة الحان فقد ظلَّت تنظر من الثُّقب وتبذل الجهد الكثير، منحنية انحناءة شديدة وتوشك أن تركع على الأرض، وكان الناظر إليها يظنُّ أنها تتوسَّل إلى ثقب المفتاح أن يتيح لها أن تنفذ من خلاله؛ إذ ليس من شك في أنه لم يَعُد هناك شيء يُرى. فلما نهضَت أخيرًا ومسحت على عينَيها بيدَيها، وسوَّت شَعرها، وتنفَّست نفَسًا عميقًا، واضطرَّت عينَيها على ما يبدو إلى الاعتياد من جديد على القاعة والناس، وما فعلت ذلك إلا كارهةً، قال ك: هل رحل كلم إذن؟

ولم يَقُل هذا ليتأكد من شيء يعرفه، بل قاله ليسبق هجومًا كان يتوقَّع حدوثه، فما أشد ما أصبح الآن عرضة للإصابة. ومرت عليه صاحبة الحان صامتة، ولكن السيد قال وهو يجلس إلى منضدته: نعم، بكل تأكيد. لقد تخلَّيتَ عن موقع المراقبة، فأصبح في مقدور كلم أن يرحل. إن السيد حسَّاس بدرجة تثير الدهشة. لقد لاحظت، يا سيدتي صاحبة الحان كيف كان كلم ينظر حواليه في قلق؟

ويبدو أن صاحبة الحان لم تلحَظ هذا، واستمر السيد في كلامه: ومن حُسن الحظ أنه لم يَعُد هناك شيء تراه عينه، فقد مسح الحوذي كل شيء حتى آثار الأقدام في الجليد.

فقال ك: إن السيدة صاحبة الحان لم تلحظ شيئًا.

ولم يكن يعبر بهذا عن أملٍ ما، ولكنه كان قد ثار للادعاء الذي ادَّعاه السيد وأراد له أن يتخذ نبرة نهائية لا سبيل إلى وصفها. وقالت صاحبة الحان: لعلِّي لم أكن عند ثقب المفتاح آنذاك.

وكانت تقصد بذلك حماية السيد أولًا، وكانت تقصد ثانيًا إلى إعطاء كلم حقه، وأضافت: ولكني لا أعتقد أن حساسية كلم شديدة إلى هذا الحد. إنما نحن الذين نخشى عليه بطبيعة الحال، ونُحاول أن نحميه ونبدأ بافتراض أنه على حساسية مُفرطة. وفي هذا خير، ولا شك أن تلك هي إرادة كلم. أما حقيقة الأمر فلا علمَ لنا بها. ولا شك في أن كلم لن يتكلَّم أبدًا مع شخص لا يُريد أن يتكلَّم معه، مهما بذل هذا الشخص من الجهد ومهما ألحَّ وبلغ ما لا يُمكن احتماله من حدود، ولكن هذه الحقيقة — أعني أن كلم لن يُكلِّمه أبدًا ولن يدعه يظهر أمامه — تكفي، فلماذا نذهب إلى أنه لا يستطيع في الواقع احتمال منظر أي شخص؟! وهذا على الأقل شيء لا يقوم عليه برهان لأنه لم يتعرَّض لتجربة.

وهز السيد رأسه بحماس وقال: هذا الرأي في أساسه بطبيعة الحال رأيي أنا كذلك، وإذا كنت قد عبَّرت عنه بأسلوب آخر، فليس ذلك إلا لأنني أردت أن يكون مفهومًا للسيد موظَّف المساحة. والمؤكد على أية حال أن كلم عندما خرج إلى الخلاء كان يتلفَّت حواليه مرارًا في نصف دائرة.

فقال ك: ربما كان يبحث عني.

فقال السيد: ربما. وأنا لم أقع على هذا.

وضحك الجميع. كانت بيبي، التي لم تفهم من الأمر كله شيئًا، أكثرهم ضحكًا.

وهنا قال السيد: ما دمنا قد اجتمعنا الآن في هذا الجو المرح، فإنَّني أرجوك يا حضرة موظف المساحة أشد الرجاء أن تكمل ملفاتي ببعض البيانات.

فقال ك وهو ينظر من بُعدٍ إلى الملفات: إنكم تكتُبون هنا كثيرًا.

فقال السيد وهو يضحك مرةً أخرى: نعم. تلك عادة قبيحة. ولكن لعلك لا تعرف مَن أنا. أنا موموس سكرتير كلم في القرية.

وساد القاعة كلها بعد هذه الكلمات جو من الجد. وعلى الرغم من أن صاحبة الحان وبيبي تعرفان السيد بطبيعة الحال، فقد جمدتا عندما سمعتا الاسم والوظيفة. بل إنَّ السيد نفسه، وكأنما قال أكثر مما تَحتمِل قُدرته على الاستيعاب، أو كأنما أراد على الأقل أن يهرُب من كل رهبة قد تستتبع كلماته أو تكمُن فيها، اندمج في أوراق وبدأ يكتب، حتى لم يعد مَن بالحجرة يسمعون سوى ريشته. وسأل ك بعد هنيهة: ما معنى سكرتير القرية؟

فقالت صاحبة الحان، بدلًا من موموس الذي لم يَعُد يجد من الملائم أن يُقدم بنفسه إيضاحات بعد أن قدَّم نفسه: السيد موموس سكرتير لكلم مثل أي سكرتير آخر من سكرتيري كلم، ولكن مقر وظيفته وكذلك، إن لم أكن قد أخطأت الفهم، ومجال صلاحيته الوظيفية.

وهنا هز مومس أثناء الكتابة رأسه هزًّا شديدًا، فصحَّحت صاحبة الحان: ولكن مقر وظيفته فقط، وليس مجال صلاحيته الوظيفية، محصور في القرية. والسيد مومس يقوم لكلم بالأعمال الكتابية التي تدعو إليها الضرورة في القرية وهو أول مَن يتلقى الطلبات التي تصدُر من القرية موجهةً إلى كلم.

فلمَّا نظر ك إلى صاحبة الحان بعينَين فارغتَين، ولم يُبدِ أي تأثر بهذه الكلمات، أضافت في شيء من الاضطراب: هذا هو النظام، كل سادة القصر لهم في القرية سكرتيريون.

وقال مومس لصاحبة الحان، وكان يُنصِت إليها باهتمام أكثر مما فعل ك: وغالبية السكرتيريِّين في القرية يعملون في خدمة سيد واحد، أما أنا فأخدم سيدَينِ هما كلم وفالابينه.

فقالت صاحبة الحان وقد تذكَّرت الموضوع موجهة الكلام إلى ك: نعم. السيد مومس يخدم سيدَين، كلم وفالابينه، فهو إذن سكرتير قرية مضاعف.

فقال ك: سكرتير مضاعف.

وأومأ برأسه إلى مومس كما يُومئ الإنسان برأسه إلى طفل سمع البعض يمدحونه، وكان مومس قد وقع الآن بصره إليه كليةً وأوشك أن يميل ناحيته إلى الأمام. وإذا كان تعبير ك يَنطوي على نوع من التحقير، فلعل أحدًا لم يلحظه، ولعله كان مطلوبًا. إنهم يُعدِّدون أمام ك بالذات، وهو الذي لم يُصِب من الجدارة حتى القدر الذي يُتيح له أن يراه كلم مصادفةً، ميزات رجل من المحيطين بكلم، المُقرَّبين إليه، ويهدفون في غير مواربة إلى الحصول على مدحِه وتقديره. ولكن ك لم يكن يعي هذا الأمر الوعي الصحيح. فلم يكن، وهو الذي اجتهد بكل طاقته أن ينال نظرةً من كلم، يُقدِّر على سبيل المثال مركز مومس الذي كان له أن يعيش تحت بصر كلم تقديرًا عاليًا، وكان بعيدًا عن أن يحس حياله بالإعجاب أو الحسد؛ لأنه لم يكن يصبو إلى ما هو قريب من كلم، بل كان يصبو إلى الوصول برغباته هو، لا رغبات غيره، إلى كلم، ثم إلى تجاوُزه — لا البقاء لدَيه — والتقدم لبلوغ القصر.

ونظر ك إلى ساعته وقال: والآن ينبغي أن أذهب إلى البيت.

وهنا تغيَّر الموقف من فوره لصالح مومس الذي قال: نعم، بطبيعة الحال، إنَّ واجبات الوظيفة في المدرسة تدعوك. ولكن ينبغي عليك أن تمنحني لحظة أخرى. فلديَّ بضع أسئلة قصيرة.

فقال ك وهمَّ أن يذهب إلى الباب: لستُ ميالًا لذلك.

فضرب مومس بملفٍّ على المنضدة ونهض واقفًا وقال: إنني أطالبُك باسم كلم بأن تجيب على أسئلتي.

فأعاد ك الكلمات: باسم كلم؟

ثم قال: هل تُهمُّه شئوني؟

فقال موموس: هذا أمر لا أستطيع أنا القطع فيه، ولا أنت بطبيعة الحال، وعلينا أن نتركه له ونقَرَّ عينًا. ولكني أطالبك استنادًا إلى المركز الذي نصبني فيه كلم بأن تبقى وأن تجيب على أسئلتي.

وتدخَّلت صاحبة الحان: يا حضرة موظف المساحة، إنني أحترس من الاستمرار في تقديم المشورة إليك، فلقد لقيتُ منك، عندما تقدَّمت إليك بما تقدمت به إليك من نُصح حتى الآن، وهو أخلَص النصح نيةً، الصدودَ الذي لم يسبق له مثيل، ولقد أتيت إلى هنا إلى السيد السكرتير — وليس هنا ما أُخفيه — لأحيط الديوان علمًا بما ينبغي أن يعلمه من مسلكك ومقصدك، ولأمتنع في كل وقتٍ عن قبول إنزالك للإقامة في حاني مرةً أخرى. هذه هي العلاقة التي بينَنا، ولن يتغيَّر من أمرها شيء، وإذا كنت أنا أقول الآن رأيي فلا أريد بذلك أن أساعدك، وإنما لأسهِّل على السيد السكرتير المهمَّة الصعبة، مهمة التباحُث مع رجل مثلك، بعض التسهيل. ومع ذلك فيُمكنك — بفضل صراحتي الكاملة، وأنا لا أستطيع أن أتعامَل معك إلا بصراحة، وهذا شيء رغمًا عني — أن تستخرج من كلماتي نفعًا لك إن شئت. وفي هذه الحالة ألفت نظرك إلى أن الطريق الوحيد الذي يؤدي بك إلى كلم يمرُّ هنا بمَحاضر السيد السكرتير. ولكنني لا أريد المبالغة، فلعلَّ الطريق ينقطع قبل أن يصل إلى كلم بكثير، وهذا أمر يقطع فيه تقدير السيد السكرتير. وهذا الطريق هو على أية حال الطريق الوحيد أمامك في اتجاه كلم. فهل تريد أن تتخلَّى عن هذا الطريق الوحيد لا لسبب إلا العناد؟

فقال ك: آه، يا سيدتي صاحبة الحان، ليس هذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى كلم، وما هو بأفضل من غيره قيمةً. وأنت، يا حضرة السكرتير، تقطَع فيما إذا كان ما أقوله هنا يصل إلى كلم أم لا؟

فقال موموس وهو ينظر بعينَين خفضهما في إعزاز إلى اليمين وإلى اليسار دون أن يكون هناك شيء ينظر إليه: طبعًا. وإلا فما فائدة عملي كسكرتير.

فقال ك: إنك ترين يا سيدتي صاحبة الحان أنَّني لا أحتاج إلى طريق إلى كلم بل إلى السيد السكرتير أولًا.

وقالت صاحبة الحان: ولقد أردت أن أفتح لك هذا الطريق. ألم أعرض عليك في الصباح أن أنقل رجاءك إلى كلم؟ وما سبيل ذلك إلا السيد السكرتير. أما أنت فقد رفضت، وليس

هناك أمامك من طريقٍ سوى هذا. وإن كانت فرصة النجاح قد قلَّت الآن عن ذي قبل بطبيعة الحال بعد ما فعلته اليوم، أعني بعد مُحاولتك الهجوم على كلم. ولكن هذا الأمل الأخير الضئيل أشد الضآلة — أو غير القائم، إن أردنا الحقيقة — هو أملك الوحيد.

وقال ك: كيف تُعلِّلين، يا سيدتي صاحبة الحان، أنك حاولت في البداية أشد المحاولة أن تصرفيني عن التقدم إلى كلم، ثم إذا بك الآن تحملين رجائي محمل الجد الشديد، ويظهر عليك كأنك تَعتبرينني مفقودًا ضائعًا أو نحو ذلك إذا فشلت مخططاتي؟ إذا كنت قد نصحتِني بنية خالصة أن أنصرف عن السعي للوصول إلى كلم، فكيف يمكن أن تدفعيني الآن — بالإخلاص نفسه على ما يبدو — إلى سلوك الطريق إليه حتى وأنت تفترضين أنه لا يوصل إليه؟

فقالت صاحبة الحان: هل أدفعك؟ أهذا دفع لك إلى الأمام عندما أقول لك إن محاولاتك لن تجدي نفعًا؟ إن هذه لهي في الحقيقة غاية الجرأة أن تُحاول على هذا النحو أن تقلب عليَّ مسئولية عليك أن تحملها أنت نفسك. وربما كان وجود السيد السكرتير هو الذي يُغريك بذلك. هه؟ لا، يا حضرة موظَّف المساحة، إنني لا أدفعك إلى شيء. إلا أن هناك شيئًا واحدًا أعترف لك به؛ وهو أنني عندما رأيتك لأول مرة ربما رفعتُك فوق قدرك. فقد أفزعني انتصارك السريع على فريدا، ولم أكن أعرف ما يُمكنك أن تأتي به من أمور غير ذلك، فأردتُ أن أحول دون حدوث مصائب أخرى، واعتقدتُ أنني لا أستطيع أن أصل إلى تحقيق ذلك إلا بأن أحاول هزَّك بالرجاء والتهديد. ثم عرفت بعد ذلك كيف أُفكِّر في الأمر كله تفكيرًا أكثر هدوءًا. ولك أن تفعل ما يحلو لك. وقد تترك أفعالك في جليد الفناء آثار أقدام عميقة، ولكنَّها لن تزد عن ذلك.

فقال ك: لا أرى أن التناقُض قد اتَّضح تمامًا، ولكنَّني راضٍ بالتنبيه إليه. والآن أرجوك يا حضرة السكرتير أن تقول لي هل الرأي الذي رأته السيدة صاحبة الحان صحيح، وهو أن المحضر الذي تريد فتحه لي يُمكن أن يؤدي في نتائجه إلى السماح لي بالمثول أمام كلم. فإذا صحَّ هذا، فأنا مستعدٌّ حالًا للإجابة على أسئلتك كلِّها. بل إنني في هذه الحالة مستعدٌّ لكل شيء.

فقال موموس: لا، ليست هناك مثل هذه الارتباطات. كل ما أُريده بالمحضر هو أن أحتفظ لسجلات كلم في القرية بوصفٍ دقيق لعصر يومنا هذا. ولقد تمَّ الوصف، وهناك ثغرتان أو ثلاث ثغرات ينبغي عليك أن تُكملها، إحقاقًا للنظام. وليس هناك غرض آخر، ولا يُمكن الوصول إلى هدفٍ آخر.

ونظر ك إلى صاحبة الحان صامتًا. فسألته: لماذا تتطلع إليَّ؟ هل قلت غير ذلك؟ إنه دائمًا هكذا، يا حضرة السكرتير، إنه دائمًا هكذا. إنه يُزيِّف المعلومات التي يُقدمها الإنسان إليه، ثم يدعي أنه تلقَّى معلومات مزيَّفة. لقد قلت له دائمًا، اليوم وفي كل يوم، إنه ليس هناك أدنى أمل في أن يستقبله كلم. وإذا لم يكن لديه أمل، فلا يمكن أن يأتيه هذا المحضر بأمل. هل يُمكن أن تكون الأمور أوضح من ذلك؟ ثم إنني أقول علاوةً على ذلك، إن هذا المحضر هو الرابطة الرسمية الوحيدة الحقيقية التي يُمكن أن تربطه بكلم. وهذا كلام واضح أيضًا ولا يعلوه الشك. فإذا لم يكن يصدقني الآن — وأنا لا أعرف السبب ولا الهدف — وظلَّ يأمل في التقدُّم إلى كلم — فلا يُمكن اتباعًا لطريقته في التفكير — أن يُساعده شيء سوى الرابطة الرسمية الوحيدة التي تربطه بكلم؛ ألا وهي هذا المحضر. وأنا لم أقلْ سوى هذا، ومَن يدَّعي غير هذا فهو يحرِّف الكلمات عن سوء نيةٍ.

فقال ك: إذا كان الأمر كذلك، يا سيدتي صاحبة الحان، فأنا أعتذر لك، فقد أسأت فهمك. لقد اعتقدتُ، خطأً — كما اتضح الآن — أنَّ لي أن أستشفَّ من كلماتك السابقة أن هناك أملًا ضئيلًا جدًّا.

وقالت صاحبة الحان: بكل تأكيد. وهذا هو على أية حال رأيي. وها أنت ذا تُحرِّف كلماتي مرة أخرى، وتتَّجه الآن تلك الوجهة المضادة. هناك مثل هذا الأمل، في رأيي، وهو لا يقوم إلا على أساس هذا المحضر. ولكن الأمر لا يسير هكذا، بأن تتهجَّم على السيد السكرتير بسؤالك: هل يسمح لي بالمثول أمام كلم إذا أجبت على الأسئلة؟ ولو أن طفلًا سأل هذا السؤال لضحكنا منه، أما إذا سأله إنسان بالغ، فتلك إهانة للديوان، ولقد تستر السيد السكرتير برقة إجابته عليها كرمًا منه. أما الأمل الذي أعنيه فهو أنك تتخذ عن طريق المحضر نوعًا من الصلة ربما نوعًا من الصلة بكلم. أليس هذا أملًا كافيًا؟ فإذا سألك الإنسان عن أفضالك التي تجعلك جديرًا بمنَّة الأمل هذه، فهل يمكنك أن تذكر أي شيء؟ وليس من الممكن بطبيعة الحال ذِكر شيء أكثر دقة عن هذا الأمل، وبخاصة السيد السكرتير لن يستطيع أن يشير إليه أبدًا ولا بأبسط إشارة. إنما الأمر بالنسبة إليه، كما قال، أمر وُصف عصر اليوم تطبيقًا للنظام، ولن يقول أكثر من ذلك. حتى إذا سألته الآن أسئلة تتصل بكلماتي.

وسأل ك: وهل سيقرأ كلم، يا حضرة السكرتير، هذا المحضر؟

فقال موموس: لا. لماذا؟ إن كلم لا يستطيع أن يقرأ كل المحاضر، بل إنه لا يقرأ أي محضَر. إنه يقول لنا دائمًا «ابعدوا عنِّي بمحاضركم»!

وقالت صاحبة الحان شاكية: يا حضرة موظَّف المساحة، إنك تنتهك قواي بأسئلتك. هل من الضروري، أو من المرغوب فيه، أن يقرأ كلم هذا المحضر وأن يحاط علمًا بتفاهات حياتك كلمة كلمة. أليس الأفضل بك أن ترجو مُتواضعًا ومُتذللًا أشد التواضُع والتذلُّل أن يُخفوا المحضر عن كلم، وهو رجاء أحمق مثل الرجاء الآخر — فأين هذا الذي يستطيع أن يُخفي شيئًا عن كلم؟ — ولكنه سينمُّ عن خُلقٍ أكثر لطفًا. وهل هذا ضروري بالنسبة لذلك الذي تُسميه أمَلَك؟ ألم تعلن أنت بنفسك أنك ستكون راضيًا إذا نلت فرصة المثول أمام كلم حتى وإن لم ينظر، وإن لم يُنصت إليك؟ ألا تصل عن طريق هذا المحضر على الأقل إلى هذا وربما إلى أكثر من هذا؟

وسأل ك: أكثر من هذا؟ وكيف؟

فصاحت صاحبة الحان: بألا تلحَّ دائمًا كالطفل في أن يقدم إليك كل شيء على الفور في صورة مُستساغة. فمَن هذا الذي يستطيع أن يجيب على مثل هذه الأسئلة؟ إن المحضر سيذهب إلى سجلات كلم في القرية، كما سمعت، ولا يُمكن بكل تأكيد أن يقال لك أكثر من هذا. ولكن هل تعرف الأهمية الكاملة للمحضَر وللسيد السكرتير ولسجلات القرية؟ أتعرف معنى استجواب السيد السكرتير لك؟ لعلَّه — أو يبدو أنه — هو نفسه لا يعرف. إنه يجلس هنا هادئًا ويؤدي واجبه، كما يقضي النظام، على حد قوله. ولكن لا تنسَ أن كلم هو الذي عيَّنه، وأنه يعمل باسم كلم، وإن ما يفعله يحظى بمُوافقة كلم مبدئيًّا، وإن لم يصل قط إليه. وكيف يمكن أن يحظى شيء بموافقة كلم إن لم يكن يفيض بروح منه؟ وأنا لا أريد التملُّق للسيد السكرتير على نحو غليظ، وهو نفسه يرفض مثل هذا المسلك كل الرفض، ولكني لا أتكلم عن شخصيته الخاصة، بل أتكلم عنه إذ ينال موافقة كلم ورضاه، كما هي الحال الآن: إنه يكون إذا ذاك أداة عليها يد كلم والويل لِمَن لا يطيع.

ولم يخشَ ك تهديدات صاحبة الحان، ولقد سئمَ الآمال التي حاوَلَت أن تُمسِكَه بها. لقد كان كلم بعيدًا. ولقد شبَّهته صاحبة الحان ذات مرة بالنسر، وبدا التشبيه لـ ك مضحكًا آنَ ذاك، أما الآن، فلم يَعُد يبدو له كذلك. وفكَّر ك في بُعده، وفي مقرِّه الذي لا سبيل إلى بلوغه، وفي صمته الذي قد لا تقطعه إلا صرخاتٍ لم يسمَعها ك، وفي نظرته النافذة المتَّجهة إلى أسفل والتي لا سبيل إلى إثباتها ولا إلى نقضها، وفي دوائره التي لا سبيل إلى تحطيمها انطلاقًا من العُمق الذي يَكمن فيه ك، والتي يرسمها هو في أعاليه حسب قوانين لا سبيل إلى فهمها والتي لا تبدو إلا في لحظات. كانت تلك أشياء مُشتركة بين كلم والنسر. ولا شكَّ

في أن هذا المحضَر لم يكن له شأن بها، هذا المحضر الذي أخذ موموس يُفتِّت فوقه سميطة يأكُلُها مع البيرة، فتناثر الملح والكمون فوق الأوراق كلها.

وقال ك: طابت ليلتُكم، إنني أنفر من كل استجوابٍ.

وذهب بالفعل إلى الباب. فقال موموس لصاحبة الحان بلهجة تُوشِك أن تكون لهجة الخوف: إنه إذن يذهب.

فقالت صاحبة الحان: إنه لن يَجرُؤ على ذلك.

ولم يسمع ك أكثر من لك لأنه كان قد وصَل إلى المدخل. كان الجو باردًا وكانت الريح تهبُّ عاتية وتَنفذ إليه. وأتى صاحب الحان من باب مقابل، ويبدو أنه كان يُراقب المدخل من خلال ثقبٍ هناك. وكان عليه أن يلفَّ طرفَي سُترته حول جسمه حتى لا تعبث بهما الريح. وقال صاحب الحان: إنَّك إذن ذاهب يا حضرة موظف المساحة؟

فسأله ك: هل تدهش لذلك؟

فقال صاحب الحان: نعم. ألم يستجوبك؟

فقال ك: لا، لم أدعْه يستجوبني.

فسأل صاحب الحان: ولمَ لا؟

فقال ك: لا أعرف لماذا أدعه يستجوبني، لماذا أنصاع لنُكتة أو نزوة من جانب الدواوين. وربما أوافق في مرةٍ أخرى، موافقة من قبيل النكتة أو النزوة أيضًا، ولكن ليس اليوم.

فقال صاحب الحان: بكل تأكيد.

وكانت موافقته صادرة عن أدب لا عن اقتناع. ثم قال: لا بد أن أدع الخدم يذهبون إلى قاعة الشراب، فقد حل موعدهم منذ وقت طويل. ولكني لم أشأ أن أشوِّش على الاستجواب.

فسأل ك: أكنتَ ترى له هذه الأهمية؟

فقال صاحب الحان: نعم.

وقال ك: أما كان ينبغي أن أرفض؟

فقال صاحب الحان: لا.

ثم أضاف: ماذا كان يصحُّ أن ترفض.

فلمَّا سكت ك، عاد يقول، إما ليواسي ك أو ليَنصرف بسرعة: هه، ولكن لا ينبغي أن يعني هذا بالضرورة أن السماء ستُمطر كبريتًا.

فقال ك: لا، فإنَّ حالة الطقس لا تدلُّ على ذلك.

وتفرَّقا وهما يضحكان.

الفصل العاشر

وخرج ك وهبَط الدرج الذي كانت الريح العاتية تهبُّ عليه من كل جانب ونظر إلى الظلمة الدامسة. وكان الجو رديئًا رديئًا. وخطر بباله على نحو يتَّصل بهذا الجو اتصالًا ما كيف بذلت صاحبة الحان الجهود لتحمله على قبول المحضر وكيف وقف صلبًا لا يلين. ولم تكن جهودها صريحة، فقد كانت في سرِّها تشده بعيدًا عن المحضر. وأخيرًا لم يكن يعرف هل قد وقف صلبًا لا يَلين أو قد لان واستجاب. تلك طبيعة تنطوي على التآمُر، يبدو أنها تعمل بلا معنى مثل الريح، حسب قوانين بعيدة غريبة لا يستطيع إنسان أن يبصر بها.

وما كاد يخطو بضع خطوات على الطريق الزراعي حتى رأى في البُعد نورين يتأرجَحان. وفرح بهذه الإشارة التي تدلُّ على الحياة، واتجه نحوها مُسرعًا، وكانت هي تحوم مُقتربة منه. ولا يعلم لماذا أحسَّ بالخيبة عندما تبيَّن أنهما المساعدان. لقد أقبلا نحوه، ويبدو أن فريدا أرسلتهما. وكان المصباحان اللذان خلَّصاه من الحلكة على ما يبدو ملكُه، ومع ذلك فقد أحسَّ بالخيبة؛ لأنه كان ينتظر بعض الغرباء، ولم يكن ينتظر هذَين الشخصَين المعروفين اللذَين كانا ثقلًا عليه. ولم يكن المساعدان وحدهما، فقد برز من بينهما من وسط الظلام برناباس. وصاح ك وهو يمدُّ يده ناحيته: برناباس. هل تأتي إليَّ؟

وأدَّت مفاجأة اللقاء به بادئ ذي بدء إلى نسيان النَّكد الذي كان برناباس قد سبَّبه له.

وقال برناباس بأسلوبه الودِّي المعهود الذي لم يتغيَّر: نعم، وأحمل إليك خطابًا من كلم.

فقال ك مُلقيًا رأسه إلى الخلف: خطابًا من كلم.

وأخذه بسرعة من يده وقال للمُساعدَين اللذين التصقا به من اليمين واليسار رافعَي المصباحين: أضيئا.

واضطرَّ ك إلى أن يطويَ الورقة الطويلة طيَّةً صغيرة حتى يحميَها من الريح. ثم قرأ: السيد موظَّف المساحة — حان الجسر.

إنَّ أعمال المساحة التي قمت بها حتى الآن تلقى تقديري. وكذلك أعمال المُساعدين جديرة بالمدح، وإنك لتَعرف كيف تحسن حملهما على العمل. لا تدع حماسك يَفتر. وانتهِ بالأعمال إلى نهاية طيبة، وإن طرأ أي تعطيل فسأغضب. أما فيما عدا هذا فقرَّ عينًا، وسيتمُّ حسمُ مسألة المرتَّب عما قريب. وإن عيني لتُتابعك.

ولم يرفع ك عينَيه عن الخطاب إلا بعد أن صاح المساعدان — وكانا أبطأ منه في القراءة — فرحَين بالأخبار الطيبة «عظيم» ثلاث مرات، وهزَّا المصباحَين. فقال لهما: الزَما الهدوء.

ثم قال لبرناباس: هناك خطأ.

فلم يفهمه برناباس. وعاد ك يقول: هناك خطأ.

وعاوَدَه تعبُ عصر اليوم، ولاح له الطريق إلى مبنى المدرسة بعيدًا، وتصوَّر من خلف برناباس عائلته تهبُّ واقفة، وظل المساعدان يَلتصقان به حتى اضطرَّ إلى دفعهما بمرفقَيه. لماذا أرسلتهما فريدا إليه وقد أمَرَ بأن يَبقيا لدَيها؟ لقد كان في مقدوره أن يجد الطريق إلى البيت بسُهولة، وبسهولة أكثر لو كان بمفرده، ولم تكن هذه الجماعة حوله. وكان أحد المساعدَين قد لفَّ حول رقبته منديلًا كانت أطرافه تتطاير في الهواء، ولفَحَت وجه ك عدة مرات، وإن كان المساعد الثاني قد حرص على أن يُبعد هذه الأطراف عن وجه ك بأصابعه الطويلة المدبَّبة التي كان لا يكف عن العبث بها، ولم يكن يُحقِّق بهذا من الأمر شيئًا. ويبدو أن الاثنين قد وجدا علاوةً على ذلك مُتعة في هذه الحركات المتكرِّرة وكانت الريح ورجفة الليل تُثيران حماسهما، وصاح ك: ابعدا. إذا كنتما قد أتيتُما لمُقابلتي فلماذا لم تأتيا بعصاي؟ فكيف أستطيع بدونها أن أسوقَكما إلى البيت؟ فانكمشا وراء برناباس، ولكنَّهما لما كانا خائفَين وما لبثا أن وضَعا المصباحَين على كتفَي سيِّدهما يمينًا ويسارًا فدفعهما هو بطبيعة الحال بعيدًا عنه.

وقال ك: يا برناباس.

وانقبَض قلبه لأن برناباس على ما يبدُو لم يَفهمه، وكانت سُترته في الأوقات الهادئة تلمع لمعانًا جميلًا، أما إذا جد الجد، فلم يكن يجد لدَيه العون، بل يجد لديه مقاومة صامتة، ولم يكن في مقدوره مُناهضتها؛ لأنه كان هو ذاته أعزل، يبتسم ابتسامته البراقة، ولكن هذه الابتسامة لم تكن تُعين على شيء، مثل النجوم العالية التي لم تُعِن على شيء إذا هبَّت

الريح العاصفة. وعاد ك يقول وهو ينشر الخطاب أمام عيني برناباس: انظُر، أترى ما كتبه السيد إليَّ. إن المعلومات التي وصَلَت إليه خاطئة فأنا لا أقوم به، لا يُمكنني أن أحدث به تعطيلًا بطبيعة الحال، ولا أستطيع أن أتسبَّب في غضب السيد، فكيف يمكن أن أستحقَّ تقديره؟ كذلك لا يمكنني أبدًا أن أقرَّ عينًا.

وقال برناباس الذي كان ينحرف دائمًا ببصره عن الخطاب والذي ما كان ليستطيع أن يقرأ منه شيئًا لأنَّ ك قرَّبه من عينَيه حتى لصَقه بوجهه.

– سأبلغ هذا.

فقال ك: آه، إنك تعدُني دائمًا بأنك ستُبلِّغ ما أقول، ولكن هل يُمكنني أن أصدِّقك فعلًا؟ وإن حاجتي الآن إلى رسول جدير بالثقة لأكبر من حاجتي إليه في أي وقت مضى.

وعضَّ ك شفتَيه من فرط تعجُّله. وقال برناباس وهو يميل برقبته ميلًا رفيقًا كاد أن يُغري ك بالعودة إلى تصديق برناباس: يا سيدي. سأبلِّغه بكل تأكيد.

فصاح ك: كيف؟ ألم تُبلِّغه بعدُ؟ ألم تذهب في اليوم التالي إلى القصر؟

فقال برناباس: لا. إنَّ أبي رجل هرم، ولقد رأيته أنت نفسك، وتصادَف أن كان العمل لدينا كثيرًا واضطُررت إلى مساعدته، ولكني سأذهب عما قريب مرة أخرى إلى القصر.

وصاح ك وهو يَضرب جبهته بكفه: وماذا تفعل أيها الإنسان الذي يعصي الفهم على الإحاطة به؟! ألا تفوق شئون كلم في الأهمية كل الشئون الأخرى؟ إنك تشغل المنصب الرفيع، منصب الساعي، وها أنت ذا تتَّصف على هذا النحو المُزري؟ ومَن الذي يهتم لأعمال أبيك؟ إن كلم ينتظر أن تصله أخبار، وبدلًا من أن تسرع إليه حتى تنكفئ على وجهك من شدة الإسراع، تُفضِّل أن تكنس الروَث مِن حظيرتكم.

وقال برناباس في غير اضطراب: إنَّ أبي صانع أحذية، وقد تلقَّى تكليفًا من برونسفيك بصناعة بعض الكميات، وأنا مساعد أبي.

فصاح ك مغيظًا وكأنما كان يُخرج كل كلمة إلى الأبد من حيز الاستعمال: صانع أحذية — تكليف — برونسفيك. ومَن الذي يحتاج هنا إلى أحذية طويلة في هذه الطرُق الخالية أبدًا من البشر؟ وفيما تُهمني صناعة الأحذية كلها؟ لقد كلَّفتك برسالة لا لكي تنساها وتُتلفها وأنت جالس على مقعد صناعة الأحذية، وإنما لتذهب بها من فورك إلى السيد.

وهدأ ك قليلًا عندما خطَر بباله أن كلم على ما يبدو لم يكن طوال الوقت في القصر، بل كان في حان السادة، ولكن برناباس أثاره من جديد عندما بدأ يتلو رسالة ك الأولى ليُبرهن على أنه حفظها أحسن الحفظ. فقال ك: كفى.

فقال برناباس: لا تغضَب منِّي يا سيدي.

وكأنما أراد برناباس أن يُعاقب ك، فأشاح عنه ببصره، وطاف من عينيه، ولكنه إنما فعل ذلك على الأحرى لذهوله من صياح ك. وقال ك: أنا لستُ غاضبًا منك.

وتحول قلقه إلى ذاته. وأردف: إنني لست غاضبًا منك، ولكنَّ هناك ضررًا كبيرًا عليَّ في أن يكون لديَّ ساعٍ من هذا النوع فقط للأشياء ذات الأهمية البالغة.

وقال برناباس، وبدا عليه كأنَّما نطق — دفاعًا عن شرفه كساعٍ — بأكثر مما ينبغي: إن كلم لا ينتظر الأخبار، بل إنه يغضب عندما أذهب إليه. ولقد قال لي ذات مرة «مزيد من الأخبار الجديدة؟» وكثيرًا ما يهبُّ واقفًا عندما يراني عن بُعد مقبلًا، ويذهب إلى حجرة جانبية ولا يستقبلني. ثم إنه لا يتعيَّن عليَّ أن أذهب بكل رسالة، ولو كان الأمر كذلك لذهبت من فوري بطبيعة الحال، ولكن ليس هناك شيء مُعين في هذا الشأن، ولو أنَّني كففت عن الذهاب نهائيًّا، لَمَا لامني على ذلك أحدٌ. إنني عندما أبلِّغ رسالة، أبلِّغها مُتطوعًا.

فقال ك: حسنًا.

وكان يُحملِق في برناباس ويشيح بوجهه عمدًا عن المساعدَين اللذين كانا يظهران ببطء من خلف كتفي برناباس وكأنَّهما يطفوان من مُنخفض ثم يتواريان بسرعة مطلقين صفيرًا خفيفًا يُقلدان به الريح وكأنهما فزعا لرؤية ك، واستمرَّا على هذا العبث حينًا. وقال ك: أنا أعرف الأحوال لدى كلم. وأنا أشكُّ في أنك تستطيع أن تعرف كل شيء هناك معرفة دقيقة، وحتى إذا كنتَ تستطيع، فنحن لا نستطيع أن نصلح هذه الأمور. ولكنك تستطيع أن تبلغ رسالة، وأنا أرجوك أن تفعل ... إنها رسالة قصيرة جدًّا. هل يُمكنك أن تبلغها غدًا مباشرةً، وأن تأتيني غدًا مباشرةً بالإجابة، أو على الأقل تصفُ لي الاستقبال الذي لقيته؟ هل تستطيع هذا وهل تريد أن تفعله؟ إنني أعلق على ذلك أهمية كبيرة. ولعلِّي أجد فرصةً أشكرك فيها الشكر المناسب، أو ربما كان لديك الآن رغبة أستطيع أن أحقِّقها لك.

فقال برناباس: سأقوم بالمهمَّة بكل تأكيد.

وقال ك: وهل تريد أن تجتهد في القيام بالمهمَّة على أحسن ما تستطيع، فتبلغ الرسالة إلى كلم نفسه، وأن تحصل لي منه هو على الإجابة، وأن تفعل هذا توًّا، تفعل هذا كله توًّا، غدًا في الصباح، هل تريد أن تفعل هذا؟

فقال برناباس: سأبذُل قصارى جهدي، وهذا هو ما أفعله دائمًا.

وقال ك: لا نريد العودة إلى التشاحُن في هذا الموضوع، والرسالة التي أُكلِّفك بها هي: موظَّف المساحة ك يرجو السيد المدير أن يسمح له بالمثول بين يدَيه شخصيًّا، وهو يقبل

مقدمًا كل شرط يمكن أن يرتبط بمثل هذا التصريح وهو مُضطرٌّ إلى التقدم بهذا الرجاء؛ لأن الوسطاء جميعًا فشلُوا حتى الآن بأقل عمل من أعمال المساحة، وأنه — حسب ما ذَكره رئيس مجلس القرية — لن يقوم بشيء من هذا أبدًا، ولهذا فقد قرأ الخطاب الأخير الوارد من السيد المدير بخجلٍ يائس ولن يُفيد في هذا الآمِر سوى مثوله شخصيًّا أمام السيد المدير. وموظف المساحة يعرف ضخامة ما يرجوه وهو لهذا سيجتهد في أن يجعل ما يسببه حضوره من إقلاق للسيد المدير أقل ما يُمكن، وهو يرضى بكل تقييد زمني، ويرضى بما قد يبدو ضروريًّا من تحديد عدد الكلمات التي يصرح له بقولها في المقابلة، ويعتقد أن عشر كلمات تكفيه. وإنه لينتظر بمزيد الاحترام وغاية الشوق قراركم.

وكان ك قد تكلم ناسيًا نفسه، وكأنما كان يقف بباب كلم ويتكلَّم مع بوَّابهِ. ثم قال: لقد طالت الرسالة عما كنتُ أنوي، وعليك أن تبلِّغها شفهيًّا، فلستُ أريد أن أكتب خطابًا؛ لأنه سيسير في الطريق اللانهائي الذي تَسير فيه المكاتبات.

ولهذا كتبه ك بخطٍّ سريع على قطعة من الورق أسندها على ظهر أحد المساعدَين، بينما كان المساعد الآخر يُضيء له، وكان ك يكتب تبعًا لإملاء برناباس الذي كان قد حفظ الرسالة، وأخذ يتلوها بدقَّة على طريقة التلاميذ، دون أن يحفل بالتلقين الخاطئ الذي كان المساعدان يدسَّانه عليه. وقال ك: إنَّ ذاكرتَك خارقة للمألوف.

وأعطاه الورقة وأردف: وعليك أن تُبيِّن أنك خارق للمألوف في ناحية أخرى. وماذا عن رغباتك؟ أليست لديك رغبات؟ إنني أقول لك بصراحة إنني سأحس بشيء من الارتياح حيال مصير رسالتي إذا كانت لديك رغبات؟

وظلَّ برناباس في بداية لأمر ساكنًا ثم قال: أختاي تبعثان إليك بالتحية.

فقال ك: آه، البنتان الطويلتان البدينتان.

فقال برناباس: تُرسلان إليك التحية، وبخاصَّة أماليا، وهي التي أحضرت اليوم هذا الخطاب إليك من القصر.

وتشبَّث ك بهذه العبارة قبل غيرها وسأل: ألا يُمكنها أن تحمل رسالتي إلى القصر؟ أو لعلكما تستطيعان الذهاب معًا وليُجرِّب كلٌّ منكما حظَّه؟

وقال برناباس: ليس لأماليا أن تنفذ إلى الدواوين، وإلا لرحَّبت كل الترحيب بالقيام بالمهمَّة.

وقال ك: لعلِّي أحضر إليكم غدًا، وتعالَ أنت أولًا إليَّ بالرد. وسأنتظرك في المدرسة. وبلِّغ سلامي إلى أختيك.

وبدا وعد ك كأنه أسعد برناباس لأنه لمس كتف ك عابرًا بعد أن تصافَحا للوداع. وعادت إلى وجدان ك صورة من الماضي، عندما دخل برناباس لأول مرة بهيئته البرَّاقة بين الفلاحين إلى قاعة الحان وأحسَّ ك بهذه اللمسة، ولكن وهو يبتسم كأنها تكريم، وارتاح ك نفسًا وترك المساعدَين في طريق العودة يفعلان ما حلا لهما.

الفصل الحادي عشر

ووصل ك إلى المدرسة وقد تجمَّدت أوصاله من شدَّة البرد، وكانت الحلكة مُطبقة في كل مكان، فقد فرغت الشمعتان في المصباحين، وأخذ المساعدان اللذان كانا يعرفان المبنى جيدًا بيد ك، حتى وصَل مُتحسِّسًا الطريق إلى أحد الفصول. وقال ك للمساعدَين مشيرًا إلى خطاب كلم: هذا هو أول عمل جدير بالمدح تقومان به!

وصاحت فريدا من أحد الأركان وهي بين اليقظة والنعاس: دعا ك ينام. لا تُزعجاه.

إلى هذا الحد كان ك يشغل فكرها حتى عندما يغلبها النعاس ولا يكون في مقدورها أن تتوقَّع قدومه. ثم أضيء النور. لكنهم لم يستطيعوا أن يُشعلوا المصباح عاليًا ليعطي نورًا كافيًا لأن البترول كان قليلًا جدًّا. هكذا كان البيت الجديد يتعثَّر، وكانت فريدا قد أوقدت المدفأة، ولكن الحجرة الكبيرة، التي كان تستعمل كذلك للرياضة البدنية — وكانت أجهزة الرياضة قائمة هنا وهناك، وكان منها ما يتدلى من السقف — قد استهلكت كل الخشب، وكانت — كما علم ك — قد نعمَت بدفء لذيذ، ولكنها للأسف بردت بعد ذلك تمامًا. وكان هناك خشب كثير في المخزن، ولكن هذا المخزن كان مقفلًا، وكان المفتاح مع المعلم، الذي لم يكن يسمح بصرف الخشب إلا للتدفئة أثناء الحصص، ولو كانت هناك فُرُش يلوذون به من البرد لكان الأمر محتملًا ولم يكن هناك سوى جوال واحد من القش كانت فريدا قد بسطت فوقه ملاءة من الصوف على نحو جميل يستحق التقدير، ولم يكن هناك لحاف، بل كان هناك غطاءانِ غليظان جامدان لا يكادان يُحدثان شيئًا من الدفء، وحتى هذا الجوَال المليء بالقش كان المساعدان ينظران إليه مشوقين، ولكنهما بطبيعة الحال لم يكونا يأملان في أن يرقدا عليه. ونظرت فريدا إلى ك خائفة. لقد برهنت في حان السادة على أنها تستطيع أن تفرش أي حجرة، حتى ولو كانت أكثر الحجرات فقرًا، وتجعلها صالحة للسكنى، أما هنا فلم تستطع أن تفعل شيئًا؛ لأنها كانت تفتقر تمامًا إلى الوسائل. وقالت وهي تضحك

بجهد جهيد والدموع تنهمر من مآقيها: ليس هناك شيء تزدان به حجرتنا سوى أجهزة الرياضة البدنية.

أما فيما يتعلق بعيوب المكان الشديدة وإمكانية النوم غير المُرضية والتدفئة غير الكافية فقد وعدت فريدا وعدًا مؤكدًا بأن تجد حلًّا تستعين به في اليوم التالي، ورجت ك أن يلتزم بالصبر حتى ذلك الحين. ولم تُبدِ كلمة أو لمحة أو تعبيرًا من وجهها يُمكن أن يعني أنها تحمل في قلبها أقل غضاضة ناحية ك، على الرغم من أنه هو — كما حدَّث نفسه — قد انتزعها قديمًا من حان السادة ثم من حان الجسر بعد ذلك. ولهذا اجتهد ك في أن يجد كل شيء محتملًا، ولم يكن هذا صعبًا عليه؛ لأن أفكاره كانت سارحة مع برناباس، ولأنه كان يستعيد على نفسه الرسالة كلمة كلمة، ولم يكن يستعيدها على النحو الذي سلَّمها لبرناباس عليه، وإنما على النحو الذي كان يعتقد أنها ستبدو عليه أمام كلم. هذا إلى أنه كان فرحًا أخلص الفرح بالقهوة التي عكفت فريدا على إعدادها فوق الموقد الكحولي، وكان يتابع وهو مستند على المدفأة التي تزايدت برودتها الحركات السريعة الخبيرة التي اصطنعتها فريدا وهي تبسيط المفرش الأبيض المعهود على المنصَّة، وتضع قدحًا مزدانًا بصور الزهور، وبجانبه شيئًا من الخبز وشحم الخنزير بل وعلبة سردين. وفرغت من كل شيء بسرعة، ولم تكن فريدا قد أكلَت هي الأخرى بعدُ، بل آثرَت أن تنتظِر حتى يأتيَ ك. وكان هناك كرسيان وثيران فجلس ك وفريدا فيهما إلى المائدة، وكان المساعِدان يقبعان إلى قدمَيهما عند قاعة المنصَّة، ولكنهما لم يخلدا قطُّ إلى السكون، بل استرسلا في الإزعاج حتى أثناء الأكل. وعلى الرغم من أنهما نالا من كل شيء نصيبًا كبيرًا فإنهما لم يشبعا، وكانا ينهضان من حينٍ لآخر ليتبيَّنا هل ما زال هناك طعام كثير على المنضدة، وهل ما زال لهما أن يتوقَّعا الحصول على مزيد. ولم يعبأ ك بهما، ولم يَلتفِت إليهما إلا عندما ضحكت فريدا. ووضع يده على يدها فوق المائدة مُداعبًا وسألها بصوت خفيض لماذا تحيطهما بهذا الكلَف الشديد وتقبل سخافاتهما متلطفة. وقال إنهما لن يتخلصا منهما على هذا النحو أبدًا، وإنهما لن يتخلَّصا منهما إلا إذا عاملاهما معاملة خشنة إلى حدٍّ ما تناسب فعلًا سلوكهما، إما بتأديبهما أو — وهو الأفضل والأقرب احتمالًا — بجعل البقاء أصعب من أن يحتملاه لينتهيا إلى الانصراف فرارًا. وقال إن إقامتهما في المدرسة لا يلُوح عليها أنها ستكون إقامة لطيفة، ولكنها لن تستمرَّ طويلًا، ولو لم يكن المساعدان هنا، وكانا هما وحدهما في مكان هادئ فلعلهما لم يكونا سيتنبهان إلا أقل التنبه إلى ما فيه من عيوب كثيرة. وسألها هل تلاحظ أن المساعدَين يَزدادان وقاحةً يومًا بعد يوم، وأنهما يتشجَّعان في وجود فريدا ويأمُلان في أن ك لن يتصرَّف

معهما أمامها بالشدة التي يتصرَّف بها عادةً. وقال لها إنه ربما كان هناك وسائل بسيطة جدًّا للتخلُّص بها منهما دون تعب، ولعلها — فريدا — تعرفها، فهي تعرف الظروف القائمة معرفة جيدة. ولعلَّ مَن يطرد المساعدَين يقدم لهما صنيعًا، فليست الحياة التي يُحبونها هنا بالحياة الرغدة العظيمة، خاصةً وأنهما سيضطران هنا إلى التخلي عن الكسل الذي نعما به حتى الآن، على الأقل جزئيًّا، وسيُضطرَّان إلى العمل، وسيكون على فريدا أن ترتاح بعد اضطراب الأيام الماضية، وسيكون هو مشغولًا بالبحث عن مخرج من المحنة. وقال إنه إذا انصرف المساعدان، سيحس بالراحة وسيسهل عليه أن يقوم بأعمال خادم المدرسة إلى جانب الأعمال الأخرى.

وداعبَت فريدا، التي أنصتَت إليه باهتمام، ذراعه، وقالت إن هذا كلَّه هو رأيُها أيضًا، ولكنه ربما بالغ في وصف سخافات المساعدَين؛ فهما ولدان مرحان فيهما شيء من السذاجة، وهما يعملان لأول مرة في خدمة أحد الغرباء، وهما قد بَعُدا عن الأدب الصارم القائم في القصر، ولهذا فهما مُنفعلان دائمًا بعض الشيء، مُندهشان، وهما يرتكبان في هذه الحالة أحيانًا بعض السخافات، من الطبيعي أن يغضب الإنسان منها، وإن كان الأقرب إلى التعقُّل أن يضحك الإنسان عليها. وقالت إنها لا تستطيع في بعض الأحيان أن تمنَع نفسها عن الضحك وهي رغم هذا متَّفقة مع ك تمامًا في أن أفضل شيء هو إبعادهما وأن يكونا هما معًا وحدهما. واقتربَت من ك وأخفت وجهها في كتِفه. وقالت وهي في هذا الوضع على نحو عسير الفهم، حتى إنَّ ك اضطرَّ إلى أن يَنحني قريبًا منها، إنها لا تعرف وسيلة للتخلُّص من المساعدَين، وأنها تخشى أن تؤدِّي كل الاقتراحات التي اقترحها ك إلى الفشل، وأنها تعرف من أمرهما أن ك هو نفسه الذي طلبهما، ولقد حصل عليهما وسيكون عليه الاحتفاظ بهما، وأنَّ أفضل شيء هو أن يتقبَّلهما ببساطة، وهذه هي أفضل وسيلة لتحمُّل البسطاء، وما هم إلا من عامة البسطاء.

ولم يكن ك راضيًا على الإجابة، وقال في لهجة بين المزاح والجد، إنه يبدو أنها مُتحالفة معهما، أو أنها على الأقل تميل إليهما ميلًا شديدًا، وإنهما لشابان جميلان، وليس هناك إنسان لا يُمكن التخلُّص منه بشيء من العزم، وسيُبرهن لها على ذلك في أمر المساعدين.

وقالت فريدا إنها ستكون شاكرةً له ممتنَّةً إذا نجح في هذا. وقالت إنها من الآن فصاعدًا لن تضحك منهما، ولن تتكلَّم معهما كلمة أكثر مما تدعو إليه الضرورة، فليس من الهيِّن أن يكون هناك رجلان يُحملقان فيها دائمًا، ولقد تعلَّمت أن تنظر إليهما بعينَيه

هو. وارتعدت بالفعل عندما نهَض المساعدان تارةً للتأكُّد من كمية الطعام الموجودة، وتارةً لكشف سر التهامس الذي اتَّصل بين ك وفريدا.

وانتهز ك هذه الفرصة ليجعل فريدا تكره المساعدين، فضمَّها إليه، وختما الطعام مُلتصقين أحدهما بالآخر. وحان وقت النوم، وكان الجميع مُتعَبين أشد التعب، بل إن أحد المساعدَين نام أثناء الأكل، وسُرَّ الآخر بهذا سرورًا عظيمًا وأراد أن يحمل سيدَيه على التطلُّع إلى الوجه الغبي النائم، ولكنه لم يوفَّق إلى ذلك، فقد جلس ك وفريدا عاليًا رافضَين صادَّين. وتردَّد الجميع في الذهاب للنوم في هذا البرد المتزايد، وأخيرًا أعلن ك أنه ينبغي تدفئة الحُجرة، وإلا فإنه لن يكون في إمكانهم أن يناموا. وبحث عن بلطة، وكان المساعدان يعرفان موضع بلطة، فأحضراها إليه، وذهب ثلاثتهم إلى مخزن الخشب، وما مر إلا وقتٌ قليل حتى كان الباب الخفيف قد كُسر، وأخذ المساعدان — وكانا مُبتهجَين وكأنهما لم يريا من قبل شيئًا جميلًا كهذا — وهما يتدفعان ويتلاكزان، ينقلان الخشب إلى الفصل حتى تكومت كومة كبيرة هناك، وأوقدت المدفأة، وتكوَّم الجميع حولها، وحصل المساعدان على غطاء ليلتفا فيه، وكان كافيًا لهما، فقد تمَّ الاتفاق على أن يظل واحد منهما بالتبادل يقظًا ليغذي النار بالخشب، ثم ما لبثت الحرارة أن اشتدَّت حول المدفأة حتى لم تَعُد بأيهما حاجة إلى الغطاء، وأطفئ المصباح وتمدد ك وفريدا للنوم سعيدَين بالدفء والسكون.

وصحا ك في الليل على أثر ضجةٍ ما، ومدَّ يده في أول حركة مُضطربة يتحسس فريدا، فتبين أن أحد المساعدين ينام بجانبه بدلًا من فريدا. وكان الفزع الذي أحسَّ به — ربما نتيجةً للإثارة التي صاحبت الصحوة المفاجئة — أشد فزع عرفه في القرية حتى الآن. ونهَض نصفًا فأطلق صرخة، ولكَمَ المساعد في غير وعيٍ لكمةً جعلته يبكي. وما لبث الأمر كله أن اتضح. كانت فريدا قد صحت فجأة لأن أو هكذا لاح لها على الأقل — حيوانًا كبيرًا، وربما قطًّا قفز فجأة فوق صدرها، ثم هرب من فوره. فقامت وفتَّشت مُستعينة بالمصباح عن الحيوان في كل الحجرة. وانتهز أحد المساعدين الفرصة ليتمتَّع هنيهةً بالرقاد على جوَال القش، وكان أن دفع ثمن هذه المتعة غاليًا. أما فريدا فلم تعثر على شيء، ومسحَت وهي عائدة — وكأنها نسيت محادثة الأمس — على شَعر المساعد الذي انكمَش على نفسه مُولوِلًا لتواسيه. ولم يقل ك شيئًا. إلا أنه أمر المساعدَين بأن يكفَّا عن التدفئة؛ لأن الدفء كان قد زاد عن الحد، وكان كوم الخشب قد فرغ كلُّه تقريبًا.

الفصل الثاني عشر

ولم يستيقظ الجميع في الصباح إلا عندما كان التلاميذ المُبكِّرون قد حضروا وأحاطوا شغوفين بالمكان الذي رقدوا فيه. وكان هذا أمرًا كريهًا؛ لأنهم كانوا نتيجةً للحرارة الشديدة التي تحوَّلت الآن في الصباح إلى برودة محسوسة — قد خلعوا ملابسهم كلها إلا القميص، وما إن بدءوا يرتدون ملابسهم حتى ظهرت المعلِّمة جيزا بالباب، وكانت فتاةً شقراء الشَّعر، طويلة القامة، جميلة التقاطيع، وإن كانت تتَّصف بشيء من الجمود. ويبدو أنها كانت تهيَّأت لاستقبال خادم المدرسة الجديد، وتلقَّت من المعلِّم قواعد السلوك التي ينبغي عليها اتباعها حياله؛ لأنها قالت ولما تتجاوَز العتبة بعدُ: هذا ما لا يُمكنني السكوت عليه. ما أجمل هذه الأحوال! إنك لم تنلْ إلا تصريحًا بالنوم في الفصل، أما أنا فعليَّ واجب التدريس في حُجرة نومك. ما أقبح عائلة خادم المدرسة التي تظل تتقلَّب في السراير حتى الظهر! أفٍّ.

وفكَّر ك في أنه يستطيع أن يرد ببعض الاعتراضات وخاصةً فيما يتعلَّق بالعائلة وبالسراير، وأخذ في الوقت نفسه هو وفريدا — فلم يكن المساعدان ليفيدا بشيء، فقد رقَدا على الأرض واسترسَلا في التعجُّب من المعلِّمة والتلاميذ — يُزحزِحان المُتوازيَين والحصان بأقصى سرعة، ثم غطيا الجهازَين بالبطاطين فنشأ مكانٌ أصبح في استطاعتهم أن يرتدُوا فيه ملابسهم في مأمَن من نظرات التلاميذ على الأقل. ولم يستمر الهدوء لحظة فقد تشاجرت المعلمة أولًا لأنها لم تجد في الحوض ماءً جديدًا، وكان ك قد فكَّر في اللحظة ذاتها في أن يأتي بهذا الحوض ليغتسل فيه هو وفريدا، وتخلَّى عن الفكرة مؤقتًا حتى لا يُثير المعلمة إثارة مُفرطة، ولكن تخلِّيه عن الفِكرة لم يُفدْ بشيء؛ فقد دوت ضجة كبيرة بعد قليل؛ ذلك أنهم كانوا قد أغفلوا، لسوء الحظ، تنظيف منضدة الفصل من بقايا العشاء، فأبعَدَت المُعلمة

كل الأشياء بالمسطرة، فتطايَرَت على الأرض، وسال زيت السردين وما بقي من قهوة، وتحطَّم الإبريق، ولم تعبأ المعلِّمة بشيء من هذا لأن خادم المدرسة سيُرتِّب كل شيء. ونظر ك وفريدا وهما مُستندين إلى المُتوازيَين، ولم يكونا قد فرغا بعدُ من ارتداء كل ثيابهما، كيف يتحطَّم متاعهما القليل. أما المساعدان، ويبدو أنهما لم يُفكرا في ارتداء ثيابهما قط، فقد ظلَّا راقدَين ينظران من بين ثنايا الأغطية وكان الأولاد يجدُون في ذلك متعة أي متعة. وكان أكثر ما تتألَّم له فريدا بطبيعة الحال هو خسارة الإبريق، فلما واساها ك وأكَّد لها أنه سيذهب توًّا إلى رئيس مجلس القرية ويُطالبه بتعويض يناله، تمالَكَت نفسها وجرَت من التحويطة، وليس عليها من الثياب سوى القميص، لتُحضر البطانية على الأقل حتى تقيها من مزيد من القذارة. وتمكَّنت بالفعل من ذلك على الرغم من أن المعلِّمة كانت تضرب، بقصد إفزاعها، بالمسطرة على المنضدة كالشاكوش باستمرار وعلى نحو يُثير الأعصاب. فلما فرغ ك وفريدا من ارتداء ملابسهما، كان عليهما أن يحثَّا المساعدَين اللذين كانا مأخوذين ممَّا تعاقب من أحداث، على ارتداء ملابسهما، واستعانا على ذلك بالأمر واللكم، بل وقاما هما ذاتها بإلباسهما جزءًا من الثياب. فلما فرغ الجميع وزَّع ك الأعمال التالية: كان على المساعدَين أن يُحضرا خشبًا، وأن يوقدا المدفأة، وأن يكون البدء بالفصل الآخر الذي كانت أخطار جسيمة تلُوح في أُفُقِه؛ إذ لا بد أن المعلِّم موجود به منذ بعض الوقت ... وكان على فريدا أن تمسح الأرضية. وأخذ ك على عاتقه إحضار الماء وإنجاز ما عدا ذلك من أعمال التنظيم والترتيب. ولم يكن هناك مؤقتًا مجال للتفكير في تناول طعام الإفطار. وأراد ك أن يخرج هو أولًا ليَكتشِف مزاج المعلِّمة بصفة عامة، وكان على الآخرين أن يتبعُوه عندما ينادي عليهم، ولقد اتخذ ك هذا التدبير لأنه كان من ناحية لا يُريد للموقف أن يسوء منذ البداية نتيجة لحماقات المساعدَين، ولأنه كان من ناحية أخرى يريد أن يُخفف عن فريدا ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، لأنها كانت طموحة ولم يكن هو كذلك، وكانت حساسة ولم يكن هو كذلك، وكانت تفكر في البشاعات الصغيرة الحاضرة فقط، بينما كان هو يفكر في برناباس والمستقبل. واتبعت فريدا تعليماتِه كلَّها بدقةٍ، ولم تَنصرف عنه بعينيها إلا نادرًا. وما كاد ك يدخل الفصل حتى صاحت المعلمة بين ضحكات من التلاميذ لم تتوقَّف بعد ذلك مطلقًا: هه، صحِّ النوم؟

ولما لم يُعِر ك ذلك التفاتًا، فلم يكن ذلك سؤالًا بمعنى الكلمة، وانطلق إلى الحوض مباشرةً، سألته المعلمة: ماذا فعلتم بميتسه؟

كانت هناك قطة كبيرة عجوز جسيمة ترقُد ممدَّدة في خمول على المنصة، وكانت المعلِّمة تفحص قدمها التي يبدو أنها كانت مصابة بشيء من الجراح ... إذن فقد كانت

فريدا على حق. ولم تكن هذه القطة قد قفَزَت فوقها، فلم تكن تستطيع القفز، ولكنها كانت قد زحفت من فوقها وفزعت من وجود الناس في مكانٍ كان في المعتاد خاليًا، فتوارَت بسرعة وأصيبت بجرح وهي تسرع سرعة لم تألفها. وحاول ك أن يَشرح ذلك للمعلِّمة في هدوء، ولكن المعلمة لم تكن تهتم إلا بالنتيجة، قالت: نعم، لقد جرحتُموها، وبهذا بدأت هنا.

وقالت: انظر.

ونادَت ك أن يأتي إلى المنصَّة، وأرته الرِّجْل المصابة، وقبل أن يتفحَّصها، أحدثَت بمَخالب القطة على ظهر يده خمشةً. حقيقةً أن المخالب لم تكن حادة، ولكن المعلِّمة ضغطت عليها بعنف — دون ما مراعاة للقطة في هذه المرة — حتى تفجَّر الدم منها. وهنا قالت وهي تنحني على القطة: والآن اذهب إلى عملك.

وصرخت فريدا مفزوعة عندما رأت الدم. وبسط ك يده للتلاميذ وقال: لقد فعلت هذا بي قطة شريرة لئيمة.

وهو لم يقل هذا بطبيعة الحال من أجل الأولاد الذين كان صراخهم وضحكهم قد أصبح بديهيًّا فلم يكن بحاجة إلى دافع أو حافز، ولم يكن في مقدوره كلمة أن تنفذ إليه وتؤثر فيه. ولمَّا لم تردَّ المعلمة على الإهانة بأكثر من نظرة مستهترة، وظلت مشتغلة بالقطة، نادى ك فريدا والمساعدين وبدأ العمل.

وحمل ك دلو الماء القذر وألقى به بعيدًا وأحضر ماءً نظيفًا، وشرع يكنس الفصل، وهنا تقدَّم صبي في الثانية عشرة من عمره من مقعده ومس يد ك وقال شيئًا غير مفهوم وسط الضجيج الشديد، وفجأة توقف الصخب كله، والتفت ك خلفه. لقد حدث ما كان يخشاه طوال الصباح. لقد وقف المعلِّم بالباب، وكان — وهو الرجل القصير — يحمل في كل يدٍ أحد المساعدَين من تلابيبه ويبدو أنه قد قبض عليهما عندما كانا يُحضران الخشب؛ لأنه كان يصيح بصوت عنيف، ويصمُت بعد كل كلمة.

– مَن الذي تجاسَر على السطو على مخزن الخشب؟ أين الفاعل حتى أحطمه تحطيمًا؟

وهنا وقفت فريدا وكانت تعمل على تنظيف الأرضية عند قدمَي المعلِّمة، ونظرت ناحية ك وكأنما أرادت أن تغترف قوة، وقالت وكان في نظرتها ومسلكها شيء من التفوق الذي كان لها فيما مضى: أنا التي فعلت هذا يا حضرة المعلِّم. فلم أكن أعرف وسيلة أخرى أستعين بها. لقد كان الواجب يفرض علينا أن نُدفئ فصلي المدرسة مُبكِّرين، ولهذا فقد تحتَّم علينا أن نفتح المخزن، ولم أتجاسَر على طلب المفاتيح منك في الليل، وكان خطيبي في حان السادة،

وكان من المُمكن أن يظلَّ هناك طوال الليل، وهكذا تحتم عليَّ أن أقطع في الأمر وحدي. فإذا كنتُ قد أخطأت التصرُّف فاغفر لي فالسبب هو قلة خبرتي، ولقد تشاجر معي خطيبي بما فيه الكفاية عندما رأى ما قد حدث. نعم، لقد منعني من أن أدفِّئ المكان مبكِّرة؛ لأنه اعتقد أنك بإغلاقك المخزن تُعبِّر عن أنك لا تُريد أن تكون التدفئة قد أنجزت عندما تأتي. وهكذا فإنَّ عدم التدفئة هو ذنبه، أما كسر باب المخزن فهو ذنبي.

وسأل المعلم المساعدَينِ اللذَينِ كانا لا يزالان يحاولان التملُّص من قبضته دون ما جدوى: مَن الذي كسر الباب؟

فقالا جميعًا: السيد.

وأشارا إلى ك حتى لا يكون هناك مجال للشك. وضحكت فريدا، وكان ضحكتها تبدو أكثر برهانًا من كلامها، وبدأت تعصر الخرقة التي مسحَت بها الأرضية في الدلو، وكأنما كان تصريحُها قد أنها الموضوع ولم تكن كلمات المساعدَين سوى نُكتة إضافية. ولم تعد إلى الكلام إلا بعد أن برَكَت على ركبتَيها من جديد لتستأنف العمل، وهنا قالت: إن مُساعدَينا طفلان، وإن مقاعد المدرسة هنا لتُناسبهما على الرغم من سنِّهما. لقد قمت أنا وحدي عند المساء بفتح الباب ببلطة، وكان ذلك سهلًا جدًّا، ولم أحتَجْ في ذلك إلى المساعدَينِ، ولو استعنت بهما لعطَّلاني. فلما عاد خطيبي في الليل وخرج ليرى التلف وربما ليصلحه، جرى معه المُساعدان، ربما لأنهما كانا يخشيان البقاء هنا، ورأيا خطيبي يعالج الباب المُغتصب، ولهذا فإنهما يقولان الآن — وما هما إلا طفلان.

وكان المساعدان لا يَنفكَّان، أثناء تصريح فريدا، يهزان رأسَيهما، ويُشيران دائمًا إلى ك، ويجتهدان بحركات من وجهَيهما، في ردِّ فريدا عن رأيها، فلما لم يُوفَّقا إلى ذلك، انصاعا في النهاية، وتقبَّلا كلام فريدا كأنه أمرٌ، ولم يردا على المعلِّم عندما سألهما من جديد.

وقال المعلم لهما: إذن فقد كذَبتما؟ أو على الأقل اتهمتُما خادم المدرسة مستهترَين؟

وظلَّا صامتَين ولكن ارتعادهما ونظراتهما الخائفة كانت تُشير إلى شعورهما بالذنب.

وقال المعلم: فسأضربكما في الحال بالخيزرانية ضربًا مُبرحًا.

وأرسل صبيًّا إلى الحجرة المجاورة ليُحضر الخيزرانة. وما إن رفع المعلم الخيزرانية حتى صاحت فريدا: لقد قال المساعدان الصدق.

وألقت الخِرقة في الدلو حائرة فتتطايَر رذاذ الماء، ثم عَدَت خلف المتوازيَين واختبأت. وقالت المعلمة وقد أوشكت على الفراغ من تصيُّد رجل القطة وأخذتها على حجرها الذي كاد أن يكون كبيرًا بالنسبة إليها: قال إنه شعب كذاب.

وقال المعلم: وهكذا يبقى السيد خادم المدرسة.

ودفع المساعدَينِ بعيدًا واتجه إلى ك الذي كان طوال الوقت يُنصِت مستندًا إلى يد مقشةٍ. ثم أردف: هذا الخادم الذي يرى في هدوء وجُبن كيف يُكال الاتِّهام زورًا لآخَرين عن أعمال دنيئة ارتكبها هو.

وقال ك الذي لا بدَّ أنه لاحظ أن تدخل فريدا أدى إلى تخفيف ما كان المعلم قد اندفع إليه في البداية من غضبٍ عارم: لو أنك هويت على المساعدينِ بالخيزرانة، لما أشفقت عليهما، وإذا كانا قد مرَّا بلا عقاب في عشر مناسبات كانا يستحقان فيها العقاب عدلًا، فلا بأس أن ينالا العقاب في مناسَبة يكون عقابهما فيها ظلمًا. وكذلك كنتُ أفضِّل أن أتجنب تصادمًا مباشرًا بيننا، يا حضرة المعلم، ولعلك كنتَ ترحِّب أنت أيضًا بهذا. أمَا وقد قدَّمَتني فريدا ضحيةً للمساعدينِ.

وهنا سكت ك فترة، وتناهى في وسط السكوت صوت فريدا تَنتحِب وراء الأغطية، وأردف ك: فينبغي أن نُوضِّح الأمر بطبيعة الحال.

وقالت المعلمة: هذه بشاعة لا مثيل لها.

وقال المعلم: أنا أرى رأيكِ تمامًا يا آنسة جيزا. وأنت يا خادم المدرسة مفصول على الفور بطبيعة الحال نتيجةً لنَقضِك المُزري للعقد. أمَّا العقاب الذي سيأتي بعد ذلك فأحتفِظ بأمره لنفسي. وأمَّا الآن فاخرج على الفور من المدرسة. فإن خروجك سيُؤدي إلى تخفيف حقيقي عنا، وسيكون في الإمكان أن نبدأ في التعليم بعد طول تعطيل. بسرعة.

فقال ك: أنا لن أتحرَّك من هنا قيد أنملة. حقيقةً أنك رئيسي، ولكنَّك لستُ مَن أعطاني الوظيفة، إنما أعطانيها السيد رئيس مجلس القرية، وأنا لا أقبل إلا فصله هو. وهو لم يُعطني الوظيفة لأتجمَّد هنا من شدة البرد أنا ومن معي، وإنما — ولقد قلت أنك نفسك هذا — ليحُول دون قيامي بأعمال مُتهوِّرة بدافع من حيرة أو يأس. ولهذا فإنَّ فصلي فجأةً عمل يُنافي هدفه، وأنا لن أصدِّق إلا إذا سمعت قرار الفصل من فَمِه هو. وأنا عندما أرفض فصلك إيَّاي على هذا النحو المُستهتِر، أفعل شيئًا قد يكون في صالحك.

وسأل المعلِّم وهو يهزُّ رأسه: إذن فأنت ترفُض أن تطيع؟

ثم قال المعلم بعد ذلك: فكِّر جيدًا. فإن قراراتك ليسَت دائمًا أحسن القرارات. واذكُر على سبيل المثال ما فعلته عصر الأمس عندما رفضت أن تستجوب.

فقال ك: ولماذا تُشير إلى هذا الآن؟

فقال المعلم: لأنَّ هذا يحلو لي. وأنا أكرِّر عليك للمرة الأخيرة: اخرُج.

فلما لم يُصِب المعلم تأثيرًا، ذهب إلى المنصة وتشاوَر مع المعلِّمة بصوت مُنخفِض، وأخيرًا اتَّفقا. ونادى المعلم على التلاميذ أن يذهبوا إلى فصله، ليتعلَّموا مع تلاميذه. وكان التغيير مدعاة لفرح الجميع، وسرعان ما خلا الفصل وسط الضحكات والصيحات، وكان المعلِّم والمعلمة آخر الخارجين. وحملت المعلمة كراس الفصل ومن فوقه القطة التي كانت بجسامتها بليدة كل البلادة. ولكم ودَّ المعلم لو بقيَت القطة هنا. ولقد وجَّه إلى المعلمة إشارة فيها تلميح إلى هذا، فردَّتها ردًّا حاسمةً منبهة إلى شراسة ك. وهكذا حمل ك المعلم وزر القطة كذلك وأغضبه أشد الغضب. وتأثَّر هذا على الأغلب بالكلمات الأخيرة التي وجَّهها المعلم وهو بالباب إلى ك: إنَّ الآنسة تترُك الحُجرة مع التلاميذ مُضطرَّة لأنك ترفُض عن تمرُّد طاعة أمري بفَصلِك، ولأنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يطلب منها، وهي الفتاة الصغيرة، أن تُعطي الحصة وسط بيئتك العائلية القذرة. إذن فأنت باقٍ وحدك، ويمكن أن تتوسَّع هنا كما تُريد. ودون أن يُزعجك تطلُّع المشاهدين الأخيار. ولكن هذا لن يدوم طويلًا، وأنا ضامنٌ ذلك.

وهنا أقفل الباب عنوةً.

الفصل الثالث عشر

وما كاد الجميع يَنصرفُون حتى قال ك للمساعدَينِ: اخرُجا.

وأخذهما الأمر المفاجئ فأطاعا، فلما أغلق ك الباب من خلفهما، أرادا أن يعودا وأخذا يَبكيان في الخارج ويدقان على الباب. وصاح ك: أنتما مفصولان. ولن أعود إلى استخدامكما أبدًا.

ولم يَقبلا هذا بطبيعة الحال راضيَيْنِ، وظلَّا يَضربان الباب بأيديهم وأرجلهم ويصيحان: نعود إليك أيها السيد!

وكأنما كان ك الأرض اليابسة، وكانا هما على وشك الغرق في الفيضان. ولكن ك لم يُشفق عليهما، وانتظر بفارغ صبر أن يضطرَّ الصخب الذي يفوق الاحتمال المعلِّم إلى أن يتدخل.

وحدث هذا بعد قليل. وصاح المعلم: دع مساعدَيك اللعينَين يدخلان.

وردَّ ك عليه صائحًا: لقد فصلتهما ... وأحدثت الصيحة تأثيرًا إضافيًّا غير مقصود هو إظهار المعلم على الأمر وكيف يبدو عندما يَفصل الرجل القوي مَن يعمل عنده، ثم لا يبقى عند حد الإنذار بل يُنفِّذ الفصل فعلًا. وحاول المعلِّم أن يهدئ المساعدَين باللِّين قائلًا إن عليهما أن ينتظرا هنا في هدوء، وسيُضطرُّ ك في النهاية إلى إدخالهما مرةً أخرى. ثم انصرف. ولعل السكون كان سيستمر لو لم يَصِحْ ك فيهما مرة أخرى بأنهما مفصولان نهائيًّا، وأنهما لا ينبغي أن يأمُلا أوهَى أملٍ في العودة. وهنا عادا إلى الصخب على نحو ما كانا يفعلان من قبلُ. وعاد المعلم، ولكنه لم يتفاوض معهما، بل طرَدَهما خارج البيت، واستعمل — على ما يبدو — خيزرانته المُهابة.

وما لبثا أن عادا للظهور أمام نوافذ حجرة الرياضة، وأخذا يَقرعان النوافذ ويصيحان. ولكن كلماتهما لم تكن مفهومةً. ولم يستمرا في مكانهما هذا مدة طويلة، فلم يكن في

مقدورهما أن يسترسلا في القفز على الجليد السَّميك ما شاء لهما قلقهما. ولهذا عجَّلا بالذهاب إلى سور حديقة المدرسة، وقفزا على القاعدة الحجرية للسور الحديدي؛ حيث كان في مقدورهما أن ينظرا إلى داخل الحجرة على نحوٍ أفضل ولكن من بُعدٍ. وأخذا يعدوان ذهابًا وإيابًا مُمسكَين بالسور الحديدي، ثم كانا يقفان من حين لآخر ويرفعان أيديهما إلى ك مُتوسلَين إليه. واستمرا على هذه الحال طويلًا دون اعتبار لعدم جدوى جهودهما. ذلك أنهما كانا كالمبهورَين. ويبدو أنهما لم يكفَّا عن التوسل على هذا النحو عندما أرخى ك الستائر على النوافذ حتى يتحرَّر من النظر إليهما.

وذهب ك في الحجرة التي أظلمت إلى المتوازيَين بحثًا عن فريدا. فلما نظر إليها نهضَت وسوَّت شَعرها، ومسحت على وجهها واتجهت في صمت لتُعدَّ القهوة. وعلى الرغم من أنها كانت تعلم بكل ما جرى، فقد أحاطها ك علمًا بأن المساعدَين قد فُصلا. ولم تزد عن أن هزَّت رأسها، وجلس ك على قمطر في الفصل وأخذ يلاحظ حركاتها الواهنة. لقد كانت النضرة والتصميم هما الشيء الذي أضفى على جسمها التافه جمالًا. وكانت الأيام القليلة التي عاشتها مع ك كافية لإحداث هذا الأثر. ولم يكن العمل في الحانة عملًا سهلًا ولكنه كان على ما يبدو أنسب لها، أو ربما كان البُعد عن كلم هو سبب تدهورها؟ لقد كان قربها من كلم يجعلها مُغرية بدرجة غير معقولة، ولقد انتزعها ك إليه في وسط هذا الإغراء، وها هي ذي تذبل بين ذراعيه.

وقال ك: يا فريدا.

فوضعَت طاحونة البن جانبًا وجاءت إلى ك وجلست على القمطر نفسه. وسألت ك: هل أنت غاضبٌ مني؟

فقال ك: لا. ولكنني أعتقد أنك لا تستطيعين أن تفعلي شيئًا آخر غير ما كنتِ تفعلين. لقد كنتِ تعيشين راضية في حان السادة. وكان الأحرى بي أن أدعكِ هناك.

وقالت فريدا وهي تنظر حزينة أمامها: أن أدعك هناك!

– نعم، كان الأحرى بك أن تدعَني هناك. وأنا لست جديرة بالحياة معك. ولعلك، إذا تخلَّصتَ مني تستطيع أن تصل إلى ما تريد الوصول إليه. إنك تخضع، مراعاةً لي، للمعلِّم المستبد، وتقبل هذه الوظيفة الوضيعة، وتسعى بجهد جهيد لمحادثة كلم. كل هذا من أجلي أنا، وأنا لا أكافئك عليه إلا مكافأةً رديئة.

وقال ك: لا.

وطوَّقها بذراعه مواسيًا. ثم قال: كل هذه توافهُ لا تؤلمني، وأنا لا أريد الذهاب إلى كلم بسببك. وما أكثر ما صنعتِ من أجلي! إنني قبل أن أعرفكِ كنتُ أسيرُ هنا في الضلال. لم

يكن هناك مَن يستقبلني، وكنت إذا تقدَّمتُ إلى بعضهم مُلحًّا، انصرف عني مسرعًا. وكنت إذا وجدت أناسًا يمكن أن أنعم بالسكون بينهم. أهرب أنا منهم، مثل آل برناباس.

وقاطعت فريدا ك صائحة بهمَّة: لقد هربتَ منهم؟ أليس كذلك؟ يا حبيبي.

ثم استغرقت مرةً أخرى في تعبها بعد أن قال ك «بلى» مترددًا. وكذلك لم يكن ك مُصممًا على أن يشرح كيف تحولت الأمور كلها إلى الخير بعد ارتباطه بفريدا. ورفع ذراعه ببطء عنها وجلس هنيهة صامتًا، حتى قالت فريدا وكأنما كان ذراعُه يمنحها دفئًا لم تَعُد تستطيع الآن الاستغناء عنه: لن أحتمِل هذه الحياة هنا. وإذا كنت تُريد الإبقاء عليَّ، فيَنبغي أن نهاجر إلى أيِّ مكان، إلى جنوب فرنسا، إلى إسبانيا.

وقال ك: أنا لا أستطيع أن أهاجر، لقد أتيتُ إلى هنا لأبقى هنا. وسأبقى هنا.

وأضاف مُحدثًا نفسه في تناقُض لم يبذل جهدًا في توضيحه: وماذا كان يُمكن أن تجتذبني إلى هذه الأرض الصعبة إلا الحاجة للبقاء هنا.

ثم قال: وكذلك أنت تُريدين البقاء هنا، فهذا بلدك. ولكن كلم هو الذي يَنقُصك، وهذا هو ما يؤدي بك إلى الأفكار اليائسة.

وقالت فريدا: إنك تظنُّ أن كلم هو ما ينقُصني؟ وإن هنا مفيضًا من كلم، فيضًا مُفرطًا.

وما أريد أن أبعد عن هنا إلا لأفلت منه. ليس من ينقصني هو كلم، بل أنت، إنني أريد أن أبعد من هنا بسبِبك؛ لأنني لا أستطيع أن أشبع منك هنا حيث يتجاذبني الجميع، ليتَني أتجرَّد من القناع الجميل، ليتَ جسمي يذبل حتى أستطيع أن أعيش معك في سلام.

ولم يستشفَّ ك من ذلك كلِّه إلا شيئًا واحدًا. وسأل من فوره: أمَا زال كلم على علاقة بكِ؟

ثم أردف: هل يستدعيكِ؟

فقالت فريدا: لا أعرف عن كلم شيئًا. إنني أتحدَّث عن آخرين، عن المساعدَين مثلًا.

فقال ك وقد أخذته المفاجأة: آه، المساعدان! هل يُلاحقانك؟

فسألته فريدا: ألم تلحَظ هذا؟

فقال ك: لا.

وحاول دون جدوى أن يتذكَّر شيئًا من التفاصيل. ثم قال: إنهما شابَّان لحوحان قبيحان، أما إنهما تجاسرا على الاقتراب منك، فهذا ما لم ألحظه.

فقالت فريدا: لا؟ ألم تلحَظ أنهما لم ينصرفا من حجرتنا في حان الجسر، على الرغم مما توسَّلنا به لصرفهما من حيل، وإنهما كانا يُراقبان علاقتنا غيورينِ، وإن أحدهما رقد

مؤخرًا في مكاني على جوَال القش، وأنهما شهدا الآن ضدَّك ليتسبَّبا في طردك والإضرار بك وليَنفردا بي. ألم تلحظْ هذا كلَّه؟

ونظر ك إلى فريدا دون أن يجيب. كانت الاتهامات التي وجَّهتها ضد المساعدَينِ صحيحة، ولكنه كان من الممكن تأويلها تأويلًا بريئًا على أساس خلقهما المُضحك الصبياني الغرير المتهور. ثم ألا يُقوِّض اتهامهما سعيهما الدائب إلى ملاحقة ك حيثما كان ورفضهما البقاء مع فريدا؟ وأشار ك إلى شيء من هذا القبيل. فقالت فريدا: إنه نفاق. ألم تَكشف أمره؟ ولماذا إذن فصلتهما، إن لم يكن لهذه الأسباب؟

وذهبت إلى النافذة، وأزاحت الستارة إلى الجانب قليلًا، وأطلَّت ثم نادت ك أن يأتي. كان المساعدانِ لا يزالان عند السور الحديدي على الرغم مما دبَّ فيهما من تعب ظاهر، وكانا يستجمعان قواهما من حين لآخر، ويمدان ذراعيهما متوسلين ناحية المدرسة. وكان أحدهما قد شبك سُترته من الخلف بأحد أعمدة السور حتى لا يضطرَّ إلى الاستناد المرة تلو المرة.

وقالت فريدا: المسكينان! المسكينان!

وسأل ك: تسألين لماذا طردتهما؟

ثم قال: لقد كنتِ أنتِ السبب المباشر.

وسألت فريدا دون أن تُحوِّل بصرها عن النظر إلى الخارج: أنا؟

وقال ك: أعني معاملتك للمساعدَينِ معاملة مُفرطة الود، وصفحك عن بذاءاتهما، وضحكك منهما، ومسحُكِ على شَعرَيهما، وإشفاقك الدائم عليهما، ولقد قلتِ لتوِّك «المسكينان! المسكينان!» ثم الحادثة الأخيرة التي بيَّنَت أنني ثمنٌ رخيص تشترين به إعفاء المساعدَين من الضرب بالخيزرانة.

فقالت فريدا: وهذا هو ما يدور حديثي إلا حوله، هذا هو ما يجعلني تعيسة، وما يصرفني عنك، بينما أنا لا أعرف لي سعادة أعظم من سعادتي بالبقاء معك، دائمًا، بلا انقطاع، بلا نهاية، بينما أنا أحلم بأنه ليس هناك على الأرض مكان هادئ لحبِّنا، لا في القرية، ولا في أي مكانٍ سواها، وأتمثَّل لذلك القبر عميقًا ضيقًا، في القبر نتعانق وكأنما تمسكنا كماشة، وأخفي وجهي فيك، وأنت تخفي وجهك فيَّ، ولن ينظر إلينا أحد أبدًا. أمَّا هنا، أنظر إلى المساعدَين. إنهما لا يمدان أيديهما إليكَ بل إليَّ.

فقال ك: لأنك أنتِ تنظرين إليهما، ولست أنا الذي أنظر إليهما.

فقالت فريدا وقد أوشكَت أن تغضب: أنا بكل تأكيد. وهذا هو ما أقوله وما لا أكفُّ عن قوله. وماذا في ملاحَقة المساعدَينِ لي بلا انقطاع ولو كانا رسولي كلم ... وقال ك الذي فاجأته هذه التسمية على الرغم من أنها بدت له طبيعية: رسولي كلم!

فقالت فريدا: بكل تأكيد، إنهما رسولا كلم. وعلى الرغم من ذلك فهما في الوقت نفسه شابَّان بذيئان يحتاجان في تربيتهما إلى الضرب بالخيزرانة، ما أقبحهما شابان أسودان! وما أبشع التناقض بين وجهَيهما اللذَين يوحيان بأنهما من الكبار أو من الطلبة، وبين مسلكهما الصبياني الغرير! أتظنُّ أنني لا أرى هذا؟ إنني أخجل لهما، إنهما لا ينفراني، إنما أنا التي أخجل لهما، وهذا هو لبُّ الموضوع. إنني مسوقة إلى النظر إليهما دائمًا. وأنا أضحك من أن البعض يميل إلى الغضب منهما. وإذا ما ضربهما أحد، مسحت على شَعرَيهما. وعندما أرقد بجانبك في الليل لا أستطيع النوم، وأراني مدفوعة إلى النظر من فوقك إليهما، وكيف يلتفُّ أحدهما بالغطاء التفافًا محكمًا ويستغرق في النوم، بينما الآخر يركع أمام فتحة المدفأة ويشعل النار، وإنني لأنحني إلى أمام حتى لأكاد أوقظك! وليسَت القطة هي التي أفزعتني — آه، إنني أعرف القطط وأعرف من عملي في قاعة الحان النوم المُضطرب الذي لا يكفُّ المرء عن الصحو منه منزعجًا — ليست القطة هي التي أفزعتني، بل أنا التي أفزعت نفسي. وما أنا بحاجة إلى ضجة قطة تفزعني، فإنني أنتفض وحدي عندما أسمع أقل صوتٍ. ولقد خشيت مرةً أن تصحو أنت، وأن ينتهي كل شيء، وذهبت مرة أخرى إلى الشمعة قفزًا فأوقدتُها حتى تصحو بسرعة وتحميني.

وقال ك: لم أعرف هذا كله. ولكنَّني طردتهما لإحساسي بشيء من هذا القبيل إحساسًا غامضًا. ولقد انصرفا الآن، وربما أصبحت الأمور على ما ينبغي.

وقالت فريدا: نعم، لقد انصرفا أخيرًا.

ولكن وجهها كان معذَّبًا ولم يكن ينمُّ عن فرحٍ، وأردفت: ولكننا لا نعرف مَن هما. لقد سمَّيتُهما رسولي كلم، هكذا في فكري، على سبيل العبث، ولعلهما في الواقع كذلك. إن عينَيهما تُذكراني على نحو ما بعيني كلم، نعم، هكذا! بل إن نظرة كلم لتنطلق أحيانًا من عينيهما وتنفذ خلالي. ولهذا فليس من الصواب ما قلته من أنني أخجل لهما. كنتُ أعني أنني أتمنى لو كنت أخجل لهما. وأنا أعرف أن هذا السلوك نفسه، إذا أتى به أناس آخرون سلوك غبي وفاضح ولكنه ليس كذلك عندما يأتيان هما به. إنني أتطلع إلى حماقاتهما بالتقدير والإعجاب. وإذا كانا رسولَي كلم، فمَن الذي يُخلصنا منهما؟ وهل من الخير أن نتخلص منهما؟ أما ينبغي عليك أن تستعيدهما بسرعة وأن تسعدَ لو قبلا العودة؟

وسأل ك: أتريدين أن أعيدهما؟

فقالت فريدا: لا، لا. هذا هو آخر ما يُمكن أن أريده. ولعلِّي لا أستطيع أن أحتمل منظرهما عندما يندفعان داخلين، وفرحهما بلقائي، ونطهما نطيط الصبية، وبسطهما

يدَيهما بسط الرجال. ولكنني عندما أفكر أنك عندما تقف منهما موقف الشدة، قد تسدُّ بنفسك سبيلك إلى كلم، أريد أن أحميك من ذلك بكل الوسائل. وأريد في هذه الحالة أن تدعَهما يدخلان. إذن فأدخلهما بسرعة يا ك. لا تعمل حسابًا لي، فما أهميتي؟ وسوف أدافع عن نفسي طالما استطعت. فإذا خسرتُ، فإنما أخسر وأنا أعي أن ذلك حدث من أجلك.

فقال ك: إنك تقوين حُكمي حيال المساعدينِ. لن يعودا أبدًا بإرادتي إلى هنا. أما أنني أخرجتهما فأمر يؤكِّد أن الإنسان يستطيع في بعض الأحوال أن يتحكم فيهما، ويؤكد علاوة على ذلك أنهما لا يتصلان اتصالًا جوهريًّا بكلم. ولقد تلقَّيت بالأمس خطابًا من كلم يتَّضح منه أن كلم حصل على معلومات خاطئة تمامًا عن المساعدَين، ويتَّضح منه كذلك أنه لا يهتمُّ بهما في قليل أو كثير، فلو لم يكن أمرهما كذلك، لحصل على معلومات أكثر دقة عنهما. وأما أنكِ ترَين فيهما كلم، فهذا ما لا يثبت شيئًا، لأنك لا تزالين للأسف تحت تأثير صاحبة الحان، فأنت ترين كلم في كل مكان. إنك لا تزالين عشيقة كلم، وما زلتِ بعيدة عن أن تكوني زوجتي. وإن هذا ليُحزنني في بعض الأحيان حزنًا شديدًا، وأحسُّ بأنني كمَن فقدَ كل شيء، وأحس كأني أتيت لتوي إلى القرية لا مُمتلئًا بالآمال، كما كنت بالفعل عندما أتيت، بل شاعرًا بأن خيبة الأمل هي ما ينتظرني، وأنني سأذوق الخيبة تلو الخيبة حتى أتجرَّع ثمالة كأس الخيبة.

ثم أضاف ك مُبتسمًا عندما رأى أن فريدا حارت عندما سمعت كلماته: ولكن هذا لا يحدث إلا في بعض الأحيان فقط، وهو يثبت في الحقيقة شيئًا طيبًا، وهو قيمتك بالنسبة إليَّ. وإذا كنتِ أنت تُطالبينني بأن أختار بينك وبين المساعدَينِ، فلقد خسر المساعدانِ. يا لها من فكرة! أن أختار بينك وبين المساعدَين؟! إنني أريد أن أتخلَّص منهما نهائيًّا، حتى في الكلام والفكر. ومَن يعلم، فلعل الضعف الذي تملكنا كلينا يرجع إلى أننا لم نتناول طعام الإفطار بعدُ؟

فقالت فريدا وهي تبتسم في ضعف: ربما.

وذهبت إلى العمل. وكذلك أمسك ك المقشة.

ودقَّ بعضهم الباب بعد هنيهة دقًّا خفيفًا. فصاح ك: إنه برناباس.

وألقى المقشة وقفز قفزات قليلة بلغ بها الباب. ونظرت إليه فريدا وقد فزعت لسماع الاسم أكثر من أي شيء آخر. ولم يستطع ك أن يفتح القفل القديم بيدَيه المضطربتَين حالًا. وكان يكرر بلا انقطاع: إنني أفتح.

كان يفعل هذا بدلًا من أن يسأل الذي يدق الباب عن نفسه. وهكذا انتهى به الأمر إلى رؤية شخص آخر غير برناباس يدخل من الباب المفتوح على سعته، كان هذا الشخص هو

الصبي الذي أراد من قبل أن يُكلم ك. ولم يشعر ك برغبة في تذكره. وقال: ماذا تريد هنا؟ إن الحصة في الفصل الآخر.

وقال الصبي: إنني قادم من هناك.

ورفَع عينيه الواسعتين البُنيَّتين هادئًا إلى ك، ثم وقف معتدلًا لاصقًا ذراعيه على جانبيه. وقال ك: ماذا تريد إذن؟ بسرعة.

ومال ك قليلًا عليه لأنه كان يتكلَّم بصوت منخفض. وسأل الصبي: هل أستطيع مساعدتك؟

وقال ك لفريدا: إنه يُريد أن يساعدنا.

ثم قال للصبي: ما اسمك؟

فقال الصبي: هانس برونسفيك. تلميذ في الصف الرابع. ابن أوتو برونسفيك، المعلِّم صانع الأحذية في حارة مادلين.

وقال ك وقد ازداد حبًّا له وَرِقَّة: هكذا، اسمك برونسفيك.

وتبيَّن أن هانس قد ثار للخدش الدامي الذي خمشته المعلمة في يد ك وعزم على أن يسانده. وخرج متسللًا من الفصل المجاور من تلقاء نفسه كالهارب من الجندية مُعرِّضًا نفسه لعقاب شديد. ويبدو أن التصورات التي ملكت عليه نفسه كانت تصوُّرات صبيانية. وكانت تُطابق الجد الذي كان يظهر في كل ما كان يعمل. ولقد تعثَّر في بداية الأمر على حجرة الخجل، ولكنه ما لبث أن أَلِف ك وفريدا، فلما تلقَّى قهوة طيبة ساخنة وشربها، بدا عليه النشاط والألفة، ثم أصبحت أسئلته تتَّسم بالهمة والإلحاح، وكأنه كان يعرف بأسرع ما يُمكن أهم ما في الأمر حتى يستطيع أن يتخذ على نحو مُستقِل قرارات لـ ك وفريدا. وكان الصبي يتَّسم بطابع الأمر والنهي، ولكن هذا الطابع كان يختلط ببراءة صبيانية، تجعل الإنسان يخضع له راضيًا، خضوعًا نصفه صراحةٌ ونصفه مزاحٌ. والمهم أنه استحوذ على الانتباه كله، فتوقف العمل، وطال الإفطار. وعلى الرغم من أنه كان يجلس على قمطر، وكان ك يجلس على المنصة، وكانت فريدا تجلس في كرسي وثير بجواره، فقد لاح الأمر كأن هانس المعلِّم الذي يفحص الإجابات ويُقدر الدرجات. وكانت هناك ابتسامة رقيقة حول فمه الناعم لاح عليها أنها تُلمح إلى أنه يعرف أن الأمر كله لعبة، ولكنه كان فيما عدا هذا شديد الجد في الموضوع، ولعلها لم تكن ابتسامة، وكانت هي سعادة الصبا تُحيط بلعبها شفتيه. وذكر الصبيُّ مُتأخرًا تأخرًا واضحًا أنه يعرف ك منذ دخل ذات مرة عند لازيمان. وسعد ك بذلك وسأله: لقد كنتَ آنَذاك تلعب عند قدمَي المرأة؟

فقال هانس: نعم، إنها أمي.

وحثَّه ك على الحديث عن أمِّه، فلم يفعل إلا مترددًا، وبعد إلحاح، واتضح أنه كان صبيًّا صغيرًا يلوح أحيانًا، وبخاصة عندما يسأل — ربما عن إحساسٍ يتنبأ بالمستقبل، وربما عن انخداعٍ يعتري حواس المستمع القلق المتوتر — كأنه رجل نشيط، أريب، بعيد النظر، ثم ما يلبث أن يتحول فجأة وبلا تمهيد إلى تلميذ صغير لا يفهم بعض الأسئلة ويخطئ فهمَ بعضها الآخر، ويتكلم عن استهتار صبياني بصوت منخفض جدًّا، على الرغم من أن ك نبَّهه إلى هذا العيب أكثر من مرة، ويصعب، على سبيل العناد، عن الإجابة على أسئلة مُلحَّة صمتًا كاملًا دون أن يَضطرب، وهو ما لا يستطيع الكبار فعله بحالٍ من الأحوال. وكان الأمر يلوح كأنما كان يرى أن السؤال من حقِّه هو وحده، وأن أسئلة الآخرين تكسر لائحةً ما وتضيع الوقت. وكان يستطيع عندما يسأله سائل أن يجلس مدة طويلة مُعتدل الجسم، منحني الرأس، مادًّا شفته السفلية. وكانت فريدا مسرورة من مسلكه هذا لدرجة أنها كانت تسأله المرة بعد المرة أسئلة لا ترجُو من ورائها إلا أن تجعله يصمت على هذا النحو. ولقد وُفِّقت إلى ذلك أحيانًا. ولكن ك كان مغتاظًا من هذا الصمت. ولم يخرج ك من كلام الصبي إلا بالقليل. عرف أن الأم كانت مريضة مرضًا هينًا، ولكنه لم يعرف بالتحديد مرضها، وأن الطفل الذي كانت السيدة برونسفيك تحمله على حجرها، كان أخت هانس، واسمها فريدا (ولم يتقبَّل هانس تشابه الاسم مع اسم المرأة التي تسأله إلا عابسًا)، وأنهم يسكنون في القرية جميعًا، ولكن ليس عند لازيمان، ولقد كانوا في ذلك اليوم يزورُونه ليستحمُّوا لديه؛ لأن لازيمان لديه حوض كبير يتمتع به الأولاد — ولم يكن هانس منهم — بالاستحمام والعبث فيه مُتعة خاصة. وتحدث هانس عن أبيه حديث الاحترام أو الخوف، ولكنه لم يكن يتحدث عنه وعن أمه في وقت واحد، ويبدو أن الأب كان قليل القيمة بالقياس إلى الأم، وظلت الأسئلة التي كانت تدور حول الحياة العائلية — على الرغم من الإلحاح والمعاودة — بلا إجابة. وعلم ك من أمر صناعة الأب أنه أكبر صانعِ أحذية في المنطقة، وأنه ليس هناك مَن يُضارعه، ولقد كرَّر هذا المعنى ردًّا على أسئلة كانت تستهدف أمورًا مختلفة تمامًا، وأنه يُكلف الصنَّاع الآخرين، والد برناباس مثلًا، بالأعمال، وهو عندما يكلف والد برناباس بالذات بعملٍ يتعطَّف عليه ويتكرَّم، وهذا ما ظهر على الأقل من حركة اعتزازٍ اصطنعها هانس برأسه، ودفعت فريدا إلى القفز إليه ومَنحِه قُبلةً. أما السؤال عما إذا كان قد دخل القصر، فقد أجاب عليه بعد تكراره مرات كثيرة قائلًا: لا.

وكذلك كانت الإجابة عندما سُئل عما إذا كانت أمُّه قد دخلت القصر. وأخيرًا تعب ك ولاح له هو كذلك أن السؤال لا يُفيد بشيء، وأحق الصبي في هذا، هذا إلى أن ك وجد أنه من المُخجل بعض الشيء أن يُحاول البحث في أسرار العائلة سالكًا طريقًا مُلتوية ومُستغلًّا براءة الصبي، وكان من المُخجل أشد الخجل أنه لم يَصِل عن هذه الطريق إلى معرفة شيء. فلما سأل ك الصبي في النهاية عن نوع المساعَدة التي يُريد هذا أن يقدمها إليه، لم يُدهش عندما سمعه يقول إنه يريد أن يساعده في إنجاز العمل هنا حتى لا يتشاجَر المعلِّم والمعلمة مع ك مرة أخرى. وأوضح ك لهانس أن هذه المساعدة لا فائدة منها؛ لأن المشاجرة من طبع المعلم ولن يستطيع أحد أن يتَّقيها مهما كان دقيقًا في عمله، والعمل في حدِّ ذاته ليس صعبًا، ولكنه تأخَّر فيه نتيجة لظروف طرأت اليوم مصادفةً، وك لا يتصرَّف حيال تشاجُر المعلم كما يتصرف التلاميذ نحوه، إنه يردُّه عنه ردًّا، ولا يهتم له، وهو يأمل أن يتمكن من تجنُّب المعلِّم تمام التجنب قريبًا جدًّا. ولما كانت المساعدة التي يعرضها هانس مساعدةً ضد المعلم فحسب، فإن ك يشكره عليها أحسن الشكر، ولهانس أن يَنصرف ويرجو ك ألا ينال هانس عقابًا. وعلى الرغم من أن ك لم يؤكد أن المساعدة الموجهة ضد المعلم هي المساعدة الوحيدة التي لا يريدها، بل نوَّه إلى ذلك تنويهًا عن غير عمد، تاركًا الباب مفتوحًا أمام مساعدة من نوع آخر؛ فقد فهمَ هانس ذلك أوضح الفهم، وسأله عما إذا كان يرجو مساعدة أخرى، مؤكدًا أنه يقدم المساعدة عن طيب خاطر، وأنه إن لم يستطع إليها سبيلًا، فسيرجو من أمه تقديمها، ولا شكَّ أنها ستوفَّق إلى ذلك. وذكر هانس أن أباه عندما يتعرَّض لمحنة يرجو مساعدة الأم. وأضاف أن أمه سألت مرة عن ك، وأنها لا تخرج من البيت، ولقد ذهبت آنذاك إلى لازيمان استثناءً. أما هانس فهو يذهب إلى هناك كثيرًا ليلعب مع أولاد لازيمان، ولقد سألَته أمه هل رأى موظَّف المساحة هناك مرة أخرى. ولما لم يكن من الخير إثارة الأم بغير جدوى، فهي تُعاني من الضعف والتعب؛ فقد قال لها إنه لم يرَ موظف المساحة هناك، ولم يَدُر حول هذا الموضوع حديث بعد ذلك. وقال هانس إنه عندما رآه هنا في المدرسة، وجد أنه ينبغي عليه أن يتحدَّث إليه حتى يُبلِّغ أمه الخبر، فليس هناك شيء أحب إلى الأم من أن تُنفَّذ رغباتُها دون أن تُصدر بها أمرًا صريحًا. وهنا قال ك، بعد قليل من التفكير، إنه لا يحتاج إلى أية مساعدة، وأنه قد حصل على كل ما يريد، وقال إنه جميل جدًّا من هانس أن يُفكر في مساعدته، وأنه يشكره على حُسن نيته، وأنه قد يحتاج في المستقبل إلى شيء، وفي هذه الحالة سيلجأ إليه، فالعنوان موجود لديه. وقال ك إنه هو، قد يستطيع أن يقدم شيئًا من المساعدة، فهو يأسف لتوعُّك الأم، ويبدو أنه ليس هنا من

يفهم العلة التي تعاني منها، وقد يؤدي إهمال الحالة إلى أن تجر العلَّة الطفيفة نكسة خطيرة. ولقد ألمَّ ك ببعض المعرفة الطبية، وجمع خبرة في معالجة المرضى، وهذا أعظم قيمة. ولقد نجح في أمور لم يُوفَّق فيها الأطباء. ولقد أطلق عليه الناس في موطنه اسم «العشب المر» تقديرًا لقُدرته على العلاج. وهو يودُّ على أيَّة حال أن يرى أم هانس وأن يتحدَّث إليها. فقد يستطيع أن يقدم إليها مشورة نافعة، وأنه ليفعل ذلك عن طيب خاطر من أجل هانس. ولمعت عينا هانس عندما سمع هذا العرض، ووجد ك في ذلك ما أغراه على الإلحاح، ولكن النتيجة لم تكن على هواه؛ لأنَّ هانس قال — مجيبًا على أسئلة كثيرة، ودون أن يبدو عليه حزن شديد — إنه غير مسموح بدخول زائر غريب على أمه، فهي في حاجة إلى الرعاية الشديدة. وعلى الرغم من أن ك، في تلك المرة، لم يَكَد يتحدَّث إليها، فقد اضطرَّت إلى ملازمة الفراش بعد ذلك عدة أيام، وهو شيء يتكرر كثيرًا بطبيعة الحال. ولقد غضب الوالد آنذاك من ك أشدَّ الغضب، وليس هناك شكٌّ في أنه لن يسمح أبدًا بأن يأتي ك إلى الأم. ولقد أراد آنذاك أن يَذهب إلى ك ليُعاقبه على مسلكه، وكانت الأمُّ هي التي ردَّته عن ذلك. وهذا إلى أن الأم ذاتها لا تُريد أن تتكلَّم مع أحد بصفة عامة، وليس سؤالها ن ك استثناءً من القاعدة، بل على العكس، فقد كان يُمكنها عند الإشارة إلى ك، أن تُعبِّر عن رغبتها في رؤيته، ولكنها لم تفعل، وكانت بذلك تُعبِّر عن عزمها تعبيرًا لا مراء فيه. هذا إلى أن ما تُعاني منه ليس مرضًا بمعنى الكلمة، فهي تعرف سبب الحالة، وتُشير إليه من حينٍ لآخَر: ويبدو أن السبب هو الجو هنا، إنها لا تستطيع احتماله. ولكنَّها لا تريد مغادرة المكان من أجل الوالد والأولاد، لقد تحسَّنت حالتها الآن عن ذي قبل. كان هذا هو ما توصَّل ك إليه، إن قدرة هانس على التفكير قد ازدادت زيادة واضحة؛ إذ أراد أن يحمي أمه من ك الذي ادَّعى أنه كان يريد مساعدته. لقد اضطرَّ استمساكًا منه بالهدف الطيب، هدف ردِّ ك عن أمه، إلى أن يناقض بعض ما كان قد قاله من قبل، على سبيل المثال موضوع مرض الأم. ومع ذلك فقد تبيَّن ك أن هانس ما زال حَسنَ النيَّة حياله، وإن كل ما حدث هو أن موضوع أمه أنساه كل الموضوعات الأخرى. ولقد كان هانس يظلم كل مَن يأتي ذِكرُه مع الأم، فظلَم ك، ولكنه كان سيفعل الشيء نفسه لو كان المذكور هو الأب. وأراد ك أن يُجرِّب ذِكر الأب، فقال إنَّ الوالد مُصيب كل الإصابة في حمايته الأم من كل إزعاج، وقال إنه، ك، لو توقَّع شيئًا من هذا القبيل لما تجرأ على التوجُّه إلى الأم، وأنه يرجو هانس أن يحمل اعتذاره إلى البيت. ثم قال إنه لا يفهم، وقد عرف سبب علَّة الأم على حد قول هانس، كيف يمنع الأبُ الأمَّ من أن تستجمَّ في جو آخر. وقال إنه لا بدَّ أن يستعمل كلمة يمنع؛ لأن

الأم لا تذهب لتغيير الجو، بسببه وبسبب الأولاد، وفي مقدورها أن تصطحب الأولاد معها، فلن تغيب طويلًا، ولن يكون بها حاجة إلى الابتعاد الشديد، فالجو على الجبل الذي يقوم عليه القصر مختلف كل الاختلاف. وما ينبغي أن يخشى الأب نفقات مثل هذه الرحلة، فهو أكبر صانعِ أحذية في المنطقة، ولا شكَّ أن له أو للأم أقاربَ أو معارفَ في القصر يُرحبون باستضافتها. فلماذا لا يتركها تذهب؟ لا ينبغي له أن يُهوِّن من أمر مثل هذه العلة. حقيقةً أن ك لم يرَ الأم إلا عابرًا ولكن شحوبها الظاهر وضَعفها المُلفت للنظر دفعاه إلى التوجه إليها بالحديث، ولقد اندهش في ذلك الوقت لأن الأب ترك المرأة المريضة في الجو الرديء بحُجرة الاستحمام والغسيل، ولم يأخُذ نفسه بشيء من التحفُّظ في الحديث بصوت مُرتفِع. ولعل الأب لا يعرف الأمر على حقيقته، ولعل العلَّة تكون قد تحسَّنت في الفترة الأخيرة، ومثل هذه العلة لها نزواتها، ولكنها تنتهي في النهاية، إذا لم يكافحها الإنسان، إلى الظهور على نحوٍ عنيف ولا يستطيع الإنسان في هذه الحالة مُعالجتها. وإذا لم يكن ك يستطيع ان يتكلَّم مع الأم، فربما كان من الخير أن يتحدَّث إلى الأب وأن يُنبِّهَهُ إلى هذا كلِّه.

واستمع هانس إلى ك مُرهِفًا سمعه، وفهمَ أغلب ما قاله، وأحس بتهديد البقية التي لم يفهمها، ومع ذلك فقد قال إنَّ ك لا يستطيع أن يتكلَّم مع الأب؛ لأن الأب يحسُّ حياله بالنفور، والأرجح أنه لو قابله فسوف يُعامله معاملة المعلم له. قال هانس هذا الكلام مُبتسمًا خجولًا في المواضع التي أشار فيها إلى ك، حزينًا مَقبوضًا في المواضع التي أشار فيها إلى أبيه. ثم أضاف أن ك ربما استطاع أن يتحدث إلى الأم، ولكن بدون علم الأب، ثم استغرق هانس برهةً في التفكير، على النحو الذي تستغرقه عليه في التفكير امرأة تريد أن تفعل شيئًا محرَّمًا، وتبحث عن إمكانية لفعله دون أن تتعرَّض للعقاب، وقال ربما تمكَّن ك من ذلك بعد غد؛ لأنَّ الأب يذهب في ذلك الوقت إلى حان السادة لمناقَشة بعض الأمور، وسيأتي هانس في المساء، ويأخذ ك إلى الأم، على شرط أن تُوافق الأم، وهذا شيء بعيد عن الاحتمال بُعدًا شديدًا. وهي لا تحب أن تفعل شيئًا ضد مشيئة الأب، وهي تطيعه في كل الأمور، حتى الأمور التي يتبيَّن هو، هانس، أنها منافية للعقل. لقد كان هانس في الواقع يَلتمس لدى ك عونًا على أبيه، وكأنما ضلَّ، عندما اعتقد أنه يُريد أن يُعين ك، وكان في الحقيقة يُريد أن يَسبر أغواره ليتبيَّن — بعد أن علم أنه ليس هناك من بين المُحيطين به مَن يستطيع مساعدته — ما إذا كان هذا الرجل الذي ظهر في المكان فجأة، هذا الغريب الذي أشارت الأم إليه، يستطيع أن يساعده. ما أعجب صموت ولؤم وخبث هذا الصبي عن غير إرادة! لم يكد يكون من الممكن حتى هذه اللحظة أن يستنتج الإنسان هذا من خلقه.

وما استطاع ك أن يتبيَّن هذا إلا مؤخرًا من خلال الاعترافات التي استخرجها منه مصادفةً وعمدًا. وأخذ هانس يُفكِّر طويلًا مع ك في الصعوبات وكيف يكون تجنُّبها. ولقد كانت تلك الصعوبات من المُحال التغلُّب عليها، مهما أبدى هانس من نيةٍ طيبة. وكان هانس لا يكفُّ عن النظر إلى ك، غارقًا في التفكير باحثًا عن العون، وكانت عيناه ترمش في قلقٍ. كان هانس يرى أنه لا ينبغي أن يذكر لأمِّه شيئًا قبل أن ينصرف الأب؛ أي إنه لن يذكر لها شيئًا إلا في وقت متأخِّر، ثم إنه لن يذكر لها الأمر فجأةً وبسرعة، مُراعاةً لحالتها، بل ببطء وعندما تسنح الفرصة المناسبة، ثم يلتمس موافقتها، فإن وافقت أتى ليحضر ك. ولكن ألن يتأخَّر الوقت؟ ألن يقترب موعد عودة الأب؟ لا، لقد كان الأمر محالًا. وأثبت ك لهانس أن الأمر ليس محالًا. وما ينبغي أن يخشوا ألا يكفي الوقت ففي الحديث القصير، والمقابلة القصيرة الكفاية. ولن يكون على هانس أن يأتي لاصطحاب ك، فسينتظر ك في مكانٍ ما غير بعيد ويتوارى فيه حتى يُشير إليه هانس إشارةً فيأتي من فوره. فقال هانس، لا، ليس لـ ك أن يختبئ عند البيت — لقد تملَّكته من جديد الحساسية حيال أمِّه — وليس له أن يقطع الطريق إلى البيت دون علم الأم، وما ينبغي لهانس أن يتَّفق مع ك على شيء لظل سرًّا خفيًّا على الأم. إنما هو سيأتي ليَصطحبه من المدرسة، ولن يحدث هذا قبل أن تعرف الأم وتوافق. وقال ك، حسنًا، ولكن الأمر سيكون خطيرًا، بالفعل، وسيكون من المُمكن أن يفاجئه الأب في البيت، وحتى إذا لم يحدث هذا، فإن الأم لن توافق على استحضار ك خوفًا من هذا، وبهذا سيفشل كل شيء بسبب الأب. وعارض هانس في هذا، واستمر الحوار على هذا النحو.

وكان ك منذ مدة طويلة قد استدعى هانس من المقعد إلى المنصة. وشدَّه إليه وأخذ يُداعبه من حين لآخر مُطيِّبًا خاطره. وساعد القُرب، على الرغم من مُعارضة هانس أحيانًا، إلى الوصول إلى اتِّفاق، واتَّفق الاثنان أخيرًا على ما يلي: سيقول هانس لأمه الحقيقة كاملةً، ويُضيف، بقصد تسهيلِه الحصول على مُوافقتها، أن ك يُريد أن يتحدَّث مع برونسفيك ذاته، في أمرٍ آخر غير أمرِ الأم، في أمرٍ من أمورِه هو. ولقد كان هذا صحيحًا كذلك؛ ذلك أن ك كان قد فكر أثناء الحديث في أن برونسفيك — وإن كان رجلًا خطيرًا شرِّيرًا — لا يُمكن أن يكون عدوًّا له، فهو، على ما ذَكر رئيس مجلس القرية، الذي تزعم — لأسباب سياسية طبعًا — أولئك الذين طالبوا باستدعاء موظَّف المساحة. ومعنى هذا أن قُدوم ك إلى القرية شيء مُستحب، ومعناه أيضًا أن التحية السخيفة التي قابَلَ بها ك في أول يوم، والنفور الذي تحدَّث هانس عنه، شيئان لا يكاد يُمكن فهمهما. وربما كان السبب في

غضب برونسفيك هو أن ك لم يتَّجه إليه أولًا طالبًا المساعدة، وربما كان هناك سوء فهمٍ آخر يُمكن تصحيحُه ببضع كلمات. وإذا ما تحقَّق هذا، فسيكون في استطاعة ك أن يجد في برونسفيك عونًا على المعلِّم، وربما عونًا على رئيس مجلس القرية، لكشف هذا الخداع الرُّوتيني — أما كان في الحقيقة كذلك؟ — الذي كان رئيس مجلس القرية والمعلِّم يتوسَّلان به لرده عن دواوين القصر وإجباره على العمل خادمًا للمدرسة. وإذا كان صراعٌ قد جرى أخيرًا بين رئيس مجلس القرية وبرونسفيك حول ك، فسيكون على برونسفيك أن يضمَّ ك إلى جانبه، وسينزل ك ضيفًا على برونسفيك في بيته. وسيجد مقومات سلطة برونسفيك تحت تصرُّفه كيدًا لرئيس مجلس القرية. ومَن يعلم إلى أيِّ حدٍّ سيَصل في أموره؟ ولسوف يقترب على أيَّة حال من المرأة كثيرًا. هكذا لعب بالأحلام ولعبت الأحلام به، بينما كان هانس غارقًا في التفكير في أمه، يتأمَّل صمت ك باهتمامٍ وقلقٍ، كما يتأمل الإنسان صمت الطبيب الذي يستغرق في التفكير ليَصل إلى علاج لحالةٍ صعبة. ووافَق هانس على اقتراح ك أن يتحدَّث إلى برونسفيك في أمر مساحة الأرض، ولم يُوافق هانس عليه، إلا أنه سيحمي الأم من الأب، ولأنه يختصُّ بحالة الضرورة القصوى التي كان يرجو لها ألا تطرأ. وسأل هانس ك كيف سيُبرر للأب حضوره في ساعة متأخرة، ورضي في النهاية — وإن اكتأب وجهُه — بأن يُبرِّره ك بقيامه بعمل لا قِبلَ له على احتماله في خدمة المدرسة، وبمعاناته لمعاملة من النوع نفسه من قِبل المعلِّم، ممَّا أدى به إلى يأسٍ مفاجئٍ أنساه إقامة اعتبار لأي شيء.

ولما تمَّ تدبير كل شيء على هذا النحو على قدر ما بدا لهما، وتبيَّنا أن إمكانية النجاح لم تَعُد على الأقل من قبيل المحال، تخلَّص هانس من عبء التفكير، وأبدى مزيدًا من البشاشة، وأخذ يُثرثر هنيهة على طريقة الأطفال، مع ك في بداية الأمر، ثم بعد ذلك مع فريدا التي جلست طويلًا هناك وبدَت كأنها انشغلت بأفكارٍ أخرى، ثم عادَت الآن لتُشارك في الحديث. وسألت فريدا هانس فيما سألته عما يريد أن يصير، فلم يُفكِّر كثيرًا وقال إنه يريد أن يصير رجلًا مثل ك. فلما سألتْه عن الأسباب، لم يستطع بطبيعة الحال أن يُجيب، وعندما سألته عما إذا كان يريد أن يصير خادمَ مدرسةٍ، نفى نفيًا قاطعًا. فلمَّا استمرت في الاستفهام والتقصِّي، تبيَّن الطريق المعوج الذي سلَكه للوصول إلى أمنيتِه. فلم يكن الوضع الحال لـ ك أهلًا للتمنِّي، بل كان وضعًا حزينًا ومقيتًا، ولقد رأى هانس هذا تمامًا، ولم يكن بحاجة إلى ملاحَظة الآخرين ليتبيَّنه. ولقد قال إنه يريد أن يَحمي الأم من كل نظرة ينظرها ك ومن كل كلمة يقولها. ولكنَّه مع ذلك أتى إلى ك والتمس مساعدته وسعد بموافقته، ولقد اعتقد أنه يستطيع أن يتبيَّن شيئًا مشابهًا لدى الآخرين، وكان هو الذي ذَكر أمه لـ ك. ولقد تولَّد لدَيه

من هذا التناقُض الاعتقاد بأنَّ ك الآن وضيع مُنفِّر، ولكنه سيتفوَّق على الآخرين جميعًا في مستقبل بعيد بُعدًا يكاد يستحيل تصوُّره. ولقد كان هذا البُعد السخيف، والتطور الممتاز الذي ينتظر أن يؤدِّي إليه يجتذبان هانس، وكان مُستعدًّا أن يَقبل ك في وضعه الحالي من أجلهما. وكان في أمنية هانس شيء صبياني خاص يصنع ذكاء الكبار ويتمثل في أنَّ هانس كان ينظر إلى ك نظرة الصغير إلى الكبير الذي يمتدُّ مستقبله امتدادًا أوسع من مستقبله هو وهو الصبي الغرير. ولقد كان هانس يتحدَّث عن هذه الأشياء بجدٍّ يوشك أن يكون كئيبًا عندما اضطرَّته فريدا إلى الحديث عنها اضطرارًا بأسئلتها المتكرِّرة. حتى أشاع ك البشاشة في نفسه عندما قال له أنه يعرف السبب الذي يحسُده من أجله هانس، إنه العصا الجميلة ذات العقد الموضوعة على المنضدة، والتي كان ك يعبث بها لاهيًا أثناء الحديث. وقال ك إنه يجيد صناعة هذه العِصي، وأنه سيَصنع لهانس عصًا أكثر جمالًا إذا نجَحَت خطتهما. ولم يتبيَّن بوضوحٍ تامٍّ هل كان هانس يعني العصا دون ما سواها فعلًا، ولقد فرح بوعد ك واستأذن باشًّا في الانصراف، ولم ينسَ أن يضغط يد ك بحرارة قائلًا: إلى بعد غدٍ إذن.

ولقد طال بقاء هانس طولًا ما كان ينبغي أن يتجاوَزه؛ ذلك أن المعلِّم فتح الباب عنوةً بعد قليل، وصرخ عندما رأى ك وفريدا يجلسان هادئَينِ إلى المائدة.

– معذرةً على الإزعاج! ولكن قولا لي متى تقومان بأعمال النظافة والترتيب؟ إننا نجلس في الفصل الآخَر مُتزاحِمين، والدرس يعاني من الازدحام، أما أنتما فتتمدَّدان هنا على راحتكما في حجرة الرياضة البدنية الكبيرة، ولقد أبعدتما المساعدينِ حتى يكون نصيبكما من المكان أكبر. فانهضا الآن وتحرَّكا.

ثم قال موجهًا الكلام إلى ك وحده: أمَّا أنت فاذهب وأحضر لي طعام الإفطار الآن من حان الجسر.

قال المعلم كل هذا الكلام صارخًا صراخًا عنيفًا، ولكن الكلمات كانت رقيقة نسبيًّا حتى عبارة «أمَّا أنت» وهي عبارة خشنة في حد ذاتها. وكان ك مُستعدًّا للطاعة على الفور. ولكنه أراد أن يسبر أغوار المعلم فقال: ولكنَّني مفصول.

فقال المعلم: مفصولٌ أو غير مفصولٍ، عليك أن تُحضر لي طعام الإفطار.

فقال ك: ولكنني أريد أن أعرف هل أنا مفصول أو غير مفصول.

فقال المعلم: ما هذا الهراء؟ إنك لم تَقبل الفصل.

فسأل ك: أيكفي هذا لإبطال مفعول الفصل؟

فقال المعلم: يكفيني أنا، وعليك أن تُصدِّقني في ذلك، ولكنه يكفي رئيس مجلس القرية، وهذا ما لا أستطيع فهمه. أسرِع الآن، وإلا طردتك بالفعل من هنا.

وارتاح ك نفسًا، لقد تحدَّث المعلم في هذه الأثناء إذن إلى رئيس مجلس القرية، أو لعله لم يتحدث إليه، بل تنبأ برأي رئيس مجلس القرية، وكان هذا الرأي في صالح ك. وأسرع ك ليحضر الإفطار، وما كاد يخطو بضع خطوات في الممر حتى نادى عليه المعلم أن يعود. ولعلَّ المعلم أراد أن يختبر استعداد ك للخدمة فأصدر إليه هذا الأمر الخاص، لينظم تصرفاته في المستقبل طبقًا لرد فعل ك، أو لعله أحس برغبة جديدة في الأمر والنهي ووجَد مُتعة في جعل ك يذهب مسرعًا ثم في جعله يدور عائدًا بسرعة أيضًا كخدم الحانات. وكان ك يعلم أنه عندما يُسرف في التهاون سيَتحوَّل إلى عبدٍ للمُعلم وإلى لعبة في يدَيه، ولكنه كان مُصممًا على قبول نزوات المعلم إلى الآن إلى حدٍّ ما صابرًا؛ ذلك أن المعلم الذي لم يستطع، كما تبيَّن، أن يفصله فصلًا قانونيًّا، يستطيع أن يُحيل الوظيفة بالنِّسبة إلى ك عذابًا لا يُطاق. ولقد أصبح ك يهتمُّ بهذه الوظيفة أكثر من ذي قبل؛ فقد أعطاه الحديث مع هانس آمالًا جديدة ... صحيح أنها آمالٌ واهية، وأنها تَفتقِر تمامًا إلى كل أساس، ولكنَّها آمال لم يعد من المُمكن نسيانها. إنها الآمال التي عقدها على برناباس. وإذا كان يريد السير وراءها، فليس أمامه من سبيل إلا تجميع قواه من أجلها، وعدم الاهتمام بشيء سواها، يستوي في ذلك الطعام والمسكن ودواوين القرية بل وفريدا ذاتها. والحقيقة أن فريدا كانت هي اهتمامه الوحيد، فلم تكن الأمور الأخرى تهمُّه إلا بالقياس إليها. ولهذا كان عليه أن يسعى للاحتفاظ بهذه الوظيفة التي كانت تمنَح فريدا بعض الأمن، ولم يكن ينبغي له — من أجل هذا الهدف — أن يندم على الرضوخ لتصرفات من المعلم أكثر مما كان ليقبل لو لم يكن يرمي إلى هذا الهدف. ولم يكن هذا كله يؤلمه ألمًا شديدًا، بل كان يَدخل في نطاق تلك الطائفة من الآلام التي يتعرَّض لها الإنسان في الحياة دائمًا، ولم يكن شيئًا مذكورًا بالقياس إلى ما كان ك يسعى إليه، وهو لم يأتِ إلى هنا إلا ليعيش حياة الكرامة والسلام.

ولهذا فقد كان مُستعدًّا لإطاعة الأمر الجديد — كما كان مُستعدًّا للإسراع إلى الحان — والاهتمام على الفور بتنظيم الحُجرة وترتيبها لتنتقل إليها المعلِّمة. وكان عليه أن يسرع حتى يذهب بعد ذلك لإحضار الإفطار، ولقد كان المعلم شديد الجوع والعطش. ووعده ك بأن يتمَّ كل شيء على ما يرام. ونظر المعلم لحظة إلى ك وهو يُسرع في العمل فيُنحِّي فراش النوم جانبًا، ويُرتب أجهزة الرياضة البدنية، ويكنس الفصل بسرعة كبيرة، بينما عكفت فريدا على مسح المنصة وتلميعها. ويبدو أن المعلِّم رضي على هذه الهمة، ونبَّه ك إلى كومة

من خشب التدفئة كانت أمام الباب — فلم يَعُد يُريد أن يسمح لـ ك بدخول المخزن — ثم ذهب إلى التلاميذ بعد أن هدَّد ك بأنه سيعود مرةً أخرى ليرى ما تمَّ.

وسألت فريدا ك، بعد بُرهة من العمل الصامت، لماذا يُطيع المعلِّم الآن هذه الطاعة الشديدة. كان سؤالها سؤالًا مفعمًا بالعطف والمُواساة، ولكن ك، وقد فكَّر في أن فريدا لم تُوفق إلا أقل التوفيق في الوفاء بما وعدته به من حمايته من أوامر المعلِّم وفظاعاته، قال باختصار إنه الآن قد أصبح خادم مدرسةٍ وعليه أن يؤدي الأعمال المُناطة به. ثم عاد السكون إلى المكان من جديد، إلى أن سألها ك — وقد تذكر من حديثها القصير الآن إليه أنها ظلَّت أثناء حديثه مع هانس تسبح في خضمِّ أفكار مقلقة — عما يشغل بالها، وكان هو يحمل الخشب إلى المدفأة. وأجابت ببطء وهي ترفع بصرها إليه، بأن بالها ليس مشغولًا بشيء معين، إنما هي تفكر في صاحبة الحان وفي صدق بعض كلامها. فلما ألحَّ عليها أجابت، بعد كثير من التمنع والرفض، بإسهاب، وبدون أن تنصرف عن عملها، ولم تكن تتصرَّف على هذا النحو عن نشاط وهمة — فما كان عملها يتقدم على الإطلاق، بل كانت تتصرَّف على هذا النحو حتى لا تضطرَّ إلى النظر إلى ك ... وحكَت فريدا كيف أنها أنصتَت في البداية هادئة إلى حديث ك مع هانس، وكيف أن بعض كلمات ك أفزعتها فبدأت تجتهد في الإحاطة بمعنى الكلمات على نحو أكثر وضوحًا، وكيف أنها لم تَعُد تستطيع أن تتبيَّن في كلمات ك مصداقًا لتحذير يرجع الفضل فيه إلى صاحبة الحان، تحذيرًا لم تكن تصدق أنه يُمكن أن يتحقَّق. واغتاظ ك من عباراتها العامة، لم يستعطِفه صوتها الشاكي المختنق بالدموع، بل استفزه — وكان السبب الأول هو أن صاحبة الحان عادَت تتدخل في حياته، على الأقل عن طريق الذكريات بعد أن فشلت في التدخل شخصيًّا — وألقى الخشب الذي كان يحمله إلى الأرض وقعَد فوقه وطالبها بكلمات جادة غاية الجد أن تُوضِّح له الأمر غاية الوضوح. وبدأت فريدا تقول: لقد بذلت صاحبة الحان جهودها مرارًا، وبخاصة في البداية لتحملَني على الشك فيك، ولم تكن تدَّعي أنك تكذب، بل كانت، على العكس، تقول، إنك صريح صراحة صبيانية، ولكن خلقك يَختلِف عن خلقنا، حتى إننا عندما تتكلَّم بصراحة، لا نستطيع إلا بصعوبة أن نحمل أنفسنا على تصديقك، ولو لم تكن الصديقة الطيبة قد أنقَذَتنا من قبل، لما كنا سنتعوَّد على تصديقِك إلا بعد الخبرة المريرة. وحتى هي، التي تمتاز بنظرة حادَّة تُبصِّر الناس بها، لم يكَد يختلف ما جرى عليها عن هذا الذي جرى علينا. ولكنَّها بعد حديثها الأخير معك في حان الجسر تبيَّنَت — وأنا أعيد كلماتها القبيحة — ألاعيبك ولن تستطيع بعد الآن أن تخدعها، مهما اجتهدتَ في إخفاء نواياك. ولكنَّك لا تخفي

شيئًا، كما قالت مرارًا، ولقد قالت كذلك: اجتهدي في أيَّة مناسبة تختارينها في الإنصات إليه فعلًا، إنصاتًا غير سطحي، إنصاتًا فعليًّا. وهي لم تفعل أكثر من هذا، وهكذا تبيَّنَت بخصوصي ما يلي: إنك ارتمَيت عليَّ — ولقد استعملت هي هذه الكلمة المقيتة — لا لسبب إلا لأنَّني عرضت لك في طريقك، ولم أبدُ في نظرك قبيحة، ولأنك تعتبر كل خادمة تعمل في الحان — على خطأ شديد — الضحية الموسومة لكلِّ عميلٍ يَبسُط يده. ثم إنك — كما علمَت صاحبة الحان من صاحب حان السادة — كنتَ لسببٍ ما تُريد أن تقضي الليلة في حان السادة، ولم يكن هناك وسيلة لبلوغ هذا الهدف إلا عن طريقي. كل هذا كان يكفي سببًا لتُمثل عليَّ لليلة واحدة دور العاشق، فلما أردت المزيد، كان عليك أن تسعى إلى المزيد، وكان هذا المزيد هو كلم. وصاحبة الحان لا تدَّعي أنها تعرف ماذا تريد من كلم، ولكنَّها تدعي فقط أنك كنت قبل أن تَعرفني تسعى إلى كلم بنفس العنف الذي سعيت به إليه بعد ذلك. وليس هناك غير فرق واحد، هو أنك كنت من قبل يائسًا، أما الآن فأنت تعتقد أنك تجد فيَّ وسيلة أكيدة تستعين بها فعليًّا وسريعًا للتقدُّم إلى كلم والتقدم إليه على نحو يتميَّز بالتفوق. ولقد فزعتُ فزعًا شديدًا — ولكنه كان فزعًا عابرًا في بداية الأمر وبلا سبب عميق — عندما قلت اليوم إنك كنتَ هنا ضالًّا قبل أن تعرفني. لعلَّ هذه هي نفس الكلمات التي استعملتها صاحبة الحان، لقد قالت هي أيضًا أنك لم تُصبح واعيًا بهدفك إلا بعد أن عرفتني. ليس هناك من سبب لذلك إلا أنك اعتقدتَ أنك استوليتَ في شخصي على عشيقة كلم، وأنك أصبحت في حيازة رهن لن تدعَه إلا لقاء ثمنٍ باهظ، وأنك لا تسعى إلا إلى هدف واحد، هو مُفاوضة كلم في أمر هذا الثمن. ونظرًا لأنك لا تهتم بي أقل الاهتمام، وتهتم بالثمن الاهتمام كله، فإنك مُستعدٌّ لقبول أيِّ اتفاق بشأني، وأنت عنيد فيما يتَّصل بالثمن. ولهذا فأنت لا تهتم بفقداني الوظيفة التي كنتُ أشغلها في حان السادة، وباضطراري مبارحة حان الجسر، واضطراري القيام بالعمل الشاق في خدمة المدرسة. وأنت لا تُبدي شيئًا من الحنان، بل ليس لديك وقت لي، وأنت تتركني للمساعدَين، ولا تعرف الغيرة عليَّ، فليس لي من قيمة في نظرك سوى أنني كنتُ عشيقة كلم، وأنت في جهلك لا تسعى إلى جعلي أنسى كلم، حتى لا أعارض في النهاية معارضةً شديدة عندما تأتي اللحظة الحاسمة. ثم إنك تُحارب صاحبة الحان لأنك تظن أنها الوحيدة التي تستطيع أن تَنتزعك مني، ولهذا فأنت تُبالغ في مصادمتها حتى ينتهي الأمر أن تضطرَّ إلى مغادرة حان الجسر معي. وأنت لا تشكُّ في أنني، على قدر طاقتي وفي كل الظروف، ملك لك. وأنت تتصوَّر مُفاوضتك لكلم على أنها صفقة يجري فيها تبادُل مالٍ لقاء مالٍ. وأنت تعمل حساب كل الإمكانيات، وأنت

مستعدٌّ — ما دمتَ ستَنال الثمن — لأن تفعل أي شيء، فإذا ما أرادني كلم، فستُعطيني له، وإذا أراد أن تبقى معي، فستبقى عندي، وإذا أراد أن تنبذني، فستَنبذني، ولكنك مُستعدٌّ كذلك للتمثيل، فإذا وجدت في حبِّي نفعًا، فستتظاهر بأنك تحبني. وأنت تحاول أن تتغلَّب على عدم اكتراثه، بإبراز دناءتك، أو بأن تنقل إليه أسراري الغرامية معه والتي تُمثِّل وقائع حدثت بالفعل، وترجوه أن يُعيدني إليه لقاء دفع الأجر بطبيعة الحال. وإذا لم تُفلح هذه الوسائل كلها فستتسوَّل عنده باسم الزوجين ك. ولكنك — وهذه هي النتيجة التي انتهت إليها صاحبة الحان — ستتبيَّن أنك كنت واهمًا في كل أمر من الأمور، في اعتقاداتك وآمالك، وفي تصوُّرك لكلم وفي علاقاته بي، وعند ذاك سيبدأ الجحيم بالنسبة إليَّ، فسأصبح بالفعل الشيء الوحيد الذي ظلَّ ملكًا لك، وستظل معتمدًا عليه، ولكنَّني سأكون في الوقت نفسه شيئًا تأكَّد لك أنه عديم القيمة، وأصبحت تعامله على هذا الأساس؛ لأنك لا تحسُّ نحوي بإحساسٍ آخر سوى إحساس المالك.

وأنصت ك إليها في شغف، زامًّا فمَه، ولقد تدحرج الخشب من تحته وأوشك هو أن ينزلق على الأرض، ولكنه لم يحفل بذلك. وفي هذه اللحظة نهض واقفًا، وجلس على المنصة، وأمسك يدَ فريدا التي حاولت في ضعف أن تسحبها منه، وقال: إنَّني لم أستطع أن أفرِّق في حديثك دائمًا بين رأيك ورأي صاحبة الحان.

فقالت فريدا: لم يكن سوى رأي صاحبة الحان. ولقد أصغيت إلى كلامها كله لأنَّني أجلُّها، ولقد كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أرفض فيها رأيها كل الرفض. فقد بدا لي كل ما قالته سخيفًا بعيدًا عن كل فهمٍ لما يتَّصل بيني وبينك. بل لقد بدا لي الصواب في عكس ما قالته تمامًا. وفكَّرتُ في الصباح المعتم الذي تلا ليلتنا الأولى وكيف ركعت بجواري وأنت تنظُر إليَّ نظرةَ مَن ضاع منه كل شيء، وكيف حدث بعد ذلك فعلًا أنني — مهما اجتهدت — لم أعنك، بل عرقلتك. لقد أصبحَت صاحبة الحان بسببي عدوَّتك. وإنها عداوة قوية ما زلت تستهين بها. لقد اضطُررت بسببي — فقد كنت مهتمًّا بي أشد الاهتمام — إلى أن تُناضل من أجل مكانك، وكنت ضعيفًا حيال رئيس مجلس القرية، ثم أصبح عليك أن تخضَع للمُعلِّم، وأن تظلَّ تحت رحمة المساعدَين، أما أقبح شيء فهو أنك ربما أذنبتَ في حقِّ كلم بسببي. وإنك تُحاول الآن بلا هوادة أن تصل إلى كلم، وليس هذا سوى مسعى واهن لتُصالحه على نحوٍ ما. وكنت أنا أقول لنفسي إن صاحبة الحان التي تعرف بكل تأكيد كل هذا أفضل مني بكثيرٍ تُريد بهمساتها أن تقيني من الندم الفظيع. وإن هذا السعي من جانبها لجهد طيِّب ولكنه بغير طائل. فإن حبِّي لك قادر على أن يُعينك على التغلب على كل

شيء، قادر على دفعك إلى الأمام إن لم يكن في القرية هنا، ففي أيِّ مكان آخر. ولقد برهَن حبِّي على قوَّته عندما أنقذك من أسرة برناباس.

فقال ك: كان هذا إذن رأيك المُعارض لرأي صاحبة الحان. فماذا تغيَّر منه منذ ذلك الحين؟

فقالت فريدا وهي تنظر إلى يد ك التي كان يمسك بها يدها: لا أعرف. ربما لم يتغير شيء. إنك عندما تكون هكذا قريبًا مني وتسألني بهدوء، فإنني أعتقد أنه لم يتغيَّر شيء. والحقيقة …

وسحبَت يدَها من يد ك، وجلست أمامه مُعتدلة تبكي دون أن تُغطِّي وجهها، بل كانت تعرض له وجهها المبلَّل بالدموع مجردًا وكأنها لم تكن تَبكي على نفسها ولم يكن لدَيها ما تُخفيه، بل تبكي من خيانة ك، ولهذا فهو يستحق بُؤس منظرها: والحقيقة أن كل شيء قد تغيَّر منذ سمعتك تتكلَّم مع الصبي. لقد بدأت كلامك معه على نحو بريء كل البراءة، وسألته عن الأحوال في البيت وعن هذا وذاك. لقد تصوَّرتك وكأنك تدخل قاعة الحانة كريمًا، صريحًا، تبحث عن نظرتي بهمَّة وسَذاجة الصبية. لم يكن هناك فرْق بينك في هذه الحال وبينك آنَذاك، وكنت أتمنى شيئًا واحدًا، كنتُ أتمنَّى لو كانت صاحبة الحان هنا، لتصغيَ إليك ولتُحاول أن تبقى على رأيها. ثم لاحظت فجأة، ولا أعرف كيف حدث هذا، لاحظت النية التي كانت تخالجك وأنت تتكلَّم مع الصبي. لقد اكتسبت بكلماتك الحنونة ثقتَه التي لم يكن من السهل اكتسابها، لكي تندفع مباشرةً إلى هدفك الذي أخذت أتبيَّنه بوضوح مُتزايد. كان هدفك هو المرأة. وكان كلامك الذي تظاهر بالخوف عليها يكشف بوضوح تامٍّ اهتمامَك بمصالحك دون ما سواها. لقد خنتَ المرأة قبل أن تنالها. لقد رأيتُ في كلماتك ماضيَّ، بل ومستقبلي كذلك. وتصوَّرت كأن صاحبة الحان تجلس بجواري وتشرح لي الأمور كلها، وأنا أحاول بكل جهدي أن أصدَّها، وأتبيَّن أن مثل هذا الجهد لا يجدي نفعًا — ولم أكُن أنا في تلك الحال المرأة التي خُدعت، فأنت لم تخدعني حتى الآن، بل كانت المرأة الغريبة هي التي خدعت. فلما تمالكت نفسي وسألت هانس عما يُريد أن يكون، وقال إنه يريد أن يكون مثلك؛ أي إنه كان في حوزتك تمامًا، لم أجد فرقًا كبيرًا بين الصبي الطيب الذي يُغرر به هنا، وبيني آنذاك في قاعة الحان.

فقال ك وقد تمالك نفسَه نتيجةً لتعوُّده على اللوم: إنَّ كل ما تقولين صحيح على نحوٍ ما. وهو ليس مُنافيًا للصدق، ولكنه عدائي. إنها أفكار صاحبة الحان، عدوَّتي، حتى إذا ظننت أنها أفكارك أنت، وهذا ممَّا يُواسيني. ولكنها أفكار مُفيدة، ففي إمكان الإنسان أن

يتعلَّم من صاحبة الحان بعض الأشياء. وهي لم تَقُل لي هذا الكلام بنفسها على الرغم من أنها لم تَحرص على التخفيف عني، ويبدو أنها أسرَّت إليك بهذا السلاح لتستخدميه في ساعة تكون قبيحة بالنسبة إليَّ غاية القُبح حاسمة غاية الحسم. وإذا كنت أنا أستغلُّك، فهي تستغلُّك على نحو مُشابه. ولكن فكري يا فريدا: إنه حتى إذا كانت كل الأمور كما قالت لك صاحبة الحان تمامًا، فإنها لا تكون مؤسفة أشد الأسف إلا في حالة واحدة؛ إن لم تكوني تُحبيني. في هذه الحالة، وفي هذه الحالة فقط، أكون قد نلتك بتدبير ولؤم لأستغلك استغلال المرابي. وربما كان من خطَّتي في ذلك الوقت أن أثير شفقتَكِ عليَّ بأن أسير مع أولجا أمامك وأنا أتأبَّط ذراعها، ولكن صاحبة الحان نسيَت أن تُضيف هذا إلى قائمة آثامي. أما إذا لم تكن الحال قبيحة، ولم يكن هناك حيوان مُفترس لئيم قد جذبك إليه، بل كنت أنت قد مِلتِ إليَّ كما مِلتُ أنا إليك، والتقَينا معًا، وكل منا ينسى ذاته، فماذا يكون الأمر تكلَّمي يا فريدا؟ إذن فأنا أُسيِّر أمري كأمرك، فليس هنا خلاف، إنما هنا عداوة. وهذا الكلام ينطبق على كل الأحوال، ويَنطبق كذلك على هانس. وأنت في حكمك على حديثي مع هانس تُبالغين مُبالغة شديدة منساقة مع عاطفتك. فإذا لم تكن أهداف هانس وأهدافي واحدة، فالأمر لا يصلُ إلى حدِّ القول بأن هناك تعارضًا بينها، هذا إلى أن هانس لم يَغفل عن خلافنا، وإذا صدقتك في هذا، فإنك تنتقصين من قيمة هذا الرجل الصغير الحريص، وحتى لو فرض أنه غفل عن كل شيء، فلن ينجم عن هذا ضرٌّ يمسُّ إنسانًا، وهذا هو ما أرجوه.

وقالت فريدا وهي تُطلق زفرة: إنه من الصعب على الإنسان، يا ك، أن يجد طريقه! وأنا، بكلِّ تأكيد، لم أحسَّ حيالك بالريبة، وإذا كان شيء من الريبة قد انتقل إليَّ من صاحبة الحان، فإنني أنبذه وأنا سعيدة وأرجوك المغفرة وأنا راكعة على ركبتي، وهذا هو في الحقيقة ما أفعله طوال الوقت، مهما قلتُ من أشياء قبيحة. والحقيقة رغم هذا كله هي أنك تخفي عني الكثير، إنك تأتي وتذهب، وأنا لا أعلم من أين ولا إلى أين. بل إنك، عندما دقَّ هانس الباب، ناديت اسم برناباس. فإذا لم تكن تثق فيَّ، فكيف يمكن ألا يتولد الشك في نفسي وإنني في هذه الحالة أركن إلى صاحبة الحان كليةً، وإن مسلَكَك ليبدو وكأنه يُؤكِّد ما تذهب إليه. ألم تطرد المساعدَينِ بسببي؟ ليتك تعرف مدى حاجتي إلى أن أجد في كل ما تقوله وتفعله بذرة صالحة بالنسبة إليَّ.

فقال ك: إنني أولًا وقبل كل شيء آخر يا فريدا لا أُخفي عليك أقل شيء. ولكن ما أشدَّ كره صاحبة الحان لي! وما أشد ما تبذل من جهد لتنتزعك مني! وما أقبح الوسائل التي تتوسل بها! وما أغرب استسلامك لها، يا فريدا! ما أغرب استسلامك لها! ولكن قولي لي

كيف أُخفي عليك شيئًا؟ إنك تعرفين أنني أريد أن أصل إلى كلم، وتعرفين أنك لا تستطيعين مُعاونتي على ذلك وأنني لا بد أن أُعوِّل على نفسي، وأنت ترين بنفسك أنني لم أتمكَّن من شيء إلى الآن. أم هل ينبغي عليَّ أن أحكي لك المحاولات الفاشلة التي أذلتني في الواقع أشدَّ الإذلال، حتى أذوق الذلَّ مرتَين؟ هل ينبغي أن أتفاخَر بأنني انتظرت على باب زحافة كلم أمسية كاملة أرتعش من البرد ولا أفيد شيئًا؟ إنني أهرع إليك، سعيدًا بأنني لن أضطرَّ إلى التفكير في هذه الأمور، فإذا بي ألقى كل هذا منك، ألقاه يَنطلِق نحوي بالتهديد. أما أمر برناباس، فأنا لا أخفي عليك أنني أنتظره. فهو ساعي كلم. لستُ أنا الذي جعلته ساعيًا لكلم.

وصاحت فريدا: ها أنت ذا تعود إلى ذِكر برناباس. إنني لا أستطيع أن أُصدِّق أنه ساعٍ بمعنى الكلمة.

فقال ك: قد تكونين على حقٍّ. ولكنه الساعي الوحيد الذي أرسل إليَّ.

فقالت فريدا: هذا مما يَزيد في سُوئه. وهذا مما يفرض عليك أن تزيد في حرصك منه.

فقال ك مبتسمًا: إنه للأسف لم يُعطني فرصة لذلك. إنه يأتي نادرًا، ولا يَحمل إليَّ إلا أمورًا لا قيمة لها. وليست له من قيمة إلا أنه يأتي من عند كلم مباشرةً.

فقالت فريدا: ولكن هذا يعني أن كلم لم يَعُد هدفك، ولعلَّ هذا هو ما يقلقني أشد القلق. لقد حاولت على الدوام أن تَندفِع إلى كلم مُتجنبًا إيَّاي، وكان هذا قبيحًا، وها أنت ذا تَنصرِف على ما يبدو عن كلم، وهذا أقبح بكثير، إنَّ هذا شيء لم تتوقَّعه حتى صاحبة الحان ذاتها، لقد انتهَت سعادتي، على رأي صاحبة الحان، ولقد كانت سعادةً واهيةً ولكنَّها كانت حقيقية، انتهَت سعادتي منذ اليوم الذي توصَّلت فيه نهائيًّا إلى أن أملك في كلم أملًا لا طائل وراءه. إنك لم تَعُد تأمُل في هذا اليوم. لقد دخل عليك صبيٌّ فجأة، فبدأت تُصارعه من أجل الحصول على أمِّه، كما تصارع من أجل الحصول على الهواء الذي تتنفَّسه.

– لقد أصبتُ في فهمِك حديثي مع هانس. لقد كان الأمر فعلًا على ما ذكرت. ولكن هل تداعَت حياتك الماضية كلها بالنسبة إليك (باستثناء صاحبة الحان بطبيعة الحال، التي لا يُمكن أن تكون ضمن ما يتداعى) حتى لم يَعُد في إمكانك أن تَعرفي كيف ينبغي على الإنسان أن يُناضل في سبيل التقدم وبخاصة عندما يكون الإنسان من الطبقة الدنيا؟ كيف ينبغي على الإنسان أن يستخدم كل ما يحمل بارقة أمل؟ وهذه المرأة من القصر، لقد قالت لي هي نفسها ذلك، عندما ضلَّت الطريق في أول يوم ذهبَت إلى لازيمان. ليس هناك شيء يخطر بالبال أقرب من التماس النصيحة لديها أو حتى العون. وإذا كانت صاحبة الحان

تعرف بدقة دقيقة كل العقبات التي تحول بين المرء وبين كلم، فلعلَّ هذه المرأة تعرف الطريق، فهي قد سلكَتْه عند نزولها.

وسألت فريدا: الطريق إلى كلم؟

فقال ك: إلى كلم، بكل تأكيد، إلى مَن غيره.

وهبَّ ك واقفًا وقال: لا يُمكن أن أتأخَّر أكثر من هذا عن إحضار طعام الإفطار.

وألحَّت عليه أن يتجاوَز هذا السبب ويبقى وكأنما كان بقاؤه هو الذي سيُؤكِّد كل ما قد قاله لها مُواسيًا. ولكن ك ذكَّرها بالمعلِّم، وأشار إلى الباب الذي يمكن أن ينفتح بين لحظة وأخرى عن هديرٍ كهدير الرعد، ووعدَها بأن يُعجل بالعودة، وبأنه سيقوم بكل الأعمال، حتى التدفئة سيتولى أمرها. وأخيرًا رضيت فريدا وصمتَت.

وعندما سار ك في الخارج يدقُّ الجليد بقدميه — وكان ينبغي عليه أن يكون قد فرغ من إخلاء الطريق من الجليد. ما أعجب البطء الذي اعترى العمل! رأى أحد المساعدَين يمسك بالسور الحديدي وقد أشرف على الموت من فرط التعب. إنه واحد! فأين الآخر؟ هل يا ترى قد تمكَّن ك من تحطيم صمود أحدهما على الأقل؟ أما هذا الذي بقيَ فقد كان بطبيعة الحال شديد الدأب لا يرجع عن الأمر، ولقد ظهر هذا واضحًا، عندما عاد إلى النشاط على أثر رؤيته ك، وعاود مدَّ ذراعيه وتحريك عينيه متوسلًا على نحوٍ أكثر عنفًا.

وقال ك في نفسه: إنَّ صموده لصمودٌ نموذجي!

ولكنه اضطرَّ إلى أن يضيف:

ولكنه صمود يُؤدي بالإنسان إلى التجمُّد على السور.

ولم يفعل ك شيئًا ظاهريًّا سوى التهديد بقبضتِه فاستحال على المساعد أن يقترب، بل تراجع مسافة غير قصيرة إلى الوراء خائفًا. وفي تلك اللحظة فتحت فريدا شباكًا لكي تجدِّد هواء الحجرة قبل التدفئة على نحو ما تفاهمت مع ك. فانصرف المساعد عن ك وتسلَّل إلى النافذة منجذبًا إليها انجذابًا لا طاقة له على معارضته. ولوَّحت فريدا بيدها قليلًا من الشباك — وكان وجهُها مضطربًا في تعبيره بين الودِّ حيال المساعد والحيرة المختلطة بالتوسُّل حيال ك — ولم يكن ظاهرًا هل كانت حركة يدها تعني الصد أو التحية، ولكن المساعد لم يتردَّد في التقدم نحوها والاقتراب منها. وهنا أقفلت فريدا الشباك الخارجي بسرعة ولكنها بقيت خلفه، واضعة يدها على المقبض، وقد مالت برأسها إلى جانب، وفتحت عينيها على سعتهما واصطنَعت ابتسامة جامدة. هل كانت تعلم أنها كانت بذلك تجتذب المساعد أكثر مما تردعه؟ ولم يَعُد ك ينظر إلى الخلف، فقد كان يفضِّل أن يسرع على أشد ما يستطيع ليعود في أقرب وقتٍ.

الفصل الرابع عشر

وأخيرًا — وكان الظلام قد أخذ يُطبِق على الدنيا وكان الوقت قد تجاوز العصر بكثير — وأفسح ك الطريق، وكوَّم الثلوج على الجانبَين وكدَّسها، وفرغ من عمل اليوم. ووقف عند بوابة الحديقة وحيدًا في دائرة واسعة لا يشاركه فيها آخَر. وكان منذ بضع ساعات قد طرد المُساعد، ولاحَقَه لمسافة طويلة من الطريق، فاختفى المساعد في مكانٍ ما بين الحدائق الصغيرة والأكواخ، ولم يَعُد من الممكن العثور عليه ولم يظهر بعد ذلك مرة أخرى. أما فريدا فكانت في البيت وكانت مشغولة إما بغسيل الملابس أو بحمَّام قطة جيزا. ولقد كان من آيات الثقة العظيمة التي أبدتها جيزا أن كلفت فريدا بهذا العمل الذي لم يكن في الحقيقة عملًا لائقًا محببًا إلى النفس، وما كان ك بكل تأكيد ليقبله، لو لم تكن الكياسة تفرض عليه، بعد إخلاله المتكرر بالعمل، أن ينتهز كل فرصة لُيقدم إلى جيزا من الخدمات ما يجعلها ممتنَّة له. ولقد نظرت جيزا بعين الرضا إلى ك وهو يُحضِّر حوض استحمام الأطفال الصغير من فوق السطح، ويُعدُّ الماء الدافئ ويضع القطة في الحوض باحتراس شديد. ثم تركت جيزا القطة لفريدا لتتولى أمرها كليةً؛ لأن شفارتسر، الذي تعرَّف به ك في أمسيته الأولى بالقرية، كان قد أتى، وحيَّا ك بخليط من الخجل الذي قام أساسه في تلك الأمسية، ومن التحقير الشديد الذي يليق بخادم مدرسة، ثم ذهب مع جيزا إلى الفصل الآخر. وظلَّ الاثنان هناك معًا. وكان ك قد علم من حان الجسر أن شفارتسر، وهو ابن أحد مديري القلعة، يعيش في القرية منذ وقت طويل حبًّا في جيزا، وتوصَّل بفضل علاقاته إلى جعل مجلس القرية يُعينه مساعدَ معلِّم في المدرسة، ولم يكن يُمارس هذه الوظيفة أساسًا إلا بحضوره حصص جيزا كلها، جالسًا على مقعد مع التلاميذ أو جالسًا إلى قدمَيْ جيزا على قاعدة المنصة، وهو ما كان يُفضِّله. ولم يكن تصرُّفه هذا يُسبب إزعاجًا، فقد تعود التلاميذ ميلًا أو تفهمًا، فلم يكن يتكلَّم معهم إلا نادرًا، ولم يحمل عن جيزا سوى دروس

الرياضة البدنية، وكان يَنعم بالرضا إذ يعيش في قرب جيزا وفي جوها ودفئها. وكانت أعظم مُتعة لديه هي الجلوس بجوار جيزا وتصحيح الكراسات. ولقد كانا اليوم كذلك مشغولَين بتصحيح الكراسات؛ فقد أحضر شفارتسر معه كمية كبيرة من الكراسات، وكان المعلم يُعطيها كذلك كراساته، وكان ك يرى الاثنين — طالما كان النهار طالعًا — جالسَين إلى منضدة صغيرة عند النافذة عاكفين على العمل، رأسًا إلى رأس، لا يتحرَّكان. أما الآن فلم يعد يرى هناك سوى شمعتَين ترتعشان. لقد كان حبهما حبًّا جادًّا صامتًا، وكانت جيزا هي التي جعلته كذلك، فقد كان طبعها البليد يتحول إلى العنف أحيانًا ويتجاوز الحدود ولكنه لم يكن يقبل مثل ذلك من الآخرين في وقتٍ آخر مطلقًا. وهكذا تحتم على شفارتسر العنيف أن ينصاع لها، وأن يسير ببطء، ويتكلَّم ببطء، ويصمت كثيرًا. ولكنه كان ينال — على ما كان الإنسان يرى — لقاء هذا كله الجزاء الأوفى مُتمثلًا في وجود جيزا وسكونها بجواره. وربما لم تكن جيزا تحبه مطلقًا. ولم تكن عيناها المستديرتان الرماديتان اللتان لا ترمشان بحال من الأحوال وتبدوان كأنهما لا تدوران إلا حول الحدقتين، تعطيان إجابة على مثل هذه التساؤلات. لم يكن الناس يرَون إلا أنها تصبر على شفارتسر دون ما اعتراض، ولكنها لم تكن على وجه التأكيد تعرف كيف تُقدر شرف حب أحد أبناء مديري القصر لها، وكانت تحرك جسدها المُمتلئ اليانع هادئةً لا تُغير منه شيئًا، سواء تبعتها نظرات شفارتسر أو لم تتبعها. أما شفارتسر فكان على العكس يُقدم لها بلا انقطاع تضحية تتمثَّل في بقائه في القرية، وكان يرد الرسل الذين يُرسلُهم أبوه لإحضاره ويُغلظ لهم وكأنما كان ما يتسبَّبون له فيه من تذكير قصير بالقصر وبواجب الابن حيال أبيه إقلاقًا شديدًا لسعادته لا سبيل إلى علاجه. ومع ذلك فقد كان لديه من الفراغ الشيء الكثير؛ لأن جيزا لم تكن تعرض له عادةً إلا في ساعات التدريس وتصحيح الكراسات، ولم تكن تفعل ذلك عن تدبير، بل لأنها كانت تحبُّ الراحة وتحب لذلك الوحدة فوق كل شيء، وكانت تحسُّ بالسعادة أعظم السعادة عندما تتمكن من الاضطجاع على الأريكة في البيت بكل حرية، وبجوارها القطة التي لم تكن تُزعجها لأنها لم تكن تكاد تستطيع الحركة. وهكذا كان شفارتسر يهيم على وجهه فترة طويلة من النهار بلا عمل، ولكنه كان يحب ذلك حبًّا لا شكَّ فيه؛ لأنه كان يجد فرصة كثيرًا ما استغلها، فرصة الذهاب إلى حارة السبع حيث كانت جيزا تُقيم، وصعود الدرج إلى حجرتها الصغيرة فوق السطح والتسمُّع على الباب المقفل الذي لم يكن ينفتح مطلقًا، ثم الانصراف على عجلٍ بعد التأكد من أن الحجرة غارقة في السكون الكامل المبهم الذي لم يفارقها مرةً واحدة ولا على سبيل الاستثناء. على أنه كان يتصرف من حينٍ لآخَر على

نحو تظهَر فيه بعض آثار أسلوب الحياة هذا — ولكن هذا لم يحدث قطُّ في حضرة جيزا — فيُعبر فجأة تعبيرًا قصيرًا مُضحكًا عن العجرفة الديوانية التي لم تعد بطبيعة الحال تتناسب مع وضعه الحالي. ولم تكن هذه الحالات تنتهي غالبًا نهاية طيبة كما رأى ك بنفسه.

والغريب أن الناس كانوا، على الأقل في حان الجسر، يتكلمون عن شفارتسر بنوع ما مِن الاحترام، حتى إذا كان الحديث يدور حول أمور أقرب إلى السخف منها إلى الأهمية، وكان هذا الاحترام يشمل جيزا هي أيضًا. ولم يكن من الصواب ما ذهب إليه شفارتسر من الاعتقاد في أنه كمُساعد معلِّم يتفوق على ك تفوقًا خارقًا للمألوف، فلم يكن لهذا التفوق وجود. فخادم المدرسة بالنسبة للمُعلمين، وخاصةً بالنسبة لمعلِّم من نوع شفارتسر، شخص مُهم جدًّا، لا يصح أن يحتقره الإنسان دون أن يتعرَّض لعقاب، شخص ينبغي على الإنسان — إن لم يستطع أن يتخلَّى عن الاهتمامات الطبقية — أن يُمكنه من احتمال الاحتقار بتقديم مقابل مناسب له. وكان ك يميل أحيانًا إلى القول بأن شفارتسر كان منذ الأمسية الأولى مُذنبًا، وإن ذنبه لم يصغر حتى بعد أن أثبتت الأيام التالية على لقائهما أن شفارتسر كان على حق. فلم يكن يَنسى أن لقاءهما ربما كان هو الذي وجه كل الأحداث التالية الوجهة التي سارت فيها، فقد تسبب شفارتسر على نحو سخيف كل السخف ومنذ الساعة الأولى في توجيه انتباه الدواوين كاملًا إليه، في الوقت الذي كان فيه لا يزال غريبًا تمامًا في القرية، بلا معارف وبلا مأوى، وكان مُرهقًا أشد الإرهاق من كثرة السير، حائرًا لا يعرف شيئًا يستعين به على أمره، ويَرقُد على جوال القش تحت رحمة أيِّ تدخُّل من جانب الدواوين. ولو حدث هذا اللقاء بعد ذلك بليلة واحدة لكانت الأمور كلها قد سارت سيرة مختلفة، هادئة وكأنها تسير في السر. ولَمَا كان هناك إنسان يعرف من أخباره شيئًا، ولما تردَّد مَن يأوي إليهم في تركِه يُقيم بينهم يومًا كما يفعلون بالشباب المترحِّلين، ولما اشتبهوا في شيء. ولتبيَّن الناس فائدته وأمانته، ولانتَقلَ الخبر في المنطقة المحيطة، ولما كان من المستبعَد أن يجد في مكانٍ ما مأوًى كعامل زراعي بسيط. وليس من شكٍّ في أن أمره لم يكن سيخفى على الدواوين. ولكن الفرق جوهري بين أن يجري بسببه في منتصف الليل اتصال بالديوان الرئيسي أو بمَن كان على التليفون يستحثُّه ويُثيره عليه، ويطالب بقرار فوري بتواضع ظاهري ولكن بتصميم مزعج، وأن يكون مَن يُجري هذا الاتصال هو شفارتسر الذي يبدو أن السلطات العليا لا تحبُّه ولا ترضى عنه، وبين أن يذهب ك — بدلًا من هذا كله — في اليوم التالي على وصوله، في وقت العمل الرسمي إلى رئيس مجلس القرية، فيدق الباب ويبلغ، كما ينبغي، عن نفسه

على اعتبار أنه شابٌّ متجوِّل غريب قد وجد لنفسه مكانًا ينام فيه لدى فرد بعينه من أفراد جماعة القرية ويذكر أنه ربما يستأنف رحلته في اليوم التالي. ثم يحدُث شيء عجيب وهو أنه يجد عملًا، لبضعة أيام فقط بطبيعة الحال؛ لأنه لا يريد أن يبقى هنا طويلًا بحالٍ من الأحوال. هذا، أو نحوه، ما كان سيحدُث لو لم يتدخَّل شفارتسر. كان الديوان سيستمر في الاشتغال بمسألة ك، ولكن في هدوء، وبالطريق الرسمي، ودون أن يزعجه تهور الحزب الذي يبدو أنه يكرهه أشد الكُره. ولقد كان ك بريئًا من كل هذا، وكان الإثم ينصبُّ على شفارتسر وحده، ولكن شفارتسر كان ابن أحد مُديري القصر، وكان من الناحية الظاهرية قد تصرَّف تصرُّفًا صحيحًا، وهكذا ألقى الذنب على ك وحده. وما هو السبب المضحك لهذا كلِّه؟ ربما نزوة غاضبة من نزوات جيزا في ذلك اليوم دفعت شفارتسر إلى أن يهيم على وجهه في الليل، فلم يكن يستطيع النوم، إلى أن يخفِّف عن نفسه المصيبة بصبِّها على ك. وكان من الممكن من ناحية أخرى القول بطبيعة الحال بأن ك مدين لتصرُّف شفارتسر هذا بالكثير. فقد تحقَّق عن طريقه ما لم يكن ك يستطيع بمُفرده أن يحقِّقه، وما لم يكن ليجرؤ على بلوغه وما لم يكن الديوان ليُوافق عليه، تحقَّق له منذ البداية أن يواجه الديوان — على قدر ما كان مُمكنًا من ناحية الديوان — صراحةً دون مواربة وجهًا في وجه. ولكن تلك النعمة كانت نعمة قبيحة. حقيقة أنها وفَّرت على ك الكثير من الكذب والمواراة، ولكنها كانت تجعله كالأعزل من السلاح، وكانت على أية حال تضرُّه في النضال وكان من المُمكن أن تصيبه في هذه الناحية باليأس، لو لم يقُل لنفسه أن الفرق بين سلطة الديوان وبين سلطته هائل لدرجة أن ما يستطيعه من كذبٍ ومكر لن يُقلِّل هذا الفرق لصالحه على نحو جوهري. ولكن تلك الفكرة كانت فكرة يواسي ك بها نفسه. فقد ظلَّ شفارتسر على إثمه. وهو قد أضرَّ ك فيما مضى ولعله يستطيع في المستقبل أن يعينه، وك لن يحتاج إلى مساعدة إلا في أقل القليل، في التمهيدات الأولية، ولقد بدا له الآن أن برناباس مثلًا عاود الإهمال.

ظلَّ طوال اليوم يتردَّد بسبب فريدا في الذهاب إلى مسكن برناباس والسؤال. ولقد عكَف على العمل في الخارج حتى لا يضطرَّ إلى استقباله أمام فريدا، فلمَّا فرغ من العمل ظل ينتظر على أمل أن يأتي برناباس، ولكنه لم يأتِ. وهكذا لم يَعُد هناك مفرٌّ من الذهاب إلى أختَيه، لفترة قصيرة جدًّا، ليسألهما وهو واقف على العتبة، ثم يعود من فوره بعد ذلك. ودسَّ الجاروف في الثلج وجرى. ووصَل بيت برناباس وهو يلهَث، ودقَّ الباب قليلًا ثم فتحه بقوة وسأل دون أن يتبيَّن حال الحجرة: ألم يَعُد برناباس حتى الآن؟

وتنبيَّن الآن أن أولجا لم تكن موجودة، وأن الوالدَين المُسنَّين جالسَين إلى المنضدة البعيدة في هذه المرة أيضًا في جوٍّ أقرب إلى الظلام منه إلى النور، ولم يتبيَّنا ما حدث عند

الباب، ثم حركا وجهَيهما نحوه ببطء، كذلك رأى ك أخيرًا أماليا راقدة على أريكة عند المِدفأة تحت الأغطية، ورأى كيف انتفَضَت من تأثير الفزع الأول الذي تملَّكها عندما ظهر ك ووضعَت يدها على جبهتِها لتتمالكَ نفسَها. لو كانت أولجا هنا لتلقَّى الرد على الفور، ولاستطاع ك أن يَنصرِف توًّا، وأن يُصافحها، فضغطت على يده صامتة، وكان عليه أن يرجوها أن تحُول بين الوالدَين المنفزعَين وبين أن يقوما بأي جولات، فاستجابت أماليا لذلك وقالت لهما بضع كلمات. وعلم ك أن أولجا في الفناء تكسر خشبًا للمدفأة، وأن أماليا منهكة القوة — ولم تذكر لذلك سببًا — وأنها رقدت منذ قليل، وأن برناباس لم يأتِ بعدُ ولكنه سيأتي بعد قليل لأنه لم يحدث قطُّ أن بقي القصر ليلًا. وشكرها ك على المعلومات، وكان في إمكانه أن ينصرف من حيث أتى، ولكن أماليا سألته عما إذا كان يريد أن ينتظر قدوم أولجا. أو لم يكن لديه وقت. ثم سألته أماليا هل تكلم مع أولجا اليوم، ولكنه نفى، وسأل مندهشًا عما إذا كانت أولجا تريد أن تقول له شيئًا هامًّا. فزمَّت أماليا فمها كأنها غضبت قليلًا، ثم أومأت برأسها إلى ك صامتة — وكان من الواضح أن الحركة تعني الوداع — وعادَت إلى الرقود. وأخذت أماليا من مضجعها تتفرس فيه وكأنها تدهش لأنه ما يزال موجودًا. كانت نظرتها باردة، واضحة ثابتة كالمعتاد، ولم يكن ك منتبهًا تمامًا إلى ما كانت تتأمله أماليا، بل إنه تحاشاه قليلًا على نحو لا يكاد يَلفِت النظر، ولكنه تحاشاه بدون شك، ولم يكن السبب في ذلك ضعفًا أو ارتباكًا أو نفاقًا على ما يبدو، ولكنه كان حاجة مُستمرة إلى الوحدة، حاجة تفوق كل ما عداها، ويبدو أن هذه الحاجة لم تظهَر لها إلا على هذا النحو. واعتقد ك أنه يذكر أن هذه النظرة شغلته في الأمسية الأولى، بل إن هذه النظرة هي على الأرجح السبب في الانطباع القبيح الذي أحدثته فيه هذه الأسرة منذ البداية، ولم تكن هذه النظرة قبيحة في حدِّ ذاتها، بل كانت نظرة متكبرة صريحة في حدود استغلاقها. وقال ك: إنك دائمة الحزن هكذا يا أماليا، هل هناك ما يُؤرقك؟ ألا يمكنك أن تتحدَّثي عنه؟ إنني لم أرَ من قبل بنتًا قروية مثلك. وهذا شيء لم يَلفت نظري إلا اليوم، إلا الآن فقط. هل أنتِ من القرية؟ هل وُلدتِ هنا؟

وردَّت أماليا بالإيجاب وكأنما لم يوجه إليها ك إلا السؤال الأخير. ثم قالت: إذن فأنت ستنتظر قدوم أولجا، هه؟

فقال ك: أنا لا أعرف لماذا تسألين دائمًا السؤال نفسه. إنني لا أستطيع أن أبقى طويلًا لأنَّ خطيبتي تنتظرني في البيت.

واتكأت أماليا على مرفقَيها، لم تكن تعرف شيئًا عن خطيبة ك. ذكر ك اسمها. لم تكن أماليا تعرفها. وسألت أماليا ك عما إذا كانت أولجا تعرف بالخطبة، فقال ك إنه يعتقد

أنها تعرف ذلك، فقد رأته مع فريدا، هذا إلى أنَّ مثل هذه الأخبار تَنتشِر بسرعة في القرية. ولكن أماليا أكَّدت له أن أولجا لا تعرف ذلك، وأن هذا الخبر سيُشقيها جدًّا؛ لأنها على ما يبدو تحب ك، وهي لم تتكلَّم عن ذلك صراحةً؛ لأنها متحفِّظة جدًّا، ولكن الحب يكشف عن نفسه تلقائيًّا. وكان ك مقتنعًا من أن أماليا مخطئة. وابتسمت أماليا، وعلى الرغم من أن ابتسامتها كانت حزينة فقد أضاءت الوجه المنقبض المظلم، وجعلت الصمت يتبدَّد، وأحالت الغربة إلى ألفة، وكشفت عن السر، وأعطت ك شيئًا ظلت تخفيه حتى ذلك الحين، شيئًا سيكون في استطاعتها أن تستردَّه بطبيعة الحال، ولكنها لن تستطيع أن تستردَّه كاملًا أبدًا. وقالت أماليا إنها بلا شك لا تخطئ، بل إنها تعرف المزيد، إنها تعرف أن ك نفسه يميل إلى أولجا، وأن زياراته التي يدعي أنه يقوم بها من أجل رسائل برناباس تقصد في الحقيقة أولجا وحدها. أما الآن وقد عرفت أماليا بكل شيء، فلا ينبغي أن تحمل همًّا، وله أن يأتي كلما شاء. وقالت إن هذا هو ما كانت تريد أن تقوله له. وهز ك رأسه وذكَّر أماليا بخطوبته. ولم يبدُ على أماليا أنها وجَّهت إلى هذه الخطوبة كثيرًا من أفكارها، كان أهم شيء بالنسبة إليها هو الانطباع المباشر الذي يُحدثه ك الذي كان يقف وحده أمامها. كل ما فعلته أنها سألت ك متى تعرَّف بهذه البنت فلم يَمضِ عليه في القرية إلا القليل من الأيام. وقص ك عليها قصة الأمسية التي قضاها في حان السادة، فقالت أماليا باقتضاب إنها كانت تُعارض في اقتياده إلى حان السادة. ونادت على أولجا لتُشهِدها على ذلك، وكانت أولجا في تلك اللحظة قد ظهرت بالباب وهي تحمل على ذراعها خشبًا للمِدفأة، وكانت بشرتها نضرة صبغها الهواء البارد بالحمرة، وكانت هي نشيطة قوية وكأنما كان العمل قد غيَّرها إلى حالٍ أخرى تختلف عن حالها المعهودة عندما تقف في الحجرة وقفتها المألوفة المتثاقلة. وألقت أولجا بالخشب وسلَّمت على ك في غير تكلف ثم سألت عن فريدا. ونظر ك إلى أماليا نظرة عبَّر بها عن رأيه، فلم يبدُ عليها أنها أحسَّت بأن الرأي الذي ذهبت إليه قد تأكد خَطؤه. وانفعل ك لهذا قليلًا فبدأ يحكي بإسهاب أكثر مما كان ينوي عن فريدا وعن الصعوبات التي يتعرض لها في سبيل تدبير ما يشبه بيت الزوجية في المدرسة — ونسي نفسه أثناء تسرعه في الكلام — ولقد كان ينوي أن يعود إلى البيت من فوره — نسي نفسه حتى إنه وجَّه إلى الأختين، على هيئة الوداع، الدعوة إلى زيارته. وما إن تبيَّن ذلك حتى تملَّكه الفزع وأخذ يتلعثم في الوقت الذي أعلنت أماليا فيه على الفور ودون أن تترك له فرصة الكلام أنها تقبَل الدعوة، وكان على أولجا أن تتبعها وأن تعلن هي كذلك موافقتها، ففعلت. أما ك الذي كان ما يزال يعاني من إلحاح التفكير في ضرورة الاستئذان للانصراف بسرعة،

والذي كان يحسُّ بالاضطراب تحت تأثير نظرات أماليا، فلم يتردَّد في الاعتراف، دون ما تحسين أو تجميل، بأن الدعوة التي وجهها جاءت عن غير تدبير وتفكير، بل جاءت عفو الخاطر، وأنه لن يستطيع للأسف أن يتمسَّك بها نظرًا للعداوة القائمة بين فريدا وبين آل برناباس، تلك العداوة التي لا يفهم من أمرها شيئًا. وقالت أماليا وقد قامَت من فوق الأريكة وألقت الغطاء من خلفها: إنها ليست عداوة. وما هي بالأمر العظيم الهام، إنها مجرَّد ترديد ساذج لرأي شائع. فاذهب الآن، اذهب إلى خطيبتك، وإني لأرى كيف تتعجَّل الخطى. ولا عليك أن تخشى أن نأتي، وأنا لم أكن أعني عندما أعلنتُ مُوافقتي أكثر من المزاح، ولم أتحرَّك إلا بدافع الخبث. أما أنت فيمكنك أن تأتي إلينا كثيرًا، فليس هناك ما يعوقك عن ذلك، يمكنك دائمًا أن تدعي أنك تلتمِس أخبارًا من برناباس. وأنا أُسهِّل مهمتك فأقول لك إن برناباس، حتى إذا كان يحمل إليك رسالة من القصر، لن يَذهب إلى المدرسة ليُبلغك إياها؛ فالمسكين لا يستطيع أن يجري من أول البلد إلى آخره، لقد أضناه العمل، وعليك أنت أن تأتي بنفسك تلتمس الأخبار.

لم يكن ك قد سمع أماليا من قبل تتحدَّث حديثًا متَّصلًا طويلًا كهذا، ولقد كان لحديثها هذا نبرة أخرى غير نبرة أحاديثها التي عرفها ك، كان في حديثها هذا شيء من الترفُّع لم يكن ك هو وحده الذي أحسَّ به، بل يبدو أن أختها أولجا التي تعرفها وتألَفها قد أحسَّت به هي الأخرى. وكانت تقف إلى جانب وتضع يديها على فخذيها ... كانت تقف وقفتها المعهودة التي تنحني فيها وتُباعد بين ساقيها، وكانت توجه عينيها ناحية أماليا ولا تنظر إلا إلى ك. وقال ك: إنك تُخطئين، تخطئين خطأً كبيرًا عندما تظنين أن انتظاري برناباس ليس انتظارًا جادًّا. إن أمنيتي الكبرى، أو على الأصح أمنيتي الوحيدة تتلخَّص في تسوية أموري مع السلطات. وعلى برناباس أن يُساعدني في ذلك، وكثير من أملي معقود على مساعدته. حقيقةً أنه خيَّب رجائي مرة أشد الخيبة، ولكن الذنب كان ذنبي أكثر مما كان ذنبه هو، ولقد حدث هذا في وسط اضطراب الساعات الأولى لي هنا وكنتُ أعتقد آنذاك أنني أستطيع أن أصل إلى كل شيء عن طريق نزهة مسائية قصيرة ... وإذا كانت المستحيلات قد بدَت لي كمُستحيلات فأمر أحمل عنه ضغينة له. ولقد أثر هذا حتى على حُكمي على أسرتكم، على حكمي عليكم. وهذا هو السبب، وأظنُّ أنني أفهمكم الآن على نحو أفضل.

وحاول ك أن يجد العبارة المناسبة فلم يجدها على الفور، واكتفى بعبارة عادية: وربما كنتم أكثر طيبة مِن كل أهل القرية على قدر ما أعرفهم. ولكنَّكِ يا أماليا تُحيرينَني الآن مرةً أخرى عندما تُقللين، لا أقول من شأن عمل أخيك، ولكني أقول تُقلِّلين من أهمية عمله

بالنِّسبة إليَّ. ولعلَّك لا تَعرفين أسرار أمور برناباس، وفي هذه الحالة أقول لا بأس وأترُك المسألة حيث هي، ولعلَّك تَعرفين أسرار أمور برناباس — وهذا هو على الأحرى انطباعي — وفي هذه الحالة أقول إنَّ الأمر قبيح؛ لأنَّ هذا يعني أن أخاك يَخدعني.

وقالت أماليا: فاهدأ بالًا، أنا لا أعرف هذه الأسرار، وليس هناك شيء يُمكن أن يدفعَني إلى أن أسعى إلى معرفتها، وليس هناك شيء، ولا حتى الاهتمام بأمرك يُمكن أن يدفعني إلى أن أسعى إلى معرفتِها، على الرغم من أنني قد أودُّ أن أصنع من أجلك شيئًا، فنحن كما قلتَ أنتَ أناسٌ طيبون. إنما موضوعات أخي موضوعات تخصُّه هو، وأنا لا أعرف منها إلا ما أسمعه من حينٍ لآخر بالمُصادفة وعلى غير إرادة مني. أما أولجا فهي تستطيع أن تُحيطَك بالأخبار كلها لأنها موضع ثقتِه وهو لا يخفي عنها شيئًا.

وانصرَفَت أماليا، ذهبَت أولًا إلى الوالدَين وهمَسَت إليهما بشيء، ثم ذهبَت بعد ذلك إلى المطبخ، انصرفَت هكذا دون أن تُودِّع ك، وكأنها كانت تعلم أن ك سيبقى طويلًا، وأنها لهذا ليست بحاجة إلى أن تُودِّعه.

الفصل الخامس عشر

وبقي ك وقد ارتسَمَت الدَّهشة على وجهِه، وضحكت أولجا منه، وشدَّته إلى الأريكة عند المدفأة، وبدا عليها فعلًا أنها سعيدة إذ استطاعت أن تخلو به هنا، ولكن سعادتها كانت سعادة صافية لم تُعكِّرها الغيرة بكل تأكيد. وكان انعدام الغيرة وبالتالي انعدام كل تكلُّف يجعل ك يحسُّ بالراحة. وكان ك يجد مُتعة في النظر إلى عينَيها الزرقاوَين اللتَين لا تجذبان ولا تُسيطران، بل تَسكُنان في خجل، وتثبتان في حياء. وأحسَّ ك كأنَّ تحذيرات فريدا وصاحبة الحان لم تجعَله أكثر تقبُّلًا لهذا كله، بل جعلته أكثر انتباهًا وإمعانًا. وضحكَ مع أولجا عندما عبَّرت عن دهشتِها لوصف ك أماليا بالذات بالطيبة، وقالت إنها تتَّصف بكثير من الصفات ولكن صفة الطيبة بالذات ليسَت فيها. وردَّ ك على ذلك بأنه كان بطبيعة الحال يعنيها هي، أولجا، بالمدح، ولكن أماليا شديدة السيطرة لدرجة أن الأمر لا يقف عند حدٍّ أنها تستحوذ على كل ما يقال في وجودِها، بل يتعدَّاه إلى أن الإنسان يُقدمه إليها بإرادته. وقالت أولجا وقد ازداد جدُّها: هذا صحيح، أكثر صحة ممَّا تظن. وأماليا أصغر مني، بل وأصغر من برناباس ولكنَّها هي التي تقضي في الأمور في البيت، بالشر أو بالخير. وهي بطبيعة الحال تحمل أكثر ممَّا يحمل الآخَرون خيرًا وشرًّا.

وذهب ك إلى أن هذا الكلام مُبالَغ فيه؛ فقد قالت أماليا منذ قليل إنها مثلًا لا تهتم بأمور أخيها وأن أولجا هي التي تعرف كل شيء عنها ... وقالت أولجا: كيف أشرح لك هذا؟ إنَّ أماليا لا تهتم لا ببرناباس ولا بي، إنها في الحقيقة لا تهتم بأحد سوى الوالدَين؛ فهي تُعنى بهما نهارًا وليلًا، ولقد سألَتْهما الآن لتوِّهما عن رغباتهما وذهبت إلى المطبخ لتَطهي لهما ما يَشتهيان، ولقد تحامَلَت على نفسها ونهضَت من أجلهما؛ فهي مريضة منذ الظهر وكانت ترقد على الأريكة. ولكنَّنا، على الرغم من أنها لا تهتم بشئوننا، نتبعها كما لو كانت هي الكبرى، وهي لو نصحتنا بشيء في أمورنا لاتبعناها بكل تأكيد، ولكنها لا تفعل

ذلك، فنحن غرباء عنها. وأنت رجل ذو خبرة بالناس، وأنت قادم من الغربة، فقل: ألا تبدو لك شديدة الفِطنة؟

فقال ك: إنها تبدو لي شديدة التعاسة، ولكن كيف يتَّفق مع احترامكم لها أن برناباس يقوم مثلًا بأعمال الساعي، هذه الأعمال التي لا ترضى عنها ولعلها تحتقرُها؟

فردت قائلة: لو أنه عرف له عملًا آخر يقوم به بدلًا من شغلة الساعي هذه التي لا تُرضيه لما تأخر عن الانصراف عنها.

فسأل ك: أليس هو عامل فني في صناعة الأحذية؟

فقالت أولجا: بلى بكل تأكيد، وهو إلى جانب عمله كساعٍ يعمل لدى برونسفيك، ولو شاء لوجد هناك عملًا يكفيه ليلًا ونهارًا ولربح كثيرًا.

وقال ك: فماذا يمنعه؟ ألا يجد بديلًا له لوظيفة الساعي؟

وسألت أولجا مندهشة: تقول بديلًا له في وظيفة الساعي؟ فهل هو قد قبل هذه الوظيفة من أجل الربح؟

وقال ك: ليكن. ولكنَّكِ قلتِ إنها لا تُرضيه.

فقالت أولجا: إنها لا تُرضيه، وله في ذلك أسباب مختلفة، ولكنها على أية حال خدمة القصر، أو على أية حال من خدمة القصر، وهذا ما ينبغي على الإنسان على الأقل أن يؤمن به.

فقال ك: كيف هذا؟ هل أنتم في شكٍّ حتى من هذا؟

فقالت أولجا: في الحقيقة لا يُساورنا في ذلك شك. فبرناباس يذهب إلى دواوين المستشارية ويُخالط الخدم هناك كواحد منهم، ويرى من بعيد بعض الموظَّفين مُتفرِّقين، ويتلقى رسائل ذات أهمية نسبية، بل يتلقَّى أحيانًا رسائل شفهية لينقلها كما سمعها، وهذا كثير، ولنا أن نفخر بما استطاع أن يُحقِّقه وهو ما يزال في سن الشباب الغض.

وهز ك رأسه، ولم يَعُد يُفكِّر الآن في العودة. وسأل: هل لديه زيٌّ خاص؟

فقالت أولجا: أتعني السُّترة؟ لا، لقد صنعَتْها له أماليا حتى قبل أن يعمل ساعيًا. ولكنك تقترب من النقطة الحساسة. فقد كان يتوقع منذ وقت طويل أن يحصل لا على زي رسمي، فليس هناك شيء كهذا في القصر، ولكن على بذلة، ولقد تلقَّى تأكيدًا بهذا، ولكنهم في القصر يسيرون ببطء شديد فيما يتعلَّق بمثل هذه الموضوعات، وأقبح شيء هنا هو أن الإنسان لا يعلم معنى هذا البُطء، فقد يعني أن الموضوع يسير سَيره الروتيني، ولكنه قد يعني كذلك أن الموضوع لم يبدأ سيره بعدُ؛ أي إنهم يريدون على سبيل المثال اختبار

برناباس، ومن الممكن أن يعني البطء أيضًا أن الإجراءات انتهت، وأن التأكيد الذي سبق أن أعطي لبرناباس قد سُحب لسبب من الأسباب فلن يحصل على البدلة أبدًا. ولا يستطيع الإنسان أن يعرف شيئًا أكثر دقة، أو لعلَّ الإنسان يعرفه بعد مضيٍّ وقت طويل. والناس هنا يتناقلون حكمةً لعلك تعرفها: إن القرارات الحكومية خَجولة كالبنات الصغيرات.

فقال ك وقد تناول العبارة بجدٍّ أكثر ممَّا فعلت أولجا: هذه ملاحظة طيبة، ملاحظة طيبة، وربما اتَّصفت القرارات الحكومية بصفات أخرى من تلك التي تتصف بها البنات الصغيرات.

وقالت أولجا: ربما. وأنا لا أعرف مقصدك. وقد تقصد مدحَها. أما فيما يختصُّ بالبدلة الحكومية، فهي همٌّ من الهموم التي يعاني برناباس منها، ولمَّا كنَّا نتشارك في حمل الهموم فإنها كذلك من همومي. إننا نتساءل لماذا لا ينال البدلة الحكومية، والموظفون، على قَدر علمنا وعلى ما يحكي برناباس، يلبسون الملابس العادية، وهي بطبيعة الحال ملابس جميلة. وأنت قد رأيتَ كلم. وبرناباس ليس بطبيعة الحال موظفًا، ولا حتى من أحطِّ درجة، وهو ليس من الخطل بحيث يرجو أن يُصبح موظفًا. ولقد حكى برناباس أن بعض كبار الخدم ممَّن لا تصل إليهم الأنظار هنا في القرية بطبيعة الحال لا يلبسون بِدلًا حكومية. وقد يظن الإنسان أن في هذا شيئًا من عزاء، ولكن هذا أمر مُضلِّل، فهل برناباس من كبار الخدم؟ لا، وحتى إذا كان يحظى بالحب الشديد، فليس هناك مَن يستطيع أن يقول إنه من كبار الخدم، والدليل على ذلك أنه يأتي إلى القرية، بل ويُقيم فيها، وكبار الخدم أكثر تحفُّظًا من الموظفين، وربما كان لهم حقٌّ في ذلك، وربما كانوا أرفع قدرًا من بعض الموظَّفين. وهناك بعض الأدلة على ذلك؛ فهم يَشتغلون أقل، ولقد قال برناباس إن منظر هؤلاء الرجال الأقوياء الفارعين المختارين وهم يزحفون ببطء شديد خلال الممرات والأروقة منظر رائع، وبرناباس يتلمَّس طريقه بينهم بالالتفاف المتستِّر حواليهم. والخلاصة أنه لا يمكن القول بأن برناباس من كبار الخدم. ومعنى هذا أنه قد يكون واحدًا من صغار الخدم، ولكن هؤلاء الخدم الصغار يلبسون البِدَل الحكومية، على الأقل عندما ينزلون إلى القرية، وهذه البدلة الحكومية ليسَت زيًّا رسميًّا بمعنى الكلمة، هذا إلى أن هناك اختلافات كثيرة تَعتورها، ومهما يكن من أمر فإن الإنسان يتبيَّن الخادم القادم من القصر بالنظر إلى ثيابه، ولقد رأيتَ أنت نفسك بعض هؤلاء الرجال في حانة السادة. وأبرز ما في هذه الثياب أنها غالبًا ضيقة تلتصق بالجسم التصاقًا شديدًا، فما يُمكن لفلاح أو عامل أن يستخدمها. إذن فبرناباس ليس لديه مثل هذه البدلة، وليس هذا الأمر من الأمور المُخجِلة

المزرية فحسب، فهذا مما يُمكن احتماله، ولكنه من الأمور التي تجعل الإنسان يشكُّ في كل شيء خاصة في الساعات الحزينة، ولقد مرَّت بنا، ببرناباس وبي، تلك الحال مرات ليست بالقليلة. عند ذاك نتساءل هل هذا العمل الذي يقوم به برناباس خدمة للقصر. إنه بكل تأكيد يذهب إلى بعض المكاتب الحكومية، وما هذا إلا جزء من الكل، عندها حواجز من ورائها مكاتب أخرى. وليس هناك مَن يمنعه من النفاذ إليه منعًا، ولكنه لا يستطيع أن يتقدَّم إليها عندما يجد مرءوسيه الذين يتصرَّفون فيما لدَيه من أمور ويصرفُونه. والإنسان هناك عُرضة للمُراقبة الدائمة، أو هو على الأقل يظن ذلك. وحتى إذا هو تقدم، فما هو النفع الذي يمكن أن يصيبه إذا لم يكن لديه عمل فأصبح هناك دخيلًا؟ ولا ينبغي أن تتصوَّر هذه الحواجز على أنها حدود مُعيَّنة، وهذا شيء لا يفتأ برناباس يَلفت نظري إليه. فهناك كذلك حواجز في المكاتب التي يذهب إليها. ومعنى هذا أن هناك حواجز يتخطَّاها وليس منظرها بمختلف عن منظر تلك التي لم يتخطَّها بعدُ، ولهذا فمِن المُمكن أن يذهب الإنسان مُسبقًا إلى أن المكاتب التي تقع خلف هذه الحدود الأخرى لا تختلف اختلافًا جوهريًّا عن تلك التي عرفها برناباس. كل ما في الأمر أن الإنسان في ساعات حزنه يظنُّ ذلك. ثم يستمر الشك ولا يستطيع الإنسان أن يقاومه. ويتكلم برناباس مع موظَّفين، ويتلقى رسائل. ولكن مَن هؤلاء الموظفون؟ وما هي هذه الرسائل؟ لقد قال إنه نقل إلى كلم، وإنه يتلقَّى منه شخصيًّا الأوامر. وهذا كثير جدًّا؛ فكبار الخدم أنفسهم لا يصلُون إلى هذا الحد، هذا كثير جدًّا، بل هو أكثر ممَّا ينبغي، وهذا هو المخيف من أمره. تصور أنه نقل إلى كلم مباشرةً وأنه يكلمه ويسمع منه! ولكن الأمر فعلًا كذلك؟ نعم إنه كذلك، ولكن لماذا يشكُّ برناباس في أن ذلك الموظَّف الذي يسمونه كلم هو فعلًا كلم؟

فقال ك: يا أولجا، إنكِ لا تُريدين أن تمزحي معي، كيف يُمكن أن يكون هناك شكٌّ في شكل كلم، إن شكله معروف، ولقد رأيته أنا بنفسي.

فقالت أولجا: لا بكلِّ تأكيد يا ك، ليس هذا مزاحًا، بل هو أمر أهتم له جادةً أشد الجد. وأنا لا أحكي لك هذا لأُخفِّف عن نفسي ولأثقل عليك، ولكنك سألت عن برناباس، فكلَّفتني أماليا بأن أحكي لك الحكاية، هذا إلى أنني أعتقد أنه من المفيد لك أن تعرف الأشياء على نحو أكثر دقة. وأنا أحكي لك ما أحكي من أجل برناباس نفسه، حتى لا تَعقِد عليه آمالًا كبيرة جدًّا فيُخيِّب رجاءك ويتألم لخيبتِك؛ فهو حساس جدًّا، وهو على سبيل المثال لم ينَمْ في هذه الليلة لأنك لم تكن راضيًا عنه بالأمس، فقد قلت له إنك مُستاء أشد الاستياء لأنك أوتيت رسولًا مثل برناباس. لقد نفَت كلماتك النوم عن عينَيه. ويبدو أنك لم تلحظ شيئًا

من الاضطراب الذي استبد به، فمن واجب سعاة القصر أن يضبطوا أنفسهم وأن يتحكموا فيها أشد التحكم. ولكن عمله ليس بالسهل، حتى معك. وأنت في تصوُّرك لا تتطلَّب الكثير منه، لقد أتيت تحمل تصوُّرات مُعيَّنة عن السعاة وكيف يكون عملهم، وأنت تقيس عليها المطالب التي تفرضها عليه. ولكنهم في القصر يتصوَّرون عمل السعاة على نحو آخر، وهي تصوُّرات لا تتفق مع تصوراتك ولا يُمكن التوفيق بينها حتى لو ضحَّى برناباس كل التضحية في العمل وهو ما يبدو عليه أحيانًا أنه مُستعدٌّ له. والأحرى بالإنسان أن يطيع وألا يعترض، لو لم تكن المسألة مسألة العمل الذي يقوم به وهل هو فعلًا عمل السعاة. ليس له أن يبين لك أي شك بطبيعة الحال؛ لأنَّ ذلك معناه أن يضيع حياته، وأن يخرج خروجًا بشعًا على قوانين يظن هو أنه لا يزال يخضع لها، وهو لا يتكلَّم بحرية حتى عندما يتكلَّم معي، وليس لديَّ من وسيلة لتبديد شكوكه إلا التدليل والتقبيل، وحتى عندما أفعل ذلك أجده يَمتنع عن اعتبار الشكوك شكوكًا. إن لديه شيئًا من أماليا في دمِه. وهو بكل تأكيد لا يقول لي كل شيء على الرغم من أنني الوحيدة التي يضع فيها ثقته ويأمن إليها. على أننا نتكلَّم أحيانًا عن كلم، وأنا لم أرَ كلم بعدُ، وأنت تعرف أن فريدا لا تحبُّني كثيرًا وما كانت لتسمح لي بأن أتطلع إليه، على أن شكله معروف بطبيعة الحال في القرية، فقد رآه بعض الأهالي، وكلُّهم سمعوا عنه، ولقد تكوَّنت صورة لكلم من التصورات والشائعات ومن بعض النوايا الثانوية المزيفة، وهي صورة صحيحة في خطوطها الأساسية، ولكن في خطوطها الأساسية فقط، وفيما عدا ذلك فهي صورة متغيِّرة، ولعلها ليست متغيرة بالدرجة التي يتغير بها شكل كلم في الحقيقة. ويقال إن شكله يختلف عنها اختلافًا تامًّا عندما يأتي إلى القرية، ويختلف عنها عندما ينصرف عن القرية، ويختلف عنها قبل أن يشرب البيرة، ويختلف بعد أن يشرب البيرة، ويختلف عندما يصحو ويختلف عندما ينام، ويختلف عندما يكون وحده، ويختلف عندما يتحدث، ويختلف اختلافًا أساسيًّا — وهذا شيء بديهي — عندما يكون في القصر. بل إنَّ الروايات المتناقَلة في القرية تتضمَّن اختلافات كبيرة جدًّا، اختلافات في الطول وفي المظهر والبدانة واللحية، وهي، لحسن الحظ، تتَّفق فيما يتعلق بالثوب الذي يَرتديه، إنه يرتدي دائمًا نفس الثوب: حُلة سوداء لها سترة ذات طرفين طويلين. على أن هذه الاختلافات لا ترجع إلى أسباب من السحر، بل هي اختلافات بديهية ترجع إلى المزاج في لحظة بعينها، وإلى درجة الانفعال وإلى درجات مُتباينة لا حصر لها من الأمل أو اليأس يكون فيها المُشاهد الذي لا يكون له في غالب الأحيان أن يرى كلم إلا لحظة. وأنا أحكي لك هذا كما حكاه لي برناباس مرارًا، ولِمَن لم يتَّصل بالموضوع اتصالًا

شخصيًّا مباشرًا أن يكتفي بهذا بصفة عامة وهو قرير العين. أما نحن فلا نستطيع أن نهدأ أو نقرَّ عينًا، هل هذا الذي يتكلَّم معه هو بالفعل كلم أم لا؟ ذلك موضوع حياة أو موت بالنسبة لبرناباس.

فقال ك: وهو كذلك بالنسبة إليَّ أنا كذلك.

وتقارب الاثنان في مجلسهما على الأريكة.

والحقيقة أن هذه الأخبار الجديدة غير المواتية التي نقلتها أولجا إلى ك حزَّت في نفسه، ولكنه وجد الكثير من السلوى في أنه يلتقي هنا بأناسٍ يجري عليهم، على الأقل على قدر ما يبدو في الظاهر، شيء شديد الشبه بما يجري عليه، فهو يستطيع لذلك أن ينضمَّ إليهم وأن يتفاهم معهم في كثير من الأمور لا في بعضها فقط كما هي الحال مع فريدا، وهو إذا كان قد فقدَ الأمل في إصابة نجاح عن طريق سعاية برناباس، فهو يقترب من برناباس هنا في القرية اقترابًا يتزايَد كلَّما يتزايَد ما يَلقاه برناباس من سوء، وما كان ك قد فكَّر قطُّ في أن هناك مسعًى تعيسًا يَنطلق من القرية مثل مسعى برناباس وأخته. على أن هذا المسعى كان بطبيعة الحال أبعد ما يكون عن الوضوح، ولعلَّ محاولة توضيحه كانت ستُظهره على عكس ما يبدو الآن، وما كان ينبغي على المرء أن يدع ما في شخصية أولجا من براءة أو نحوها يُغويه توًّا وينتهي به إلى الإيمان بصدق برناباس.

وأردفت أولجا: وبرناباس يعرف المقالات التي تتناوَل شكلَ كلم معرفة جيدة جدًّا، فقد جمع الكثير منها، وقارن بينها — بل لعلَّه جمع منها أكثر من اللازم — ولقد رأى ذات مرةٍ كلم في القرية من خلال نافذة العربة أو لعلَّه اعتقد أنه رآه وبهذا اكتمل له ما يكفي من أساس للتعرُّف على كلم، ومع ذلك — وكيف يُمكنك أن تفسر هذا؟ — فقد ذهب ذات مرةً إلى مكتب من مكاتب المستشارية في القصر فأشار له بعضهم على واحد من بين موظَّفين كثيرين وقال له عنه أنه كلم، فلم يتعرَّف برناباس عليه، وظلَّ بعد ذلك وقتًا طويلًا لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن هذا الذي رآه هو كلم. وإذا أنت سألت برناباس عن وجه الاختلاف بين ذلك الرجل الذي رآه وبين الصورة الشائعة عن كلم، لم يَستطِعِ الإجابة، أو أجاب فوصف الموظَّف الذي رآه في القصر، وإذا بالوصف يُطابق تمامًا وصف كلم على نحو ما نعرفه. وأقول لبرناباس «وما دام الأمر كذلك، فلماذا تشكُّ يا برناباس ولماذا تعذب نفسك؟» فيبدأ، وقد استبدت به حيرة مؤرِّقة ظاهرة لا تخطئها العين، في تعداد صفات خاصة لموظَّف القصر، يبدو عليه أنه لا يحكيها عن خبرة بل يبتدعها ابتداعًا، وهي على الرغم من ذلك طفيفة — تتناول على سبيل المثال إيماءة خاصة بالرأس أو

الصدرية غير المُزرَّرة — ولا يمكن للإنسان أن يأخذها مأخذ الجد. أمَّا الشيء الذي يتسم في نظري بمزيد من الأهمية، فطريقة كلم في التعامل مع برناباس. وكثيرًا ما حدثني برناباس عنها، بل ووضَّحها لي بالرسم. لقد جرَت العادة على اقتياد برناباس إلى مكتب كبيرة من مكاتب المستشارية، ليس مكتب موظَّف واحد، بل هي حجرة تقسمها طوليًّا منصة عالية واحدة تمتدُّ من حائط إلى الحائط الآخر إلى قسمَين قسم ضيق لا يكاد ليعبر فيه شخصان أحدهما على الآخر: هذا هو مكان الموظَّفين، وقسم واسع هو مكان أصحاب الحاجات والمتفرِّجين والخدم والسعاة. وهناك على المنصة كُتب كبيرة مفتوحة، صُفَّت أحدها بجوار الآخر، والموظَّفون يقفون عند غالبيتها ويطالعون فيها. ولكن الموظَّفين لا يبقون عند كتاب واحد دائمًا، بل يتبادلون، لا الكتب، بل الأماكن، وأعجب شيء في رأي برناباس هو مشهد الموظَّفين وهم يمرُّون بعضهم على البعض أثناء تبادل الأماكن في هذه المساحة الضيقة. وهناك في المقدمة موائد صغيرة منخفِضة ملاصقة للمنصة يجلس إليها كَتبةٌ يكتبون ما يُمليه عليهم الموظَّفون. وبرناباس يدهش دائمًا لطريقة الإملاء والكتابة. فالموظَّف لا يصدر أمرًا واضحًا إلى الكاتب بأن يكتب ما سيمليه عليه، والموظف لا يُملي بصوت عالٍ، حتى إن الإنسان لا يكاد يلحظ أنه يملي، بل يراه وقد بدا عليه أنه يقرأ كما كان يقرأ من قبل، أو هو يهمس، والكاتب يسمع همسَه. وكثيرًا ما يملي الموظَّف بصوت شديد الانخفاض لا يستطيع الكاتب أن يسمعه وهو جالس فهو يهبُّ واقفًا ليتلقَّف الجملة، ثم يجلس بسرعة ليكتبها، ثم يهبُّ واقفًا مرة أخرى وهكذا دواليك. ما أغرب هذا! إنه شيء لا يكاد الإنسان يفهمه. أما برناباس فلدَيه متَّسع من الوقت بطبيعة الحال ليشاهد هذا كله، فهو يقف في مكان المتفرِّجين ساعات بل أيامًا قبل أن تقع عليه نظرة كلم. وحتى عندما يراه كلم، ويتَّخذ برناباس وضع الانتباه، فإن هذا لا يعني أن الأمر قد قُضي، فمن المُمكن أن يَنصرِف كلم عنه إلى الكتاب وينساه. وهذا ما يحدث كثيرًا. فما هو عمل الساعي هذا الذي يتجرَّد إلى هذا الحد من الأهمية؟ إن الحزن ليتملك نفسي عندما يعلن برناباس في ساعة مبكرة من الصباح أنه ذاهب إلى القصر. وأفكِّر في هذا الطريق الذي يقطعه على ما يبدو في غير نفع، وفي اليوم الذي يبدو أنه يضيعه، وفي هذا الأمل الذي يبدو أنه لا جدوى وراءه. ما فائدة هذا كله؟ وهنا الكثير من العمل في صناعة الأحذية يتكدَّس ولا يُنجزه أحد، وبرونسفيك يلحُّ على برناباس أن يقوم به.

فقال ك: حسنٌ. إذن فبرناباس يتحتَّم عليه أن ينتظر طويلًا إلى أن يُكلَّف بعمل. هذا شيء يصعب فهمه، ويبدو أن عدد الموظَّفين هنا كبير مفرط لا يمكن معه أن يكلف كل

ساعٍ بعملٍ، ولا ينبغي أن يكون هذا سببًا للشكوى، فهذا أمر يستوي الجميع أمامه. ثم إن برناباس يُكلف هو كذلك ببعض المهام، ولقد أحضر إليَّ أنا خطابَين.

وقالت أولجا: من الممكن ألا نكون على حقٍّ في الشكوى، وبخاصة أنا التي لا أعرف الأمور إلا سمعًا والتي لا أستطيع باعتباري بنتًا أن أحسن فهمها كما يفعل برناباس الذي يُخفي عني من حينٍ لآخر بعضها. ولكن أسمع حكاية الخطابات، وعلى سبيل المثال حكاية الخطابات التي تلقيتِها أنت. إنَّ برناباس لا يتلقَّى هذه الخطابات من كلم مباشرة، بل من الكاتب. في يوم من الأيام، وفي ساعة من الساعات — ولهذا فإنَّ عمل برناباس وإن بدا سهلًا متعب مُرهق لأن عليه أن ينتبه دائمًا وبغير انقطاع — يتذكره الكاتب ويُشير إليه إشارة. ولا يبدو على كلم أنه هو الذي اتخذ بهذا قرارًا؛ لأنه يكون عاكفًا على القراءة في كتابه، أو يكون في تلك اللحظة بالذات مشغولًا بتنظيف نظارته — وهو ما يفعله كثيرًا في غير هذا الظرف — عندما يأتي برناباس، ولعله ينظر إليه أثناء تنظيفه النظارة، هذا إذا كان يستطيع الرؤية بدون نظارة، وبرناباس يشكُّ في ذلك، ذلك أن كلم يكون مطبقًا جفنَيه ويُلوِّح كأنه ينام وكأنه يُنظف النظارة في المنام. وفي هذه الأثناء يبحث الكاتب بين الملفات الكثيرة والرسائل والخطابات التي يحتفظ بها تحت المنضدة خطابًا لـ ك، خطابًا لم يكتبه لتوِّه، بل هو خطاب يدلُّ الظرف الذي يحتويه على أنه قديم جدًّا ظلَّ هناك زمنًا طويلًا. فإذا كان هذا الخطاب خطابًا قديمًا فلماذا تركوا برناباس ينتظر فيطول انتظاره؟ ولماذا تركوك أنت أيضًا تَنتظِر فيطول بك الانتظار؟ ثم لماذا تركوا الخطاب ينتظر حتى أصبح خطابًا قديمًا؟ وهم يُسيئون إلى سُمعة برناباس فيظهر بمظهر الساعي الرديء البطيء. إن الكاتب يُسهِّل الأمر على نفسه فيدفع بالخطاب إلى برناباس قائلًا «من كلم إلى ك» وبهذا يكون على برناباس أن يَنصرِف. ويأتي برناباس إلى البيت لاهثًا يحمل الخطاب الذي حصل عليه أخيرًا، يحمله تحت قميصه على جسمه، ونجلس هنا على الأريكة كما نجلس الآن، فيحكي الحكاية، ونبحث نحن الأمور تفصيليًّا، ونُقدر النتيجة التي وصل إليها، ونتبين في النهاية أنها قليلة جدًّا، وأنها مع قلتها مشكوك فيها، فيضع برناباس الخطاب بعيدًا، فلا هو يجد رغبة في توصيله، ولا هو يُحسُّ رغبة في النوم، ويفكر في الاشتغال بصناعة الأحذية، ويظل طوال الليل جالسًا على هذا الكرسي الصغير هناك لا يغمض له جفنٌ. هذا هو الأمر، وهذه هي يا ك أسراري، ولعلك لا تدهش الآن لإعراض أماليا عنها.

وقال ك: وماذا عن الخطاب؟

فقالت أولجا: آه الخطاب؟ بعد وقتٍ قد يطول إلى أيام وأسابيع، وبعد إلحاح شديد على برناباس يأخذ الخطاب ويذهب ليُسلمه. وهو في هذه الأمور الظاهرية يتبعني ويخضع لي إلى حدٍّ كبير. وأنا أستطيع، بعد أن يتبدَّد الانطباع الأول الذي أحدثتُه في روايته، أن أتمالك نفسي، وهو ما يبدو عليه أنه يستطيع فعله، لأنه يعرف أكثر مما أعرف. فأقول له ما قلته له من قبل مرارًا وتكرارًا مثلًا: «ماذا تريد بالضبط يا برناباس؟ ما هي الوظيفة وما هي الأهداف التي تحلم بها؟ أتُريد أن تنتهي بتصرُّفك إلى حيث تضطرُّ إلى تركنا وتركي نهائيًّا؟ هل هذا هو هدفك؟ ألا ينبغي عليَّ أن أصدق أنه من غير المفهوم أنك تسخط هذا السخط البشع على ما قد وصلت إليه؟ فانظر حوالَيك هل ترى بين جيراننا من وصل إلى ما وصلت أنت إليه؟ حقيقةً إن وضعهم يختلف عن وضعنا، فليس لديهم سبب للطموح إلى أبعد مما تحقَّق لهم، هذا إلى أن المرء — حتى إذا لم يقارن حاله بحال الآخرين — لا بد أن يرى أن كل شيء لديك يسير على خير ما ينبغي. هناك عوائق، وشكوك وألوان من الخيبة، ولكن هذا لا يعني إلا ما كنا نعرفه من قبل، وهو أنك لن تنال شيئًا هدية ومنحة، بل ينبغي عليك أن تنال كل صغيرة بالكفاح والنضال. وهذا سبب آخر لفخارك لا ليأسِك. ثم إنك تُناضل كذلك من أجلنا، أليس كذلك؟ ألا يعني هذا بالنسبة إليك شيئًا؟ ألا يمنحك هذا قوة جديدة؟ أما تحسُّ بالاطمئنان لسعادتي وأكاد أقول كبريائي بأنَّ لي أخًا مثلك؟ إنك تُخيِّب رجائي لا أقول فيما حقَّقتَ بالقصر، بل فيما حقَّقت أنا فيك. إن لك أن تدخل القصر، وإن لك أن تتردَّد على مكاتب المستشارية زائرًا دائمًا، وإن لك أن تقضي الأيام الطوال في نفس الحجرة التي يكون كلم فيها، وأنت ساعٍ مُعترَف بك رسميًّا، وأنت صاحب حق في الحصول على بدلة رسمية، وأنت تأخُذ خطابات هامة لتُوصِّلها إلى أصحابها، أنت كل هذا، ولك أن تفعل كل هذا، ثم إذا بك تنزل إلى هنا، وبدلًا من أن نتعانَق باكين من فرط السعادة، إذا بك عندما تراني تبدو كأنك تفقد كل شجاعة. إنك تشكُّ في كل شيء، ولا يستهويك إلا العمل في صناعة الأحذية، إنك لتترك الخطاب، ضمان مستقبلنا، ولا تهتم به.» هكذا أتكلَّم معه، وأظلُّ ألحُّ عليه وأكرر عليه الكلام نفسه الأيام الطوال حتى يتناول الخطاب زافرًا ويذهب به. ويبدو أنه عندما يفعل ذلك لا يفعله نتيجةً لتأثير كلماتي، وإنما هو يهفو إلى القصر من جديد، وأنَّى له أن يجرؤ على الذهاب إلى هناك إذا لم يُنجِز المهمة.

وقال ك: ولكنكِ على صواب في كل ما تقولين له. لقد لخَّصت كل شيء تلخيصًا صائبًا صوابًا يدعو إلى الدهشة. وإنكِ لتُفكِّرين تفكيرًا واضحًا وضوحًا عجيبًا.

فقالت أولجا: لا، إنك تغتر بكلامي، ولعلِّي أغرُّه هو كذلك به. فما هذا الذي وصل إليه؟ إن له أن يدخل إلى مكتب من مكاتب المستشارية، ولكن هذا المكتب ليس على ما يبدو من مكاتب المستشارية، إنه على الأحرى دهليز مكاتب المستشارية، ولعله ليس حتى دهليزًا بل ربما كان حجرة يُحجز فيها كل الذين لا يسمح لهم بالدخول إلى مكاتب المستشارية الحقيقية. وإنه يتكلَّم مع كلم. ولكن هل هو حقًّا كلم؟ أليس هو على الأحرى رجل يشبه كلم؟ لعله على أكثر تقدير سكرتير يُشبه كلم قليلًا ويجتهد في أن يكون أكثر شبهًا به، فيتصنع الأهمية على طريقة كلم الناعسة الحالمة. وهذه الناحية من شخصيته أسهل ناحية في التقليد، وهناك كثيرون يُحاولون تقليده فيها، وينصرفون بطبيعة الحال عن النواحي الأخرى في شخصيته بدافع الحكمة والفِطنة. وإن رجلًا كثيرًا ما تُحلِّق حوله الآمال ولا تصل إليه فيما ندر، مثل كلم، ليتخذ بسهولة في خيال الناس صورًا مختلفة. ولكلم على سبيل المثال هنا سكرتيرٌ في القرية اسمه موموس. هكذا؟ أنت إذن تعرفه؟ هذا الرجل يعتزل الناس أشد الاعتزال، ولكنَّني رأيته عدة مرات. إنه شابٌّ قوي، أليس كذلك؟ يعني أنه لا يشبه كلم بداهةً بحال من الأحوال. ومع ذلك فيمكنك أن تجد في القرية أناسًا، يُقسمون الأيمان المغلظة على أن مومومس هو كلم. وهكذا يعمل الناس أنفسهم على إحداث الاضطراب في أنفسهم. وهل تختلف الحال في القصر عنها هنا؟ لقد قال بعضهم لبرناباس إن ذلك الموظف هناك هو كلم، والحقيقة أن ثمة شبهًا بين الاثنين، ولكنه شبه لا يفتأ برناباس يشكُّ فيه. وكل شيء يدعم شكَّه وارتيابه. فهل من المعقول أن يزجَّ كلم بنفسه في هذه الحُجرة العامة بين الموظفين الآخرين واضعًا القلم خلف صيوان أذنه؟ هذا شيء مُستبعَد أشد الاستبعاد. وكثيرًا ما قال برناباس بطريقة صبيانية — وهذه نزوة لا ريب فيها — إنَّ هذا الموظَّف يُشبه كلم أشد الشبه. ولو كان يجلس في غرفته الخاصة، إلى مكتبه وكان اسمه مكتوبًا على بابه، لما ساورتني الشكوك. هذا كلامٌ صبياني، ولكنه معقول. ولو استعلم برناباس، عندما يكون هناك، لدى الكثيرين عن حقائق الأمور، لكان ذلك أكثر معقولية. وهو يقول إن الحجرة تغص بالناس. وحتى إذا لم تكن معلوماتهم أكثر يقينًا من معلومات ذلك الرجل الذي أشار له، دون ما سؤال منه، إلى كلم، فإنها ستؤدِّي في تنوعها إلى نقاط ارتكاز ومقارنة أيًّا كانت. وليست هذه فكرتي، بل فكرة برناباس، ولكنه لا يجرُؤ على تنفيذها، خوفًا من أن يفقد وظيفته نتيجة لمخالفة غير مقصودة للوائح لا علم له بها؛ فهو لا يجرؤ على الحديث إلى آخرين في هذا الأمر لشدة خوفه. وإن هذا الخوف في الحقيقة لخوف مؤسِف — وإنه ليوضح لي مركزَه توضيحًا دونه كل وصف. ما أشد ما

يلوح له كل شيء هناك مريبًا مخيفًا، إذا كان لا يجرؤ حتى على فتح فمه بسؤال بريء. وأنا عندما أفكر في هذا، ألوم نفسي لأنني أدعه يذهب وحده إلى هذه الأماكن المجهولة التي تجري فيها الأمور على هذا النحو، فيضطرُّ — وهو في الحقيقة رجل أقرب إلى التهور منه إلى الجبن — على ما يبدو إلى الارتعاد من الخوف.

فقال ك: إنكِ تَصلين هنا، على ما أعتقد، إلى النقطة الحاسمة. هذه هي الحقيقة. إنني أعتقد أنني أرى الأمور بوضوحٍ بعد كل هذا الذي رويتِه. إنَّ برناباس صغير على هذه المهمة. ولا يُمكن أن يأخذ الإنسانُ شيئًا مما يَحكيه، مأخذ الجد، هذا بكل بساطة. فما دام هو يذوب هناك من فرط الخوف، فإنه لا يستطيع أن يُلاحظ ما يعرض له، فإذا ما أجبره أحد هنا على الحديث، فلن يقوم حديثه إلا على حكايات خرافية مُضطربة. وأنا لا أعجب لذلك. إن الخوف من السلطات شيء غريزي فيكم هنا، وإنه ليُغرس فيكم طوال حياتكم بشتَّى الطرق ومن كافة النواحي، وأنتم تُعينون على ذلك وتُسيرونه ما استطعتم. ومع ذلك فأنا لا أعترض على ذلك في أساسه بشيء، فإذا كانت السلطات طيبة، فلمَ لا يحترمها الإنسان؟ ولكن ما ينبغي أن تبعثوا فجأة بشابٍّ غريرٍ مثل برناباس لم يتجاوز حدود قريته إلى القصر، وتُطالبوه بأن ينقل لكم بصدقٍ ما يعرض له، وتُفسروا كل كلمة من كلماته وكأنها من كلمات الوحي، وتربطوا مصير حياتكم بهذا التفسير. ليس هناك خطأ أشد من هذا. ولقد تركته أنا، يضللني، وعقدت عليه صنوفًا من الأمل، وقاسيت منه ضروبًا من الخيبة، وكان الأمل والخيبة لا يقومان إلا على أساس كلماته؛ أي إنهما لم يكونا يقومان على شيء.

وصمتَت أولجا. وراح ك يقول: لن يكون من السهل عليَّ أن أُخطِّئك في الثقة التي تَثِقينها في أخيكِ، فأنا أرى كيف تُحبِّينه، وأرى ما تنتظرينه منه، ولكني فاعل لأسباب كثيرة من بينها على الأقل، حبك وآمالك، فهناك شيء — ولست أعرف ما هو — يعوقك دائمًا عن أن تتبيَّني تمامًا لا ما قد بلغه بل ما قد ناله منحة. إن له أن يذهب إلى مكاتب المستشارية، أو إذا شئت إلى دهليز، إذن فهو دهليز، ولكن هناك أبوابًا تُؤدي إلى ما بعدها، وحواجز يمكن اجتيازها لَمَن قُدِّر له ذلك. فأنا على سبيل المثال لا أستطيع، على الأقل مؤقتًا، أن أطأ هذا الدهليز بحالٍ من الأحوال. وأنا لا أعرف مع مَن يتكلَّم برناباس هناك، ربما كان ذلك الكاتب أحط الخدم، وحتى لو كان أحط الخدم، فهو يستطيع أن يؤدي إلى مَن يستطيع أن يذكر اسمه، وإذا لم يكن يستطيع أن يذكر اسمه، فإنه يستطيع على الأقل أن يُحيل المرء على مَن يستطيع ذِكر اسمه. ومن المُمكِن ألا يكون بين من يقال إنه كلم وبين

كلم الحقيقي شيء مُشترك على الإطلاق، وربما كان للشبه وجود إلا أمام اضطراب عيني برناباس العمياوَين، وربما كان هذا الرجل أحط الموظَّفين درجةً، وربما لم يكن موظفًا على الإطلاق، بل كان رجلًا يقوم بمهمَّةٍ ما يقف من أجلها إلى المنصة، فيقرأ شيئًا ما في كتابه الكبير، ويهمس بشيء ويفكر في شيء ما، عندما تقع نظرتُه بعدَ حين على برناباس، وحتى إذا لم يكن هذا صحيحًا، ولم يكن هو ولم يكن أي فعل من أفعاله يعني شيئًا، فربما أوقفه بعضهم هناك لغرض ما. وأنا أعني بهذا كله أن هناك شيئًا ما، شيئًا ما يعرض على برناباس، شيئًا ما على الأقل، أما أن برناباس لا يصل به الشك والخوف واليأس فذنبه هو وحده. وأنا في هذا لا أزال أعتمد على أساس الحالة المضطربة أشد الاضطراب بل المستحيلة أشد الاستحالة. فإننا نمسك بالخطابات بين أيدينا، وأنا لا أثق فيها كثيرًا ولكنني أثق فيها على أية حال أكثر من كلمات برناباس. وقد تكون هذه الخطابات قديمة، عديمة القيمة، أخرجت من بين كومة من خطابات هي كذلك عديمة القيمة، أخرجت بلا اختيار وبلا فهمٍ يزيد على فهمِ العصافير الملوَّنة عندما تستخرج بمنقارها في سوق العيد من بين كومة من الأوراق الورقة التي تحمل بخت هذا أو ذاك من الناس، قد يكون أمر هذه الخطابات على هذا النحو، ولكنها على الأقل تشير إلى عملي إشارةً ما، وهذه الخطابات على ما يبدو لي، وإن لم يكن من المؤكد أنها لصالحي، وهي كما شهد رئيس مجلس القرية وزوجته مُمضاة من كلم بيده، وتحمل، على ما يرى رئيس مجلس القرية أيضًا، أهمية كبيرة وإن كانت أهمية خاصة وقليلة الوضوح.

وسألت أولجا: هل قال رئيس القرية هذا؟

فأجاب ك قائلًا: نعم، هذا هو ما قاله رئيس مجلس القرية.

فقالت أولجا بسرعة: سأحكي ذلك لبرناباس فإنه سيُشجِّعه جدًّا.

فقال ك: إنه ليس بحاجة إلى التشجيع، وإن تشجيعه لا يتم إلا بأن تقولي له أنه على حقٍّ، وأن عليه أن يستمر على طريقته الحالية، على أن يعرف أنه لن يصل بها إلى شيء أبدًا. إنك تستطيعين أن تُشجعي إنسانًا معصوب العينين تشجيعًا شديدًا على النظر من خلال العصابة، فلن يرى شيئًا أبدًا. إنه لن يستطيع الرؤية إلى بعد أن تُنزع عنه العصابة. إن برناباس يحتاج إلى المساعدة لا إلى التشجيع. عليك أن تتصوري الوضع: السلطات ترتفع هناك عالية بضخامتها التي تستعصي على البيان، ولقد كنتُ أظن قبل قدومي إلى هنا أنني أكوِّن عنها صورة تقريبية ... وما أشد سذاجة هذا الظن! هناك إذن السلطات، وهذا هو برناباس يواجهها وحده، ليس هناك غيره، يواجهها وحده على نحوٍ يُثير الشفقة، وفي هذا

شرف فارط له إذا لم يكن سيمضي حياته كلها متواريًا قابعًا في ركن مُظلم من أركان المكاتب.

فقالت أولجا: لا تظن يا ك أننا نُقلِّل من شأن ثقل المهمة التي تولاها برناباس، إننا لا نتجرَّد من احترام السلطات، ولقد قلت هذا أنت بنفسك.

فقال ك: إنه احترام في المكان الخاطئ. إنَّ هذا الاحترام يُجرِّد المقصود منه من الكرامة. فهل هذا الاحترام، إذا كان برناباس يسيء استخدام منحة الدخول إلى ذلك المكان ليقضي هناك الأيام دون أن يفعل شيئًا، أو كان ينزل إلى هنا ويشك في أولئك الذين كان يرتعد حيالهم أو ينتقص منهم، أو كان لأسباب من الشك أو التعب يهمل توزيع الخطابات أو لا يُعجِّل بنقل الرسائل التي حمل بها؟ ليس هذا احترامًا. على أن اللوم لا يَقتصِر عليه، إنه يَشملُك أنت كذلك يا أولجا، ولا يُمكنني أن أعفيك منه. فأنت على الرغم من أنك تظنين أنك تكنين الاحترام للسلطات، ترسلين برناباس بشبابه وإهماله وضعفه إلى القصر، أو أنتِ على الأقل لم تردِّيه عنه.

فقالت أولجا: إنني كذلك أوجه منذ وقت طويل إلى نفسي اللومَ الذي تُوجهه أنت إليَّ. ولكن لا ألوم نفسي على أني أرسلته إلى القصر؛ فأنا لم أرسله فقد ذهب هو ذاته من تلقاء نفسه إلى هناك، ولقد كان ينبغي عليَّ أن أحُول بينه وبين ذلك بكل الوسائل؛ بالقوة، بالمكر، بالإقناع. كان ينبغي عليَّ أن أمنعه. وحتى إذا كنت لأتخذ اليوم في هذا الأمر قرارًا، وأحسستُ محنة برناباس ومحنة أسرتنا كما أحسست بها في ذلك الوقت، إذا كنت اليوم لأتخذ هذا القرار، وقد وعى برناباس المسئولية كلها والخطر كله، وأصبح ينصرف عني مبتسمًا رقيقًا ليذهب إلى هناك، فلن أقرِّر منعه على الرغم من خبرات هذه الفترة الماضية كلها، وأظنُّ أنك لو كنت مكاني لما تصرفت على نحو يختلف عن تصرُّفي. إنك لا تعرف محنتنا، ولذلك فأنت تظلمنا، وتظلم بخاصة برناباس. لقد كنا فيما مضى أكثر أملًا منا الآن، ولكن أملنا لم يكن في ذلك الوقت كبيرًا، كانت محنتنا كبيرة وظلَّت كبيرة. ألم تقصَّ عليك فريدا شيئًا من أخبارنا؟

– تلميحات. لم تَقُل لي شيئًا محددًا. ولكن اسمكم يكفي وحده لإثارتها.

وقالت أولجا: وصاحبة الحان كذلك لم تقص شيئًا؟

– لا، لم تقل شيئًا.

– ولم يقصَّ عليك أحد غيرهما شيئًا؟

– لا، لا أحد.

فقالت أولجا: طبعًا، وكيف يُمكن أن يَحكي أحدهم شيئًا؟ إن كل واحد يعرف عنا شيئًا، وهو إمَّا يعرف الحقيقة على قدر بلوغ الناس إيَّاها، وإما على الأقل شائعة مُتناقَلة أو مُخترعة في غالب الأحوال، وكلهم يُفكرون فينا أكثر مما ينبغي، ولكننا لا نَحكي هذه الأشياء لأحد. فالجميع يخافون من بلُوغها ألسنتَهم. وهم في هذا على حق. وهي أشياء من الصعب التعبير عنها، حتى حيالك يا ك، وأليس من المُحتمَل أن تَنصرِف أنت بعد سماعها وتُعرض عنا على الرغم من أنها على ما يبدو لا تُمسك إلا قليلًا؟ وهكذا نكون قد فقدناك، أنت الذي — ودَعْني أعترف لك بهذا — تكاد تعني الآن بالنسبة إليَّ أكثر ممَّا كانت تعنيه بالنسبة إليَّ خدمة القصر. ومع ذلك — وهذا التناقُض يُؤرقني المساء بطوله — ينبغي أن تعرف هذه الأشياء، لأنك إن لم تَعرِفها، لن تُبصر بوضعنا، وستظلُّ ظالمًا لبرناباس وهو سيحزُّ في نفسي خاصةً، وسنظلُّ نَفتقِر إلى الاتفاق التام، ولن تستطيع أنت مُساعدتنا، ولن تستطيع تقبُّل مساعدتنا التي تفوق المألوف. ولكنَّ هناك سؤالًا أحب أن أطرحه عليك: هل تريد أن تعرف؟

فسأل ك: لماذا تُوجِّهين إليَّ هذا السؤال؟ إذا كانت هذه الأشياء ضرورية فأنا أريد أن أعرفها. ولكن لماذا تسألين على هذا النحو؟

فقالت أولجا: من تأثير الخزعبلات. إنك تَنحرِف إلى أمورنا بريئًا، ولست أكثر إثمًا من برناباس.

فقال ك: احكِ بسُرعة، أنا لستُ خائفًا. إنك بخَوفِكَ النسائي تجعلين الأمر أكثر سوءًا ممَّا هو.

سرُّ أماليا

وقالت أولجا: احكُمي أنتِ بنفسِك. والموضوع يبدو في غاية البساطة ... والإنسان لا يفهم لأول وهلة كيف يُمكن أن تكون له أهمية كبيرة. هناك موظَّف كبير في القصر اسمه سورتيني.

فقال ك: لقد سمعت به، ولقد لعب دورًا في استدعائي إلى هنا.

فقالت أولجا: لا أعتقد. فإنَّ سورتيني لا يكاد يظهر للرأي العام. ألا تخلط بينه وبين سورديني، بالدال لا بالتاء؟

فقال ك: أصبت. لقد قصدت سورديني.

فقالت أولجا: نعم، سورديني مشهور جدًّا، إنه واحد من أنشط الموظَّفين، وهم يحكُون عنه الكثير. أما سورتيني فهو على العكس رجل شديد الاعتزال والكثيرون لا يعرفونه. ولقد رأيته للمرة الأولى والأخيرة قبل ثلاثة أعوام. كان ذلك في الثالث من يوليو عند الاحتفال الذي أقامه اتحاد رجال المطافئ، وكان القصر مُشتركًا في الاحتفال وقدَّم مضخَّة حريق جديدة هدية بهذه المناسبة. واشترك سورتيني في تقديم المضخَّة، ويقال إنه يَشتغِل فيما يشتغل بموضوعات إطفاء الحريق (وربما حضر سورتيني الاحتفال نائبًا عن موظَّف آخر — فالموظَّفون كثيرًا ما ينوب أحدهم عن الآخر، ولهذا كان من الصعب على الإنسان أن يعرف اختصاص هذا أو ذاك الموظَّف). وكان يحضر الاحتفال بطبيعة الحال آخَرون، موظَّفون وخدم، وكان سورتيني يتَّخذ مكانه في أقصى الخلف طبقًا لخلقه وطباعه. وهو رجلُ قصير ضعيف غارق في التفكير، ولقد لفت نظر جميع مَن لَمَحُوه شكل ثنيات جبهتِه فكل هذه الثنيات، وهي كثيرة على الرغم من أنه لم يتجاوَز الأربعين، تتَّجه في خطوط مستقيمة على شكل المروحة من جبينه إلى عظمة أنفه، إنني لم أرَ شيئًا من هذا القبيل قط. كان هذا إذن هو الاحتفال. وكنا، أماليا وأنا، نَنتظِر الاحتفال بشوق قبل أن يقام بأسابيع، وهيأنا ملابس الخروج وجدَّدنا فيها، وكان ثوب أماليا خاصةً جميلًا، كانت البلوزة البيضاء الفضفاضة مرفوعة من الأمام إلى أعلى ... وكانت تتحلَّى بشريط من الدانتيللا استعارته أمي لهذا الغرض، ولقد استبدَّ بي الحسد حتى إنَّني قضيت نصف الليلة السابقة على الاحتفال أبكي. فلمَّا جاءت صاحبة حان الجسر صباحًا لتشاهدنا.

وسأل ك: صاحبة خان الجسر؟

فقالت أولجا: نعم، وكانت تَرتبط بنا برباط صداقة قوية. جاءت، واعترفت بأنَّ أماليا حظيَت بأكثر مني، وأقرضَتني عِقدَها المصنوع من العقيق البوهيمي لتُهدِّئني. فلمَّا اكتمَلَ استعدادنا وتهيَّأنا للخروج، وكانت أماليا تقف أمامي والجميع يُعبِّرون عن إعجابهم بحُسنها، وقال والدنا «اذكروا كلمتي هذه، ستنال أماليا اليوم خطيبًا»، انتزعت — ولا أعرف لماذا — العقد الذي كنتُ فخورةً به من جيدي وألبسته أماليا، ولم أَعُد أَحسُدها. لقد انحنَيت أمام انتصارها، واعتقدت أن على الجميع أن ينحنُوا أمامها، وربما فوجئنا في ذلك الوقت بأنها بدَت على هيئة غير التي عهدناها، فهي في الحقيقة لم تكن جميلة، ولكن نظرتها الكئيبة التي احتفظت بها على هذا النحو منذ ذلك الوقت، تجاوَزَتنا عاليًا ... فإذا بنا ننحني أمامها بمعنى الكلمة تقريبًا وعلى غير إرادة منا. ولقد لاحظ الجميع ذلك، لاحظه لازيمان وزوجته اللذان أتيا ليأخُذانا معهما.

وسأل ك: تقولين لازيمان؟

وقالت أولجا: نعم، لازيمان. لقد كنَّا في ذلك الوقت في مركز مرموق، وما كان يمكن على سبيل المثال أن يبدأ الحفل بدوننا؛ لأنَّ والدنا كان الرئيس الثالث للتدريب في المطافئ.

وسأل ك: هل كان الوالد في ذلك الوقت قويًّا إلى هذا الحد؟

وهنا تساءلت أولجا وكأنها لم تفهم تمامًا ما قاله ك: والدي؟

ثم راحت تقول: لقد كان قبل ثلاثة أعوام لا يزال شابًّا تقريبًا، يدلُّ على ذلك مثلًا أنه عندما حدَث حريق في حانة السادة حمل أحد الموظَّفين، وهو جالاتر البدين، على ظهره وجرى به إلى الخارج. ولقد كنتُ أنا حاضرة عندما حدث ذلك، والحقيقة أنه لم يكن هناك خطر حريق بمعنى الكلمة، كل ما حدث أن الحطب الجاف المجاور للمِدفأة بدأ يُثير الدخان، ولكن جالاتر خاف وصاح من النافذة طالبًا النجدة، وأتَت فرقة المطافئ وكان على أبي أن يحمله إلى الخارج على الرغم من أن النار كانت قد أُطفئت تمامًا. ذلك أن جالاتر رجل ثقيل الحركة وعليه أن يلزم الحيطة في مثل هذه الأمور، وأنا لا أحكي هذا إلا من أجل أبي، ولم يمرَّ منذ ذلك الوقت أكثر من ثلاث سنوات، فانتظر إليه كيف يقعد هناك.

وعند ذاك لاحظ ك أنَّ أماليا قد عادَت إلى الحجرة، ولكنها كانت عند منضدة الوالدين بعيدة عنهما، وكانت تطعم بيدِها الأم التي لم تكن تستطيع تحريك ذراعيها المُصابَين بالروماتزم، وكانت في الوقت نفسه تُكلم الأب فتحضُّه على أن يصبر قليلًا إلى أن تأتي إليه فتُطعمه هو أيضًا بيدها. ولكنها لم تُصبْ مع الأب نجاحًا لأنه وقد دفعه نهمُه إلى الوصول إلى الحساء تغلب على ضعفه الجسماني. وحاول أن يمتصَّ الحساء من الملعقة ثم حاول بعد ذلك أن يشربها من الصحن، ثم أخذ يُزمجر غاضبًا لأنه فشل في هذا وذاك، كانت الملعقة لا تصل إلى فمه إلا بعد أن تكون قد فرغت تمامًا، ولم يكن يبلغ بفمه الصحن، بل كان يغمس شاربه المتدلي في الحساء الذي كان يتساقط ويتناثر في كل اتجاه إلا في اتجاه الفم. وعاد ك يسأل، ولم يكن يحسُّ حيال العجوزين وحيال ركن منضدة العائلة كله بالشفقة، بل بالنفور والنفور فقط: أعوام ثلاثة فقط أحالته إلى هذه الهيئة؟

فقالت أولجا ببطء: ثلاثة أعوام، وإذا أردنا الدقة ساعات قلائل من حفل، كان الحفل مقامًا على مجرى خارج القرية يطلُّ على جدول، وكان الزحام شديدًا عندما وصلنا، وكان هناك شعب كثير أتى من القرى المُجاوِرة، وكان الصخب عنيفًا اضطربت من أثره أنفاسنا أشد الاضطراب. واقتادنا الوالد في البداية بطبيعة الحال إلى مضخَّة الحريق، وما إن رآها حتى أخذ يضحَك من شدة الفرح، كانت المضخَّة الجديدة تُسعده، وشرع يتحسَّسها ويشرح

لنا، ولم يكن يحتمل اعتراضًا أو يرضى بتحفُّظٍ. وكان يلزمنا بأن ننحني تحت المضخة بل وبأن نزحف تحتها تقريبًا لنرى الأجزاء السُّفلية منها، فلمَّا تقاعس برناباس عن ذلك، انهال الوالد عليه ضربًا. أمَّا أماليا فلم تهتمَّ بالمضخة، وظلَّت واقفة مُعتدِلة القامة في ثوبها الجميل، ولم يجرؤ أحد على أن يقول لها شيئًا، أما أنا فجريتُ إليها عدة مرات ولمستها من تحت ذراعها ولكنها ظلَّت صامتة. ولا أزال إلى اليوم أجهل كيف وقفنا أمام المضخة هذه المدة الطويلة، ولم نتبيَّن، إلا عندما انصرف الوالد عنها، أن سورتيني كان هناك، ويبدو أنه كان يقف طوال الوقت وراء المضخة مستندًا إلى رافعة من روافعها، والحقيقة أن الصخب كان فظيعًا وكان أكثر من المألوف في مثل هذه الاحتفالات؛ ذلك أن القصر أهدى إلى فرقة المطافئ بعض الأبواق، وكانت آلات خاصَّة يستطيع الإنسان بأقل جهد أن يخرج منها أعنف الأنغام — حتى الأطفال كانوا يستطيعون ذلك بسهولة. وكنَّا عندما نسمعها نظن أن الأتراك بجيوشهم قد أتوا بالدمار، ولم نكن نستطيع الاعتياد عليها، بل كنَّا كلَّما نفخ فيها بعضهم ننتفض فزعًا. وكانت الأبواق جديدة، ولهذا كان كل واحد يريد أن يجربها، وكان الحفل حفلًا شعبيًّا، ولهذا سمحوا للجميع بذلك. وكان حولنا بعض نافخي الأبواق — وربما اجتذبتهم أماليا بفِتنتِها — وهكذا كان من العسير على الإنسان أن يجمع شتات نفسه، ثم كان أمر الوالد لنا بالانتباه إلى المضخة، وكان هذا أقصى ما يستطيعه الجهد. وكانت النتيجة أننا ظلَلنا وقتًا طويلًا طولًا يفوق المألوف لا نتنبَّه إلى سورتيني الذي لم نكن قد رأيناه من قبل. وأخيرًا همس لازيمان إلى أبي، وكنتُ واقفةً قريبة منه: «سورتيني هناك!» وانحنى أبي انحناءةً شديدة. وأشار إلينا مُنفعلًا أن ننحني نحن كذلك. وكان أبي قبل أن يرى سورتيني يُبجِّله كخبير في شئون الإطفاء ويتحدَّث عنه في البيت كثيرًا، ولهذا كانت رؤية سورتيني في الواقع شيئًا مفاجئًا وعظيم الأهمية في الوقت نفسه. أما سورتيني فلم يهتمَّ بنا — ولم يكن هذا تصرفًا ينفرد به سورتيني، فقد درج غالبية الموظَّفين على عدم الاكتراث بالناس عندما يظهرون في حفل عام — ثم إنه كان متعبًا، ولم يكن يُبقيه في الحفل إلا واجبٌ يفرضه عليه عمله. وليس أسوأ الموظَّفين هم وحدهم الذين يتأفَّفون من مثل هذه الواجبات التمثيلية، واختلط موظفون آخرون وخدم بين الشعب لا لشيء إلا لأنهم كانوا حاضرين. أما هو فقد بقيَ عند المضخة، وكان ينفر بصمته كلَّ مَن حاول أن يقترب منه بالتماس أو تملق وهكذا فإنه لم يلحظنا إلا بعد أن كنَّا قد لاحظنا وجوده بوقت طويل. فلمَّا فرغنا من انحناءتنا المليئة بالاحترام وحاول أبي أن يعتذر عنَّا، نظر إلينا، نظر إلينا الواحد تلو الآخر، وبدا عليه كأنه يَنفُث الزفرات استياءً من أنَّ كل واحد منَّا يتبعه

آخر، حتى توقَّف عند أماليا التي اضطرَّ أن يرفع بصره إليها لأنها كانت أطول منه بكثير، وإذا به يَنبهِر ويقفز فوق مجر عربة المضخة ليقترب من أماليا. ولقد أخطأنا نحن فهْمَ مسلكه في بداية الأمر وهمَمنا بالاقتراب منه تحت قيادة الوالد، ولكنه ردَّنا رافعًا يده وأشار إلينا أن نَنصرِف. كان هذا هو كل ما حدث. وأخذنا نُداعب أماليا كثيرًا قائلين لها إنها قد وجدت الخطيب بالفعل، وظلَلنا طوال الوقت في عصر الوقت ذلك اليوم فَرِحين لجهلنا أشد الفرح. ولكن أماليا كانت أكثر صمتًا مما عهدناها. وقال برونسفيك: «لقد وقعت في غرام سورتيني وملك عليها نفسها وحسها.» وكان برونسفيك غليظًا قليل الفهم للشخصيات من نوع أماليا. ولكن ملاحظته هذه لاحت لنا في تلك المرة وكأنها تُوشك أن تكون صائبة. وكنا في ذلك اليوم في نشوة فقد شربنا جميعًا، إلا أماليا، من نبيذ القصر الأحمر الحلو حتى أوشكنا أن نفقد الوعي عندما وصلنا إلى البيت في منتصَف الليل.

وسأل ك: وماذا عن سورتيني؟

فقالت أولجا: آه، سورتيني! لقد رأيت سورتيني في الاحتفال أثناء مروري مرارًا، كان يقعد على مجرِّ عربة المضخة عاقدًا ذراعيه على صدره، وظل هكذا حتى أتت عربة القصر لتأخذه. ولم يذهب حتى إلى تدريبات فرقة المطافئ التي كان أبي متفوقًا فيها على كل الرجال من سنِّه على أمل أن يراه سورتيني.

وسأل ك: وألم تسمعوا منه شيئًا بعد ذلك؟ ويبدو لي أنك تُكنِّين لسورتيني احترامًا عظيمًا …

فقالت أولجا: نعم، احترامًا … نعم … لقد سمعنا منه شيئًا! ففي الصباح التالي أيقظتنا من نومنا المخمور صيحة من أماليا، أما الآخرون فقد خرُّوا من فرط النعاس إلى سُرُرِهم على الفور، وأما أنا فقد كنت في تمام اليقظة فجريت إلى أماليا. كانت تقف عند الشباك وتُمسك بخطاب في يدها، كان أحد الرجال قد دفع به إليها منذ وقت قليل من خلال النافذة، وكان الرجل لا يزال يقف منتظرًا الرد. كانت أماليا قد قرأت الخطاب — وكان الخطاب قصيرًا — وكانت تُمسك به بيدها التي تدلت خائرة. كم كنت أحبها خاصةً عندما تكون خائرة على هذا النحو! وركعت بجوارها وقرأت الخطاب راكعةً. وما كدتُ أفرغ حتى جذَبَته أماليا إليها بعد أن ألقت عليَّ نظرة سريعة، ولم ترضَ بالعودة إلى قراءته، بل مزقته وألقَت به مُمزقًا في وجه الرجل المنتظِر وأغلقت النافذة. كان هذا هو الصباح الحاسم. وأنا أصفه بأنه حاسم، ولكن كل لحظة من لحظات عصر اليوم السابق كانت حاسمةً بالقدْر نفسه.

وسأل ك: وماذا كان بالخطاب؟

فقالت أولجا: آه، لم أقصَّ عليك ذلك بعدُ. كان الخطاب من سورتيني وكان موجهًا إلى البنت ذات العقد العقيقي. أما المضمون فلا أستطيع أن أرويَه بالضبط. ولكنه كان يحتوي على أمر من سورتيني إليها بالحضور إليه في حانة السادة، والحضور على الفور لأنه كان ينوي الانصراف بعد نصف ساعة. وكان الخطاب مكتوبًا بأكثر العبارات سفالة، عبارات لم أسمع بها من قبلُ، وإنما خمنت معناها من السياق فلم أفهَم إلا نصفه. ولو أن إنسانًا لا يعرف أماليا وقرأ الخطاب لأيقن من أن هذه البنت التي يجرُؤ بعضهم ويكتب إليها على هذا النحو بنت فاجرة، هي التي لم تكن لها علاقة بأحد من قبلُ. ولم يكن الخطاب خطابًا غراميًّا، ولم يكن فيه لفظُ تدليلٍ أو مُداعَبة، والظاهر أن سورتيني كان غاضبًا لأن منظر أماليا استبدَّ به وعطَّله عن أعماله. ولقد ذهبنا نحن فيما بعد في تفسير ذلك إلى أن سورتيني كان ينوي على ما يبدو أن يُسافر في الليلة نفسها عائدًا إلى القصر، وأنه إنما بقي في القرية بسبب أماليا، فلمَّا جاء الصباح وكان شديد الغيظ لأنه لم يتمكَّن حتى بالليل من نسيان أماليا، كتب إليها هذا الخطاب. إن الإنسان ليحسُّ حيال الخطاب أول ما يحسُّ بالغيظ حتى لو كان أشد الناس بلادةً، ولو تلقَّت الخطاب واحدة أخرى غير أماليا فربما غلب عليها الخوف من لهجته الغاضبة المهدِّدة، أما أماليا فكان الغيظ هو الذي تملَّكها، فهي لا تعرف الخوف لا لنفسها ولا للآخرين. وبينما عدت أنا هامدة إلى السرير وأنا أعيد في ذهني جزءًا من الجمل الختامية: «فعليك إذن أن تأتي في الحال وإلا ...» بقيَت أماليا على جلسة النافذة تنظر إلى الخارج وكأنها تَنتظِر رسلًا آخرين، وكأنها مستعدة لكي تعاملهم على النحو نفسه.

وقال ك مترددًا: هؤلاء هم إذن الموظَّفون ... هكذا يجد الإنسان بينهم مثل هذه النماذج ... فماذا فعل أبوكِ؟ أرجو أن يكون قد توجه بالشكاية الشديدة من سورتيني إلى السلطة المختصة، إلا إذا كان قد فضَّل سلوك الطريق الأقصر والأضمن وذهب إلى حان السادة. إن أشدَّ ما في الحكاية قُبحًا ليس إهانة أماليا؛ لأن تصحيحها مُمكن، وسهل، وأنا لا أعرف لماذا تنسبين إليها أهمية كبيرة مفرطة في الكبر، لماذا تذهَبين إلى أن سورتيني قد جرح أماليا بمثل هذا الخطاب إلى الأبد، إنني أكاد أفهم هذا من حكايتك، ولكن هذا الأمر هو بالذات الأمر غير المُمكن، كان من الممكن ومن السهل أن يرضيها فتنسى الحادثة بعد أيام قليلة. والحقيقة أن سورتيني لم يفضح أماليا بل فضح نفسه، ولذلك فأنا أرتعد لسورتيني، وأرتعد أمام إمكانية أن يكون هناك إساءة استخدام للسُّلطة يصلُ إلى هذا الحد ... إنما

فشل في هذه الحالة؛ لأنه قيل مكشوفًا واضحًا لا مراء فيه، ولأنه وجد في أماليا عدوًّا ممتازًا، يُمكن أن ينجح تمامًا في آلاف الحالات الأخرى وأن يُضلل الأعين حتى أعين الضحية ذاتها.

وقالت أولجا: اسكت … إنَّ أماليا تنظر إلى هنا.

كانت أماليا قد فرغت من إطعام الوالدَين، وبدأت تخلع عن الأم ملابسها، فحلَّت أربطة الجلباب، ووضعَت ذراعَي الأم حول رقبتها، ثم رفعت الأم قليلًا وسحبَت الجلباب برقَّة من تحتِها ثم أقعدتها حيث كانت. أما الأب، الذي كان دائمًا غير راضٍ عن اهتمام أماليا بالأمِّ قبله. ويبدو أنَّ السبب في ذلك أن الأم كانت أكثر حاجة إلى العون منه — فقد حاول ربما عقابًا لابنتِه على ما تصوَّر أنه بطء، أن يخلع هو ملابسه بنفسه … ولكنه لم يُوفَّق في ذلك على الإطلاق، على الرغم من أنه بدأ بالشيء الهين التافه وهو الشبشب الواسع الذي كانت قدماه عائمتَين فيه ولم يستطع أن يسحبهما منه، واضطرَّ وهو يُحشرج حشرجة مبحوحة أن يصرف النظر عن ذلك وأن يعود فيستند إلى ظهر كرسيِّه بجسمه المتخشب.

وقالت أولجا: إنك لا تتبيَّن الشيء الحاسم في الموضوع. وربما كنت على حق في كل ما ذهبت إليه، ولكن الشيء الحاسم في الموضوع هو أن أماليا لم تذهب إلى حانة السادة. أما معاملتها للساعي فقد كان من المُمكن التغاضي عنها والتصرف فيها وتضييع معالمها، وأما عدم ذهابها إلى هناك فقد أدَّى إلى وقوع اللعنة على أسرتنا، وأصبحت معاملتها للساعي بالتالي أمرًا لا يُغتفر، بل إنهم أبرزوه للناس وأحلُّوه محل الصدارة.

وصاح ك: كيف هذا؟

ثم كتم صياحه على الفور عندما رفعت أولجا يدَيها مُتوسلةً … ثم أردف: لا يُمكن أن تذهبي أنت، الأخت، إلى أن أماليا كان ينبغي عليها أن تطيع سورتيني وأن تُهرع إلى حان السادة!

فقالت أولجا: لا، عسى ألا يحوم حولي مثل هذا الاشتباه … كيف يمكنك أن تظن هذا الظن؟ إنني لا أعرف إنسانًا يلزم الحق في تصرفاته كما تلزمه أماليا في كل ما تعمل. لو كانت قد ذهبت إلى حان السادة لكان رأيي أنها على حق في الذهاب، ولقد كان من البطولة أنها أبت الذهاب … أما أنا، فأعترف لك بصراحة، لو أنني تلقيت مثل هذا الخطاب لذهبت … ولما استطعت احتمال الخوف من المستقبل. أماليا وحدها هي التي استطاعت احتماله. ولقد كانت هناك عدة مخارج يُمكن التحايل عن طريقها كان يُمكن على سبيل المثال أن تتزيَّن فتاة أخرى وتتجمَّل — وكانت فترة قد مضَت — وتذهب إلى حان السادة لتتبيَّن أن سورتيني قد انصرف، ولعله قد انصرف بعد إرسال الساعي مُباشرة، وهذا شيء

مُحتمل جدًّا لأن نزوات السادة نزوات طيَّارة. ولكنها لم تتصرَّف على هذا النحو، ولم تفعل شيئًا من قبيله؛ فقد كانت تحسُّ بالإهانة في أعماقها، فأجابت دون ما تحفُّظ. ولو أنها تظاهَرَت بالطاعة، وتجاوزت عتبة حان السادة لحظة، لكان من المُمكن درء المحنة، فلدَينا هنا مُحامون بارعون يعرفون كيف يَخلقُون من العدم كل ما يُريده الإنسان، ولكننا لم نكن في هذه الحالة نحتكم حتى على هذا العدم المفيد. بل على العكس كان هناك امتهانُ خطاب سورتيني وإهانة الساعي.

فقال ك: وما حديثك عن المحنة، وفيمَ كلامك عن المُحامين؟ فما يُمكن أن تتَّهم أماليا أو تُعاقب على تصرُّف سورتيني الإجرامي؟

فقالت أولجا: بلى. هذا مُمكن. ولم يجرِ هذا بطبيعة الحال طبقًا لقواعد التقاضي، بل إنهم لم يُعاقبوها مباشرةً، بل عاقبوها بطريقة أخرى، عاقَبُوها وعاقَبُوا أسرتنا كلها، ولعلك تبدأ الآن في تبيان عنف هذا العقاب ... إن هذا يبدو لك ظلمًا وبشاعةً، ولكن رأيك هذا رأي فردي لا يُشاركك فيه أحد في القرية، وهو رأي يميل إلينا كل الميل، ويرجو أن يُواسينا ولعلَّه كان يصل إلى هذه النتيجة لو لم يكن مبنيًّا على أخطاء واضحة جلية. وفي إمكاني أن أبرهن لك على هذا بسهولة، واعذُرني إذا أنا تكلمت في أثناء ذلك عن فريدا، ولكن فريدا وكلم، بغضِّ النظر عن الصورة التي اتخذها أمرهما في النهاية. جرى بينهما شيء يشبه ذلك الذي جرى بين أماليا وسورتيني، ولعلَّك تَفزع في البداية، ولكنك لن تلبث أن ترى أن ما أقوله لك هو الصواب. وليس الأمر أمر تعوُّدٍ، فإنَّ الإنسان لا يُمكن أن يتبلَّد إلى هذا الحد نتيجةً للتعود إذا كان الموضوع هو الحكم البسيط، إنما الأمر أمر نبذ الأخطاء.

فقال ك: لا يا أولجا. وأنا لا أعرف لماذا تزجِّين بفريدا في الحكاية، فهذه حالة مُختلفة كل الاختلاف، فلا تَخلِطي هكذا أشياء لا صلة بينها أساسًا واستمري في قصتك.

فقالت أولجا: أرجوك. لا تغضب مني إذا أنا أصررتُ على المقارنة، وهناك بقية من الأخطاء حتى فيما يتعلَّق بفريدا، إذا كنت لا تزال تعتقد أن عليك أن تُدافع عنها في هذه المقارنة. إنك لست بحاجة إلى الدفاع عنها، بل ينبغي أن تمدحَها. وأنا إذا كنت أقارن الحالتَين فلستُ أقصد إلى القول إنهما مُتساويتان، إنهما كالأبيض والأسود، والأبيض هنا فريدا. وأسوأ ما يُمكن أن يحدث، هو أن يضحك الإنسان من فريدا، كما أسأت أنا أدبي — ثم ندمت بعد ذلك أشد الندم — وضحكتُ منها في الحانة، هذا إلى أن الضاحك هنا يضحك على شرٍّ أو حسد، ولكنه يضحك على أية حال، أما أماليا فلا يمكن للإنسان أن يحتقرها،

إلا إذا كان يرتبط بها برباط القرابة. ولهذا فإن الحالتَين مُختلفتانِ أساسًا كما تقول وإن كانتا متشابهتَين.

فقال ك وهو يهز رأسه كارهًا: ليستا متشابهتين. دَعي فريدا جانبًا. إن فريدا لم تتلقَّ خطابًا نظيفًا مثل ذلك الذي تلقَّته أماليا، وفريدا أحبَّت كلم فعلًا، وعلى من يشكُّ في هذا أن يسألها؛ فهي ما زالت إلى اليوم تحبُّه.

وسألت أولجا: وهل هذه اختلافات كبيرة؟ ألا تعتقِد أن كلم كان يُمكنه أن يكتب إلى فريدا خطابًا مُماثلًا؟ إنَّ السادة إذا تركوا مكاتبهم كانوا على هذا النحو فإذا هم لا يَعرفون كيف يُحسنون التصرُّف في الدنيا، وإذا هم يقولون أبشع الكلام، لا أقول كلهم، بل أقول كثير منهم. ومن المُمكن أن يكون الخطاب الذي تلقَّته أماليا خاطرًا خرج إلى الورق دون وعي كامل بما ارتسم على السطور من كلمات. وماذا نعرف عن خواطر السادة وأفكارهم؟ ألم تسمع بنفسك، أو ألم تسمع بعضهم يحكي على اللهجة التي كان كلم يصطنعها مع فريدا؟ والمعروف عن كلم أنه وقحٌ جدًّا، ويُقال إنه يظلُّ الساعات صامتًا لا يتكلَّم، ثمَّ إذا به يَنطِق فجأةً بوقاحة يَرتعد لها الإنسان. أما سورتيني فلم يُعرف عنه هذا، هذا إلى أنه غير معروف بصفة عامة. والحقيقة أن الناس لا يعلمون عنه إلا أن اسمه يُشبه اسم سورديني. ولو لم يكن هناك هذا الشبه بين الاسمَين لما عرفه على ما يبدو أحد. وهو مِن حيث هو خبير في شئون المطافئ يَختلط على ما يبدو في تصور الناس بسورديني والذي هو الخبير الحقيقي في شئون المطافئ والذي يلقي بالأعباء التمثيلية على سورتيني مُستغلًّا التشابه في الاسم، حتى يعكف على عمله دون انقطاع. فإذا ما تملَّك رجل لا خبرة له بالدنيا حب فتاة من القرية فجأة، فإن هذا الحب يتَّخذ بطبيعة الحال أشكالًا أخرى غير تلك التي يتَّخذها إذا تملك جارنا مساعد النجار. وينبغي أن يأخذ الإنسان في اعتباره أن هناك بين الموظف وابنة صانع الأحذية فارقًا كبيرًا ينبغي تجاوزه، ولقد حاول سورتيني تجاوزه على هذا النحو، ولعلَّ إنسانًا غيره يُحاول تجاوُزَه على نحو آخر. حقيقةً إنهم يقولون إننا جميعًا نتبع القصر وأنه لا فارق بيننا وأنه ليس بيننا ما ينبغي التغلُّب عليه، وربما كان هذا صحيحًا بصفة عامة، ولكنَّنا للأسف أوتينا فرصة لنرى أنه، عندما تدعو الحاجة إليه، ليس صحيحًا. ومهما يكن من أمر فإن تصرُّف سورتيني سيبدو لك بعد هذا كله أكثر معقولية وأقل بشاعة، وهو في الحقيقة إذا قورن بمَسلكِ كلم أكثر معقولية، ويُمكن للإنسان، حتى إذا كان مشاركًا في الموضوع عن قرب، أن يتحمَّله على نحو أيسَر بكثير. إن كلم إذا كتب خطابًا رقيقًا فإنه يكون أنكى من أوقح خطاب يكتبه سورتيني. وأرجو

أن تفهمني كما ينبغي، إنني لا أجرُؤ على الحكم على كلم، إنني أقارن فحسب لأنك تأبى المُقارنة. إن كلم مثل القائد الذي يتأمَّر على النساء، فهو يأمُر هذه، ثم تلك أن تأتي إليه، وهو لا يحتمل طويلة القامة وما إلى ذلك، وهو يأمر بالانصراف كما يأمر بالحضور. آه، إن كلم لا يكلف نفسه مشقة كتابة الخطابات. وهل لا يزال يبدو من المقارنة أن سورتيني كان يفعل شيئًا هائلًا عندما جلس وهو الرجل الذي يعيش حياة العزلة الكاملة والذي ظلَّت علاقاته بالنساء على الأقل مجهولةً، إلى المنضدة ويكتب بخط الموظفين الجميل خطابًا، خطابًا بَشِعًا؟ وإذا كانت المقارنة لا تؤدي إلى ظهور اختلافٍ في صالح كلم، بل العكس، فهل كان حبُّ فريدا هو السبب؟ إن العلاقة بين النساء والموظَّفين في اعتقادي علاقة يصعب جدًّا، أو على الأحرى يسهل دائمًا الحكم عليها. إنها علاقة لا تتجرد بحالٍ من الأحوال من الحب. وليس هناك حبٌّ تعيس يكون الموظفون طرفًا فيه. وعلى هذا فليس من قبيل المدح أن يقول الواحد عن بنت — وأنا لا أتحدَّث هنا عن فريدا وحدها — أنها أسلمت نفسها لأحد الموظفين لأنها تحبه. فالحقيقة أنها كانت تحبه، وأنها أسلمت نفسها إليه، وليس في هذا ما يُمتدح. ولعلك تعترض بأن أماليا لم تحبَّ سورتيني. آه، إنها لم تحبه، بل ربما كانت تحبه، ومَن يستطيع القَطع بنعم أو لا؟ حتى هي نفسها لا تستطيع. كيف يمكنها أن تظن أنها لم تُحبِبه، إذا كانت قد ردَّته بهذا العنف الذي لم يسبق على ما يبدو أن عُومل به موظف من قبلُ؟ وبرناباس يقول إنها حتى الآن ترتعد أحيانًا للحركة التي أقفلت بها قبل ثلاث سنوات النافذة. وهذا صحيح، ولهذا فلا يجوز أن يسألها الإنسان، فهي قد قطعت علاقتها بسورتيني ولا تعرف إلا هذا، إنها لا تعرف هل كانت تحبُّه أو لا. أما نحن فنعرف أن النساء لا يرضون بحبِّ الموظفين بديلًا عندما يلتفت هؤلاء إليهنَّ. إنهن يُحبِبنهم من قبل حتى إذا أنكرن ذلك إنكارًا، وسورتيني لم يقف عند حد الالتفات إلى أماليا، إنه قفز على مجرِّ العربة عندما رآها، قفز على مجر العربة بساقيه اللتَين تخشبتا من كثرة الجلوس في المكتب. ولكنك ستعترض قائلًا إن أماليا شاذة، نعم إنها شاذة ولقد برهنت على ذلك عندما رفضت الذهاب إلى سورتيني، وفي هذا من الشذوذ كفاية. أما إنها لم تحبَّ سورتيني، فهذا شذوذ يوشك أن يكون فاحشًا، ولا يكاد الإنسان أن يفهمه. لقد أُصِبنا عصر ذلك اليوم بالعمى، ولكننا رغم الغشاوة اعتقدنا أننا نلاحظ أن أماليا وقعت في الحب، وفي هذا دلالة على شيء من الفكر. فإذا نحن جمعنا هذا كله معًا فما هو الفارق بين فريدا وأماليا؟ إنه فارق واحد، وهو أن فريدا فعلت ما رفضته أماليا.

فقال ك: ربما. ولكن الفارق الرئيسي في نظري هو أنَّ فريدا خطيبتي، وأن أماليا في الحقيقة لا تُهمُّني إلا لأنها أختُ برناباس، ساعي القصر، ولأنَّ مقدراتها قد تكون مُتداخلة

في عمل برناباس. ولو كان أحد الموظَّفين قد أوقع بها ظلمًا صارخًا، كما كنت أتصور في بداية الحكاية، لاهتممتُ بها اهتمامًا كبيرًا، ولكان اهتمامي بها على اعتبار أنها مسألة عامة، لا مسألة آلام أماليا الخاصة. والآن تغيَّرت الصورة بعد قصتك بطريقة لا أفهمها كل الفهم، ولكنَّني أجدها جديرة بالتصديق بما فيه الكفاية لأنك أنت التي تَروِين، ولهذا فأنا أحبُّ أن أتجاهَل هذا الموضوع كليةً، فأنا لستُ من رجال المطافئ وفيمَ يهمني سورتيني؟ ولكنَّني مُهتم بفريدا، ولهذا فأنا أدهش كيف تقُومين، أنت التي وثقت بك كل الثِّقة والتي أودُّ أن أقيم على ثقتي فيك، عن طريق الحديث عن أماليا بالهجوم الدائب على فريدا وتُحاولين غرس الشك في نفسي حيالها. وأنا لا أُصدِّق أنك تفعلين هذا عن غرض، أو عن غرضٍ سيئ، وإلا لكان عليَّ أن أنصرف. إنك لا تفعَلين هذا لغرضٍ ما، ولكن الظروف هي التي تُضلِّلك وتسوقك إلى هذا، إنك تُحبِّين أماليا وتُريدين لهذا السبب أن ترفعيها فوق كل النساء، ونظرًا لأنك لا تَجِدين في أماليا من نواحي الفخار ما يكفيك لهذا الغرض، فإنك تستعينين على أمرك بتصغير النساء الأُخريات. إن عمل أماليا عجيب، ولكنك كلَّما استرسلت في الرواية، كلما تضاءلت إمكانية القطع بما إذا كانت أماليا عظيمة أو حقيرة، ذكية أو غبية، بطلة أو جبانة، وهي تخفي دوافعها في حنايا صدرها ولن يستطيع إنسان أن يستخرجها. أما فريدا فلم تفعل شيئًا عجيبًا، لقد اتبعت قلبها مع كل من انشغل به بنيَّة طيبة، هل هذا واضح؟! إنه صحيح وكل إنسان يستطيع أن يتأكَّد من صحته. وليس في هذا مكانٌ للثَّرثرة الفارغة. أما أنا فلا أريد أن أحطَّ من قدر أماليا ولا أن أدافع عن فريدا، وإنما أنا أريد أن أُوضِّح لك موقفي من فريدا وأبيِّن لك أن كل هجوم على فريدا يعني هجومًا على وجودي أنا. إنَّني أتيت إلى هنا بمَحضِ إرادتي، وإنني شبكت نفسي هنا بمَحض إرادتي، أما كل ما حدث بعد ذلك، وبخاصة كل تطلُّعاتي إلى المستقل — وهي، وإن كانت قاتمة، موجودة — فمن أفضال فريدا عليَّ، وهذا شيء لا يُمكن أن يؤدِّي النقاش إلى تبديده. حقيقة أنهم استقبلوني هنا على أساس أنني موظَّف مساحة، ولكن هذا كان شيئًا ظاهريًّا، لقد كانوا يعبثون بي، ولقد طردوني من كل بيت، وها هم أولاء يعبثون بي الآن كذلك. ولكن ما أشق ذلك! لقد زدتُ حجمًا على نحو ما، وهذا شيء له معناه، لقد أصبحت لي أشياء، في ظاهرها قليلة، ولكنها هناك: لقد أصبح لي بيت ووظيفة وعمل حقيقي، ولي خطيبة تقوم بالعمل نيابةً عني عندما أكون مشغولًا ببعض المهام، وسأتزوَّجها وأصبح عضوًا في المجتمع، ولي علاوة على علاقة العمل بكلم علاقة شخصية به لم أتمكَّن حتى الآن من الإفادة منها. وليس هذا بالقليل؟ وأنا عندما أحضر إليكم، فمَن هذا الذي تُحيُّونه؟ مَن هذا الذي تُسرِّين إليه

بقصة عائلتك؟ مَن هذا الذي تأملين أن تجدي لديه إمكانية مساعدة ما حتى وإن كانت إمكانية ضئيلةً شديدة الضآلة؟ إنه ليس موظف المساحة الذي طرده لازيمان وبرونسفيك بالقوة من بيتهما، إنك تأملين إمكانية هذه المساعدة من الرجل الذي أصبحت لدَيه بعض وسائل السلطة، والفضل في وسائل السلطة هذه يَرجع إلى فريدا، فريدا المتواضِعة التي إذا ما سألتِها عن شيء من هذا القبيل أبت الادِّعاء بأنها تعرف عنه أقل القليل. ومع ذلك فيبدو اعتمادًا على هذا كله أن فريدا فعلَت ببراءتها أكثر مما فعلت أماليا بكبريائها. ذلك أنني أحسُّ بأنك تلتمسين العون لأماليا. وممَّن؟ من فريدا، لا من أحد سواها؟

فقالت أولجا: هل تكلمتُ أنا فعلًا بهذه السوء عن فريدا؟ إنَّني لم أكن أقصد ذلك، وأعتقد أنني لم أفعل، ولكن هذا من المُحتمل، ولقد أصبح وضعنا يتلخص في أننا على نزاعٍ مع الدنيا كلها، وإذا بدأنا بالشكوى، جرفنا التيار دون أن نعلم إلى أين. وأنت على حقٍّ في أن الفارق بيننا وبين فريدا كبير، ومن الخير أن نؤكد على ذلك مرة أخرى. لقد كنا قبل ثلاثة أعوام من بنات العائلات، وكانت فريدا، اليتيمة خادمةً في حان الجسر، وكنا نمرُّ عليها عابرين لا نُعيرها نظرة. لقد كنا بكل تأكيد متكبرين، ولكننا نشأنا على هذا. ولقد رأيت بعينك في تلك الأمسية بحانة السادة وضعنا الحالي: فريدا تمسك بالسوط في يدها، وأنا في جماعة الخدم. ولكن الأمر أكثر سوءًا من هذا. ولفريدا أن تحتقرَنا، فهذا يتناسَب مع مركزها، والظروف الحقيقية تفرضه فرضًا. ولكن أين هذا الذي لا يحتقرُنا! إنَّ الذي يُقرر احتقارنا يدخل على الفور في المجتمع الرفيع العظيم. أتعرف البنت التي خلَفَت فريدا في الحانة؟ اسمها بيبي. لقد تعرَّفتُ بها لأول مرة أول من أمس، وكانت من قبلُ تعمل خادمة. إنها بكل تأكيد تتجاوز فريدا في احتقاري. لقد نظرت إليَّ من النافذة عندما ذهبت لأحضر شيئًا من البيرة ثم جرت إلى الباب وأغلقته، وكان عليَّ أن أتوسل وأطيل التوسل وأن أعدها بالشريط الذي كنت أزين به شَعري، حتى فتحت لي. فلما أعطيتها الشريط ألقت به في أحد الأركان. ولها أن تحتقرني فأنا إلى حد ما أعتقد على فضلها وهي حاملة الخمور في حانة السادة، وإن كانت تعمل هناك مؤقتًا، وكانت بكل تأكيد تفتقر إلى الصفات اللازمة لكي تشتغل هناك بصفة دائمة. ويكفي أن يسمع الإنسان طريقة حديث صاحب الحان إلى بيبي، ويكفي أن يقارنها بطريقة حديثه إلى فريدا. ولكن هذا لا يمنع بيبي من أن تحتقر أماليا، أماليا التي تكفي نظرة واحدة من نظراتها لتخرج بيبي الصغيرة بكل ضفائرها ولفائفها من الحجرة بسرعة لا تستطيع وهي التي تعتمد على ساقيها البدينتين القصيرتين أن تصطنعها. ولقد سمعت منها بالأمس ثرثرة عن أماليا أثارت غيظي، حتى اهتم الضيوف أخيرًا بأمري على النحو الذي سبق لك أن رأيتَه.

فقال ك: ما أكثر خوفَكِ! لقد وضعتُ أنا فريدا في المكان اللائق بها، ولكنني لم أفكر في الحط منكم كما فهمتِ. وإن عائلتكم لتتسم في نظري بشيء خاص، وهذا شيء لم أُخفِه. ولكني لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا الشيء الخاص مدعاةً للاحتقار.

فقالت أولجا: آه، يا ك، سيأتي الوقت الذي ستفهم فيه، وهذا هو ما أخشاه: إنك إذن لا تستطيع أن تفهم بحالٍ من الأحوال كيف يمكن أن يكون تصرف أماليا حيال سورتيني السبب الأول في هذا الاحتقار؟

فقال ك: لو كان هذا قد حدث، فإنه يكون شيئًا غريبًا مُفرط الغرابة. من المُمكن أن يعجب الإنسان بأماليا أو أن يدينها، أما أن يحتقرها الإنسان لهذا السبب؟ وحتى إذا ذهب الإنسان، عن إحساس لا أستطيع فهمه، إلى احتقار أماليا بالفعل، فلماذا يمدُّ الاحتقار ليشملكم، ليشمل الأسرة البريئة؟ وأما أن بيبي احتقرتك فشيء فظيع وسوف أحاسبها على ذلك عندما أذهب مرة إلى حان السادة.

وقالت أولجا: لو أنك يا ك أردت أن تغيَّر فكر كل مَن يحتقرُوننا لكان عليك أن تتحمَّل بعمل عسير؛ لأن كل هذا ينبع من القصر. إنني أتذكر الساعات التي تلَت ذلك الصباح تمامًا. فقد أتى برونسفيك، الذي كان عاملًا لدينا، كما اعتاد أن يأتي في كل يوم، وكان أبي قد كلَّفه ببعض الأعمال وأعاده إلى بيته. كنا نجلس آنَذاك إلى مائدة الإفطار، كلنا، إلا أنا وأماليا، وكنا في غاية البهجة، وكان أبي لا يكفُّ عن الحديث عن الحفل، وكان لديه مشروعات خاصَّة بالمطافئ؛ ذلك أن القصر لديه فرقة المطافئ الخاصة به، وكانت هذه الفرقة قد أرسلت وفدًا يُمثلها في الحفل، وقد جرت مع هذا الوفد مناقشة تناولت بعض المسائل، ورأى السادة الذين حضروا عن القصر جهود فرقة المطافئ لدينا، وعبَّروا عن آراء طيبة جدًّا حيالها، وعقدوا مقارنة بينها وبين فرقة مطافئ القصر كانت نتيجتُها طيبة بالنسبة لنا، وجرى الحديث عن ضرورة إعادة تنظيم فرقة مطافئ القصر، وحاجة ذلك المشروع إلى مُعلِّمين من القرية، وكان الواضح أن الاختيار سيقع على نفر معين، ولكن أبي كان يأمُل أن يقع الاختيار عليه. وكان يتحدَّث عن ذلك على طريقتِه اللطيفة وهو يُحيط نصف المائدة بذراعَيه، وينظر من خلال النافذة المفتوحة إلى السماء، وكان وجهه يبدُو أثناء ذلك شابًّا سعيدًا بالأمل، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أراه فيها على هذا النحو الذي لم يتكرَّر فيما بعد مُطلقًا. وهنا قالت أماليا بترفُّع لم نعهده فيها من قبل، إنه لا ينبغي أن يَثق الإنسان كثيرًا في مثل هذا الكلام الذي يُلقيه السادة، فقد اعتاد السادة على أن يقولوا في مثل هذه المناسبات كلامًا مفرحًا، ولكنه كلام ليس له إلا القليل من المعنى أو

ليس له شيء من معنى على الإطلاق، كلام ما يكاد الواحد منهم يفرغ من التلفُّظ به حتى ينساه إلى الأبد، وإذا جاءت مُناسبة أخرى تكرَّر وقوع الناس في الفخ نفسه. وأنكرت الأم على أماليا هذا الكلام، أما الوالد فقد اكتفى بالضحك من اصطناعها الفِطنة والخبرة، ثم تعثَّر فجأة وبدا عليه كأنه يبحث عن شيء لم يتبيَّن ضياعه إلا الآن فقط، ولكنه لم يكن قد ضيع شيئًا، بل قال: لقد حكى برونسفيك عن ساعٍ وعن خطاب ممزَّق، وسألنا إذا كنا نعرف شيئًا عن هذا الموضوع ومعناه والمقصود منه. ولكنَّنا صمتنا، إلا برناباس، وكان آنَذاك صغيرًا كالحَمل الصغير، فقد قال شيئًا شديد الغباءة أو الجرأة، وتحوَّل الحديث إلى موضوعات أخرى وتوارى هذا الموضوع في طيات النسيان.

عقوبة أماليا

وأردَفَت أولجا: إلا أنَّ الأسئلة ما لبثَت أن انهمرَت علينا من كل ناحية عن حكاية الخطاب، أتى إلينا بها الأصدقاء والأعداء، المعارف والأغراب. ولكن الناس كانوا لا يبقُون عندنا إلا قليلًا، حتى أحسن الأصدقاء كانوا يستأذنُون في الانصراف مُعجِّلين أشد التعجيل. ودخل علينا لازيمان، وكنَّا نعهدُه بطيئًا وقورًا، وبدا عليه كأنه أتى ليقيس أبعاد الحُجرة، لأنه دار ببصرِه دورة ثم انصرف. لقد كان مشهدًا يُشبه العبث الصِّبياني، فما إن انصرف لازيمان كالهارب حتى تملَّص أبي من الآخَرين وجرى وراءه إلى أن بلَغ العتَبة ثم تراجع. وأتى برونسفيك وأعلن أبي بأنه لن يعمل لديه بعد الآن، وقال إنه يريد أن يَفتتح محلًّا خاصًّا به، قال هذا بكل صِدق وأمانة، وقد كان ذكيًّا يعرف كيف يستغلُّ الفُرص. وأتى العملاء وأخذوا يستخرجُون من مخزن أبي أحذيتَهم التي كانوا قد أحضَرُوها للتصليح، وحاوَلَ أبي في بداية الأمر أن يُثني العملاء عن عزمهم — وساعدناه نحن جميعًا بكلِّ ما أوتينا من قوة — ولكنه ما لبثَ أن كفَّ عن المحاولة وأخذ بدلًا من ذلك يساعد العملاء في البحث عن أحذيتِهم، ويشطب من سجلِّ الأعمال سطرًا بعد سطر، كذلك أتى أصحاب الجلود الذين كانوا قد تركوا كميات من الجلود لدينا فأخذوها، وأتى أصحاب الديون واستردُّوا أموالهم، وتمَّ هذا كله دون أدنى شِجار، فقد كان الناس يَفرحون إذا تمكنوا من قطع صلتهم بنا سريعًا ونهائيًّا ولو نجمت عن ذلك خسارة، ولم يكن للخسارة على أية حال مكان. وأخيرًا حدث ما كنا نتوقعه؛ فقد أتى لازيمان رئيس فرقة المطافئ، وما زلت أرى المشهد أمام عيني كأنه حدث لتوِّه: لازيمان رجل طويل وعريض ولكنه مقوَّس الظهر ومريض بالسل،

رجل جاد لا يعرف الضحك يقف أمام أبي الذي كان يُعجب به، والذي وعده في ساعات الصفاء بأن يُعيِّنه في وظيفة مساعد رئيس فرقة المطافئ، يقف أمام أبي الآن ليقول له إن اتحاد المطافئ قد فصَلَه ويُطالبه برد الشهادة. وترك الرجال الذين كانوا موجودين في تلك اللحظة لدينا أعمالهم وتزاحموا حول الرجلين على هيئة دائرة. لازيمان لا يستطيع الكلام، وهو لا يفتأ يُربت على كتفي أبي وكأنه يريد أن يستخرج بالربت منه كلمات ينبغي عليه هو أن يقولها ولا يجدُها. وهو لا يكفُّ عن الضحك ولعله يريد بذلك أن يهدئ نفسه وأن يُهدئ الآخَرين، ولما كان لا يعرف الضحك، ولما لم يكن الناس قد سمعوه من قبل يضحك، فلم يخطر بباله أحد أن يُصدِّق أن هذا ضحك. أما أبي فقد وهنَ من ذلك اليوم، ويئس من مساعدة الآخَرين، بل إنه يبدو ضعيفًا إلى درجة لا يستطيع معها أن يُفكِّر في الأمر وعمَّ يدور. ولقد كنا كلنا يائسين على النحو نفسه، ولكنَّنا كنا شبابًا فلم نصدق بمثل هذه الهزيمة الكاملة، وكنَّا نعتقد أن صف الزوار الكثيرين سيأتينا في النهاية برجل يأمر بأن تقف الأمور عند حد، ثم يُرغمها على أن تغير اتجاهها. ولقد لاح لنا لجهلنا أنَّ لازيمان هو أنسب الرجال لهذه المهمَّة. وتوقعنا في لهفة أن تخرُج من بين هذا الضحك المُستمر في النهاية كلمة واضحة. وهل كان هناك شيء يُثير الضحك، شيء غير الظلم السخيف الذي حلَّ بنا. فيا سيادة الرئيس، يا سيادة الرئيس، قلْ هذا للناس. كان هذا هو الذي خطرَ ببالِنا فتزاحمنا مُقتربين منه مما اضطرَّه، لفرط دهشتنا، إلى حركات مُلتوية غريبة. وأخيرًا بدأ، لا بتحقيق أمانينا الكامنة، بل بالانصياع لصيحات الناس المشجعة أو الغاضبة، وهكذا تكلَّم. وكان الأمل لا يزال يُداعبنا. واستهلَّ بمدحٍ عظيم للوالد، وقال عنه إنه حلية اتحاد المطافئ، وقُدوة للجيل الجديد لا يصل إليها مُجتهد، وعضو في الاتحاد يكَد يُؤدِّي خروجه منه إلى تحطيمه. كان هذا جميلًا جدًّا، وليتَه سكت عند هذا الحد ولم يُكمل! ولكنه أكمل. فقال وإذا كان الاتحاد قد قرَّر أن يُطالب الوالد بالاستقالة، الاستقالة مؤقتًا، فواضح أن أسبابًا شديدة اضطرَّته إلى ذلك. ولعلَّ الأمور لم تكن لتصل إلى هذا الحد لولا الجهود الباهرة التي أظهَرَها الوالد في حفل الأمس، ولكن هذه الجهود أثارت انتباه السلطات بشكلٍ خاص، وأصبح الاتحاد الآن تحت الأضواء وأصبح عليه أن يهتمَّ بنظافته الآن أكثر مما كان يهتم به من قبل. ثم جاءت إهانة الساعي، فلم يجد الاتحاد له مخرجًا سوى اتخاذ هذا القرار، وتحمل هو، لازيمان، بالمهمَّة الشاقة، مهمَّة تبليغه. ورجا الوالد ألا يُصعبها عليه. وما أشد فرح لازيمان عندما تمَّ له هذا البلاغ! ولقد أحسَّ لذلك بالثقة التي حالت بينه وبين المبالَغة في الرقة، فإذا هو يُشير بإصبعه إلى الشهادة المعلَّقة على الحائط. وهزَّ الوالد رأسه وذهب

ليأتيَه بها، ولكنه لم يستطع أن يرفعها من فوق المسمار بيدَيه المرتعشتَين، فارتقيت كرسيًّا وأعنتُه على ذلك. ومنذ تلك اللحظة انتهى كل شيء. ولم يُخرج أبي الشهادة من الإطار الذي احتواها، بل قدَّمها إلى لازيمان كما هي. ثم جلس في أحد الأركان ولم يتحرَّك ولم يَعُد يتكلَّم مع أحد، وتكفَّلنا نحن بالتباحث مع الناس على قدر ما استطعنا.

وسأل ك: وأين هو تأثير القصر هنا في رأيك؟ والظاهر حتى الآن أنه لم يتدخَّل. إنَّ ما قصصتِه إلى الآن ليس إلا خوفًا استرسل إليه الناس بدون تفكير، وفرحًا منهم للضرِّ الذي لحق بالجار، وصداقة لم يُخلصوا لها، وهذه أشياء موجودة في كل مكان. ثم إن الموضوع بالنسبة للوالد — على الأقل فيما يبدو لي — لا يزيد عن أن يكون تفاهة. فما هي هذه الشهادة؟ إنها بيان بقُدراته، ولقد ظلَّت لديه هذه القدرات بعد سحب الشهادة، وهذه القُدرات هي التي جعلته رجلًا لا استغناء عنه، وهذا خير. ولقد كان في استطاعته أن يصعب الأمر على الرئيس لو أنه عندما سمع الكلمة الثانية رما إليه الشهادة عند قدمَيه. وقد لفت نظري بصفة خاصة أنكِ لم تذكُري أماليا مطلقًا وهي التي تسبَّبت في هذا كله، ولعلها كانت تقف في الخلف هادئةً وتنظر إلى الخراب.

فقالت أولجا: لا، لا يُمكن أن نوجِّه اللوم إلى أحد، فما كان في استطاعة أحد أن يتصرَّف على نحو آخر، لقد كان كل شيء من تأثير القصر.

وتلقَّفت أماليا العبار فكررتها: تأثير القصر.

وكانت أماليا قد دخلت من الفناء دون أن يلحَظها أحد، أما الوالدان فكانا قد تمدَّدا في الفراش منذ وقت طويل. وأردفت أماليا: هذه حكايات القصر تتحاكيانها؟ وما زلتما تَجلِسان معًا؟ ولقد كنت يا ك تُريد أن تستأذن في الانصراف من فورك، وها هي ذي الساعة تقترب من العاشرة. هل تهمُّك مثل هذه الحكايات؟ لدينا هنا أناس يعيشون على هذه الحكايات، فهم يجلسون معًا، كما تجلسان الآن، ويتجادلان فيها، وأنت على ما يبدو لي لست من هؤلاء الناس.

فقال ك: بلى! أنا منهم تمامًا! أما أولئك الذين لا يهتمون بمثل هذه الحكايات ويدعون الآخَرين يهتمُّون بها فلا أحفل بهم كثيرًا.

فقالت أماليا: هه! ولكن اهتمامات هؤلاء الناس مُختلفة أشد الاختلاف. ولقد سمعت عن شابٍّ كان يشغَل نفسَه آناء الليل وأطراف النهار بالتفكير في القصر وأهمل كل ما عداه حتى خاف الناس على عقله الذي كان مشغولًا بالقصر كله. وأخيرًا تبين أنه لم يكن القصر ذاته، بل ابنة غسالة تعمل في مكاتب المستشارية، ولقد نالها وأصبح كل شيء على ما يُرام.

فقال ك: إنني أظنُّ أن هذا الشاب قد يُعجبني.

وقالت أماليا: أما إن هذا الشاب قد يعجبك، فهو ما أشك فيه، وربما كانت زوجته هي التي تُعجبك! ولكن استمرا فيما أنتُما فيه دون ما إزعاج مني، فأنا ذاهبة للنوم، وأنا مُضطرَّة لإطفاء النور، بسبب الوالدَين، حقيقةً أنهما يغطَّان في نومٍ عميق، ولكن نومهما الحقيقي ينتهي بعد ساعة، فيَنزعِجان لأخفَتِ ضَوء. تُصبحان على خير.

وبالفعل أظلمت الدنيا على الفور، وأعدَّت أماليا لنفسها في مكانٍ ما على الأرض قرب سرير الوالدَين فراشًا.

وسأل ك: مَن هذا الشاب الذي تحدَّثَت أماليا عنه؟

فقالت أولجا: لا أعرف، لعله برونسفيك، وإن كانت القصة لا تنطبق عليه تمامًا، ولعله آخر. وليس من السهل فهم كلام أماليا، لأن الإنسان لا يعرف هل هي تتحدَّث بالتهكُّم أو بالجد، وهل في أغلب الأحيان تقول الجد وإن بدأ تهكمًا.

فقال ك: لندع التأويلات جانبًا. ولكن قولي لي كيف وصلت بك الحال إلى التبعية الشديدة لها؟ هل كانت كذلك قبل المِحنة الكبرى؟ أم صارت إلى ذلك بعدها؟ وألا يحدُوك الأمل في أن تَستقلي عنها؟ وهل هذه التبعية تَعتمِد على أساس ما من العقل؟ إن أماليا هي الصغرى وكان المفروض أن تُطيعك هي. ثم إنها قد تسببت، مذنبة كانت أو بريئة، في المحنة التي حلَّت بالأسرة. وبدلًا من أن تتوسَّل إليكم في كل يوم من جديد أن تغفروا لها، إذا هي ترفع الرأس عاليًا فوق الجميع، ولا تهتم بشيء، إلا بالوالدَين وعلى سبيل التكرم والتفضل، وهي لا تُريد أن تتعلم شيئًا، كما قالت بصريح العبارة، وإذا هي تكلمت معكم، فإن كلامها يكون في الغالب جادًّا وإن بدا تهكمًا. أم لعلها تتعالى لجمالها الذي أشرتِ إليه عدة مرات؟ وأنا أرى أنكم مُتشابهون أشد التشابه، وليست السمات التي تجعلها تختلف في الشكل عنكِ وعن برناباس، بالسمات المليحة، إنَّني عندما رأيتُها للمرة الأولى فزعت لنظرتها الباردة البليدة. ثم إنها، وهي الصغرى، لا تبدو هكذا للناظرين، إنها تبدو على تلك الصورة النسائية التي لا عمر لها، والتي لا توحي بأنها كانت في يوم من الأيام شابة. وأنتِ ترينها في كل يوم، ولا تحسين بصرامة وجهها. ولهذا فإنني، عندما أفكر في الأمر مليًّا، لا أحمل عاطفة سورديني نحوها محمل الجد الشديد، ولعله كان يقصد من الخطاب عقابها لا استدعاءها.

فقالت أولجا: كل شيء عند سادة القصر مُمكن سواء كانت البنت أجمل البنات أو كانت أقبح المخلوقات. إلا أنك تُخطئ في شأن أماليا خطأً كاملًا. وأنا لا أجد من الأسباب ما يدعوني إلى استمالتك إلى أماليا، وإنما أنا أحاول هذه المحاولة من أجلك أنت. لقد كانت

أماليا على نحو ما السبب في محنتِنا، هذا شيء مؤكَّد. ولكن الوالد نفسه وهو الذي عانى من المِحنة أشد مُعاناة والذي لم يستطع أن يتحكَّم في نفسه، وهو الذي عانى من ألفاظه وبخاصة في البيت، لم يوجه إلى أماليا في أقسى أوقات المحنة كلمة لوم واحدة. وليس هذا لأنه يقبل تصرُّف أماليا، فكيف يُمكنه وهو المعجب بسورتيني أن يقبله؟! إنه لم يستطع أن يفهم تصرُّفها بحالٍ من الأحوال. ولعلَّه كان يرضى بأن يُقدم نفسه وما ملك ضحية لسورتيني، ولكن ليس على النحو الذي جرى بالفعل، على أثر الغيظ الذي استبدَّ بسورتيني على ما يبدو. وأقول على ما يبدو لأنَّنا لم نسمع عن سورتيني شيئًا بعد ذلك مطلقًا. وإذا كان من قبل يعتزل الناس، فقد أصبح الآن وكأنه غير موجود. وكان الأحرى بك أن ترى أماليا في ذلك الوقت. لقد كنَّا نعرف جميعًا أننا لن نلقى عقابًا صريحًا. كل ما حدث أن الناس نفروا منا. الناس هنا وفي القصر. وبينما لاحظنا نفور الناس هنا، لم نلحظ شيئًا مما جرى في القصر. ونحن لم نكن فيما مضى نحسُّ شيئًا من عطف القصر، فكيف يُمكننا أن نتبيَّن تحولًا فيه؟! لقد كان هذا الهدوء هو أبشع شيء. لم يكن أبشع شيء هو نفور الناس عنا، لا، فقد كان من الممكن أن ينفرُوا منا اقتناعًا برأيٍ ما، ولعلهم لم يكونوا يحملون لنا شيئًا ذا بال، ولم يكن الاحتقار الحالي موجودًا آنذاك، لقد تصرفوا عن خوف، ثم أصبحوا يتلهفون على معرفة النهاية. ولم نكن نخشى جوعًا، فقد ردَّ إلينا المدينون جميعًا مالنا، وكانت نتيجة تصفية الحساب في صالحنا، وكان أقاربنا يُساعدوننا سرًّا بما نحتاج إليه من طعام، ولقد كان هذا سهلًا؛ لأنَّ الوقت كان وقت الحصاد. ولكننا لم نكن نمتلك أرضًا، ولم يكن الناس يرضون في أيِّ مكان بتشغيلنا حتى أوشكنا لأول مرة في حياتنا على البطالة. وهكذا كنا نجلس معًا، مُغلِقين النوافذ، في قيظ يوليو وأغسطس. فلم يحدث شيء. لم نتلقَّ دعوة للمُثول أمام محكمة، ولم نتلقَّ خبرًا، ولم نتلقَّ تقريرًا ولا زيارة، لم نتلقَّ أي شيء.

فقال ك: لم يحدث شيء، ولم تتوقَّعوا عقوبة صريحة، فممَّ كنتم تخافون؟ من بشر!

فقالت أولجا: كيف أشرح لك؟ لم نكن نخاف مِن شيء قادم، بل كنَّا نعاني من الحاضر، لقد كنا في وسط العقوبة. لقد كان الناس في القرية ينتظرُون أن نذهب إليهم، وأن يفتح الوالد محلَّه من جديد، وأن تعود أماليا، التي كانت تُجيد حياكة الملابس لا تعمل إلا لأوجه الوجهاء، إلى نشاطها، لقد أسف الناس لما قدمت أيديهم. هذا إلى أن القضاء النهائي على أسرة مرموقة في القرية له نتائجه السيئة التي يحلُّ طرف منها بكل فرد، ولقد اعتقد الأهالي، عندما انصرفوا عنَّا، أنهم يُؤدُّون واجبًا، ولعلنا لو كنا مكانهم لفعلنا نفس الشيء. ثم هم لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمر، كل ما عرفوه أن الساعي عاد إلى حان

السادة وقد امتلأت يدُه بالورق الممزَّق. ولقد رأته فريدا وهو يخرج من الحان ثم رأته بعد ذلك وهو يعود إليها، وتبادَلَت معه بعض الكلمات ثم أذاعت بين الناس على الفور ما نما إلى علمها. وهي لم تفعل ذلك لعداء حيالنا، ولكن لأن هذا كان واجبها، ولقد كان في الحالة نفسها واجب كل فرد. والمهم أن أكثر شيء يُرحِّب به الناس هو أن ينتهي الموضوع كله نهاية سعيدة. فلو أننا أتينا فجأة بخبر يقول إن كل شيء قد سُوِّي، وإن الموضوع كان يقوم على خطأ تكشَّفت حقيقته تمامًا، أو إن الموضوع سيئة تبعَتْها حسنة فمحَتها، أو إنه — وحتى هذا كان سيُرضي الناس — كانت جناية أمكنَنا بفضل علاقتنا بالقصر تسويتُها. لو فعلنا ذلك لأقبلوا علينا بكل تأكيد باشِّين فعانَقُونا وقبَّلُونا وأقاموا لنا الأفراح. لقد شهدتُ أشياء من هذا النوع من قبل مرارًا. بل إن مثل هذا الخبر لا ضرورة له. لو أننا ذهبنا إلى الناس أحرارًا طلقاء وعرَضنا عليهم أن نُعيد الصلات القديمة دون أن نشير بكلمة إلى حكاية الخطاب، لكان في ذلك الكفاية، ولصرفوا النظر جميعًا فَرِحين عن الخوض في الموضوع. لقد انفضَّ الناس عنا ليس فقط عن خوف، ولكنهم انفضُّوا عنا أيضًا عن خزي، لأنهم بكل بساطة لم يكونوا يريدون أن يسمعوا عن الموضوع شيئًا، ولا أن يتكلَّموا عنه، ولا أن يُفكروا فيه، ولا أن يتَّصلوا به بأي شكل. وإذا كانت فريدا قد أفشَت سرَّ الموضوع، فهي لم تفعل ذلك لكي تفرَح فينا، وإنما لكي تحميَ نفسها وتحمي الجميع منها، لكي تُنبِّه المجتمع إلى أن شيئًا قد حدث هنا، شيئًا ينبغي على الجميع أن يبذُلوا غاية الجهد للابتعاد عنه. ولم نكن نحن، ونحن عائلة تعيش هنا، المقصودِين بذلك ولكن الموضوع نفسه هو الذي كان مقصودًا، ولم نكن نحن مقصودين إلا من حيث صلتنا بالموضوع الذي تورَّطنا فيه. فلو أننا ظهرنا من جديد، وتركنا الماضي وشأنه، وبيَّنا بسلوكنا أننا تغلبنا على الموضوع بأي طريقة كانت، واقتنع الرأي العام على هذا النحو بأن الموضوع، مهما كان كنهُه، لن يعود إلى مائدة المناقشة مرةً أخرى، فإن كل شيء يسير إلى خير حال. إذن لوجَدنا المروءة التي عهدناها من قبل. وحتى لو لم ننسَ الموضوع القديم إلا إلى حدٍّ ما، فإن الناس كانوا سيفهموننا وسيُساعدوننا على نسيانها تمامًا. ولكننا بدلًا من أن نفعل ذلك قعدنا في البيت. ولست أعرف ماذا كنا نَنتظِر. ربما كنا ننتظر قرار أماليا؛ لأنها كانت قد انتزعت منفسها في ذلك الصباح القيادة وظلَّت تتشبَّث بها. ولم تكن تتوسَّل إلى ذلك بتصرفات خاصة ولا بأوامر ولا برجاء، بل كانت تَعتمِد على شيء واحد تقريبًا هو الصمت. وكنا نحن الآخرين عاكفين على التباحث والتشاور، كنا طوال النهار من الصباح إلى المساء نتهامَس بلا انقطاع، وكان أبي أحيانًا يحسُّ بفزع مُفاجئ فيناديني إليه، فأقضي نصف

الوقت بجوار فراشه. وكنا في بعض الأحيان نقعد أحدنا إلى الآخر، برناباس وأنا، ولم يكن برناباس يفهم آنَذاك من الأمر إلا قليلًا جدًّا، وكان يطالب دائمًا بتوضيحات حارة، يُطالب بنفس التوضيحات، لقد كان على الأرجح يعرف أنَّ السنوات الخالية من الهموم التي يأملها أقرانه لا وجود لها بالنسبة إليه — وهكذا كُنا نقعد معًا، على نحو يُشبه يا ك جلستنا الآن، وكنا ننسى أن الليل قد حل وأن الصباح قد انبلج. وكانت الأم هي أضعفنا جميعًا؛ لأنها على الأرجح لم تكن تحمل أحزاننا المشتركة فحسب، بل كانت تحمل فوقها أحزان كل منَّا على حِدَة، وهكذا لاحظنا مفزوعين تغيرات ظهرت عليها، كنا نتوقع في غير وضوح حدوثها، تغيرات كانت توشك أن تحيق بالأسرة كلها. كان المكان المفضَّل لها هو ركن أريكة — لم تَعُد الأريكة لدينا، بعد أن أخذها برونسفيك منذ وقت طويل، ووضعها في الحُجرة الكبيرة لديه — كانت تجلس هناك، وتنعس — ولم نكن نعلم ما بها بالضبط — أو كانت، على ما كنَّا نستشف من شفتيها، تُكلم نفسها كلامًا كثيرًا. لقد كان من الطبيعي أن نعكف على مناقشة حكاية الخطاب دوامًا، وأن نشقَّها طولًا وعرضًا، وأن نبحث كل تفصيلاتها المؤكدة، وكل إمكانياتها المريبة، وأن نتفوَّق بعضنا على البعض في ابتداع وسائل الحل الجيد، كان هذا أمرًا طبيعيًّا وأمرًا محتومًا في الوقت نفسه، ولكنه لم يكن من الخير في شيء، لأننا كنا لا نفتأ ننغمس في هذا الذي كنا نُريد أن نخلص منه. وماذا كانت فائدة هذه الأفكار الممتازة التي كانت تخطر ببالِنا؟ لم تكن من بينها فكرة يمكن تنفيذها بدون أماليا، لقد كانت كل هذه الأفكار مجرَّد تمهيدٍ، تمهيد أحمق؛ لأنَّ نتائجه لم تكن تصل إلى أماليا، ولو وصلت إليها لما لقيت لديها إلا الصمت. على أنني الآن لحسن الحظ أفهم أماليا أفضل ممَّا كنتُ أفهمها فيما مضى. لقد كانت تحمل أكثر ممَّا كنا نحمل جميعًا، وإن الإنسان ليعجز عن فهمِ كيف احتملت كل هذا وما زالت تعيش بيننا إلى الآن. ولعل أُمَّنا كانت تحمل آلامنا جميعًا، كانت تحملها لأنها حلَّت بها، ولكنها لم تستطع أن تصمد طويلًا. ولا يمكن أن نقول إنها لا تحملها الآن؛ فقد كانت فيما مضى كذلك مُضطربة العقل. ولكن أماليا لم تكن تَحمل الآلام فحسب، لقد كان لديها العقل الذي يمكنها من النظر في أعماقها، في الوقت الذي كنا نحن فيه لا نرى إلا النتائج، كانت هي ترى القاع، وكنا نأمل أن تتاح لنا بعض السُّبل اليسيرة، وكانت هي تعلم أن الأمر قد قُضي، وكنا لا نجد لنا ما نلوذ به سوى التهامُس، وكانت هي تلوذ بالصمت، لقد كانت تُواجه الحقيقة عينًا في عين وكانت تعيش وكانت تتحمَّل الحياة في ذلك الوقت كما تتحمَّلها الآن. لقد كانت أحوالنا في المحنة أفضل من أحوالنا بكثير. حقيقة أننا اضطُررنا إلى ترك البيت ليأتي برونسفيك ويُقيم فيه، وعيَّنوا لنا هذا الكوخ لنَنتقِل إليه،

وحملنا أشياءنا إليه على عربة يد نقلةً بعد نقلة، كنَّا — برناباس وأنا — نجرُّ العربة، وكان أبي وأماليا يدفعان من الخلف، أما الأم التي كنا قد نقلناها إلى الكوخ في البداية فكانت تَجلس في الكوخ على صندوق من الخشب وتستقبلنا بأنينٍ خفيض. ولكنني أذكر أننا حتى في أثناء جر العربة — ولقد كان جرُّها شيئًا مخجلًا لأننا كنا نلتقي في الطريق بعربات نقل المحاصيل وكان الذين يُرافقونها يتسمَّرُون ويُشيحون عنا بأبصارهم — كنا لا نكفُّ، برناباس وأنا، عن الحديث عن آلامنا ومشروعاتنا، وكنا أحيانًا نقف أثناء الكلام ولا نعود إلى السير إلا بعد أن يصيح فينا أبي «هاللو» مذكرًا إيَّانا بالواجب. ولكن هذه المباحثات كلها لم تُغيِّر من حياتنا شيئًا بعد انتقالنا إلى الكوخ، لم يتغيَّر من حياتنا شيء بعد انتقالنا إلى الكوخ، لم يتغيَّر من حياتنا إلا أننا بدأنا نحسُّ الفقر شيئًا فشيئًا. فقد توقَّفَت منح الأقارب، وفرغت أموالنا أو أوشكت، وفي ذلك الوقت بالذات بدأ الاحتقار الذي تَعرِفه ينصبُّ علينا. لقد لاحظ الناس أننا لم نتمكَّن من الخلاص من حكاية الخطاب، وغضبوا لذلك منا، ولكنهم لم يكونوا يستهينون بصعوبة المِحنة التي لم يكونوا يعرفونها، وإن كانوا يعلمون أنهم لو حلَّت بهم هذه البلية لما كانوا على الأرجح سيتغلَّبون عليها خيرًا منا، وكانوا لذلك يجدُون مزيدًا من الأسباب التي تحملُهم على الانفصال عنا. ولو أنَّنا كنا قد استطعنا أن نتغلَّب على هذه البلية لاحترَمَنا الناس أعظم الاحترام جزاءً لما تمكنا منه، أما وقد فشلنا فقد حول الناس المسلك الذي اتخذوه حيالنا مؤقتًا إلى مسلك نهائي: لقد نبذونا من كل مكان كانوا يختلفون إليه. وكفُّوا عن الحديث عنا حديثهم عن البشر، وعن ذِكر اسم عائلتنا، وكانوا يَذكروننا نسبةً إلى أخينا برناباس، فهو أكثرنا براءةً. حتى كوخنا ساءت سُمعته. وأنت لو صدقت مع نفسك لاعترفت بأنك عندما دخلت الكوخ هنا لأول مرة اعتقدت أنك تجد المُبرِّر لهذه السُّمعة القبيحة. كان الناس عندما يأتون إلينا يتأفَّفون من أتفَه الأشياء، مِن أن مصباح الغاز الصغير مثلًا يتدلى فوق المنضدة هناك. وهل هناك مكان آخر يتدلَّى فوقه إلا المنضدة؟ ولكنَّهم كانوا يجدون هذا شيئًا غير مُحتمَل. ولو أنك غيَّرت مكان المصباح لما غيَّر هذا شيئًا من نفورهم. كان الاحتقار ينصبُّ على كل ما كنَّا وكل ما أوتينا.

الالتماسات

– فماذا فعلنا في تلك الأثناء؟ فعلنا أقبح ما كان يُمكننا أن نفعل، فعلنا شيئًا كان ينبغي أن ينصبَّ علينا من أجل الواقعة الأصلية: لقد خنَّا أماليا، وانتزعنا أنفسنا من أوامرها الصامتة، فلم نكن نستطيع أن تستمرَّ حياتنا على هذا النحو، لم نكن نستطيع أن نعيش

بلا أمل، وشرعنا، كلٌّ بطريقته، نتوسَّل إلى القصر أو نندفع إليه راجين المغفرة كنَّا نعلم أننا لن نستطيع أن نُصحِّح شيئًا، وكنا نعرف أن الصلة الوحيدة التي بيننا وبين القصر والتي كان يمكن أن نُعلِّق بها الأمل وأعني بها سورتيني، الموظف الميال إلى أبي، قد تبددت نتيجةً للأحداث، ولكننا مع ذلك بدأنا العمل. وبدأ أبي. وبدأت التوسُّلات الحمقى إلى الناظر والأمناء والمحامين والكتبة. ولم يكن الموظفون في غالبية الأحوال يستقبلونه، فإذا تمكَّن بالحيلة أو عن طريق المصادفة من مقابلة بعض الموظفين — وكم كنا نُهلل لذلك فرحين ونفرك أيدينا! — فقد كان هؤلاء يطردُونه بأقصى سرعة ولا يستقبلونه بعد ذلك أبدًا. وكان من اليسير عليهم الرد عليه، وما أسهل هذه المهمَّة على القصر. فماذا كان يريد؟ ماذا حدث له؟ لماذا يطلب الصفح؟ متى وممَّن امتد إليه إصبع واحد من القصر؟ حقيقة أنه كان قد انتهى إلى الفقر، وأنه قد فقدَ عُملاءه، وما إلى ذلك، ولكن تلك كانت من الظواهر التي تطرأ على الحياة اليومية للناس، كانت مِن مسائل الحرف والأسواق، وهل ينبغي على القصر أن يهتمَّ بكل شيء؟ والحقيقة أن القصر يهتمُّ بكل شيء، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتدخَّل تدخُّلًا مباشرًا غليظًا في تطور الأمور لا لهدف إلا خدمة مصلحة رجل واحد. هل كان ينبغي على القصر أن يُرسل موظَّفيه للجري وراء العملاء وإعادتهم إلى أبي عنوةً؟ وكان أبي يعترض قائلًا — وكنا نحن نناقش هذه الأشياء بدقة من قبلُ في البيت ثم نتكور بعد ذلك في ركن من الأركان وكأننا نتوارى عن أماليا التي كانت تلاحظ ما يجري كله ولا تتدخَّل فيه — إنه لا يشكو من الفقر لأنه يستطيع بسهولة أن يعرض الخسارة التي لحقَت بتجارته، وهذه كلها مسائل ثانوية إذا ما صفح القصر عنه. وكانوا يُجيبون عليه قائلين: وكيف يُمكن للقصر أن يصفح؟ ليس هناك اتهام إلى الآن، ليس هناك اتهام مثبت في السجلات، على الأقل في السجلات المسموح للمحامين بالاطلاع عليها، والنتيجة، على قدر ما تُبيِّن الأوراق، أنه ليس هناك شيء اتخذه ضده، وأنه ليس هناك ما يوشك أن يُتخذ ضده. وهل يمكنه أن يذكر القرار الرسمي الذي صدر ضده؟ لم يكن أبي يستطيع ذلك. أم هل حدث تدخل من جانب جهاز من الأجهزة الرسمية؟ لم يكن أبي يعلم شيئًا عن هذا. وما دام لا يعرف، وإذا لم يكن هناك شيء قد حدث، فماذا يريد؟ عمَّ يُريد الصفح؟ ربما عن إزعاج السلطات بلا هدف، وهذا شيء لا سبيل إلى الصفح عنه. ولم يكن أبي يتراجَع، ولقد كان في ذلك الوقت لا يزال قويًّا، وكان البطالة المفروضة عليه تتيح له من الوقت الكثير. «سأسترد لماليا شرفها وما وقت ذلك ببعيد» — هذا ما كان يقوله أبي لبرناباس وأحيانًا لي مرارًا كل يوم، ولكنه لم يكن يقوله إلا بصوت خفيض، فلم تكن أماليا لتسمعه. وهو لم يَقُله إلا من

أجل أماليا، والحقيقة أنه لم يكن يُفكِّر في استرداد الشرف، بل كان يفكر في شيء واحد هو الصفح، ولكن الحصول على الصفح كان يفترض إثبات الذنب أولًا، وهذا ما كانت المكاتب تُنكره عليه إنكارًا. وانتهى إلى التفكير — وهذا يدلُّ على أن عقله كان قد ضعف — في أنهم يُخفون عنه الذنب لأنه لا يدفع بما فيه الكفاية، فلم يكن حتى ذلك الحين يدفع إلا الرسوم المحددة والتي كانت — على الأقل بالنسبة لظروفنا — مرتفعة ارتفاعًا كبيرًا. وهكذا أصبح يعتقد أنه ينبغي عليه أن يدفع المزيد، ولا شك أنه كان مخطئًا في هذا؛ ذلك أن الموظفين في المكاتب لدينا يقبضون الرشاوي ولكنهم لا يفعلون ذلك إلا ليوفروا على أنفسهم كلامًا لا يجدي ولا يفيد، ولكنك لا تحصل لقاء الرشوة على شيء. ولقد كان هذا هو أمل أبي ولهذا فلم نشأ أن نزعجه وبعنا ما بقيَ لدينا — ولم يكن ما بقي لدينا إلا الأشياء التي لا سبيل للاستغناء عنها تقريبًا — حتى نمدَّ الوالد بالمال اللازم لبحثه وتقصيه، وظللنا لوقت طويل نجد الرضا عندما نسمع الوالد على الأقل يُشخلِل ببعض العملة في جيبه وهو يخرج إلى مسعاه في كل صباح. أما نحن فكنا بطبيعة الحال نجوع النهار، ولا نصل إلى نتيجة لتدبير المال إلا إلى الإبقاء للوالد على شيء من الابتهاج بالأمل. ولم يكد يكون في هذا خير. فلم يلبث أن أحسَّ بالتعب في مشاويره، وطالت الأمور التي كانت توشك على الانتهاء لولا انسياب المال. ولما لم يكن هناك مَن يستطيع أن يُحقِّق في الحقيقة شيئًا خارقًا للمألوف، فقد تظاهر بعض الكتبة في بعض الأحيان بأنه يفعل شيئًا مُلمِّحًا إلى أن بعض الآثار قد ظهرت وأنه لن يتتبعها تنفيذًا لواجب مفروض وإنما حبًّا في الوالد، وبدلًا من أن يزداد الوالد ريبةً، ازداد تصديقًا. وعاد الوالد بوعد من هذا النوع واضح السخف وكأنه عاد إلى البيت بالبركة كل البركة، وكان من المؤلم أن نراه وهو يُحاول من وراء ظهر أماليا، أن يفهمنا أن نجاة أماليا التي لن تُفاجئ إنسانًا أكثر منها هي، قد أصبحت بفضل جهودِه وشيكة، وأن كل شيء لا يزال سرًّا ينبغي علينا أن نُخفيه أشد الإخفاء. من المؤكد أن الحال كانت ستستمر على هذا المنوال طويلًا، لو لم تتحوَّل إلى العجز التام عن إمداد الوالد بالمال. حقيقةً أن برونسفيك كان، بعد إلحاحٍ كثير وتوسلٍ، قد قبِل تعيين برناباس لدَيه مُساعدًا — على أن يذهب برناباس إليه في الظلام الدامس بالليل ليأخذ ما يكلَّف به من عمل ثم يُعيده بعد ذلك في الظلام الدامس — ولا بدَّ أن نَعترِف بأن برونسفيك قد عرض أعماله من أجلنا لشيء من الخطر، ولكنه لم يكن يدفع لبرناباس إلا النذر اليسير، وإن عمل برناباس لعمل جيد لا يعتوره أدنى عيب — ولكن الأجر الذي كان يحصل عليه كان لا يكفي إلا بشِقِّ الأنفس ليدفع عنا غائلة الجوع. وأعلن الوالد، بعد تمهيد كثير، وعلى نحو فيه الترفُّق

الشديد به، أننا سنقطع عنه التدعيم المالي، ولكنه تقبل إعلاننا في هدوء كبير. لم يعد في إمكانه أن يرى بالعقل أن مساعيَه لا تؤدي إلى نتيجة، ولكنه كان قد تعب على الرغم من ذلك نتيجةً لضروب الخيبة المُتواترة.

حقيقةً إنه كان يقول — ولم يكن آنَذاك يتكلَّم بوضوح وهو الرجل الذي كان من قبل يتكلَّم بوضوحٍ يُوشك أن يكون مفرطًا — أنه لم يكن سيَحتاج إلا القليل من المال، لأنه كان سيعلَم الخَبر اليقين في الغد أو اليوم، وأن كل الجهود التي بذلها راحَت أدراج الرياح وأنها إنما فشلت بسبب المال، وما إلى ذلك، ولكن نبرة كلامه كانت تدلُّ على أنه لم يكن يُؤمن بصحة هذا الرأي. ثم إنه بدأ على الفور مُباشرةً في مخطَّطات جديدة. ونظرًا لأنه لم يتمكَّن من إثبات الذنب، ولم يكن في مقدورِه نتيجةً لهذا أن يصلَ إلى شيء عن طريق الجهاز الحكومي، فقد تحتَّم عليه أن يُحول جهوده كلَّها إلى التوسُّل والالتجاء إلى الموظَّفين شخصيًّا. ومن المؤكد أنه كان من بين الموظفين رجال قلبهم طيب شفوق ليس له أن يحتكم إليهم طالما كانوا في المكتب، ولكنهم قد يلينون له في خارجه إذا ما فاجأهم الإنسان في ساعة ملائمة.

وهنا قطع ك الرواية التي كان حتى ذلك الحين يُنصت إليها بأذن صاغية، سائلًا أولجا: وأنت لا تَستصوِبين ذلك؟

حقيقةً أن الرواية كانت ستُجيب حتمًا على هذا السؤال، ولكنه كان يريد أن يعرف الجواب الآن.

وقالت أولجا: لا. فليس هناك مجال للشفقة أو لما شابه ذلك. ولقد كنا نعرف ذلك على الرغم من أننا كنا صغارًا غررًا، وكذلك كان أبي بطبيعة الحال يعرف، ولكنه كان قد نسيَ ذلك كما نسيَ غالبية الأمور الأخرى. ووضع الوالد خطة تقوم على أن يقف على مقربة من القصر في المكان الذي تمرُّ منه عربات الموظفين، وأن يحاول ما استطاع أن يتقدم بالتماس الصفح. وهذه، إذا أردنا الصراحة، خطة مجرَّدة من العقل تمامًا، وما كان يمكن أن تؤدي إلى نتيجة حتى ولو حدث المستحيل ووصل الالتماس بالفعل إلى مسمع أحد الموظفين. فهل يمكن لموظف واحد أن يصفح؟ لا يمكن، على أحسن الفروض، أن يكون الصفح إلا من شأن السلطة كلها، ويبدو أن السُّلطة نفسها لا تستطيع أن تصفح، وأن كل ما تستطيع فعله هو نقل ما يصل إليها. ثم هل يستطيع موظَّف ما، حتى إذا نزل من العربة واهتمَّ بالموضوع، أن يُكوِّن صورةً عنه من غمغمة أبي الفقير المرهق الهَرِم؟ والموظفون مثقفون ثقافة جيدة، ولكنهم متخصِّصون في ناحية بعينها، ويكفي أن يسمع الموظف كلمة واحدة

في ناحية تخصصه ليفهم على الفور الكثير، أما إذا كان الموضوع خارجًا عن تخصُّصه، فيُمكنك أن تشرحه له ساعات طوال. ولعله يهز رأسه عن أدب، ولكنه لن يفهم منه شيئًا. هذه كلها أمور بديهية. ويمكن أن نتأمل المسائل الحكومية التي تخصُّنا، إنها شيء هينٌ يُنجزه الموظَّف بهزَّة من كتفه، فإذا ما حاولنا نحن أن نفهم أصلها فقد نضيع حياتنا ولا نصل إلى شيء. وحتى لو التقى الوالد بالموظَّف المختص، فلن يستطيع هذا الموظف أن ينجز شيئًا بدون ملفات، ولن يستطيع أولًا وقبل كل شيء آخر أن يُنجز شيئًا في الشارع، وهو لا يستطيع أن يصفح، بل يستطيع أن ينجز الموضوعات بالطريقة الحكومية، ولهذا فهو سيُحيل الطالب إلى سبيل الحكومة من أجل هذا الهدف، ولقد حاول الوالد من قبلُ أن يَصِل عن طريق الحكومة إلى شيء ففشل كل الفشل. ولا بد أن الوالد قد بلغ من ضعف العقل درجة بعيدة فظن أنه يستطيع أن يصل بهذا المخطط الجديد إلى شيء. ولو كان هناك أدنى احتمال من هذا النوع لامتلأ الشارع بحمَلَة التوسُّلات والرجاءات. لقد كانت هناك استحالة يعرفها مَن أوتي أبسط تعليم، ولهذا كان الشارع خاويًا. ولعلَّ تلك الحال كانت تقوي الوالد فيما عقد عليه الأمل، فقد كان يَلتمِس القوة في كل ناحية. ولقد كان بحاجة شديدة إلى هذا. فما كان ينبغي للعقل السليم أن يَستسلِم إلى مثل هذه الأفكار الكبيرة، بل كان ينبغي عليه على أقصى تقدير أن يتبيَّن الاستحالة واضحةً جلية. والموظَّفون عندما يستقلُّون العربات ذاهبَين إلى القرية أو عائدَين إلى القصر، لا يتنزَّهون، بل هناك عمل ينتظرهم في القرية وفي القصر، ولهذا فهم يندفعون بأقصى سرعة. ولا يخطر ببالهم حتى أن يتطلَّعوا من نافذة العربة بحثًا عن طالب حاجة في الخارج … وإنَّ العربة لتغصُّ بالملفات التي يعكف الموظَّفون على دراستها!

وقال ك: ولكنَّني رأيت باطن زحافة أحد الموظَّفين ولم يكن بها ملفات.

لقد انفتح أمام ك في حكاية أولجا عالم عظيم يُوشك أن يكون عصيًّا على التصديق حتى إن ك لم يستطع أن يمنعَ نفسه من أن يتحرَّك إليه بخبراته القليلة ليقنع نفسه بوجود هذا العالم وليقنع نفسه هو بوجوده الذاتي على نحو أكثر وضوحًا.

وقالت أولجا: هذا مُمكِن. وفي هذه الحالة يكون الموضوع أشدَّ وأعنف، ومعنى هذا أن الموظَّف يُعالج مسائل هامة جدًّا ملفاتها ثمينة أو ضخمة لا يُمكن أخذها في العربة، وفي هذه الحالة يأمُر الموظف بأن تندفع الخيول التي تجر العربة بسُرعة أكبر. وليس هناك على أية حال مَن يمكن أن يمنح الوالد شيئًا من الوقت. هذا إلى أن الطرق الموصلة إلى القصر كثيرة، وتارةً تكون هذه الطريق هي المفضَّلة فإذا الغالبية يسلُكونها، وتارةً تكون طريق

أخرى هي المفضَّلة فيَندفعون إليها. ولم يتوصَّل أحد للآن إلى القواعد التي يقوم عليها هذا التغيير. فهم في الساعة الثامنة صباحًا قد يتحوَّلون إلى طريق أخرى، وما تمرُّ عشر دقائق حتى يسلكون ثالثة، وقد يعودون بعد نصف ساعة إلى الأولى ويظلُّون عليها طوال اليوم، ولكن احتمال التغيير قائم في كل لحظة. حقيقةً، إن الطرق كلها تتلاقى على مقربة من القرية، ولكن العربات كلها تندفع هناك بسرعة هائلة حتى إذا كانت على مقربة من القصر سارت بسرعة مُعتدلة نوعًا ما. وكما أن سير العربات في الطرقات يستعصي على الفهم ولا يلتزم بنظام، كذلك عدد العربات. فهناك أيام لا تظهر فيها عربات على الإطلاق، وهناك أيام تكثر العربات فيها كثرة شديدة. ويمكنك أن تتصوَّر حال والدنا حيال هذا كله. إنه يرتدي أحسن حلة — وتكاد تكون هي حلته الوحيدة — ويخرج في كل صباح تصحبه دعواتنا. ويأخذ معه شارة صغيرة من شارات المطافئ — والحقيقة أنه احتفظ بها بغير حق — ويعلقها على سترته خارج القرية، وهو يخشى أن يفعل ذلك في القرية، على الرغم من أن هذه الشارة صغيرة جدًّا لا يكاد إنسان يراها على بُعد خُطوتين، ولكن الوالد يرى أنها تصلح لاجتذاب أنظار الموظفين المندفعين بعرباتهم إليه. وهناك على مسافة غير بعيدة عن الطريق المؤدية إلى القصر مزرعة يُمثلها رجل اسمه برتوخ يُورِّد الخضروات إلى القصر، وقد اختار الوالد مكانه على القاعدة الحجرية الضيقة لسور المزرعة الحديدي. ولقد صبر برتوخ على هذه الحال لأنه كان فيما مضى صديقًا للوالد وكان من أخلص عملائه؛ ذلك أن قدمه مصابة بشيء من التشويه، وكان يعتقد أن الوالد هو الوحيد الذي يستطيع أن يصنع له حذاءً يُناسبها. وهناك جلس الوالد اليوم تلو اليوم، وكان الوقت خريفًا تعكَّره جوُّه، وكَثُرت أمطاره، ولكن الوالد لم يكن يعبأ بالجو وأحواله على الإطلاق. كان الوالد يضع يده في الصباح في ساعة معيَّنة على مقبض الباب، ويُلوِّح إلينا مودعًا، وكان يعود في المساء — وكان يبدو لنا كأنه كان يزداد كل يوم انحناءً — كان يعود وقد ابتلَّ ما عليه من ثيابٍ أشد البلل، فيُلقي بنفسه في ركن. وكان في بداية الأمر يحكي لنا عن خبراته اليسيرة، يحكي مثلًا أن برتوخ أخذته الشفَقة به والصداقة القديمة فألقى إليه من فوق السور بطانية، أو يحكي أنه يظن أنه تبيَّن في إحدى العربات التي مرَّت به هذا أو ذاك الموظف، أو يحكي أن حوذيًّا عرفه فمسَّه بجلدة السوط مداعبًا. ولكنَّه فيما بعد كف عن هذا الحديث، ويبدو أنه فقد الأمل في أن يصل هنا إلى شيء، على أنه ظل يَعتقِد أن واجبه أو مهمته الفظيعة تفرض عليه أن يذهب إلى هناك وأن يقضي اليوم بِطُوله هناك. وفي ذلك الوقت بدأت آلامه الروماتزمية، كان الشتاء يقترب، وتساقط الثلج مبكرًا، والشتاء عندنا يبدأ مبكرًا. وهكذا كان يجلس

هناك تارةً على الحجر المبلَّل بمياه المطر، وتارةً يجلس في الثلج. وكان في الليل يتأوَّه من فرط آلامه، وكان في بعض الأحيان يحتار في الصبح ولا يعرف هل يخرج أو يبقى، ثم كان يتغلب على حيرته وينصرف. وكانت الأم تتعلَّق به وتُحاول منعه من الخروج، فسمح لها، ويبدو أنه فعل ذلك عن خوفٍ تملَّكه بعد أن أصبحت أعضاؤه لا تُطيعه، بأن تذهب معه، وهكذا استبدت الآلام بأمي هي الأخرى. وكثيرًا ما كنا نذهب إليهما، نحمل إليهما الطعام أو نقوم بزيارتهما فحسب، ونحاول إقناعهما بالعودة إلى البيت. وكم كنا نراهما هناك خائرَين يعتمد أحدهما على الآخر على مقعدهما الضيق وقد التفا في غطاء واحد رقيق لا يكاد يشملهما معًا وليس حولهما إلا صفحة رمادية من الثلج والضباب لا يرى الناظر فيها مهما بعُد ببصرِه طولًا وعرضًا لأيام كثيرة عربةً أو إنسانًا! يا له من منظر! يا له من منظر يا ك حتى جاء صباح لم يستطع الوالد فيه أن يُنزل ساقَيه المتخشبتَين من السرير. لقد كانت حالة كئيبة! كان في غمرة هذَيان الحمى يتصوَّر كأن عرَبة وقفت الآن في المكان العالي عند برتوخ ونزل منها موظف وبحث عنه على طول السور ثم عاد إلى العربة غاضبًا، يهزُّ رأسه أسفًا! وكان الوالد يُصدر في تلك الأثناء صرخات عالية وكأنما كان يريد من مكانه هنا أن يلفت نظر الموظَّف إليه وأن يشرح له أنه لا ذنب له في الغياب عن السور. وطال الغياب، فلم يَعُد إلى مكانه هناك قط، وأصبح عليه أن يَلزم الفراش الأسابيع الطوال. وتولَّت أماليا شأن الخدمة والرعاية والعلاج، واستمرت على ذلك حتى اليوم باستثناء فترات قليلة. وهي تعرف بعض الأعشاب التي تُهدئ الآلام، ولا تكاد تحتاج إلى النوم، ولا تفزع بحال من الأحوال، ولا تخاف، ولا تحيد عن الصبر أبدًا، وهي تقوم بالأعمال اللازمة للوالد والوالدة. وإذا كنَّا نحن نحوم هنا وهناك حائرين دون أن نتمكَّن من المساعدة بشيء، فإنها تظلُّ هي في كل المواقف هادئة فاترة. فلمَّا تجاوَز الوالد الخطر وأصبح في مقدور الوالد أن يَهبِط من الفراش مُستندًا على شيء من يمين ويسار في حيطة وبجهد جهيد، تراجعت أماليا وتركته لنا.

مخططات أولجا

– واتجه التفكير الآن في إيجاد عمل للوالد تكون لديه القدرة عليه؛ أي عمل يجعله على الأقل يعتقد أن الغرض منه هو درء الذنب عن الأسرة. ولم يكن من الصعب العثور على عمل من هذا النوع، ولم يكن القعود أمام مزرعة برتوخ في الحقيقة سوى عملًا قوامُه النيَّة والنية فقط، ولكنَّني وجدتُ عملًا أعطاني بعض الأمل. كان الحديث إذا دار في المكاتب أو

على لسان الكتبة عن ذنبنا، يقتصر على الإشارة إلى إهانة ساعي سورتيني، ولم يكن هناك مَن يجرؤ على الدخول في الأمر إلى أبعد من هذا الحد. وعلى هذا قلت في نفسي، إذا كان الرأي العام، على الأقل فيما يبدو، لا يعرف إلا عن إهانة سورتيني، فمن المُمكن، على الأقل ظاهريًّا، إصلاح الموضوع إذا ما طيَّبنا خاطر الساعي. فليس هناك عريضة اتهام، على نحو ما قالوا، وليس هناك مكتبٌ يعالج الموضوع، ولهذا فللسَّاعي حرية الصفح عما مسَّ شخصه، وما يزيد الموضوع في الحقيقة عن ذلك. ولم يكن من المُحتمل أن يتَّسم هذا الأمر بأهمية حاسمة، فما كان إلا أمرًا ظاهريًّا، وما كان يُمكن أن يتطوَّر على نحوٍ آخر. وستكون النتيجة أن الوالد سيَبتهِج، ولعلَّنا نستطيع إرضاءً له أن نضيِّق الخناق على أولئك الذين قدموا إليه المعلومات والبيانات وعذبوه بها، وكان أول ما ينبغي فعله هو بطبيعة الحال العثور على الساعي. فلما حكيت للوالد عن الخطة غضب في بداية الأمر غضبًا شديدًا، لأنه كان قد أصبح عنيدًا مُفرطًا في العند، وكان تارةً يعتقد — ولقد حدث هذا أثناء مرضِه — أننا عُقناه عن الوصول إلى النجاح النهائي بقَطعنا العون المالي عنه أولًا، وبإلزامه الفراش الآن، وكان تارةً أخرى عاجزًا عن استيعاب أفكار الآخرين. وكان أن رفض الخطة قبل أن أفرغ من عرضها، وكان رأيه أنه ينبغي عليه أن يستأنف الانتظار عند مزرعة برتوخ، ولما لم يكن يستطيع السعي إلى هناك على قدميه كل يوم، فمن الواجب أن ننقله إلى هناك بعربة اليد. ولكنَّني لم أفقد الأمل، وكررت المحاولة وإذا به يتقبل الفكرة تدريجيًّا، ولم يكن يُزعجه إلا أنه سيكون في الأمر كله تابعًا لي، فأنا التي كنتُ قد رأيت الساعي آنذاك، وهو لا يعرفه، والحقيقة أن السعاة يتشابهون، وأنني لم أكن واثقة تمام الثِّقة من أنني سأتعرَّف على الساعي المقصود إن رأيته. وبدأنا نذهب إلى حان السادة ونبحث بين الخدم. والحقيقة أن الساعي كان خادمًا لدى سورتيني، وكان من المحتمَل جدًّا أن نجده بين خدم سيدٍ آخر، وإذا لم نتمكَّن من العثور عليه، فربما كان من المُمكن أن نحصل على أخبار عنه من الخدم الآخَرين. وكان ينبغي علينا لهذا أن نذهب في كل مساء إلى حانة السادة، ولم يكن هناك مكان نَلقى فيه ترحيبًا، فما بالك بهذا المكان الذي لم يكن كل مَن لدَيه مال يستطيع الظهور فيه. ولكنَّهم هناك تبيَّنوا أنهم يحتاجون إلينا، وأنت لا شك تعرف كيف كانت فريدا تُعاني من الخدم معاناتها من الكارثة الحالة، والحقيقة أن الخدم في الغالب أناس هادئون دلَّلهم العمل الخفيف وأصابهم بالتثاقُل. والموظَّفون عندما يدعو أحدهم للآخر دعوة طيبة يقولون «عسى تنعم بما ينعم به الخدم!» ويقال إن الخدم هم — من ناحية التنعُّم — السادة الحقيقيون في القصر، وهم يعرفون كيف يَظهرون بمظهرٍ هادئ

وقور حيث يخضعون لقوانين القصر — وقد أكَّد لي الكثيرون هذه الحقيقة — ونحن نجد هنا بقايا من هذا المسلك، ولكنها مجرَّد بقايا، وفيما عدا ذلك يبدو الخدم هنا في القرية حيث لا تسري عليهم قوانين القصر كاملة وكأنهم يتحوَّلون إلى أناس آخرين. إنهم هنا جمهرة غاشمة جامحة لا تخضع للقوانين بل تخضع لشهواتها التي لا تشبع. إن فجورهم لا يعرف حدًّا، ومن حسن حظ القرية أنهم لا يخرجون من حان السادة إلا بأمر، أما في حان السادة فينبغي على المرء أن يجد وسيلة للتصرُّف معهم. ولقد لقيَت فريدا في هذا السبيل صعوبة شديدة، ولهذا رحَّبت ترحيبًا كبيرًا باستخدامي لتَهدئة الخدم. فأنا أذهب منذ أكثر من عامين على الأقل مرتَين أسبوعيًّا فأقضي الليل مع الخدم في الحظيرة. وكان أبي فيما مضى، عندما كان يستطيع الذهاب معي إلى حانة السادة، ينام في ركن ما بقاعة الشراب ويَنتظِر قدومي في الصباح المبكِّر بأخبار جديدة. وكانت تلك الأخبار قليلة جدًّا. ونحن إلى اليوم لم نَعثُر على الساعي الذي نبحث عنه، ويقال إنه لا يزال يعمل في خدمة سورتيني الذي يقدره أشد التقدير، ويقال إنه تبعه عندما انتقل ليَعتكِف في مكتبٍ بعيد من مكاتب المستشارية. وكانت حال غالبة عليه مثل حالنا، قد مضى عليهم وقتٌ طويل لم يَروه، وإذا ادعى أحدهم أنه رآه، فلم يكن ادِّعاؤه إلا خطأً. وبهذا قد يمكن القول بأن خطتي فشلت، ولكنها في الحقيقة لم تفشل كليةً، فنحن لم نجد الساعي، وحالة الوالد قد تدهوَرت للأسف تمامًا نتيجة لذهابه إلى حان السادة ونَومِه هناك، وربما كذلك نتيجة لإشفاقه عليَّ — على قَدرِ ما كان قد بقيَ لديه من قُدرة على الإشفاق — وانتهى إلى الوضع الذي رأيته عليه، ولعلَّ حالته أفضل من حالة الأم التي نتوقَّع في كل يوم وفاتها، وما يؤجل وفاتها إلا جهد أماليا الخارقة للمألوف في العناية بها. أما الشيء الذي حقَّقته في حان السادة فيتمثل في ارتباطٍ ما بالقصر. ولا تحتقرني إذا قلت لك إنني لا أندم على ما فعلت. ولعلك تتساءل عما يُمكن أن يكون عليه هذا الارتباط من الأهمية. وأنت على حق. فليس الارتباط كبيرًا. فأنا أعرف الآن خدمًا كثيرين، أو أعرف على وجه التقريب خدمَ كل السادة الذين نزلوا إلى القرية في السنوات الماضية، وإذا أنا ذهبت يومًا إلى القصر، فلن أكون غريبة هناك. حقيقةً إن هؤلاء الذين أعرفهم هم الخدم في القرية، وإنهم في القصر غيرهم هنا، ولعلَّهم وهم هناك لا يعرفون أحدًا، وبخاصة لا يعرفون مَن كانت لهم به علاقة في القرية، على الرغم من أنهم قد أقسموا لي في الحظيرة مائة مرة على أنهم سوف يفرحون أشد الفرح بلقائي في القصر. ولقد علمت قلة ما تعنيه مثل هذه الوعود. ولكن هذا ليس أهم ما في الأمر. فإن علاقتي بالقصر لا تقوم على الخدم فحسب، بل تقوم على

أنني أتوقع وآمُل أن يكون هناك واحد يلاحظني ويلاحظ ما أعمل — وليس من شكٍّ في أن إدارة الخدم الكثيرين قسم بالغ الأهمية، جم الاهتمام في الديوان — وأن هذا الذي يلاحظني قد يصل إلى حكم عليَّ أكثر رقة، وقد يتبيَّن أنني أقوم — بطريقة مؤسفة حقيقةً — بالنضال من أجل أسرتنا وباستئناف جهود الوالد. وإذا تصور الإنسان الأمر على هذا النحو فقد يغفر لي قبولي المال من الخدم وصرفه على أسرتنا. هذا إلى أنني حققتُ شيئًا آخر، لا شك في أنك ستُضيفنه إلى ذنبي. لقد عرفت من الخدم شيئًا عن كيفية الوصول إلى الدخول في خدمة القصر بطرق ملتوية، ودون ما حاجة إلى طريقة التعيين العامة الصعبة التي تطُول إلى أعوام، والحقيقة أن الإنسان لا يُصبح بهذه الطرق المُلتوية موظفًا عامًّا، بل موظفًا سريًّا بنصف ترخيص، ليس له حقوق وليس عليه واجبات، وأقبح ما في الأمر أن الإنسان لا تكون عليه واجبات، وإنما يتحقَّق للإنسان شيء، وهو أنه يكون بجوار كل الأمور: فيستطيع أن يتبيَّن الظروف السانحة وأن يَنتهزَها، وإذا لم يكن الإنسان موظَّفًا، فقد يجد بالمصادفة عملًا ما، فقد يحدث أن يُستدعى موظفٌ ليس موجودًا في تلك اللحظة بالذات، فيعجل الإنسان بتلبية النداء، وإذا به يصبح ما لم يكن منذ لحظة: يصبح موظفًا. ولكن متى يجد الإنسان مثل هذه الفرصة؟ ربما في الحال، فما يكاد الإنسان يدخل، ما يكاد يتلفَّت حواليه، حتى تكون وهو المبتدئ يُدركها وينتهزها، وربما مرَّت السنوات التي تزيد على المدة التي تتطلَّبها طريقة التعيين الرسمية دون أن يجد الإنسان الفرصة، ومَن كان موظفًا بنصف ترخيص من هذا النوع لا يحقُّ له أن يدخل سلك الوظائف بالطريقة الرسمية. وهذا يعني أن المحاذير كثيرة. ولكنها قليلة بالقياس إلى طريقة التعيين الرسمية التي تُدقِّق أفظع التدقيق في الاختيار والتي لا تنبذ من البداية مَن كانت عائلته مشبوهة في سمعتها، إن مَن كانت تلك هي حالة يَرتعد سنوات طويلة عندما يتقدم للتعيين عن هذا السبيل انتظارًا للنتيجة، والجميع يسألونه من كل ناحية مُندهِشين منذ اليوم الأول كيف يجرؤ على السعي إلى شيء ميئوس منه على هذا النحو، ولكنه يتعلق بشيء من أمل وإلا كيف يُمكنه أن يعيش؟! وتمر أعوام طويلة، ربما يكون قد أصبح بعدها شيخًا مُتقدمًا في السن، ويتلقَّى الرفض، ويعلم أن كل شيء قد ضاع وأن حياته كانت عديمة الجدوى. وهناك بطبيعة الحال استثناءات، وهذا هو ما يُغري. فقد يحدُث أن يقبل في نهاية المطاف أناس من ذوي السُّمعة المشبوهة، وهناك موظَّفون يحبون رغم إرادتهم رائحة مثل هذه الحياة الغشيمة، فإذا هم أثناء اختبارات التعيين يُشمشمون بأنوفهم، ويزمُّون بأفواههم، ويقلبون عيونهم، فمثل هذا الرجل المشبُوه السُّمعة يلوح لهم جذابًا مثيرًا للشهية إلى درجة هائلة،

فلا يستطيعون مقاومته إلا بالاستمساك العنيف بكتب القانون وما احتوَت من مواد. وقد يحدث في بعض الأحيان ألا يساعد ذلك الرجل على التعيين، بل يؤدي إلى إطالة إجراءات التعيين إطالة لا نهاية لها فهي لا تنتهي إلى نهاية بل توقف بعد وفاة الرجل. وهكذا فإن طريقة التعيين الرسمية القانونية، وكذلك الطريقة الأخرى تمتلئان جميعًا بالصعوبات المكشوفة والمُستترة، ومن الفطنة أن يزن الإنسان الأمور كلها وزنًا دقيقًا قبل أن يُقْدِم على شيء من هذا القبيل. ولقد عكفنا برناباس وأنا على وزن الأمور وزنًا دقيقًا، كنا نجلس معًا، عندما أعود من حان السادة، فأحكي الجديد من الأخبار التي نَمَت إلى عِلمي، ونظلُّ عاكفين على مناقشتها الأيام الطوال، وكان العمل يظلُّ في يد برناباس أطول ممَّا ينبغي. وربما وقع عليَّ في رأيك هنا ذنب. لقد كنت أعرف أن حكايات الخدم لا يَعتمِد عليها كثيرًا، وكنت أعرف أنهم لم يكونوا يحبُّون الحديث إلا عن القصر، وأنهم كانوا يحولون انتباهي إلى أمور أخرى، وأنهم كانوا لا يقولون الكلمة إلا بعد توسُّل واستجداء، ولكنَّهم كانوا إذا تحرَّكت نفوسهم، يتكلمون فيُثرثرون بالكلام الفارغ، ويبالغون ويتزايَدون في المبالغة والتخريف، فلا يكون على ما يبدو في التصايح اللانهائي الذي يتبع الواحد فيه منهم الآخر على أفضل الفروض أكثر من بضع إشارات ضئيلة. أما أنا فكنتُ أحكي لبرناباس كل شيء على نحو ما شاهدت ولاحظت، وكان هو — ولم تكن لدَيه القدرة على التمييز بين الصدق والكذب، وكان نتيجة لوضع أسرتنا مُتعطشًا إلى الاستماع إلى مثل هذه الأشياء — يتجرع هذه الأخبار تجرعًا ويتحرَّق شوقًا إلى مزيد. وهكذا وقعت خطتي التالية بالفعل على برناباس. لم يَعُد هناك أمل في بلوغ المزيد عن طريق الخدم. ولم يكن هناك من سبيلٍ إلى العثور على ساعي سورتيني، ولم يكن هناك أمل في العثور عليه يومًا ما، ولاح الأمر كان سورتيني وبالتالي الساعي يَنحازان إلى بعيد، وكثيرًا ما اكتنف منظرُهما واسمهما النسيان، وكنتُ أضطرُّ في أحوال كثيرة إلى وصفهما بإسهاب ولا أصِلُ في النهاية إلى نتيجة أكثر من أن سامعي يذكرهما بصعوبة ولا يستطيع أن يذكُر لي من أمرهما أكثر من هذا. أما حياتي مع الخدم فلم يكن لي بطبيعة الحال تأثير على كيفية الحكم عليها، وكنتُ آمُلُ أن ينظر إليها على النحو الذي تسير عليه، وأن يَقتطع شيء ولو ضئيل من ذنب الأسرة، ولكني لم أجد من الدلائل ما يُبين لي ذلك. ومع ذلك فقد بقيت عليها، نظرًا لأنني لم أكن أعرف لي إمكانية أخرى للحصول على شيء في القصر. ولكني وجدت لبرناباس إمكانية في القصر. ذلك أنني كنت عندما أرغب — ولقد كنتُ شديدة الرغبة — أستطيع أن أتبيَّن أن مَن يدخل في خدمة القصر يستطيع أن يُحقِّق الكثير لعائلته. والسؤال هو بطبيعة الحال إلى حدٍّ يُمكن تصديق

هذه الحكايات؟ لم يكن من الممكن تبيان هذا، ولكنَّني كنت على بيِّنة من أن ما يمكن الوصول إليه على هذا النحو قليل. فإذا أكَّد لي مثلًا خادم لن أراه في المستقبل أبدًا، وحتى لو رأيته فلا يكاد يكون في مقدوري معرفته، أنه سيُساعد أخي على الحصول على وظيفة في القصر، أو أنه سيُساعده على الأقل إذا ما هو أتى إلى القصر بأيِّ وسيلة، فيقدم إليه مثلًا ما ينعشه — فقد علمت من حكايات الخدم أنَّ المتقدمين للوظائف يفقدون الوعي أثناء فترة الانتظار الطويلة أو يَضطرِبون فيضيع عليهم كل شيء إذا لم يتولَّ الأصدقاء إنعاشهم — فإنني أحمل هذه الحكايات على أنها تحذيرات صحيحة على ما يبدو، وإن كنت متأكِّدة من أن الوعود المتصلة بها لا أساس لها. ولم يكن الأمر على هذا النحو بالنِّسبة لبرناباس. حقيقةً إنني حذَّرته من أن يصدق هذه الحكايات، ولكنَّني ما كدت أحكي له حتى كفاه هذا سببًا لقبول مشروعاتي. ولم تكن حكاياتي أنا هي التي أثَّرت عليه الأثر الأكبر، بل أثرت عليه خاصةً حكايات الخدم. وهكذا وجدت أنني لا أعتمد إلا على نفسي وحدي كل الاعتماد، فلم يكن هناك مَن يستطيع التفاهم مع أبي وأمي سوى أماليا، وكانت أماليا تعتزلني أكثر فأكثر كلَّما أمعنت في استئناف مخطَّطات أبي على طريقتي، وهي قد تتكلَّم معي أمامك أو أمام الآخرين، ولكنَّنا لا نتكلَّم معًا مُطلقًا عندما نكون وحدنا. ولقد تحوَّلت في يد الخدم في حان السادة إلى لعبة كانوا يَبذُلون كل الجهود لتحطيمها مُغتاظين. إنني لم أتكلَّم مع واحد منهم في السنتين الماضيتين كلمة واحدة تقوم على الألفة والود، فكل الكلام هناك خبثٌ وكذبٌ وجنونٌ، وهكذا لم يَعُد أمامي سوى برناباس، ولقد كان برناباس صغير السن جدًّا. وكنتُ وأنا أحكي له حكاياتي وأرى في عينيه البريق الذي احتفظ به منذ ذلك الحين، أفزع، ولكنني لم أكن أتراجع، لأن اللعبة كانت تغري بالكثير. وأنا لم أكن أتابع بطبيعة الحال مخطَّطات كمخططات أبي التي كانت كبيرة وإن كانت في الوقت نفسه فارغة جوفاء، ولم يكن لديَّ تصميم الرجال، ولهذا اكتفيت بالسعي لإصلاح إهانة الساعي، وكنت أرجو أن يذكر التواضع من بين ميزاتي. وهكذا أخذت أسعى عن طريق برناباس سعيًا وثيقًا وعلى نحو مختلف إلى تحقيق ما قد فشلت أنا في تحقيقه. لقد أهنا ساعيًا وتسبَّبنا في انعزاله عن المكاتب القريبة، فليس هناك شيء أقرب إلى التفكير من أن نُقدِّم في شخص برناباس ساعيًا آخر، ونجعل برناباس يقوم بعمل الساعي المهان، ونُمكِّن بهذا للساعي المهان من البقاء في البعد هادئًا ما شاء من وقتٍ حتى ينسى الإهانة. والحقيقة أنني تبيَّنت أن هذه الخطة المُتواضِعة لا تخلو من تكبُّر، فهي قد تُوحي بأننا نريد أن نُملي على السلطات كيف تُنظِّم شئون الأفراد أو بأننا نشكُّ في أن السلطات لها القُدرة من تلقاء ذاتها على اتخاذ أفضل

التدابير، بل في أنها قد اتَّخذت من تلقاء ذاتها بالفعل أفضل التدابير قبل أن يخطُر ببالنا بوقتٍ طويل أن هناك ما يُمكن اتخاذه من تدابير. ولكنَّني عدتُ أعتقِد أنه من المحال أن تُسيء السلطات فهمي إلى هذا النحو، وإنَّ السلطات إذا فعلت هذا فإنها لا تفعلُه إلا بغرضٍ وعن قصد، ومن هنا فإنَّ فكرة بحث كل ما أقوم به من جهود مرفوضة أصلًا. ولهذا فلم أنصرف عما انتوَيت عليه، وأعانني على ذلك طموح برناباس. ولقد استبدَّ الكِبْر ببرناباس في فترة التمهيد والاستعداء حتى إنه اعتبر العمل في صناعة الأحذية عملًا قذرًا بالنسبة إليه عندما يصبح في المستقبل موظفًا في المستشارية. بل إنه تجاوَزَ ذلك وأصبح يجرؤ على مُعارضة أماليا إذا تحدَّثت إليه بكلمة، وهو ما كان يحدث نادرًا، وكان يُعارضها عن مبدأ. وسمحت له عن طيب خاطر بهذه المُتعة السريعة التي انتهَت هي والكبرياء بسرعة، كما كنت أتوقَّع، في اليوم الأول لذهابه إلى القصر. وبدأ برناباس عمله الظاهري الذي حكيتُ لك عنه. وكان دخول برناباس للمرة الأولى بدون صعوبة إلى القصر أو على الأصح إلى هذا القِسم من الديوان الذي سيُصبح، إنَّ صح التعبير، مكان عملِه مثارًا للدهشة. لقد أوشك هذا النجاح الذي حقَّقه أن يذهب بعقلي آنذاك، وجريت من فوري إلى أماليا، عندما همس إليَّ برناباس في طريق عودته إلى البيت بالخبر، وأمسكتُ بها، وضمَمتُها إليَّ في ركن، وقبَّلتُها بشفتي وأسناني بعنف فبكَت من الألم والفزع. ولم أستطع من فرط انفعالي أن أقول لها شيئًا، ثم إننا لم نكن قد تحادثنا معًا منذ وقت طويل، فأجَّلت الحديث إلى يوم تالٍ. فلما كانت الأيام التالية لم يَعُد هناك كلام يقال. فلم يزد ما بلغناه بسرعة بعد ذلك شيئًا. وظلَّ برناباس عامَين كاملين يعيش هذه الحياة الرتيبة المُقبضة. لقد أعرض الخدم كل الإعراض، وكنتُ قد أعطيت برناباس خطابًا صغيرًا أوصيت الخدم فيه بأن يولوه اهتمامهم، وذكَّرتهم فيه بوعودهم. وعلى الرغم من أن برناباس كان أحيانًا يقع على خدم لا أعرفهم، وبالرغم من أن طريقة برناباس كانت تُثير الغيظ؛ فقد كان ينشر الخطاب ويصمُت ولا يجرؤ على الكلام في المكان العالي، فإنه من المخجل أنهم لم يُساعدوه، حتى جاءه أحدهم بالخلاص — خلاصًا وكان يمكننا نحن أن نحققه وحدنا ومنذ وقت طويل — ولعلَّ هذا الخادم الذي جاءه بالخلاص كان قد رأى الخطاب عدة مرات يُبسط أمامه ويفرض عليه فرضًا. ولم يكن الخلاص يتمثَّل إلا في أنه أخذ الخطاب وكمشه في يده وألقى به في سلة المهملات. ولقد خطر ببالي أنه أوشك أن يقول: «إنكم قد اعتدتُم على معالجة خطاباتنا على النحو نفسه.» وعلى الرغم من أن هذه الفترة ظلَّت بلا نتيجة فإنها كانت طيبة التأثير على برناباس، إذا شاء الإنسان أن يرى أثرًا طيبًا في أنه تقدَّم في السن قبل الأوان وأصبح رجلًا قبل الأوان. أما

أنا فكثيرًا ما كنتُ أحسُّ بالحزن عندما أتطلَّع إليه وأقارنه بالصبي الذي كانَهُ قبل عامَين. هذا على الرغم من أنني أفتقر إلى السلوى والمسانَدة اللتَين يُمكن أن يمنحني إياهما عندما يكون رجلًا. إنه ما كان ليَصِل إلى القصر بدوني، لكنه منذ وصل إلى هناك أصبح مُستقلًّا عني، وأنا صفيَّته الوحيدة، ومع ذلك فهو بكل تأكيد لا يحكي لي إلا جزءًا صغيرًا مما يُثقل قلبه. إنه يحكي لي كثيرًا عن القصر، ولكن الإنسان لا يستطيع استنتاجًا من حكاياته ومن الوقائع الصغيرة التي يذكرها أن يفهم ولو من بعيد، كيف حوره القصر وجعله على هذا النحو. إن الإنسان لا يستطيع بصفة خاصة أن يفهم كيف فقدَ الآن، وقد أصبح رجلًا، الشجاعةَ كل الشجاعة التي كانت لدَيه صبيًّا، والتي كانت آنذاك عنيفة نخشى كلنا نتائجها كل الخشية. إن الوقوف والانتظار باستمرارٍ يومًا بعد يوم بدون فائدة، وبدون ما أمل في التغيير، يُصيبان الإنسان بالخور واليأس، ويجعلانه في النهاية عاجزًا عن أن يفعل شيئًا سوى هذا الوقوف اليائس. ولكن لماذا لم يُقاوم فيما مضى؟ إنه لم يفعل لأنه تبيَّن بعد قليل أنني كنتُ على حق، وأن الطموح لا هدفَ له هناك، إلا احتمال تحسين وضع أسرتنا. ذلك أن كل شيء هناك — باستثناء نزوات الخدم — مُتواضِع جدًّا، إن الطموح يلتمس إشباعه في العمل، ونظرًا لأن الموضوع يكتسي في هذه الحالة بالأهمية الكبرى، فإن الذات تتلاشى تمامًا، وليس هناك مكان للرغبات الصبيانية. ولقد اعتقد برناباس، على ما حكى لي، أنه رأى بوضوحٍ عِظَمَ سلطانٍ وعِلمَ الموظَّفين، حتى أولئك الموظفون الذين تحوم حولهم الشكوك الكثيرة، والذين أتيح له أن يلج حُجرتهم. لقد رأى كيف يملُّون بسرعة بعيون توشك أن تنقفل، وأيدٍ لا تأتي إلا بحركات قصيرة، وكيف يُنهون الأعمال مع الخدم الغلاظ بحركة من السبابة لا ينطقُون معها بكلمة، فيهرع الخدم في تلك اللحظات وهم يلهثون في صعوبة ويبتسمون في سعادة، ورأى كيف يجدون النص المعقَّد في كتبهم وينكبُّون عليه، وكيف يندفع الآخرون، على قدر ما يسمح لهم المكان الضيق بالاندفاع، ويمدُّون نحوه رقابهم. وكان أن أحدثت هذه الأشياء وأشباهها في ذهن برناباس صورًا عظيمة لهؤلاء الرجال، وأحسَّ بأنه، لو تمكن من أن يجعلهم يلحظونه ويسمحون له بأن يتحدَّث إليهم ببضع كلمات — لا باعتباره غريبًا، ولكن باعتباره زميلًا في المستشارية ... زميلًا قليل الرتبة بطبيعة الحال — فإنه سيتمكَّن من تحقيق أشياء لأسرتنا لا قِبَل لأحد على التنبؤ بها. ولكنه لم يصل إلى هذا الحد، وبرناباس لا يجرؤ على فعل شيء من شأنه أن يَقربه إليه، على الرغم من أنه يعرف تمامًا، أنه بغض النظر عن شبابه وسط أسرتنا، قد تقدَّم نتيجةً للظروف المؤسفة إلى مرتبة رب الأسرة المثقلة بالمسئولية. وهنا أَصِل إلى آخر ما أعترف لك

به: لقد أتيت أنت إلى هنا منذ أسبوع. وسمعت أنا في حان السادة شخصًا يُشير إلى ذلك فلم أعبأ بالأمر. لقد أتى موظَّفُ مساحة. ولم أكن أعرف حتى معنى العبارة. وفي المساء التالي جاء برناباس إلى البيت مبكرًا، وكنتُ مُعتادة على الذهاب لملاقاته في ساعة معيَّنة والسير معه جزءًا من الطريق، فرأى أماليا في الحجرة، ولهذا جرَّني إلى الشارع ووضَع وجهَه على كتفي وبكى عدة دقائق. لقد تحوَّل من جديدٍ إلى الصبي الذي كانه فيما مضى. لقد حدث له شيء لم ينمُ بعدُ النموَّ الكافي لاحتماله. كان يبدو وكأن عالمًا جديدًا انفتح أمامه فجأةً وكأنه لا يستطيع تحمُّل ما في هذا الجديد من سعادة وهموم. ولم يكن ما حدَث له يزيد عن أنه تلقَّى خطابًا ليُسلِّمه إليك. ولكن هذا الخطاب كان الخطاب الأول، وكان العمل الأول الذي يوكَل إليه.

وسكتَت أولجا. وساد المكان سكون، إلا من صوت تنفُّس الوالدَين الثقيل الذي كان من حينٍ لآخر يتحوَّل إلى حشرجة. وقال ك ببساطة وكأنه يكمل رواية أولجا: لقد تنكَّرتم أمامي، وأحضر برناباس إليَّ الخطاب وكأنه ساعٍ قديم كثير العمل، وكذلك تصنَّعتِ أنت وأماليا — وفي هذا كنتما مُتفقتَين — أن إحضار الخطابات ومهمَّة الساعي من الأمور الثانوية.

فقالت أولجا: ينبغي أن تُفرِّق بيننا. أما برناباس فقد تحوَّل نتيجة للخطابَين على الرغم من شكوكه في عمله إلى صبي سعيد. وهذه الشكوك تمسُّه هو وتمسني أنا، أما أنت فإنه يتشرف بأن يَظهر حيالك بمظهر الساعي الحقيقي على قدر ما يتصوَّره. ولقد كلَّفني على سبيل المثال، على الرغم من أن أمله في الحصول على بدلة رسمية قد تزايد، بأن أغيِّر له في ظرف ساعتَين شكل سراويله حتى يكون شكلها على الأقل مُشابهًا لشكل سراويل البدلة الرسمية، وحتى يلوح لك، لأنَّ خداعك في هذه الناحية بطبيعة الحال أمر هينٌ، في هيئة لا تُثير شكوكك. هذا عن برناباس. أما أماليا فإنها في الحقيقة تحتقر عمل السُّعاة، وهي الآن تحتقره أكثر من ذي قبل بعد أن لاح على برناباس أنه حقَّق فيه شيئًا من النجاح، ومن السهل عليها أن تتبيَّن ذلك من هيئة برناباس ومن جلوسنا معها وتهامُسنا. فهي إذن صادقة في كلامها، ولا ينبغي أن تشكَّ في كلامها هذا بحالٍ من الأحوال وإلا ضللت في شكل كلِّ الضلال. هذا عن أماليا. أما أنا فإذا كنت، يا ك، قد قلَّلت في بعض الأحيان من قدر عمل الساعي، فلم أكُن أقصد إلى خداعك، بل كنت أتصرَّف عن خوف. فهذان الخطابان اللذان مرَّا عن طريق يد برناباس هما آية المنَّة الأولى — وإن كان الشك يكتنفها من كل جانب — التي تتلقَّاها أسرتنا منذ ثلاث سنين. وهذا التحول — إذا كان في الحقيقة تحولًا وليس

خداعًا، فالخداع أكثر من التحول — يرتبط بوصولك إلى هنا، ولقد ارتبط مصيرنا بمصيرك بنوعٍ ما من التبعية، ولعلَّ هذين الخطابين مجرد بداية، ولعل عمل برناباس كساعٍ يتجاوز حدود مهمَّته معك إلى ما عداها — وهذا شيء نتمناه ما استطعنا. ولكن الأمور إلى الآن لا تتجه إلا إلى هدف واحد هو أنت. أما فيما يختص بالقصر فينبغي علينا أن نرضى بما يُقسم لنا هناك، وأما فيما يختص بالقرية هنا، فربما استطعنا أن نفعل نحن شيئًا، أعني: ضمان رضاك أو على الأقل اتقاءَ نفُورك، وأهم من هذا وذاك حمايتك بكل ما أوتينا من قوة وخبرة حتى لا تضيع عليك الصِّلة بالقصر، تلك الصلة التي ربما نستطيع الحياة منها. وكيف السبيل إلى تدبير هذا على أحسن وجه؟ ألا تُساورك الشكوك حيالنا عندما نقترب منك، لأنك هنا غريب ولأنك بكلِّ تأكيد تمتلئ من كل ناحية بالشك، بالشك الذي له ما يُبرِّره. ونحن نتعرَّض للاحتقار، وأنت تتأثَّر بالرأي العام وتتأثَّر خاصةً بخطيبتك. فكيف نتقدَّم نحوك، دون أن نقف في وجه خطيبتك — وليس هذا غرضَنا — ودون أن نحدث بك نتيجة لذلك الألم؟ ثم إنَّ الرسائل التي قرأتها أنا بدقَّة قبل أن تتسلَّمها أنت — ولم يقرأها برناباس لأنه لا يسمح لنفسه كساعٍ بمثل هذا التصرف — لاحت لي من النظرة الأولى غير ذات أهمية كبيرة، وقديمة، ولقد تجرَّدت من الأهمية بتحويلها إياك إلى رئيس القرية. فكيف يكون سلوكنا حيالك فيما يختصُّ بهذه الناحية؟ هل نؤكد لك أهميتها، فنضع أنفسنا موضع الريبة؟ إننا بهذا نبالغ في قيمة شيء تفاهته واضحة، ونحضُّك، باعتبارنا حمَلَة الأخبار على أن تسير إلى أهدافنا لا إلى أهدافك، لقد كان في استطاعتنا أن نُقلِّل من أهمية الأخبار نفسها في نظرك، وأن نغشك رغمًا عنا. هل ننصرف عن إضفاء قيمة كبيرة إلى الخطابات، فنضع أنفسنا كذلك في موضع الريبة؟ فلماذا نشغل أنفسنا بتوصيل هذه الخطابات العارية عن الأهمية؟ ولماذا تناقضَت أفعالنا وكلماتنا، ولماذا خدعناك، وخدعنا علاوةً عليك صاحب العمل الذي لم يُسلمنا بكل تأكيد الخطابات لكي نجرِّدَها من القيمة لدى مُتسلمها بما نقدم إليه من تفسيرات؟! والحل الوسط، أي اتخاذ موقف بين المبالغة إلى هذه الناحية والمبالغة إلى تلك، وبعبارة أخرى الحكم على الخطابات الحكم الصحيح، مُستحيل. فهذه الخطابات نفسها تغير قيمتها باستمرار، والأفكار التي تدفع الخطابات إلى تكوينها، لا نهاية لها، والفكرة التي يتوقَّف الإنسان عندها تحدث بالمصادفة، وهذا يعني أن الرأي وليد المصادفة. فإذا تدخل الخوف عليك في الأمر، اضطرب كل شيء. ولا ينبغي أن تحكم على كلامي حكمًا قاسيًا مفرطًا في القسوة. فعندما يأتي برناباس، على سبيل المثال — وهذا قد حدث — ويقول إنك غير راضٍ عن خدمة الساعي، وأنه عرَضَ، وهو في غمرة

الفزع الأول وعلى نحو لم يتجرَّد للأسف من حساسية السُّعاة، أن يعتزل هذه الخدمة، فإنني مُستعدَّة تصحيحًا للخطأ للخداع والكذب والغش، وارتكاب الشرور من كل نوع إذا كانت تُعين على شيء. ولكنَّني في هذه الحالة أتصرَّف على هذا النحو، على الأقل حسب اعتقادي، من أجلك ومن أجلنا.

وقرع أحدهم الباب، وهُرعت أولجا إلى الباب وفتحته، فانساب في وسط الظلام شريط من الضوء المُنبعِث من المصباح في الخارج.

وألقى الزائر المتأخِّر أسئلة هامسة، وتلقَّى عليها إجابةً هامسة، ولكنه لم يرضَ بها، وأراد أن يدخل إلى الحُجرة. ويبدو أن أولجا لم تستطع ردَّه فنادَت على أماليا، والظاهر أنها كانت تتوقَّع منها أن تفعل ما في مقدورها لتُبعد الزائر صونًا لنوم الوالدَين. وبالفعل أسرعت أماليا ودفَعَت أولجا جانبًا وخرجت إلى الشارع وأغلقت وراءها الباب. ولم تبقَ في الخارج سوى لحظة واحدة، وعادَت توًّا، وقد حقَّقت بسرعة ما عجزت عنه أولجا.

وعلم ك من أولجا أن الزائر كان يُريده هو، وأن الزائر هو أحد المساعدَين أتى بتكليفٍ من فريدا للبحث عنه. وأرادت أولجا أن تحمي ك من المساعد، وإذا كان ك ينوي أن يعترف فيما بعد بالزيارة فله أن يفعل، ولكنها لم تُرِد أن يكتشفَه المساعد. ووافق ك على رأيها. ولكن ك رفض عرض أولجا بأن يقضيَ الليلة هنا وينتظر عودة برناباس. والحقيقة أنه لم يكن مِن المُستبعَد أن يقبل العرض لأن الوقت كان قد تأخَّر، هذا إلى أن ك تصور أنه، سواء رضي أم لم يرضَ، قد أصبح مُرتبطًا بهذه الأسرة، بحيث أن قبوله النوم هنا، وإن كان لاعتبارات أخرى شيئًا مؤسفًا، هو أكثر الأمور طبيعية بالنسبة إليه في القرية كلها، ومع ذلك فقد رفَض؛ لأن زيارة المساعد قد أفزعته، ولم يفهم كيف أن فريدا، التي تَعرف ما صمَّم عليه، لم تتردَّد، وقد عاد إليها المساعدان اللذان تعلَّما كيف يخشيانه، في إرسال أحد المساعدَينِ إليه، نعم أحد المساعدَينِ، بينما بقيَ الآخر لديها. وسأل أولجا عما إذا كان لديها سَوط، فعلم أن ليس لديها، ولكنه وجد لديها عصًا جيدة فأخذها، وسأل أولجا هل للبيت مخرج آخر، وعلم أن البيت له بالفعل مخرجٌ آخر يُؤدي إلى الفناء، وعلى مَن يُريد أن يصل من خلاله إلى الشارع أن يتسلَّق جدار الحديقة المُجاوِرة وأن يجتاز هذه الحديقة حتى يصل إليه. وقرَّر ك أن يسلكه. واقتادَته أولجا خلال الفناء إلى السور، وكان في أثناء ذلك يُهدِّئ على عجلٍ من روعها، ويُوضِّح لها أنه غير غاضب عليها لما عمدت إليه من لمسات فنية صغيرة أضافتها إلى روايتها، بل إنه على العكس من ذلك يفهمها كل الفهم، ويشكُرها على الثِّقة التي أولته إيَّاها والتي برهنَت عليها بروايتها، وكلَّفها بأن ترسل إليه برناباس

فور عودته إلى المدرسة حتى ولو في ظلمة الليل. وقال لها إنَّ رسائل برناباس ليست في الحقيقة كل أملِه، وإلا لكانت حاله في غاية السوء، ولكنه لا يريد بحال من الأحوال أن يُفرط فيها، إنه يريد أن يتمسَّك بها، وألا ينسى أولجا، فهي تكاد تكون أهم من الرسائل: أولجا بشجاعتها وسعة أفقها وفطنتِها وتضحيتها من أجل أسرتها. وإذا كان عليه أن يختار بين أماليا وأولجا فلن يحتاج في ذلك إلى تفكيرٍ كثير. وصافحها بحرارة بينما اندفع متسلقًا جدار حديقة الجيران.

الفصل السادس عشر

فلمَّا وصل إلى الشارع، رأى — على قدر ما كانت الظُّلمة العكرة تسمَح بالرؤية — المساعد إلى بعيد أمام بيت برناباس، يروح ويجيء، ويقف أحيانًا ويُحاول أن يلقى من خلال النافذة ذات الستارة شيئًا من الضوء. ونادى ك عليه، فلم يبدُ عليه أنه فزع، بل ترك التجسُّس وأقبل ناحية ك. وسأله ك وهو على فخذه مرونة العصا: عمَّن تبحث؟

فقال الساعي وهو يقترب: عنك؟

وقال ك فجأة وكأنما تصوَّر أن الرجل ليس الساعي. ذلك أن الرجل الذي كان يُمثل أمامه كان يلوح له أكثر سنًّا، وأشد تعبًا، وأكثر تجعدًا، وأسمى وجهًا، بل إن طريقة مشيه كانت تختلف عن طريقة المشي السريعة المكهربة التي كان المساعدان يصطنعانها ... كان بطيئًا يعرج ويبدو عليه المرض. وسأل الرجل ك: ألا تعرفني؟ أنا يريمياس مساعدك القديم.

– هكذا!

وسحب العصا إلى الأمام قليلًا وكان قد واراها خلف ظهره وأردف: ولكن مظهرك مُختلف تمامًا!

فقال يريمياس: السبب في ذلك أنني وحدي، وعندما أكون وحدي، يولي عني الشباب البهيج.

وسأل ك: وأين أرتور؟

فقال يريمياس: أرتور؟ الحبيب الرقيق لقد ترك الخدمة. لقد كنتَ غليظًا قاسيًا معنا. فلم تحتمل النفس الرقيقة هذه المعاملة. فعاد إلى القصر ليُقدِّم شكوى منك.

وسأل ك: وأنت؟

– كان في مقدوري أن أبقى، وأرتور يتولى تقديم شكواي نيابةً عني.

وسأل ك: وممَّ تشكوان؟

فقال يريمياس: نشكو من أنك لا تفهم المزاح. فماذا فعلنا؟ لقد مزحنا قليلًا، وضحكنا قليلًا، وعاكَسنا خطيبتك قليلًا، أما كل ما عدا ذلك فكان في حدود المهمَّة. وعندما أرسلنا جالاتر إليك …

فسأل ك: جالاتر؟

فقال يريمياس: نعم جالاتر، وكان آنَذاك يحلُّ محلَّ كلم. أقول عندما أرسلنا جالاتر إليك، قال — وأنا سجلت ذلك بدقة، لأنَّنا نعتمد عليه الآن في شكوانا — اذهبا إلى هناك مساعدينِ لموظف المساحة. فقلنا له: إننا لا نفهم شيئًا في هذا العمل. فرد علينا بقوله: ليس هذا أهم ما في الأمر، وإذا كانت له بذلك حاجة فسوف يُعلِّمكما. أما أهم ما في الأمر فهو أن تُسرِّيا عنه قليلًا. فلقد بلغني أنه يحمل الأمور كلَّها محملَ الجدِّ الشديد. ولقد وصَل لتوِّه إلى القرية، وسيبدو له ذلك كأنه حدثٌ عظيم، وما هو في الحقيقة بشيء، وينبغي عليكما أن تُعلماه ذلك.

فقال ك: هكذا! لقد أصاب جالاتر! وهل قُمتما بهذه المهمة؟

فقال يريمياس: لا أعرف. ولعلَّ ذلك لم يكن في إمكاننا في الفترة القصيرة التي أُتيحت لنا. إنني لا أعرف إلا أنك كنت غليظًا جدًّا، وهذا هو ما نشكو منه. وأنا لا أفهم كيف يُمكنك، وأنت مجرَّد موظَّف ولست موظفًا في القصر، ألا ترى أن مثل هذه المهمة عملٌ شاق وأنه من الظلم البيِّن أن تقوم عامدًا، وبطريقة تُوشك أن تكون صبيانية، بتصعيب عمل العامل كما فعلت بعملنا؟ وهذه البلادة التي تملَّكَتْك فتركتَنا نرتعد من البرد عند السور، وعنفك مع أرتور الذي ضربتَه بقبضتِك على الخشية فكدتَ تفتك به، وهو الإنسان الذي يتعذَّب إذا قيلت له كلمة ثقيلة، ومطاردتك إياي عصر اليوم يمينًا وشمالًا في الجليد، ولقد خارت قواي لذلك ولم أُفق لنفسي إلا بعد ساعة من الراحة، فأنا لم أعُد في سنِّ الشباب.

فقال ك: يا عزيزي يريمياس، إنك على حقٍّ في هذا كله، وينبغي عليك أن تشكو منه لدى جالاتر. لقد أرسلكما من تلقاء نفسه، وأنا لم أطلب قدومكما. ولما لم أكن قد طلبتكما، فقد كان لي أن أعيدكما، وكان الأفضل أن يتمَّ هذا في سلام وألا تستعمل له القوة، ولكن يظهر أنكما لم تكونا تُريدان أن يسير الأمر على نحو غير الذي سار عليه. ولكن قلْ لي، لماذا لم تتكلَّم معي عندما أتيتما إليَّ بصراحة كما تتكلم الآن؟

فقال يريمياس: لأنَّني كنت في الخدمة، هذا شيء بديهي.

وسأله ك: وأما الآن فلم تَعُد في الخدمة؟

فقال يريمياس: لم أَعُد في الخدمة. ولقد قدم أرتور في القصر استقالتنا؛ أو لنقلْ على الأقل أن الإجراءات التي ستؤدي إلى خلاصنا النهائي تسير في طريقها.

وقال ك: ولكنَّك تبحث عني الآن وكأنك لا تزال في الخدمة.

فقال يريمياس: لا، إنني لا أبحث عنك إلا تهدئةً لفريدا. فأنت عندما تركتها بسبب البنتَين البرناباسيتَين، أحسَّت بتعاسة شديدة ولم يكن السبب الأول هو فقدانك بل خيانتك. ولقد كانت تتوقع منذ وقتٍ طويل ما حدث، ولهذا عانت الكثير. وكنت أنا أمرُّ بجوار نافذة المدرسة لأرى هل عساك زدت تعقُّلًا، ولكنك لم تكن هناك، وكانت فريدا هناك وحدها تجلس على قمطر وتبكي. فذهبت إليها، واتفقنا. وتم تنفيذ ما اتفقنا عليه بالفعل. أما أنا فأعمل خادمًا في حان السادة، وسأظلُّ على الأقل أقوم بهذا العمل حتى تنتهي، وأما فريدا فقد عادت إلى العمل في تقديم المشروبات بالحان. وهذا أفضل بالنسبة إلى فريدا. فلم يكن من الحكمة أن تُصبح زوجةً لك. هذا إلى أنك لم تعرف كيف تُقدر التضحية التي كانت تريد تضحيتها من أجلك. ولكن البنت الطيبة لا تزال تحسُّ من حين لآخر بالقلق وتظن أنها ربما قد ظلمتك وأنك لم تكن عند البنتَينِ البرناباسيتَين. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك شكٌّ بطبيعة الحال في ذلك، فقد ذهبتُ لأتحقَّق من الأمر نهائيًّا. وإن فريدا لتستحقُّ بعد كل هذه المتاعب أن ترتاح، وأنا كذلك. وهكذا ذهبت، ولم يَقتصِر ما توصلت إليه على أني رأيتك، بل لقد تبيَّنت كذلك أن البنتينِ تتبعانك كأن رباطًا يربطكم جميعًا. وبخاصة السوداء، القطة الوحشية، التي دافعت عنك. ولكل إنسان ذوقُه. ومهما يكن من أمر فلم يكن من الضروري أن تتعب نفسك وتسلك الطريق المارَّ بحديقة الجيران، فأنا أعرف هذا الطريق.

إذن لقد حدث الشيء الذي كان ك يتوقعه. والذي لم يكن هناك سبيل إلى الحيلولة دونه. لقد هجرَتْه فريدا. وليس معنى هذا بالضرورة أنها هجرَته نهائيًّا، وقد يكون الأمر على ما قد يبدو من سوء. لقد كانت استعادة فريدا تبدو له ممكنة. وإن ما حدث لأن فريدا تستجيب بسهولة لتأثير الأغراب. وهذان المساعدانِ يظنَّان أن مركزها شبيه بمركزهما، لقد اعتزلا العمل مع ك ودفعا فريدا إلى هجرانه. وما ينبغي على ك الآن إلا أن يظهر أمامها. وأن يُذكِّرها بكل شيء في صالحه، حتى تندم وتعود إليه، خاصةً إن استطاع أن يُبرِّر زيارته للبنتينِ بالنجاح الذي يرجع الفضل فيه إليهما. لقد حاول ك أن يهدئ نفسه بهذه الأفكار من ناحية فريدا، ولكنه لم يهدأ بالًا. لقد كان منذ قليل يفخر أمام أولجا بفريدا التي قال عنها إنها سندُه الوحيد، وها هو ذا يتبيَّن أن هذا السند لم يكن شديد البأس، فلم يكن هناك داعٍ لتدخل أحد أصحاب النفوذ لانتزاع فريدا من ك، لقد كان المساعد يكفي لهذه المهمَّة.

هذا المساعد الذي لا يَنشرِح له الصدر كثيرًا، والذي يُشبه كتلة من اللحم يظن الإنسان في بعض الأحيان أنه لا حياة بها بالمعنى الصحيح.

وكان يريمياس قد بدأ في الابتعاد، فصاح فيه ك أن يعود، وقال له: يا يريمياس إنني أريد أن أكون صريحًا معك، فأجبْ بصراحةٍ عن هذا السؤال. فنحن لم نَعُد نرتبط معًا بعلاقة السيد والخادم، وهذا شيء لا تفرح أنت وحدك له، بل أفرح أنا كذلك له، ومعنى هذا أنه ليس هناك سببٌ لكي يخدع أينا الآخَر. وها أنا ذا أحطِّم أمام عينَيكِ العصا التي أحضرتها لتأديبك، فأنا لم أسلك طريق الحديقة خوفًا منك، ولكني سلكته حتى أُفاجئك وأنهال عليك بالعصا عدة مرات. أما الآن فلا تغضب مني لهذا، فهو ماضٍ انتهى. ولو لم تكن خادمًا فرضَتْه عليَّ السلطات، بل رجلًا عاديًّا تعرفت به، لقامَت بيننا علاقة ممتازة على الرغم من أن منظرك يزعجني أحيانًا. وقد يكون في إمكاننا الآن أن نعوض ما فاتَنا في هذه الناحية.

وقال المساعد وهو يطبق عينَيه مُتثائبًا في تعب: أتظن أن هذا مُمكن؟ لقد كنتُ أود أن أشرح لك الأمر تفصيليًّا، ولكن ليس لديَّ وقتٌ، فلا بد أن أذهب إلى فريدا، فإنها، البنت الصغيرة الحلوة، تنتظرني، وهي لم تبدأ الخدمة بعدُ، فقد منَحَها صاحب الحانة بناءً على إلحاحي — وكانت تريد أن تُلقي بنفسها في العمل على الفور حتى تنسى على ما يبدو — فترةً قصيرةً للاستجمام ونريد على الأقل أن نقضيها معًا. أما فيما يتعلَّق باقتراحك. فليس لديَّ بكل تأكيد ما يدعوني للكذب عليك، وليس لديَّ كذلك ما يدعوني للإسرار إليك بشيء. فالأمر بالنسبة إليَّ يختلف عنه بالنسبة إليك. فطالما كنت أرتبط بعلاقة الخدمة، كنتَ أنت بالنسبة إليَّ شخصًا مهمًّا جدًّا لا لخصالٍ فيك، ولكن بسبب مهمَّة الخدمة التي كُلفتُ بها، وكنت آنذاك مستعدًّا لأن أُنفِّذ لك كل ما تطلب، أما الآن فأنت بالنسبة إليَّ شخص عديم الأهمية. كذلك فإن تحطيمك العصا لا يؤثر فيَّ بشيء، كل ما في الأمر أنه يُذكِّرني بمدى غلظة السيد الذي عملتُ تحت إمرته، وليس من الصواب أن تجذبني إليك.

وقال ك: إنك تتكلَّم معي هكذا وكأنك متأكد تمامًا من أنك لن تعود أبدًا إلى حيث يكون عليك أن تخشاني. وليس هذا صحيحًا. فأنت على الأرجح لم تَخلُص مني بعدُ؛ فالأمور لا تنجز هنا بهذه السرعة.

واعترض يريمياس بقوله: بل إنها أحيانًا تُنجَز بسرعة أكبر.

وقال ك: أحيانًا. ولكن هناك ما يُشير إلى أن هذا حدث في هذه المرة، وأقل ما يُمكن أن يقال هو أنك لا تحتكم على قرار تحريري في الموضوع، كذلك أنا لم أتسلَّم مثل هذا

القرار. ومعنى هذا أن الإجراءات تسير في طريقها، وأنا لم أتدخَّل حتى الآن بما لي من صلات، ولكني سأفعل، وإذا انتهَت الإجراءات إلى نهاية في غير صالحك، فلن تكون قد بذلت جهدًا كبيرًا لاستمالة سيِّدك إليك، ولعلَّ تحطيمي العصا كان عملًا مُتعجلًا. لقد أخذت فريدا، وتملَّكك الزهو لذلك. ولكني مع احترامي لشخصك — وإني لأحترمك حتى إذا لم تَعُد تحترمني — لن أحتاج إلا لتوجيه القليل من الكلمات إلى فريدا، فإذا الافتراءات التي أوقعتها بها في شباكك تتبدَّد. فما يمكن أن يصرف فريدا عني إلا الافتراء والكذب.

فقال يريمياس: إنَّ هذه التهديدات لا تفزعني. إنك لا تريد أن تتَّخذني مساعدًا، وأنت تخافني من حيث أنا مُساعد، فأنت تخاف المساعدين بصفة عامة، وأنت لم تَضرِب أرتور الطيب إلا عن خوف.

فقال ك: ربما، فهل قلَّل ذلك إيلام ضربي له؟ ولعلِّي أستطيع أن أبيِّن لك على هذا النحو مرارًا خوفي. ولقد رأيت أن العمل كمساعد لا يسرُّك إلا قليلًا، ولهذا فإنني سأجد — بغض النظر عن كل خوف — متعةً كبيرة في إكراهك عليه. ويهمني في هذه المرة أن أتخذك أنت وحدك بدون أرتور، مساعدًا، وسيكون في مقدوري هكذا أن أوجِّه إليك المزيد من الاهتمام.

فقال يريمياس: أتظنُّ أنني أخاف أقل الخوف من كل هذا؟

فقال ك: طبعًا، ولا شك أنك بكل تأكيد تحسُّ ببعض الخوف، ولو كنت ذكيًّا لأحسست بكثير من الخوف. وإلا لماذا لم تذهب إلى فريدا من فورك؟ تكلَّم، هل تحبها؟

فقال يريمياس: هل أحبُّها؟ إنها بنتٌ طيبة وذكية، وكانت فيما مضى عشيقة لكلم، ولهذا فهي محترمة على أية حال. وإذا كانت قد ألحَّت عليَّ باستمرار في أن أخلِّصَها منك، فلماذا لا أقدِّم لها هذا الصنيع، خاصةً وأنني بهذا لا أسبِّب لك ألمًا، أنت الذي التمست السلوى لدى البنتين البرناباسيتَين الملعونتين؟!

فقال ك: ها أنا ذا أرى خوفك، أرى خوفك المؤسِف، وأنت تُحاول أن توقعني في شباك افتراءاتك. لقد كان لفريدا طلب واحد، وهو تحريرها من المساعدَين اللذَين تملَّكهما التوحش، واستحالا إلى الحيوانية. ويؤسفني أنني لم أجد من الوقت ما يكفي للوفاء بطلبها كاملًا، وها أن ذا أرى نتائج ما تخلفت عن فعله.

وصاح بعضهم خلال الحارة: يا سيادة موظَّف المساحة. يا سيادة موظف المساحة.

كان الصائح هو برناباس الذي أقبل لاهثًا، ولكنه لم ينسَ أن ينحني أمام ك. وأردف: لقد نجحت.

فسأله ك: وفيمَ نجحت؟ هل أوصلتَ التماسي إلى كلم؟

فقال برناباس: لم يكن هذا ممكنًا. لقد بذلت غاية الجهد، ولكن الأمر كان مستحيلًا، لقد اندفعت إلى الأمام، ووقفت طوال اليوم، دون أن يطلب إليَّ ذلك أحد، قريبًا من المنضدة، حتى إن أحد الكتبة دفعني إلى الجانب لأنَّني كنت أسدُّ عليه سبيل الضوء، وتقدمتُ رافعًا يدي — وهو شيء ممنوع — عندما رفع كلم بصرَه، وبقيتُ أطول وقتٍ في الديوان، وكنتُ مع الخدم وحدي، وسعدتُ برؤية كلم يعود، ولكنَّه لم يعُدْ من أجلي، بل عاد ليراجع شيئًا في بعض الكتب على وجه السرعة، ثم انصرف على الفور، ولما كنت أقف ثابتًا لا أتحرَّك، فقد انتهى الأمر بالخادم إلى كنسي من خلال الباب بالمقشة تقريبًا. وأنا أعترف لك بكل هذا حتى لا تعود إلى عدم الرضا بما أبذل من جهود.

فقال ك: وفيمَ يُفيدني نشاطك يا برناباس إذا لم يكن قد وصل إلى نجاح؟

فقال برناباس: ولكنني حققت نجاحًا. فعندما خرجت من ديواني — وأنا أسمِّيه ديواني — رأيت سيدًا يأتي من الدهاليز العميقة بخطوات بطيئة، وكان المكان خاليًا تمامًا؛ لأن الوقت كان متأخرًا جدًّا. وقررت أن أنتظره ولقد كانت فرصة طيبة أن أبقى هناك مزيدًا من الوقت، وكم كنتُ أود لو بقيت هناك نهائيًّا حتى لا أعود إليك بخبر سيئ! ولكن الانتظار كان بغض النظر عن كل شيء مثمرًا، فقد كان هذا السيد هو أرلانجر. ألا تعرفه؟ إنه واحد من سكرتير كلم الأوائل. وهو رجل ضعيف قصير يعرج في مشيته قليلًا. وتعرَّف أرلانجر عليَّ فورًا، وهو مشهور بذاكرته وبمعرفته للناس، فهو يُقطب جبينه مرة ويكفيه هذا للتعرف على أي إنسان، وكثيرًا ما يتعرَّف حتى على أناس لم يسبق له أن رآهم من قبلُ بل سمع أو قرأ عنهم — وأنا على سبيل المثال لا أظن أنه رآني من قبلُ. وعلى الرغم من أنه يتعرَّف على كل شخص على الفور، فإنه يسأله عن نفسه وكأنه غير متأكِّد، فسألني: «ألست أنت برناباس؟» ثم سألني بعد ذلك: «وأنت تعرف موظَّف المساحة، أليس كذلك؟ هذه مصادفة طيبة، فأنا ذاهب الآن إلى حان السادة، وعليك أن تُبلغ موظف المساحة بأن يزورني هناك. وأنا أنزل في الحجرة رقم خمسة عشر. وعليه أن يأتي الآن على الفور، فليس لديَّ سوى بعض المباحثات، سأفرغ منها وأعود مبكرًا في الخامسة. قلْ له إنني مُهتمٌّ جدًّا بالحديث إليه.»

وفجأةً بدأ يريمياس في العَدْو. وسأل برناباس الذي. لم يكن لفرط انفعاله قد لاحظ وجوده تمامًا: ماذا يريد يريمياس؟

فقال ك: إنه يُريد أن يسبقني في الذهاب إلى أرلانجر.

وعدا وراء يريمياس، ولحقه وتعلَّق بذراعه وقال: هل قد تملكك الحنين إلى فريدا فجأة؟ وما حنيني إليها بأقل من حنينك، فلنذهب معًا، ساقًا على ساقٍ.

الفصل السابع عشر

ووقفَت أمام حان السادة المُظلم مجموعة صغيرة من الرجال، كان اثنان أو ثلاثة منهم يحملون مصابيح، فظهَرَت في ضوئها بعض الوجوه. ولم يَجِد ك بينَها إلا وجهًا آخر يعرفه هو جيرشتيكر، الحوذي. وحيَّاه جيرشتيكر بهذا السؤال: أما زلت في القرية؟

فقال ك: نعم، لقد أتيت لأبقى.

فقال جيرشتيكر: هذا ما لا يُهمني.

وسعَل بقوة واتجه إلى الآخرين.

وتبيَّن أن الجميع ينتظرون أرلانجر، وكان أرلانجر قد وصل بالفعل وكان يتباحث مع موموس قبل أن يستقبل أصحاب الحاجات. وكان الحديث العام بين الناس يدور حول منع الناس من الانتظار داخل المبنى وتركهم ينتظرون في الجليد خارجه. والحقيقة أن الجو لم يكن شديد البرودة، ومع ذلك فلم يكن من المشقة ترك أصحاب الحاجات ينتظرون بالليل ربما لساعات طويلة خارج البيت. ولم يكن هذا بطبيعة الحال ذنب أرلانجر، الذي كان شخصًا رحب الصدر، ولم يكن على الأرجح يعلم بذلك، ولو علم به لغضب أشد الغضب. لقد كان الذنب ذنب صاحبة حان السادة التي كانت في سعيها المَرَضيِّ نحو الرونق لا ترضى بدخول أصحاب الحاجات جماعة إلى الحانة. وكان من عادتها أن تقول: إذا لم يكن من حضورهم بدٌّ، فليدخلوا، بحق السماء، الواحد تلو الآخر.

وفرضَت رأيها فإذا أصحاب الحاجات الذين كانوا فيما مضى ينتظرون في الممر، ثم على الدرج، ثم في المدخل، ثم في قاعة الشراب، يُدفعون إلى الخارج للانتظار في الحارة. ولم يكن هذا يُرضيها. فلم تكن تَحتمِل أن «تُحاصَر» في بيتها، كما كانت تقول. ولم تكن تفهم معنًى لحضور أصحاب الحاجات، ولقد سألت عن ذلك مرة أحد الموظفين فقال لها، ربما في غمرة غضبه: إنهم يحضرون ليوسِّخوا الدرج الخارجي للبيت!

ولقد كانت هذه العبارة واضحة المرمى. وكانت صاحبة الحان تحب تكرارها والاستشهاد بها، وأخذت تسعى — وكان مسعاها يتفق مع أماني أصحاب الحاجات — لإنشاء مبنى في مواجهة حان السادة لينتظر فيه أصحاب الحاجات. وكانت تتمنَّى لو جرت المشاورات مع أصحاب الحاجات وكذلك الاستجوابات خارج حان السادة، ولكن الموظفين كانوا يعارضون في ذلك. وما دام الموظفون قد عارضوا في جزم، فلم يكن في مقدور صاحبة الحان أن تَفرض رأيها، على الرغم من أنها كانت في الموضوعات الثانوية تُمارس نوعًا من الاستبداد الصغير اعتمادًا على إلحاحها الذي كان لا يكلُّ ولا يملُّ والذي كان يعتمد على الأنوثة الرقيقة. ويبدو أن صاحبة الحان سيكون عليها السكوت على إجراء المباحثات والاستجوابات في حان السادة في المستقبل كذلك؛ لأنَّ السادة القادمين من القصر يرفُضون ترك حان السادة عند معالجة المسائل الرسمية. لقد كانوا دائمًا على عجل، ولم يكونوا ينزلون القرية إلى على مضَضٍ، ولم يكونوا يرغبون أقل الرغبة في إطالة مدة إقامتهم هنا لأكثر ممَّا تتطلبه الضرورة القصوى، ولم يكن في الإمكان مطالبتهم، لا لشيء إلا للحفاظ على السكون في حان السادة، أن يخرجوا بأوراقهم من حين لآخر من الحان ويجتازوا الشارع ويذهبوا إلى مبنًى آخر، ويضيعوا على هذا النحو الوقت. ويفضل الموظِّفون غاية التفضيل إنجاز الأمور الرسمية في الخمارة أو في الحُجرة، أثناء تناول الطعام أو في السرير قبل النعاس أو في الصباح عندما يستبدُّ بهم التعب فلا يستطيعون النهوض ويستلقون في السرير للتمطي. أما مسألة إنشاء مبنى الانتظار فقد بدا أنها كانت تقترب من حلٍّ ملائم، ولقد كانت معالجة هذه المسألة بطبيعة الحال عقابًا ملموسًا بالنسبة لصاحبة الحان — وكان الناس يضحَكُون لذلك قليلًا — فقد تطلبت العديد من المباحثات ولم تكن ممرَّات الحان تكاد تخلو لذلك السبب من الناس.

كان المُنتظِرون يتحدَّثون عن هذه الأشياء كلها بصوت مُنخفِض، ولاحظ ك أن عدم الرضى كان واضحًا، ولكن أصحاب الحاجات لم يجدوا غضاضة في أن يستدعيهم أرلانجر في منتصف الليل، وسأل عن ذلك فقالوا له إنهم على العكس يشكرون أرلانجر على ذلك، فلم يأتِ به إلى القرية إلا نيَّته الطيبة وفهمُه السامي ووظيفته، ولقد كان يستطيع إن شاء — وإن هذا ليتَّفق مع اللوائح على نحو أفضل — أن يرسل أي سكرتير ويكلفه بتسجيل المحاضر. ولكنه كان في غالبية الأحوال يرفض أن يفعل ذلك، وكان يريد أن يرى كل شيء وأن يسمع كل شيء بنفسه، ولكنه كان لهذا يضحي بالنوم، فلم يكن برنامج عمله يفسح وقتًا للقيام برحلات إلى القرية. واعترض ك على هذا الكلام قائلًا: إنَّ كلم يأتي إلى القرية

نهارًا، وإنه في بعض الأحيان يقضي في القرية أيامًا عديدة، فهل الحاجة إلى أرلانجر، وما هو إلا سكرتير، في القصر من الحاجة إلى كلم فلا سبيل إلى الاستغناء عنه؟ وضحك البعض عن طيبة قلب، وصمت البعض مذهولين، وكان الصامتون هم الكثرة، فلم يَكَد ك يتلقَّى إجابة، ولا من واحد قال له إن كلم لا غنى عنه بطبيعة الحال لا في القصر ولا في القرية.

وهنا انفتح الباب وظهر موموس بين خادمتَين تحمل كلٌّ منهما مصباحًا. وقال: أول مَن يُقابل السيد السكرتير أرلانجر: جيرشتيكر وك. هل هما هنا؟

فأجاب الاثنان بنعم. ولكن يريمياس تسلَّل قبلهما إلى البيت قائلًا: أنا هنا خادم في الحان.

فحيَّاه موموس مبتسمًا بربتة على كتفه وتركه يدخل. وقال في نفسه، ينبغي عليَّ أن أُحيط يريمياس بمزيد من الانتباه، على الرغم من أنه كان يشعر أن يريمياس قد يكون أقل خطورة من أرتور الذي كان يعمل ضدَّه في القصر. وربما كان من الفِطنة أن يدعهما ك يُعذِّبانه كمساعدَين، وألا يتركهما كذلك يعبثان فسادًا دون أن يراقبهما، وينطلقان إلى تدبير المؤامرات التي يبدو أنهما أوتيا موهبة خاصة لتدبيرها.

فلما مرَّ ك بموموس، بدا على هذا كأنه لم يتبيَّن إلا الآن أنه موظَّف المساحة، فقال: آه، السيد موظَّف المساحة! هذا الذي يكره أن يُستجوَب، يتزاحم الآن على الاستجواب.

ولو رضيَ آنَذاك لكان الاستجواب أيسر. أما الآن فإنه بطبيعة الحال من الصعب اختيار الاستجوابات الصحيحة.

ولما أراد ك أن يردَّ على هذا الكلام وقف، قال له موموس: اذهب! اذهب! لقد كنتُ فيما مضى أحتاج إلى إجاباتك، أما الآن فلا أحتاج إليها. ومع ذلك فقد قال ك مُغتاظًا من تصرف موموس: إنكم لا تُفكِّرون إلا في أنفسكم. ولكني اعتبارًا للديوان لا أجيب، لم أُجِب آنذاك ولا أجيب الآن.

– وفيمَن ينبغي أن نُفكِّر؟ ومَن هنا غيرنا؟ اذهب.

وفي الممر تلقاهما خادم واقتادهما عبر طريق الفناء الذي يعرفه ك، ثم اجتازوا البوابة إلى الممر المنخفِض الذي ينحدر انحدارًا قليلًا. ويبدو أن الموظَّفين الكبار يسكنون في الأدوار العلوية، أما السكرتاريون فسيسكنون في هذا الممر، وكذلك أرلانجر على الرغم من أنه أحد كبارهم. وأطفأ الخادم مصباحه لأن المصباح الكهربائي كان ينشر ضوءًا وضاحًا. كان كل شيء هنا صغيرًا ولكنه كان جميل البناء. وكان استغلال المكان قد تمَّ على وجه شديد الاقتصاد، فلم يكن الممر يسمح للإنسان بأن يسير قائمًا إلا بشق الأنفس. أما الجانبانِ

فكانت الأبواب فيهما يجاور الواحد منها الآخر. ولم يكن الحائطان الجانبيَّان يصلان إلى السقف، ويبدو أن السبب في ذلك كان التهوية؛ لأن الحجرات الصغيرة في هذا الممر العميق الذي يشبه البدروم كانت على ما يبدو بلا نوافذ، وكان عيب هذه الحيطان التي لا تصل إلى السقف هو الصخب الذي كان يملأ الممر، ولا بد أنه كان كذلك بلا حجرات. ويبدو أن حجرات كثيرة كانت مشغولة، وأن غالبية مَن كانوا فيها لم يكونوا قد ناموا بعدُ؛ فقد تناهت إلى الأسماع أصوات ودقاتُ شواكيش ورنات أكواب. ولكن الانطباع الذي كان يرتسم في نفس الإنسان لم يكن انطباع بهجة شديدة. كانت الأصوات مكتومة، ولم يكن الإنسان يفهم إلا من حين لآخر كلمة، ويبدو أن الأصوات لم تكن أصوات محادَثات، بل يبدو أن بعضهم كان يملي شيئًا أو يتلو شيئًا، أما الحجرات التي كان ينبعث منها رنين الأكواب والصحون فلم يكن يأتي منها صوت كلام، ولقد تذكَّر ك عندما سمع دقات الشواكيش ما قيل له من أن بعض الموظفين يشتغلون بالنجارة وصناعة الآلات الدقيقة وما إلى ذلك ليستريحوا من الإجهاد العقلي الدائم، أما الممرُّ نفسه فكان خاليًا، إلا من رجل شاحب نحيل طويل كان يجلس أمام أحد الأبواب مُرتديًا فراءً تظهر من تحته ملابس النوم، ويبدو أن الجو في الحجرة ثَقُل عليه فخرج وأخذ يقرأ الجريدة، ولكنه لم يكن يقرأ بانتباه، بل كان ينصرف عن القراءة متثائبًا المرة تلو المرة، وينحني إلى أمام ويُرسل بصره على طول الممر، ولكنه كان ينتظر واحدًا من أصحاب الحاجات طلَبَه إليه وتأخر عن الحضور. فلما مرُّوا به قال الخادم لجيرشتيكر مشيرًا إلى السيد: إنه بينتسجاور.

فهز جيرشتيكر رأسه بالموافقة وقال: إنه لم يَنزل إلى القرية منذ مدة طويلة.

فأكَّد الخادم كلامه قائلًا: منذ مدة طويلة جدًّا.

وأخيرًا وصلوا أمام باب لم يكن يختلف عن الأبواب الأخرى، قال الخادم إن أرلانجر يقيم وراءه وطلب الخادم من ك أن يحمله على كتفه لينظر من خلال الفراغ بين الحائط والسقف إلى داخل الحجرة ففعل. وقال الخادم وهو ينزل: إنه راقد في السرير، ولكنه لا يلبس ملابس النوم، ومع ذلك فأنا أظنُّ أنه ينعس. والتعب يتملَّكه أحيانًا هنا في القرية حيث تختلف ظروف الحياة. وسيكون علينا أن ننتظر. وعندما يستيقظ سيدقُّ الجرس. وإن كان قد حدث من قبل أن قضى طوال فترة إقامته في القرية نائمًا وكان عليه بعد صحوِه أن يُعجِّل بالعودة إلى القصر. والعمل الذي يقوم به هنا يقوم به على سبيل التطوع.

وقال جيرشتيكر: ليته ينام الآن إلى آخر الوقت، فإنه عندما يصحو ولا يكون لديه إلا قليل من الوقت لإنجاز الأعمال؛ يغتاظ لأنه قد نام، ويُحاول أن ينجز كل شيء بسرعة ولا يكاد الإنسان يستطيع أن يتم كلامه معه.

وسأله الخادم: إنك تأتي من أجل الحصول على عمليات النقل اللازمة للبناء؟

وهز جيرشتيكر رأسه، وانتحى بالخادم جانبًا وتكلَّم معه بصوت خفيض، ولكن الخادم كان لا يكاد ينصت، بل كان ينظر من فوق جيرشتيكر — وكان أطول منه قدر رأس إنسان — ويمسح شَعره هو جادًّا وبحركات بطيئة.

الفصل الثامن عشر

وبينما ك يجول ببصره بلا هدف رأى فريدا عند أحد مُنحنيات الممر، وتصنَّعَت فريدا أنها لا تعرفه، فنظرت إليه نظرةً جامدةً، وكانت تَحمِل في يدها صينية عليها آنية فارغة. وقال ك للخادم الذي لم يكن يَلتفِت إليه — وكان الخادم يَزداد غيبوبة كلَّما تحدث الإنسان إليه — أنه سيعود بعد قليل، وأسرع إلى فريدا. فلمَّا وصَل إليها أمسكها من كتفَيها وكأنه يعود إلى امتلاكها، ووجه إليها بعض الأسئلة التافهة بينما كان في تلك الأثناء يبحث في عينيها متفحصًا. ولكنه مسلكها الجامد لم يكد يلين، وحاولت وهي مُشتَّتة الفكر أن تُغير وضع الآنية على الصينية مراتٍ ثم قالت: ماذا تريد مني؟ اذهب إلى … أنت تعرف اسمها. وأنت تأتي لتوِّك من عندهما، وفي إمكاني أن أقرأ ذلك على منظرك.

وحوَّل ك الموضوع بسرعة، فلم يكن يُريد أن يأتي العتاب مفاجئًا ولا يبدأ من أقبح نقطة وأكثرها حساسية وقال: كنتُ أظنُّ أنك في قاعة الشراب.

وتطلَّعت فريدا إليه مندهشةً ثم مسحت في رقةٍ بيدها التي لم تكن تُمسك بها الصينية على جبينه وعلى وجنته. وبدا عليها كأنها كانت قد نسيَت شكله، فأرادت أن تتذكَّره، وكذلك بدا على عينيها الانطباع المحجَّب لإنسانٍ يُحاول بصعوبةٍ أن يتذكر شيئًا. ثم قالت ببطءٍ وكأن ما كانت تقوله بلا أهمية: لقد قَبِلُوني مرةً أخرى في قاعة الشراب.

ثم دمجت في الكلام حوارًا كان هو الأكثر أهميةً: ولكن هذا العمل الذي أقوم به الآن لا قيمة له بالنسبة إليَّ، ففي استطاعة كل بنت أن تقوم به. كل بنت تعرف كيف ترتب السرير، وكيف تصطنع وجهًا باشًا، ولا ترهب معاكسة النزلاء بل تدفعهم إليها دفعًا، تصلُح للعمل خادمةً خصوصية. أما العمل في قاعة الشراب فشيءٌ آخر. ولهذا قبلوني على الفور للعمل في قاعة الشراب على الرغم من أنَّني لم أتركها فيما مضى على نحوٍ مشرف،

وأنا أعتمد بطبيعة الحال على حماية. ولقد فرح صاحب الحان بأنني أعتمد الآن على هذه الحماية وأنه استطاع إعادتي إلى العمل. بل لقد بدا الأمر وكأنهم يدفعونني دفعًا إلى قبول العمل، فإذا علمتَ أن قاعة الشراب تُذكِّرني بشيءٍ معيَّن سَهُل عليك أن تفهم الوضع. وأخيرًا قبلتُ العمل. أما هنا فأنا أعمل على سبيل المعاونة. فقد طلبت بيبي ألا نُسبِّب لها عارًا بإجبارها على ترك قاعة الشراب على الفور، ولهذا أعطيناها مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة لأنها كانت مجتهدةً ولأنها أدَّت العمل كله على قدر ما مكَّنَتها من ذلك قدراتها.

فقال ك: لقد أحسنتُم تدبير هذه الأمور كلها. ولكنَّك قد هجرت قاعة الشراب مرةً من أجلي، وإذا بك الآن تعودين إليها ونحن على وَشكِ الزفاف.

فقالت فريدا: لن يكون هناك زفاف.

وسأل ك: لأنني كنتُ خائنًا؟

فأومأت فريدا برأسها، فقال ك: اسمعي يا فريدا، لقد تحدَّثنا عن هذه الخيانة المزعومة مرارًا، وكان عليك في كل مرةٍ أن تُقرِّي بأنها لا تعدو أن تكون شبه ظالمة. ولم يتغيَّر من ناحيتي منذ ذلك شيء، لقد بقي كل ما لديَّ بريئًا كما كان وكما لا يُمكن إلا أن يكون. فهل يا ترى حدَث تغيُّر من ناحيتك نتيجةً لإيعازٍ غريب أو غير ذلك؟ إنك على أية حالٍ تظلمينَني. فما هو أمر هاتَين البنتَين؟ إن السمراء — وأنا أوشك أن أحسَّ بالخجل لاضطراري للدفاع عن نفسي تفصيلًا، ولكنك تطالبين بذلك — إن السمراء تثير في نفسي أسًى لا يقلُّ عن الأسى الذي يَعتمِل في نفسي حيالك، وإذا كان في استطاعتي أن أبتعد عنها على أيِّ نحو فإنني أفعل، وهي تسهل ذلك من ناحيتها فليس هناك إنسان أشدَّ احتشامًا منها.

وصاحت فريدا: نعم!

لقد انطلقت الكلمات منها وكأنها تنطلق ضد إرادتها، وفرح ك عندما رآها قد تلهث على هذا النحو، لقد كانت على هيئةٍ غير التي كانت تريد أن تبدو عليها: إنَّ لكَ أن تعتبرها محتشمةً، وأن تُسمِّيَ أفحش النساء محتشمة! وأنت تقول ذلك، على الرغم من بُعده عن التصديق، تقوله مخلصًا، فأنت لا تتلوَّن، أنا أعرف هذا.

ولقد قالت صاحبة حان الجسر عنك: «إنَّني لا أستطيع أن أحبه، وكذلك لا أستطيع أن أهجره، فإنَّ الإنسان لا يستطيع عندما يرى طفلًا لا يُجيد المشي ويندفع رغم ذلك إلى الأمام أن يتحكَّم في نفسه، إنَّ الإنسان يجد نفسه مُضطرًّا إلى التدخل.»

فقال ك مبتسمًا: فاتبعي الآن مذهبها هذا، أما هذه البنت، ولنَدَع جانبًا ما إذا كانت مُحتشمةً أو فاجرة، فأنا لا أريد أن أعرف عنها شيئًا.

وسألت فريدا في تصميم: ولكن لماذا تقول عنها إنها محتشمة؟ هل جرَّبتها أم هل تريد أن تحطَّ بذلك من قدر آخَرين؟

واعتبر ك هذا الاهتمام من جانب فريدا علامةً طيبة، فقال: لا هذا ولا ذاك. إنني أقول ذلك عن امتنانٍ لها. فقد سهلت عليَّ فهمها، ولأنني، حتى إذا نادتني المرة تلو المرة، لن أستطيع حمل نفسي على الذهاب إلى هناك، وهذه خسارةٌ كبيرة بالنسبة إليَّ لأنني لا بد أن أذهب إلى هناك من أجل مستقبلنا المشترك، كما تعرفين. ولهذا فلا بد أن أتكلَّم أيضًا مع البنت الأخرى التي أقدِّرها لنشاطها وسعة أفقها وأثرتها، البنت التي لا يمكن لأحدٍ أن يقول عنها إنها جذابة.

فقالت فريدا: ولكن الخدم يُخالفونك في هذا الرأي.

فقال ك: يخالفونني فيما يختص بهذا الموضوع وفيما يختص بالكثير من الموضوعات الأخرى. وهل تُريدين استنتاجًا من شهوات الخدم الحكم بأنَّني خائن؟

وصمتَت فريدا وتركت ك راضيةً يأخُذ الصينية من يدها ويضعها على الأرض، ويضع ذراعَه تحت ذراعها، ويبدأ في السير معها في المكان الضيق ببُطءٍ جيئةً وذهابًا.

وقالت وهو يَمتنع قليلًا عن اقترابه منها: أنت لا تعرف ما هو الإخلاص. وليس المُهم هو موقفك من البنتَين. إنَّ ذهابك إلى هذه الأسرة وعودتك من هناك حاملًا رائحة حُجرتهم في ملابسك، فضيحةٌ لا يمكنني احتمالها. وأنت تجري من المدرسة، دون أن تقول شيئًا، وتبقى لدى البنتَين نصف الليلة، وإذا سأل أحدهم عنك جعلتَ البنتَين تُنكرانك، تنكرانك عن حب، وبخاصةٍ المحتشمة التي لا نظيرَ لها! ثم أنت تتسلَّل من طريقٍ سرِّيٍّ عندما تخرج من البيت ربما حفاظًا منك على سمعة البنتَين! نعم سُمعة البنتَين! لا. لا نُريد أن نعود إلى هذا الحديث مرةً أخرى.

فقال ك: لا نُريد أن نعود إلى هذا الحديث، ولكن لنتكلَّم يا فريدا في موضوعٍ آخر. والحقيقة أنه ليس هناك شيءٌ يقال فيه. وأنت تعرفين لماذا يَنبغي عليَّ أن أذهب إلى هناك. وليس الذهاب إلى هناك بالشيء السَّهل، ولكنِّي أُكره نفسي عليه. ولا ينبغي أن تجعلي الأمور أكثر ثقلًا عليَّ ممَّا هي. ولقد كانت فكرتي التي فكرتها اليوم أن أذهب إلى هناك للحظةٍ وأسأل عن برناباس الذي كنت أنتظِر أن يأتيني برسالةٍ هامة، علَّه أتى بعد طول انتظاري له. وعلمت أنه لم يأتِ، وأنه سيأتي وشيكًا، وهو ما لاح لي قابلًا للتصديق. ولم أشأْ أن أطلب إرساله إلى المدرسة ليُقابلني هناك، لأنني لم أكن أريد أن يتسبَّب وجوده في إزعاجك. ومضَت الساعات ولم يأتِ، للأسف. وإنما أتى شخصٌ آخر، شخصٌ أمقُتُه. ولم أكن أحب

أن أدعه يتجسَّس عليَّ، ولهذا خرجت عن طريق حديقة الجيران، وكذلك لم أشأ أن أتوارى عنه، ولهذا ذهبت إليه حرًّا طليقًا في الشارع ومعي عصا أعترف بأنها كانت مرنةً جدًّا. هذا هو كل ما في الأمر، وليس هناك ما يقال عنه أكثر من ذلك. ولكنْ هناك أمرٌ آخر لي فيه حديث. ما هو أمر المساعدَينِ اللذَين أمقت ذِكرهما كما تمقُتين أنت ذِكر هذه العائلة؟ قارني علاقتك بهما ومسلَكي حيال العائلة. وأنا أفهم نفورك من هذه العائلة ويُمكنني أن أشاركك إياه. إنني لا أذهب إليها إلا من أجل الموضوع، حتى إنَّني أكاد أحسُّ أحيانًا بأنني أظلمها باستغلالي إياها. أما أنتِ وأما المساعدان. إنكِ لم تُنكري أنهما يُلاحقانكِ، بل لقد اعترفت بأن هناك شيئًا فيكِ يجذبك إليهما. وأنا لم أغضب منك لذلك وفهمت أن هناك قوًى تفعل فعلها وأنكِ لم تَصِلي بعد إلى حيث تستطيعين مجابهتها، وسعدتُ بأنك على الأقل تمنعتِ وصددت، وساعدتُ أنا في الدفاع عنك، فلما تركت بضع ساعات، واثقًا من إخلاصك، مطمئنًّا إلى أن البيت مُغلق إغلاقًا محكمًا، وإلى أنني قد اضطررت المساعدَين إلى الفرار — وأنا أخشى أنني لا أزال أستهين بهما — أقول لما تركت بضع ساعات وأهملت أمرهما، وأوتي هذا اليريمياس — وهو إذا تأمَّله الإنسان بدقة تبيَّن أنه رجلٌ سمج معتلُّ الصحة متقدم في السن — من الجسارة ما جعله يقترب من النافذة، أصبح عليَّ. لهذا السبب وحده أن أفقدكِ يا فريدا، وأن أسمع منك بدلًا من التحية: «لن يكون هناك زفاف.» ألست أنا الذي يحقُّ له أن يوجه اللوم، ولكني لا أوجه إليك لومًا، وما زلت إلى الآن لا أوجه إليك لومًا.

وتصوَّر ك مرةً أخرى أنه من الخير أن يُلهي فريدا قليلًا، فرجاها أن تأتيه بشيءٍ من الطعام لأنه لم يأكل شيئًا لتُحضِر شيئًا، ولكنها لم تتبع الممر الذي كان ك يظن أنه يؤدي إلى المطبخ، بل انحرفت إلى الجانب ونزلت بضع درجات سلَّم. وعادت بعد قليل بصحنٍ عليه بعض الشرائح وزجاجة نبيذ، ولكن ما أتت به كان يبدو كما لو لم يكن سوى بقايا وجبة: كانت الشرائح قد سُويت على الصحن، وكانت زجاجة النبيذ قد فرغ ثلاثة أرباعها. ولم يَقُل ك شيئًا وبدأ يأكل بشهيةٍ طيبة وسأل: هل كنتِ في المطبخ؟

فقالت: لا، في حُجرتي، فلي حجرةٌ هنا أسفل المبنى.

وقال ك: ليتَكِ أخذتني معك. إنني أريد أن أنزل إلى حُجرتك حتى أجلس أثناء تناول الطعام.

وقالت فريدا: سآتيك بكرسيٍ وثير.

وكانت قد اندفعت إلى الطريق. ولكن ك استردها قائلًا: شكرًا. لا أريد أن أنزل، ولا حاجة إلى كرسي.

واحتملت فريدا قبضته عنيدة، وكانت تميل برأسها ميلًا شديدًا وتعضُّ شفتيها. وقالت: إنه في الحجرة. وهل توقَّعتَ أن يكون الأمر على نحوٍ غير ذلك؟ إنه يرقد في سريري، فقد أصيب بالبرد، وهو يرتعش، ولم يأكل شيئًا تقريبًا. والحقيقة أن الذنب كله ذنبك أنت، ولو لم تَطرُد المساعدَين، ولو لم تجرِ وراءهما، لكنا الآن جالسِين في سلامٍ في المدرسة. لقد حطمت سعادتنا. هل تظنُّ أن يريمياس كان أثناء الخدمة يجرؤ أن يخطفني؟ إذا ظننت ذلك فإنك تجهل النظام القائم هنا تمام الجهل. لقد كان يريد أن يأتي إليَّ، ولقد تعذَّب، ولقد تربص بي، ولكن هذا كله لم يزد عن أن يكون لعبًا من نوع الكلب الجوعان حول المائدة فهو يدور حوالَيها ولا يجرؤ على القفز فوقها. وكذلك أنا. لقد جذبني إليه، وهو رفيقٌ لي من أيام الطفولة وكنَّا نلعب معًا على سفح جبل القصر، لقد كانت أوقاتًا جميلة، ولكنك لم تسألني عن ماضٍ. على أن هذا كله لم يكن الشيء الحاسم، طالَما كان يريمياس في الخدمة وكانت الخدمة تردُّه؛ لأنني كنت أعرف واجبي باعتباري زوجتك في المستقبل، وإذا بك تطرُد المساعدَينِ وتفخر بما فعلت وكأنك فعلت شيئًا من أجلي. وهذا صحيح من ناحيةٍ بعينها. ولقد تحقق لك ما أردت مع أرتور، ولكن إلى حينٍ فقط، فهو رقيق، وهو لا ينفعل بعاطفةٍ جريئة كعاطفة يريمياس، ولقد أوشكت في الليلة التي تعرفها أن تفتكَ به باللكمة التي سددتها إليه — ولقد كانت هذه اللكمة أيضًا ضد سعادتنا — فهرب إلى القصر ليشكو، وعندما يعود عما قريب ... المهم أنه الآن ليس هنا. ولكن يريمياس بقي. وهو في الخدمة يخشى تقطيبة السيد، أما في خارج الخدمة، فهو لا يخشى شيئًا. فأتى وأخذني. ولم أستطع أن أتمالك نفسي بعد أن هجرتني أنت وتسلَّط عليَّ هو، الصديق القديم. وأنا لم أفتح باب المدرسة، فقد حطم هو النافذة وأخرجني منها. وهربنا إلى هنا. وصاحب الحان يُقدِّره قدره، وليس هناك شيءٌ أحب إلى نفوس النُّزَلاء من أن يكون لهم خادمٌ مثله، وهكذا استقبلنا صاحب الحان، ويريمياس لا يُقيم في حجرتي، إن لنا هنا حجرة مشتركة.

وقال ك: ورغم هذا كله، فأنا لست آسفًا على طرد المساعدَينِ من الخدمة. وإذا كانت علاقتنا على النحو الذي وصفته أنت، وكان إخلاصك رهنًا بالتزام المساعدَين بقَيد الخدمة فقد كان من الخير أن أنهي كل شيء. فلم يكن من المُمكن أن تكون السعادة الزوجية بين حيوانين مُتوحِّشين لا يحنيان الرأس إلا تحت المقرعة. وهنا فإنني شاكر فضل هذه العائلة التي أسهمت دون ما قصدٍ منها في التفريق بيننا.

وصمت الاثنان وظلَّا يسيران جيئةً وذهابًا الواحد بجوار الآخر، دون أن يكون في إمكان أحد أن يعرف أيهما بدأ الآن. وبدا على فريدا قريبًا من ك أنها اغتاظت لأنه لم

يتأبط ذراعها. وأردف ك: وبهذا يكون كل شيءٍ قد انتهى إلى نهايته، ويمكننا أن نتوادع، ويمكنك أن تذهبي إلى سيِّدك يريمياس الذي ربما قد أصيب بالبرد من حديقة المدرسة والذي تركته، إذا أخذنا هذا في الاعتبار، مدةً طويلةً جدًّا وحده، أما أنا فيمكنني أن أعود إلى المدرسة وحدي، أو أن أذهب إلى أيِّ مكانٍ آخر يرضى الناس فيه بقبولي، فلن يكون لي بدونك في المدرسة ما أفعله. وإذا كنت أنا رغم ذلك أتردد، فما ذلك إلا لأنني أجد سببًا قويًّا يدعوني إلى الشك قليلًا فيما حكيتِه لي. إنَّ انطباعي عن يريمياس هو العكس بالضبط. إنه طالما كان في الخدمة كان يُلاحقك ولا أظن أن الخدمة كانت لتمنعه إلى النهاية من الانقضاض عليك مرة. أما الآن وقد أصبح يعتبر الخدمة منتهية فهو يتصرَّف على نحوٍ آخر. وسامحيني إذا كنتُ أفسر ذلك كما يلي: منذ انتهتْ خطبتك لسيِّده تلاشى ما كان لك بالنسبة له من قبل من إغراء. ومن الممكن أن تكوني صديقة منذ الطفولة ولكنه — وأنا لم أعرفه إلا من الحديث القصير الذي جرى بيننا هذه الليلة — لا يُقيم، في تقديري، لمثل هذه المشاعر وزنًا كبيرًا. وأنا لا أعرف لماذا يلُوح لكِ كشخصٍ عاطفي، إن خلقه ليلُوح لي أقرب إلى الفتور منه إلى أي شيءٍ آخر. ولقد تلقى، فيما يختصُّ بي، تكليفًا من جالاتر بمهمةٍ لم أستحسنها استحسانًا كبيرًا، وهو بذَل جهدًا كبيرًا في أداء هذه المهمة، ويفعل ذلك بنوعٍ معيَّن من شغف الخدم — وأنا أعترف له بذلك — وما هذا الشغف هنا بالشيء النادر، وهو في معرض هذا الشغف يُحطم علاقتنا معًا. ولعله جرب طرقًا أخرى، ومن بينها اشتياقه الشهواني الذي سعى به إلى اجتذابك، ومن بينها كذلك — وهنا ساعدَته صاحبة الحان — اختلاقه خرافة خيانتي، لقد نجحت مؤامرته بالنسبة إليك، ولعلَّ ذكرى من ذكريات كلم التي تحيط بك قد أعانته — وإذا كان قد فقد الوظيفة، فلعله لم يفقدها إلا في الوقت الذي لم يكن فيه بحاجةٍ إليها، وها هو ذا يجني ثمار عمله ويجرُّك من نافذة المدرسة، وبهذا يكون عمله قد انتهى، ولقد استبدَّ به التعب بعد أن تجرَّد من الشغف بالخدمة، ولعله كان يودُّ أن يذهب إلى حيث ذهب أرتور الذي لم يذهب حيث ذهب ليشكو بل لينال المديح ويتلقَّى تكليفًا بالمهام الجديدة، ولكن لا بد أن يبقى واحد هنا ليتابع تطور الأمور. وإن الاهتمام بشأنك لواجبٌ ثقيل يُسبِّب له الإزعاج. أما إنه يحبك، فهذا ما لا تبدو عليه علامات، لقد اعترف لي هو بذلك، فأنت بالنسبة إليه محترمة لأنك عشيقة كلم، ولا شكَّ أنه يجد متعةً في القبوع في حُجرتك والإحساس بأنه صورةٌ مصغرةٌ من كلم، ولكن هذا هو كل ما في الأمر، أنت الآن لا أهمية لك بالنسبة إليه، وليس وضعه إياك هنا إلا بندًا إضافيًّا زيد على مهمَّته الأصلية. ولقد بقي هو كذلك حتى لا يتسرَّب القلق إلى نفسك، ولكنه لا يبقى

هنا إلا بصفةٍ مؤقتة، وإلى أن يتلقى أخبارًا جديدة من القصر ويكون قد فرغ بمعونتك من علاج ما ألَمَّ به من برد.

فقالت فريدا وهي تخبط يدَيها الصغيرتين المطبقتين معًا: أرأيت كيف تسبُّه؟

فقال ك: أسبُّه؟ لا، أنا لا أريد أن أسبه. ولكن قد أكون ظالمًا له، هذا مُمكن بطبيعة الحال. وليس ما قلته عنه بالشيء السطحي المكشوف لكل عين. ومن الممكن تأويله على نحوٍ آخر. أما أني أسبه؟ لا يمكن أن يهدف السبُّ إلا إلى مكافحة حبك له. ولو كانت هناك حاجة، ولو كان السب وسيلةً ملائمة لما تردَّدت، ولا يجوز لأحدٍ أن يُدينَني لهذا السبب. إنه، اعتمادًا على مَن يُسند إليه المهام، في وضعٍ متفوق عليَّ بينما أنا وحدي ولا سند لي إلا ذاتي، ولهذا فإن لي أن ألجأ قليلًا إلى السب. وما يمكن أن يكون السب على أية حال إلا وسيلة بريئة وعاجزة من وسائل الدفاع. فدعي يدَيك مرتاحتين.

وتناول ك يد فريدا في يده، وحاولت فريدا أن تسحب يدها منه، ولكنها فعلت ذلك مبتسمةً ودونما جهد. وقال ك: أما أنا فلا ينبغي لي أن أسبه؟ ذلك أنك لا تحبينه، بل أنت تظنِّين أنك تحبينه، وستكونين لي شاكرةً إذا أنا خلَّصتك من هذا الانخداع. إن أيَّ إنسان يريد أن يأخذك مني، دون لجوءٍ إلى القوة، بل إلى التدبير الدقيق غاية الدقة، لا يمكن أن يحقق ذلك إلا عن طريق هذين المساعدين. إنهما شابان يظهران بمظهرٍ طيبٍ صبيانيٍّ مَرِح مجرَّد من المسئولية يأتيان من فوق، نفثهما القصر إلى هنا، ومعهما شيء من ذكريات الطفولة، هذه كلها أشياء لطيفة وبخاصةٍ عندما أكون على العكس تمامًا، أجري بلا انقطاعٍ وراء أعمال لا تفهمينها كل الفهم، وتغتاظين منها، فهي تجمعني بأناسٍ يُلوِّحون لك أحقَّاء بالكراهية وينقلون إليَّ على الرغم من براءتي الكاملة شيئًا مما يُثير فيك الكراهية. وإن كل هذا لا يزيد عن أن يكون استغلالًا قبيحًا — وإن كان ذكيًّا جدًّا — لعيوب علاقتنا. وكل علاقةٍ بين الناس تعتورها عيوب، وبخاصةٍ علاقتنا، فقد أتى كل واحدٍ منا من عالمٍ يختلف عن عالم الآخر تمام الاختلاف، ولقد اتخذت حياة كل واحدٍ منا، منذ تعارفنا، طريقًا جديدة كل الجدة، إننا نحسُّ بالاضطراب فكل شيءٍ جديد علينا. وأنا لا أتحدث عن نفسي، فليس لمثل هذا الحديث أهمية، ولقد حظيت في الحقيقة وواقع الأمر بنعمةٍ دائمة منذ أن وجهت عينيك ناحيتي، وليس من الصعب على الإنسان أن يتعود على نيل النعم. أما أنت، بغضِّ النظر عن كل شيء، فقد انتُزعت من كلم انتزاعًا، وأنا لا أستطيع أن أحدد معنى هذا الانتزاع، ولكني أحسست تدريجيًّا بهذا المعنى، إنَّ الإنسان ليترنح وإن الإنسان ليضطرب، لقد كنت على الدوام مستعدًّا لأخذك، ولكني لم أكن دائمًا حاضرًا، وحتى إذا

كنت حاضرًا، فإن أحلامك — وأحيانًا أشياء حية مثل صاحبة الحان — كانت تتملَّكك. لقد مرت باختصارٍ أوقات، كنت فيها تبعدين عني بنظرك، وتشتاقين إلى أمور لم تتحدَّد على نحوٍ كامل، أيتها البنت المسكينة! ألم يكن الأمر يحتاج في مثل هذه الفترات إلا إلى أن يوضع في اتجاه نظرتك الأشخاص الملائمون فإذا بك تَضيعين، وإذا بك تخرين صرعى الانخداع ظانَّةً أن هذه الأشياء — وهي التي لا تعدو أن تكون لحظات، خيالات، ذكريات قديمة، حياة قديمة مضَت ولا تزال تمضي وتمضي — هي حياتك الحالية الواقعية لا تزال. هذا خطأٌ يا فريدا! هذه هي الصعوبة الأخيرة والدنيئة — إذا صحَّ تقديرها — التي تُواجه اتحادنا النهائي. فعودي إلى نفسك! تمالَكي نفسك! حتى إذا كنت قد فكَّرت أن المساعدَينِ أُرسلا من عند كلم — وليس هذا صحيحًا فقد أتيا من عند جالاتر — وحتى إذا كانا قد استطاعا أن يَسحراك بهذا الخداع لدرجة أنكِ ظننتِ أنكِ ترَين في قذارتهما وفُحشهما آثارًا من آثار كلم، كما يظنُّ الإنسان أنه يرى جوهرةً في وسط الروث؛ لأنه كان قد فقَدَها، بينما هو في الحقيقة لا يستطيع أن يجد في الروَث شيئًا حتى لو كانت الجوهرة فيه — فما هذان الشابان إلا من نوع خدم الحظيرة لا يَفترقان عنهم إلا في أنهما يَفتقِران إلى صحَّتهم القوية، وفي أن قليلًا من الهواء الرطب يُسبِّب لهما المرض ويُلقي بهما في سرير، سرير يعرفان بشطارة الخدم كيف يختارانه.

وكانت فريدا قد أسنَدَت رأسها على كتف ك وسار الاثنان جيئةً وذهابًا وقد عقَدا ذراعَيهما. وقالت فريدا ببُطءٍ وهدوء يوشك أن يكون ارتياحًا، وكأنَّما كانت تعرف أنها مُنحَت فترة راحةٍ قصيرة ركنت فيها إلى كتف ك وأرادت أن تنعَم بها في النهاية: لو أنَّنا هاجرنا في تلك الليلة التي تعرفها لكُنَّا اليوم آمِنين، ولكنَّا دائمًا معًا، ولكانت يدُك قريبةً جدًّا مني أستطيع أن أُمسكها. فما أشدَّ حاجتي إلى قربك! وكم أحسُّ، منذ عرفتك، بالهجران إذا لم تَكُن معي! إنَّ قربك، على ما أظن، الحلم الوحيد الذي أحلمُه، ولست أعرف حلمًا غيره.

وجاء صوت رجلٍ يُنادي من الممرِّ الجانبي. كان المُنادي هو يريمياس. وكان يقف هناك على الدرجة السُّفلى من السلم، ولم يكن يرتدي سوى القميص، وقد التفَّ بملاءة فريدا. وكان يقف هناك أشعث الشَّعر مُتناثر اللحية وكأنما اجتاحَتها الأمطار، يفتح عينَيه بصعوبةٍ وتوسُّلٍ ولوم، وقد احمرَّت وجنتاه وإن بدتا كأنهما تتكوَّنان من لحمٍ مُترهِّل شديد الترهُّل وارتعدت ساقاه العاريتان من البرد ارتعادًا اهتزت له شراريب الملاءة الطوال، فلاح وهو على هذه الحال كمريضٍ هرب من المستشفى، لا يستطيع مَن ينظر إليه أن يُفكِّر في

شيءٍ آخر سوى إعادته إلى السرير. وهذا هو بالضبط ما دار بخلد فريدا، فتملَّصت من ك وأسرعت إلى يريمياس. ويبدو أن قربها، وطريقتها الحنونة في إحكام لفة الملاءة حوله، والسرعة التي حاولت أن تردَّه إلى الحُجرة، قد منحَته شيئًا من القوة، وبدا عليه كأنه تعرَّف على ك في تلك اللحظة. وقال يريمياس: آه، السيد موظَّف المساحة!

وداعب وجنة فريدا مُطيِّبًا خاطرها فما كانت تُريد مزيدًا من الحديث، وأردف: لا تُؤاخذني على هذا الإزعاج! ولكن صحَّتي ليست على ما يرام، وهذا سببٌ كافٍ لعدم المؤاخذة. أظنُّ أنني أهذي من الحُمة، ولا بد أن أشرب شيئًا ساخنًا وأعرق. يا للسور اللعين عند حديقة المدرسة! سأظل طول حياتي أذكره. ثم كان عليَّ أن أجري هنا وهناك في الليل بعد أن أُصبت بالبرد. إن الإنسان يُضحِّي، دون أن يشعر، بصحَّته من أجل أشياءَ لا تُساوي التضحية في الحقيقة. أما أنت، يا سيادة موظَّف المساحة فما ينبغي أن تنزعج بسببي. ادخُل عندنا في الحُجرة فعد مريضًا وقلْ في أثناء ذلك لفريدا ما تُريد أن تقوله لها. ومن الطبيعي أن يكون لدى اثنَين يفترقان بعد أُلفة كلامٍ كثير في اللحظات الأخيرة، لن يفهمه شخصٌ ثالث خاصةً إن كان راقدًا في السرير ينتظر المشروب الساخن الذي وُعد به. فتعالَ، ادخل الحجرة، وسألزم الهدوء تمامًا.

وقالت فريدا وهي تجذبه من ذراعه: كفى! كفى! إنه يهذي ولا يعرف ماذا يقول. أما أنت يا ك فلا تذهب معه، أرجوك! هذه حُجرتي وحجرة يريمياس، أو هي بالأحرى حُجرتي، وأنا أمنعك من الدخول. إنك تلاحقني، يا ك، لماذا تُلاحقني؟ إنني لن أعود إليك أبدًا، أبدًا، إنني أرتعد عندما أفكِّر في هذا الاحتمال. اذهب إلى فتاتَيك، إنهما تجلسان وليس عليهما من الثياب سوى القميص، على المقعد إلى المدفأة بجوارك، كما علمت، وإذا ما أتى أحدٌ يُناديك، صرَختا في وجهه! إنك هناك في بيتك! أو هل تراك لا تحسُّ ما يجذبك إلى هناك؟! لقد حاولت أن أحجزك عنهما، فلم أنجح إلا قليلًا، ولكني حجزتك على أيَّة حال، ولقد انتهى كل شيء، وأنت حر. إن حياةً جميلةً تنتظرك، وربما سيكون عليك أن تُنازل الخدم من أجل إحداهما، أما الثانية فليس هناك كائنٌ في السماء أو على الأرض يحسدك عليها! والبركة معقودة على الرباط مقدمًا. لا تعارض! وليس هناك شكٌّ في أنك تستطيع أن تَنقُض كل شيء، ولكنك في الحقيقة لا تصلُ في النهاية إلى نقض أيِّ شيء! تصوَّر يا يريمياس أنه نقض كل شيء.

وتفاهَما بتبادل الابتسام والإيماء بالرأس. وأردفت فريدا: ولكن لنَفرض جدلًا أنه نقض كل شيء فما هي النتيجة؟ وماذا يعنيني هذا؟ إنَّ أحوال أولئك الناس وكيف تسير

من شأنهم هم وما هي من شأني. ليس من شأني إلا أن أرعاك وأُعنَى بك حتى تستردَّ صحتك كما كانت قبل أن يُعذِّبك ك بسببي.

وسأل يريمياس: إذن فأنتَ لن تأتي معي يا سيادة موظَّف المساحة؟

وجرَّته فريدا نهائيًّا دون أن تَلتفِت إلى ك مرةً أخرى. ورأى ك إلى أسفل بابًا صغيرًا أكثر انخفاضًا من أبواب الممر الأخرى، ولم يكن يرمياس وحدَه الذي اضطرَّ للانحناء حتى يستطيع الدخول بل فريدا كذلك، ويبدو أن الحجرة في الداخل كنت مضاءةً وكانت دافئةً. وتناهى إلى السمع شيءٌ من الهمس لعله إلحاحٌ رقيق من فريدا على يريمياس أن يأوي إلى الفراش. ثم أُغلق الباب.

عند ذاك تبيَّن ك مدى السكون الذي خيَّم على الممر، والذي لم يقتصر على هذا الجزء من الممر الذي كانت فيه فريدا والذي يبدو أن حجرات الخدمة كانت متخذةً به، بل شمل كذلك الممر الطويل والحجرات التي كان الصخب يسيطر عليها، ومعنى هذا أن السادة قد ناموا أخيرًا. وكذلك كان ك شديد التعب، ولعله لم يستطع بسبب هذا التعب أن يدافع عن نفسه ضد يريمياس كما ينبغي. ولعله كان قد تصرف أكثر حكمة، لو أنه اتبع يريمياس الذي كان على ما يبدو يبالغ في البرد الذي أصيب به — ولم تكن مسكنتُه ترجع إلى بردٍ ألمَّ به، بل كانت وراثيةً فيه ولم يكن هناك مشروب ساخن يستطيع أن يُخلصه منها — ليته اتبع يريمياس وفعل مثله، فكشف في مبالغةٍ عن تعبه الذي كان في الحقيقة تعبًا شديدًا، وخرَّ على أرض الممر ونعس قليلًا، ولا شك أن ذلك كان سيُتيح له شيئًا من الراحة ولعله كان سيتيح له كذلك شيئًا من الرعاية! ولكنه لم يكن سينتهي إلى نهايةٍ موفقة كتلك التي سينتهي إليها يريمياس. ولا شكَّ في أن يريمياس كان سينتصر في كل منافسةٍ حول إثارة الشفقة، سينتصر ربما بحقٍّ، سينتصر لا في هذه المعركة فحسب، بل في كل المعارك الأخرى على ما يبدو. وكان ك يحسُّ بتعبٍ شديد، حتى إنه فكَّر في أن يدخل واحدة من هذه الحجرات — ولا شكَّ أن بعضها كان خاليًا — وينام في سريرٍ جميل حتى يستريح تمامًا. وكان يرى أنه لو نجح في هذا لكان له فيه تعويض عن أمورٍ كثيرة. وكذلك كان لديه. شرابٌ يُعين على النوم، فقد تركت فريدا على الصينية التي خلَّفتها على الأرض قنينةً صغيرة من خمر الروم ... ولم يتردَّد ك في تحمُّل مشقَّة العودة إلى حيث كانت القنينة، وأفرغها في جوفه عن آخرها.

فلمَّا شرب أحس ك أنه قد أصبح على الأقل من القوة بحيث يستطيع أن يُواجه أرلانجر. وأخذ يبحث عن باب حُجرة أرلانجر، ولكنه لم يستطع العثور عليها؛ لأنه لم

يَعُد يرى الخادم وجيرشتيكر، ولأن الأبواب كانت كلها مُتشابهة. ولكنه ظن أنه يستطيع أن يتذكر على وجه التقريب الموضع من الممر الذي كان فيه الباب، وقرر أن يفتح بابًا كان يبدو في رأيه على الأرجح الباب المطلوب. ولم تكن المحاولة محفوفةً بالكثير المفرط من المخاطر، فإذا كانت الحجرة حجرة أرلانجر، فسيستقبله هذا، وإذا لم تكن حُجرته، فسيكون بطبيعة الحال من الممكن أن يعتذر وأن يعود أدراجه، وإذا كان النزيل نائمًا، وهو أقرب الاحتمالات. فإنه لن يلحظ دخول ك. وأسوأ احتمال هو أن تكون الحجرة خالية؛ لأنَّ ك لن يكون في مقدوره أن يقاوم إغراء الفراش، وسيستلقي فيه لينام إلى ما لا نهاية. ونظر ك مرةً أخرى إلى يمين الممر ويسارِه علَّه يجد شخصًا آتيًا يبين له المكان الذي يسعى إليه ويُوفِّر عليه المغامرة، ولكن الممر الطويل كان ساكنًا خاليًا. أرهف ك السمع عند الباب، فلم يجد هناك ما يدلُّ على أن في الحجرة أحدًا. وقرع الباب برقة لا يُمكن أن يستيقظ لها إنسان مستغرق في النوم، ولما لم يتحرك ساكن فتح الباب بحذرٍ بالغٍ. وإذا بصرخةٍ خفيفةٍ تتلقَّاه.

كانت الحجرة صغيرة، يشغل سريرٌ عريض أكثر من نصفها، وكان هناك مصباحٌ كهربائي موقدٌ على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، وإلى جانب الموقد حقيبةٌ سفريةٌ صغيرة. وكان هناك في السرير شخصٌ يختفي تمامًا تحت الغطاء، يتحرَّك حركاتٍ قلقة، ويَهمس من بين الملاءة والغطاء: مَن هذا؟

ولم يستطع ك أن يتصرَّف بكل بساطة، وتطلَّع مُغضبًا إلى السرير الفاخر الذي لم يكن للأسف خاليًا، وتذكر السؤال وذِكر اسمه. ويبدو أنه أحدث أثرًا طيبًا؛ فقد أبعد الرجل الراقد في السرير الغطاء قليلًا عن وجهه، وإن ظل خائفًا مستعدًّا لإعادة الغطاء حيث كان إذا لم تكن الأحوال على ما يرام. وإذا به يُبعد الغطاء عن جسمه فجأةً ويقعد. لم يكن الرجل بالتأكيد أرلانجر. لقد كان رجلًا قصيرًا حسن المنظر، يجمع وجهه النقيضين؛ فقد كانت وجنتاه مكوَّرتين كوجنات الأطفال وعيناه فرحتين كعيون الأطفال، ولكن جبهته العريضة وأنفه المدبب، وفمه الضيق الذي لم تكن شفتاه تتلاقيان، والذقن المتلاشية كانت كلها سمات لا تتصل بالطفولة بسبب، بل توحي بالتفكير والتأمل. لقد كان الرضا، الرضا الذاتي، هو الذي حفظ له نصيبًا كبيرًا من الطفولة الصحيحة. وسأل: هل تعرف فريدريش؟

وردَّ ك بالنفي. فقال السيد مبتسمًا: ولكنه يعرفك.

وهزَّ ك رأسه. لم يكن مَن يعرفه من الناس إلا قليل، بل لقد كانت تلك عقبةً من العقبات الرئيسية في طريقه. وقال السيد: أنا سكرتيرُه. واسمي بورجل.

وقال ك وهو يمدُّ يدَه إلى مقبض الباب: معذرةً، لقد خلطتُ بين بابك وبابٍ آخر. فأنا مدعوٌّ لمقابلة السكرتير أرلانجر.

فقال بورجل: يا للأسف! لا أقول يا لَلأسف لأنك مدعوٌّ لمقابلة شخصٍ آخر، ولكن لأنك خلطت بين الأبواب. فأنا إذا أوقظت لا أنعس بعد ذلك مرةً أخرى بكل تأكيد. ولكن لا ينبغي أن تحزن لذلك إلى هذا الحد. هذه مِحنتي أنا. ثم لماذا لم تصنَع الأبواب على نحوٍ يجعل من المُمكن إغلاقها، هه؟ إن هذا شيءٌ مقصود له بطبيعة الحال ما يُبرِّره، فهناك حكمةٌ قديمة تقول إن أبواب السكرتيرِين لا بدَّ أن تظل مفتوحة. ولكن ليس هناك ما يدعو للأخذ بهذه الحكمة حرفيًّا.

وتطلَّع بورجل إلى ك في تساؤلٍ وفرح، وكان يبدو — على العكس توحي به شكواه — مرتاحًا راضيًا، ولا يُمكن أن يكون بورجل قد أحسَّ في حياته بتعبٍ كالتعب الذي يحسُّ به ك الآن. وسأل: وإلى أين تريد الذهاب الآن؟ إنَّ الساعة تشير إلى الرابعة. وسيكون عليك أن توقظ مَن تذهب إليه، وليس كل إنسان معتادًا على الإزعاج مثلي، وليس في مقدور كل إنسانٍ أن يصبر على الإزعاج صبري عليه، فإن السكرتيرين أمةٌ عصبية. فابقَ هنا هنيهة. والجميع يبدءون هنا في الاستيقاظ نحو الخامسة، وفي هذا الوقت يمكنك أن تُلبي الدعوة على أفضل نحو. فدع مقبض الباب واجلس حيث تريد والحقيقة أن المكان هنا ضيِّق والأفضل أن تجلس على حافة السرير. هل تدهش لأنني ليس لدي كرسي وليس لديَّ منضدةٌ هنا؟ لقد كان لي أن أختار بين تأثيثٍ كاملٍ للحُجرة يكون فيه السرير ضيقًا كحال سراير الفندق، وبين هذا السرير الكبير على ألا يكون معه سوى حوض الاغتسال. واخترت السرير الكبير؛ فالسرير هو الشيء الرئيسي في حجرة النوم. آه! إن مَن يستطيع أن يتمطى وأن ينام جيدًا، لينعم بهذا السرير فهو متعةٌ لذيذة! حتى أنا الذي أحسُّ دائمًا بالتعب دون أن أستطيع النوم، أرتاح لهذا السرير، وأقضي غالبية النهار فأنجز المكاتبات وأستجوب وأنا فيه أصحاب الحاجات. والأمر يسير على نحوٍ طيبٍ جدًّا. والحقيقة أن أصحاب الحاجات لا يجدُون مكانًا للجلوس، ولكنهم يجدون ما يُعوِّضهم عن هذا، فإنه من الأفضل بالنسبة إليهم أن يظلُّوا واقفين بينما يرتاح الموظف الذي يستجوبهم، على أن يجلسوا مرتاحين بينما الموظف يصرخ فيهم. إذن فليس لديَّ إلا هذا المكان على حافة السرير أقدمه إليك، وهو مكان غير رسمي خصَّصته للأحاديث الليلية دونما سواها. ولكنَّك ساكنٌ ساكت يا حضرة موظف المساحة؟

فقال ك الذي ما كاد يتلقى الدعوة حتى جلس في الحال بخشونةٍ وبدون احترام على السرير واستند إلى عموده: أنا أحسُّ بتعبٍ شديد.

وقال بورجل ضاحكًا: هذا شيءٌ طبيعي. فكل إنسانٍ هنا تعبان. وأنا على سبيل المثال لم أقم لا الأمس ولا اليوم بعملٍ، ومع ذلك فإنه من المحال أن أستطيع النوم الآن، أما إذا تحقَّق أبعد الأشياء عن التصديق ونعست بينما أنت هنا، فأرجوك أن تلزم السكون وألَّا تفتح الباب. ولكن لا تخف، فأنا بكل تأكيد من أنعس الناس، وحتى إذا نعست فلن يدوم نعاسي على أفضل الفروض إلا لدقائق قليلة. والذي يحدث معي هو أنني، على ما يبدو لأنني معتادٌ أشدَّ الاعتياد على حركة الجمهور، أنام بسهولةٍ فائقة عندما يكون عندي بعض الناس.

وفرح ك بهذا الكلام وقال: نعم، يا حضرة السكرتير، أرجوك، وسأنام أنا كذلك قليلًا إذا سمحت لي.

وعاد بورجل يضحك ويقول: لا، لا، أنا لا أستطيع أن أنام إذا دُعيت إلى ذلك، ولكن فرصة النوم تأتي من تلقاء ذاتها أثناء الحديث، والحديث هو أنجع وسيلة لإنعاسي! نعم، إن الأعصاب تعاني الكثير في عملنا. وأنا على سبيل المثال، سكرتير اتصال. وأنت لا تعرف ما هذا، هه؟ إنني أمثِّل أقوى اتصال ...

وهنا فرَك يديه بسرعة في نشوةٍ من الفرح غير مقصودة، وأكمل: ... بين فريدريش والقرية، إنني أمثِّل الاتصال بين سكرتيرييه في القصر وسكرتيرييه في القرية، وأنا أقيم غالبًا في القرية، ولكني لا أقيم فيها بصفةٍ دائمة، وعليَّ أن أكون في كل لحظةٍ مُستعدًّا للسفر إلى القصر، وأنت ترى حقيبة السفر. إنها حياةٌ قلقة لا تلائم كل إنسان. على أنني لا أستطيع الاستغناء عن هذا النوع من العمل، وقد أصبحت أجد كل نوعٍ آخر مجردًا من الطعم. وكيف حال المساحة؟

فقال ك: إنني لا أقوم بعمل يتصل بالمساحة؛ لأنهم لم يكلفوني بعملٍ من حيث أنا موظف مساحة. ولم يكن ك مركزًا أفكاره على الموضوع، بل كان يتوق إلى شيءٍ واحد وهو أن ينعس بورجل، وهو لم يَقُل هذا عندما تكلَّم عن إحساسٍ بواجبٍ ما حيال نفسه، فقد كان يعتقد في قرارة نفسه أنه يعرف أن لحظة نعاس بورجل ما زالت بعيدة لا يستطيع إنسان التنبؤ به. وقال بورجل وقد هز رأسه بشدةٍ وأخرج كراسة المذكرات من تحت الغطاء ليسجل فيها شيئًا: هذا شيءٌ عجيب! أنت موظَّف مساحة وأنت لا تقوم بعملٍ يتصل بالمساحة!

وهز ك رأسه بطريقةٍ آلية، وكان قد بسط ذراعه اليسرى على شبَّاك السرير وركن رأسه عليها، وحاول مُحاولاتٍ مختلفة أن يجد وضعًا مريحًا، وكان هذا الوضع هو أكثرها

راحة، وكان يُتيح له في الوقت نفسه أن ينتبه إلى كلام بورجل على نحوٍ أفضل. واستأنف بورجل كلامه: أنا على استعدادٍ لمتابعة هذا الموضوع. ومن المؤكد أن الأحوال عندنا ليسَت بالتي تسمح بعدم الإفادة من المتخصِّصين. هذا إلى أنَّ هذا الوضع فيه جرحٌ لكرامتك. ألا تعاني منه؟

وقال ك: إنني أعاني منه.

قالها ك ببطءٍ وهو يبتسم بينه وبين نفسه لأنه لم يكن في تلك اللحظة بالذات يعاني منه أقل معاناة. هذا إلى أن عرض بورجل لم يُحدث به أي أثر، لقد كان عرضًا على طريقة الهواة. أنه دون علمٍ بالظروف التي تمَّ في ظلها استدعاء ك إلى العمل، ودون علمٍ بالصعوبات التي تعرض لها هذا الاستدعاء في القصر وفي مجلس القرية، ودون علم بالاضطرابات التي حدثت أثناء إقامة ك هنا أو التي أوشكت أن تحدث، دون علمٍ بهذا كله، ودون أن يظهر عليه أنه — وهذا شيءٌ مقبول من السكرتيرين — أحسَّ على الأقل بما يُشبه العلم بالموضوع، يعرض أن يصلح الأمر في القصر بجرة قلمٍ مُستعينًا بكراسة المذكرات الصغيرة! وقال بورجل: يبدو أنك تعرَّضت لضربٍ من خيبة الأمل.

وأثبت بورجل بهذا مرةً أخرى أن لديه شيئًا من المعرفة بالناس تلحُّ على ك من حينٍ لآخر منذ أن دخل الحجرة ألا يقلل من شأن بورجل، ولكن الحالة التي كان عليها لم تكن تسمح له بأن يحكم الحكم العادل إلا على التعب فقط. وعاد بورجل يقول: لا.

وكأنَّما كان بذلك يجيب على فكرةٍ خطرت ببال ك وكان يُريد أن يوفر على ك جهد الكلام إشفاقًا به. وأردف: ... لا ينبغي أن تدع خيبة الأمل تفزعك. ويبدو أن بعض الأمور قد وُضعَت هنا بقصد الإفزاع، وإذا وصل الإنسان هنا لأول مرةٍ فإنَّ العوائق تلُوح له منيعةً لا سبيل إلى التغلُّب عليها بحالٍ من الأحوال. وأنا لا أريد أن أبحث مدى صحَّة هذا التصور، وربما كان الظاهر مُطابقًا للواقع، وأنا في مكاني هذا أفتقر إلى البُعد اللازم لتبيان هذا الأمر، ولكن عليك أن تلاحظ أن فرصًا تسنح أحيانًا لا تكاد تتفق مع الوضع العام، فرصًا يصل الإنسان فيها بكلمة، بنظرة، بإشارة ثقةٍ إلى أشياءَ لا يصل إليها بجهودٍ مُضنية يبذلها طوال حياته. هذه هي الحال بكل تأكيد. والحقيقة أنَّ هذه الفرص تتَّفق مع الوضع العام من حيث هي فرص لم تُستغلَّ مطلقًا. وإنني أتساءل دائمًا عن السبب في عدم استغلالها.

ولم يكن ك يعرف هذا السبب. والحقيقة أنه كان يحسُّ بأن الموضوع الذي يتحدَّث بورجل عنه يمسُّه جدًّا على ما يبدو، ولكنه كان ينفر نفورًا شديدًا من الموضوعات التي تمسُّه، وحرك رأسه إلى جانبٍ وكأنه يفسح المكان لأسئلة بورجل أن تعبر عليه عبورًا

دون أن تمسَّه في قليلٍ أو كثير. واستأنف بورجل الحديث وهو يمطُّ ذراعَيه ويتثاءب على نحوٍ يناقض ما في كلامه من جدٍّ ويُثير في النفس الاضطراب: إنَّ السكرتيرين يشكون دائمًا من أنهم يضطرُّون إلى أجراء غالبية الاستجوابات بالقرية ليلًا. ولكن لماذا يشكُون من ذلك؟ هل لأنها تجهدهم؟ هل لأنهم يُفضِّلون استخدام الليل للنوم؟ لأنهم لا يشكون من هذا بكلِّ تأكيد. وهناك بطبيعة الحال بين السكرتيرين، كما هي الحال مع غيرهم، مَن اشتدَّ اجتهادهم وبينهم مَن قلَّ اجتهادهم. ولكن لا أحد منهم يشتكي من الإجهاد المُفرط، وخاصةً ليس بينهم مَن يشكو علنًا. فليس هذا طبعنا. ونحن في هذه الناحية لا نعرف فرقًا بين وقت العمل والوقت العادي. إنَّ هذه الفروق غريبةٌ عنا. فما سبب نفور السكرتيرين من الاستجوابات الليلية؟ هل الإشفاق على مَن يقومون باستجوابهم؟ لا، لا، ليس هذا هو السبب. إنَّ السكرتيرين لا يعرفون الشفقة مع مَن يستجوبونهم، ولكنهم لا يعرفون كذلك الشفقة مع أنفسهم، وليس هناك فرقٌ بين الضربَين من التعسف. وليس هذا التعسف إلا الاتباع العنيف والتنفيذ الصارم للخدمة، ولهذا فإن هذا التعسف هو في الحقيقة أعظم شفقةٍ يرجوها أصحاب الحاجات. وهذا شيءٌ معترَفٌ به تمامًا، ولكن المتسرع في الحكم لا يلاحظه بطبيعة الحال. فالاستجوابات الليلية هي على سبيل المثال في هذه الحالة الاستجوابات التي تلقى ترحيب المستجوبين، وليسَت هناك شكاوى أساسية من الاستجوابات الليلية. فما هو إذن السبب في نفور السكرتيرين منها؟

ولم يكن هذا معروفًا لـ ك. لقد كان يعرف القليل، ولم يكن يستطيع أن يتبيَّن ما إذا كان بورجل يطلب منه الإجابة جادًّا أو يتظاهر بطلبها. كان ك يُفكر: لو تركتني أنام في سريرك فإنَّني سأُحضره لك على كل أسئلتك غدًا ظهرًا أو مساءً على أفضل نحو. ولكن بورجل لم يكن يبدُو عليه أنه ينتبه إليه لفرط انشغاله بالسؤال الذي وجَّهه هو إلى نفسه. وأردف بورجل: إنَّ السكرتيرين، على قدر ما أعرف وعلى قدر ما علمتني الخبرة، يُوجهون النقد التالي للاستجوابات الليلية: إن الليل لا يُناسب المفاوضات مع أصحاب الحاجات لأنه من الصعب أو من المُستحيل الاحتفاظ الكامل للمفاوضات بالصفة الرسمية. وليس السبب هو المظاهر والشكليات، فهذه من الممكن مراعاتها بطبيعة الحال على نحوٍ صارمٍ بالليل وبالنهار على السواء. ليس هذا إذن هو السبب الذي يؤثر على التقدير الرسمي للأمور بالليل. إنَّ السبب هو أن الإنسان يَميل بالليل إلى النظر إلى الأشياء من ناحيةٍ أكثر خصوصية، فإذا ادعاءات أصحاب الحاجات تتَّخذ من الأهمية أكثر ممَّا لها، فتختلط بالأحكام اعتباراتٍ لا تتصل بالموضوع بل تتَّصل بوضع أصحاب الحاجات وآلامهم وهمومهم ... إن الحاجز

الضروري الفاصل بين أصحاب الحاجات والموظَّفين، وإن ظل في الظاهر قائمًا لا عيب فيه، يضعف، ويتحول الوضع من أسئلةٍ وأجوبة — وهو ما يَنبغي أن يكون — إلى ما يبدو على هيئة تبادُلٍ غريب غير لائقٍ مُطلقًا بين الأشخاص. وهذا هو على الأقل ما يقوله السكرتيرُون، وهم أناسٌ أوتوا بسبب الوظيفة إحساسًا فائقًا خارقًا للمألوف بالنِّسبة لهذه الأمور. ولكنهم — وكثيرًا ما نوقش هذا الموضوع في جلساتنا الخاصة — لا يتبيَّنون أثناء الاستجوابات الليلية من هذه المؤثرات غير المواتية إلا القليل. بل على العكس، إنهم يجتهدون منذ البداية في العمل على مجابهتها ويعتقدُون أنهم حققوا الكثير. أما إذا ما تناول الإنسان المَحاضر التي سجَّلوها واطلع عليها فإنه كثيرًا ما يدهش لما يبدو فيها من نواحي الضعف لديهم. وهذه أخطاء — وما هي في الحقيقة إلا مكاسب يَحصُل عليها المستجوبون بدون وجه حق — لا يمكن تصحيحها على الأقل طبقًا للوائحنا بالطريق المُباشر المعهود. والمؤكد أنها تصحُّ في وقتٍ ما بواسطة ديوان من دواوين المراقبة، ولكن هذا التصحيح لا يُفيد إلا القانون ولا يمكن أن يضرَّ بمَن يشملُهم الاستجواب بحالٍ من الأحوال. أليسَت لشكاوى السكرتيرين والحال هذه ما يبررها؟

كان ك قد أمضى هنيهة فيما يشبه النعاس، وها هو ذا ينزعج من جديد. لماذا هذا كلُّه؟ لماذا هذا كله؟ كان هذا هو السؤال الذي يتردد في خاطره وهو يتأمَّل بجفونٍ مُسبَلة بورجل لا من حيث هو موظَّف يُناقش معه مسائل صعبة، ولكن من حيث إنه شيء يعوقه عن النوم ولا يفهم من كنهِه غير هذا. أما بورجل فقد ابتسم وهو مندمجٌ أشد الاندماج في أفكاره، وكأنما عبَّر بابتسامةٍ عن نجاحه في تضليل ك بعض الشيء. ولكنه كان مُستعدًّا للعودة به إلى الصراط المستقيم. فقال: ولا يُمكن أن نقول أن هذه الشكاوى لها ما يُبرِّرها تمامًا. والحقيقة أنَّ الاستجوابات الليلية غير منصوصٍ عليها في أي موضع؛ أي إنَّ الإنسان لا يخرق قانونًا إذا هو حاول تجنُّبها، ولكن الاستجوابات الليلية أصبحت ضرورةً لا سبيل إلى تجاوزها نتيجةً للظروف ولأمورٍ مختلفةٍ منها: كثرة العمل مُفرطة، وانشغال الموظَّفين في القصر، وصعوبة الوصول إليهم، واللائحة الناصَّة على أنَّ استجواب أصحاب الحاجات لا ينبغي أن يُجرى إلا بعد الفراغ تمامًا من بحث الموضوع من كل نواحيه. وإذا كانت قد أصبحَت ضرورة، فإنني أقول إنَّ هذا نتيجة على الأقل غير مباشرة للوائح، ولهذا فإنَّ العيب في الاستجوابات الليلية هو — وأنا أبالغ بطبيعة الحال شيئًا ما، ولكني أسمح لنفسي بالتعبير على سبيل المبالغة — هو عيب اللوائح ذاتها. على أننا ينبغي أن نعرف للسكرتيرين أنهم يُحاولون على قدر استطاعتهم أن يحموا أنفسهم في نطاق اللوائح من الاستجوابات

الليلية ومن عيوبها التي قد لا تكون إلا عيوبًا ظاهرية. وهم بالفعل يتصرَّفون على هذا النحو، وعلى أوسع نطاق. فهم لا يَقبلون للاستجوابات إلا الموضوعات التي يعلمون عنها أنها لا تحتمل من أية ناحية أدنى خوف، هم يَختبِرُون أنفسهم قبل الاستجوابات اختبارًا دقيقًا ويرفُضون — إذا كانت نتيجة الاختبار تدعو إلى ذلك — الاستجوابات في آخر لحظة، وهم يُقوُّون أنفسهم باستدعائهم الشخص المطلوب استجوابه عشر مراتٍ قبل أن يقوموا فعلًا باستجوابه، وهم يُوكلون عنهم زملاءهم الذين لا يكون الموضوع من اختصاصهم والذين يكون في مقدورهم لهذا السبب معالجته بسهولةٍ أكبر، وهم يجعلون الاستجواب في بداية أو في نهاية الليل ويتجنَّبون الساعات الوسطى، وما إلى ذلك من الإجراءات الكثيرة، فإنَّ السكرتيرين لا يَستسلمُون بسهولة، وإن مقاومتهم لشديدة كما أنَّ إصابتهم يسيرة.

ونام ك، ولم يكن نومه نومًا بمعنى الكلمة، ولعله كان يسمع كلمات بروجل أسهل ممَّا كان يسمعها خلال يقظته الواهنة السابقة، كان يسمعها كلمةً كلمة ترنُّ في أذنه، ولكن الوعي المؤرِّق كان قد اختفى، وأصبح ك يحسُّ أنه حرٌّ فلم يعُد بورجل يُمسكه، وإن كان من حينٍ آخر يُحرك يدَيه ليتحسَّسه، فلم يكن ك في أعماق النوم، وإن كان قد انغمس فيه. ولم يكن لأحدٍ أن يسلبه النوم. وكان يحسُّ كأنه قد حقَّق بذلك انتصارًا عظيمًا، وكأن جماعة أتت للاحتفال به، وكأنه هو أو كان أحدًا غيره يرفع كأس الشمبانيا تمجيدًا لهذا الانتصار. كان على الجماعة أن تعرف الموضوع، ولهذا تكرر الكفاح وتكرَّر النصر مرةً أخرى، أو لعلهما لم يتكرَّرا بل جريا الآن لأول مرة، وكان الاحتفال بهما قد تمَّ من قبل، ولكنه لم يكن يَنصرِف عنه لأن النهاية كانت لحسن الحظ مؤكَّدة. كان هناك سكرتير عارٍ يشبه تمثال إلهٍ إغريقي أكبر الشبه يضيق عليه الخناق في المعركة أمام ك. كان هذا شيئًا هزليًّا جدًّا، وابتسم ك ابتسامةً رقيقةً في نومه للسكرتير وهو يتعرَّض للفزع في موقفِه المتكبِّر نتيجةً لتقدم ك، ثم وهو يضطرُّ إلى استعمال ذراعه الممدودة ويده المقبوضة بسرعةٍ ليستر عُريه فلا يُفلح لشدة بطئه. ولم تستمر المعركة طويلًا، فقد كان ك يتقدم خطوةً خطوة إلى الأمام وكانت خطاه واسعة. فهل كانت تلك معركةً فعلًا؟ لم يكن هناك عائق بمعنى الكلمة، إلا صيحات كالصفير يُطلقها السكرتير من حينٍ لآخر. لقد كان هذا الإله الإغريقي يصرخ كالبنت من أثر الدغدغة، ثم انصرف في النهاية، وأصبح ك بمُفرده في مكانٍ كبير، والتفَّ حواليه متهيئًا للقتال يبحث عن غريمه، فلم يكن هناك أحدٌ وكانت الجماعة قد انقضت هي الأخرى، ولم يكن هناك سوى كأس الشمبانيا المحطمة على الأرض، فداسها ك حتى أتم تحطيمها. ولكن الحطام وخزه فصحا، وثَقُل عليه الصحو كما يثقل على الصغار

عندما يوقظون. وعلى الرغم من ذلك، فقد خطرت بباله، وهو يرى صدر بورجل العاري فكرةً من الحلم: ها هو ذا إله الإغريق! انتزعه من الفراش!

وقال بورجل وقد رفع رأسه، وهو مستغرقٌ في التفكير، إلى السقف وكأنه إذ يتذكر يبحث عن أمثلةٍ فلا يجدها: ومع ذلك فهناك على الرغم من كل القواعد المنصوص عليها في اللوائح إمكانية استغلال أصحاب الحاجات لضعف السكرتيرين ليلًا — على فرض أن هذا الضعف ضعف حقيقةً — لصالحهم. هذه في الواقع إمكانيةٌ نادرةٌ جدًّا، أو على الأصح إمكانية لا تكاد تطرأ بحالٍ من الأحوال. وهذه الإمكانية تتلخَّص في أن يأتي صاحب الحجة في جوف الليل دون استدعاء وقد تدهش لأنَّ ذلك، على الرغم من أنه يبدو ممكنًا، لا يفترض فيه أن يحدث إلا نادرًا جدًّا.

ولا غرو فأنت لا تعرف الأحوال لدَينا، ولكن لا بدَّ أنك لاحظت أن النظام الحكومي لدينا محكمٌ لا تَعتوِرُه ثغرات. وهذا الإحكام يعني أن كل من لديه حاجة أو من لديه أسباب تستدعي أن يُستجوب، يتلقَّى حالًا ودون تردُّد — وغالبًا دون أن يكون قد رتب موضوعه بدعوةٍ للحضور إلى الديوان. وهو لا يَستجوِب في هذه المرة؛ لأن الموضوع لا يكون في المعتاد قد نضج بعد للاستجواب، ولكنه يكون قد تلقَّى الدعوة، ولا يُمكن القول بأنه عندما يحضر أنه حضر بلا دعوة، كل ما يُمكن أن يحدث هو أنه يأتي في وقتٍ ليس بوقت، وهنا يلفتُون نظره إلى تاريخ الدعوة وساعتها، فإذا أتى في الوقت الصحيح، فإنهم في المعتاد يصرفونه دون ما صعوبة. فإنَّ الدعوة التي يحملها صاحب الحاجة والتأشيرة المُثبتة في الملفات تمثل في يدي السكرتيرين أسلحة وقائية قوية وإن لم تكن كافية في كل الأحوال ولا ينطبق هذا الكلام إلا على السكرتير المُختص بالموضوع.

ولكلِّ إنسان الحرية في أن يفاجئ مَن يريد بالليل. ولكن لا يكاد يكون هناك إنسان يفعل هذا؛ لأنه يوشك أن يكون عديم الجدوى والمغزى ولو أن الإنسان فعل ذلك، فإن أول نتيجة ستترتَّب على فعله ستكون إغضاب السكرتير المختص، فنحن جماعة السكرتيرين، وإن لم نعرف فيما بينَنا الغيرة حيال العمل لأنَّ كل واحدٍ منا يحمل — حقيقةً ودون ما إسرافٍ في التقدير — عبئًا مُسرفًا في الضخامة، لا نقبل بحالٍ من الأحوال أي إزعاجٍ من جانب أصحاب الحاجات. وكثيرًا ما خسر أصحاب الحاجات قضاياهم لأنهم ظنُّوا أنهم لا يُحرزون تقدمًا في القسم المختص فحاولوا أن يتسلَّلوا إلى القسم غير المختص. هذا إلى أن مثل هذه المحاولات لا بدَّ أن تفشل لأنَّ السكرتير غير المختص — حتى إذا أمكن التأثير عليه بالليل وكان ينوي نيةً خالصةً أن يقدم المساعدة — لن يستطيع، نتيجةً لعدم تخصُّصه،

أن يقدم العون أكثر ممَّا يستطيع أيِّ محامٍ، بل إن ما يقدمه من مساعدةٍ يقل في الحقيقة كثيرًا لأنه يَفتقِر — حتى إذا كان في مقدوره فعل شيءٍ اعتمادًا على أنه يعرف الطرق السرية للقانون أحسن ممَّا يعرفها السادة المحامون — يفتقر حتى بالنسبة للأشياء التي تدخل في اختصاصه إلى الوقت، فليس لديه لحظةٌ واحدة يضيعها في مثل هذا المسعى. فأين هذا الذي يبدِّد لياليه، والحال على هذا النحو، في الارتماء على سكرتيرين غير مُختصين؟! هذا إلى أن أصحاب الحاجات يكونون مشغولين جدًّا إذا هم أرادوا. إلى جانب قيامهم بأعمال مهنهم، أن يلبوا الدعوات والإشارات التي تصدُر عن الأقسام المختصَّة، «مشغولين جدًّا» من وجهة نظر أصحاب الحاجات بطبيعة الحال، ومن البديهي أنَّ وجهة النظر هذه لا تطابق نظر السكرتيرين.

وأومأ ك برأسه مُبتسمًا، فقد كان في تلك اللحظة يَعتقِد أنه يفهم كل شيء فهمًا دقيقًا، لا لأنه يهتمُّ به، ولكن لأنه كان مُقتنعًا بأنه سيَستغرق في اللحظات التالية في نومٍ عميق لا يقضُّه حلمٌ أو إزعاج. سيَستغرِق بين السكرتيرين المختصين والسكرتيرين غير المختصِّين وأمام جماعة أصحاب الأعمال المشغولين غاية الشغل في سباتٍ عميق وسيُفلِت من كل شيءٍ على هذا النحو. ولقد ألف الآن صوت بورجل الهادئ الخفيض الراضي عن نفسه الساعي في غير جدوى إلى النوم، لدرجة أنه لم يَعُد يُزعجه بل أصبح يجرُّه إلى النعاس. وقال ك في نفسه: جَعجِعي أيتها الطاحونة جَعجِعي، فأنت لا تُجعجعين إلا من أجلي!

وقال بورجل وهو يَعبث بإصبعين في شفتِه السُّفلى ويفتح عينيه على سعتها ويمدُّ رقبته إلى الأمام وكأنه يصل بعد تجوالٍ شاقٍّ إلى هدفٍ خلاب: وأين إذن هذه الإمكانية النادِرة التي لا يكاد يكون لها وجود، والتي أشرت إليها؟ إنَّ السرَّ يَكمُن في اللوائح الخاصة بالاختصاص. فليس الأمر، ولا يُمكن أن يكون في حالة جهاز إداري كبير حي، على ما قد يخطر بالبال من أن كل قضيةٍ تُوكل إلى سكرتيرٍ مختصٍّ بعينه. وإنَّما الحقيقة هي أن الاختصاص الأساسي يكون لسكرتيرٍ بعينه بينما يختصُّ آخرون كثيرون بأجزاءٍ معينة وإن كان اختصاصهم بها اختصاصًا صغيرًا. فأين هذا الشخص الذي، حتى إذا كان أعظم العاملين، يستطيع وحده أن يجمع على مكتبه كل جوانب واقعة ما ولو كانت هي أصغر واقعة؟ إنَّ ما قلته حتى عن الاختصاص الرئيسي مُبالَغٌ فيه. وألا يتضمَّن أصغر اختصاص في طياته كل الاختصاص؟ وأليسَت العاطفة التي يتناول بها الإنسان القضية هي التي تَحسِم أمرها؟ وأليست العاطفة هي دائمًا هي وبكل قوتها؟ ومن المُمكن أن يكون هناك بين السكرتيرين اختلافات في كل الأمور، والحقيقة أن هناك اختلافات لا يحصرها العد،

أما العاطفة فلا يختلف فيها اثنان. ليس بين السكرتيرين من يستطيع أن يَضبط نفسه إذا ما طُولِبَ بمُعالجة قضية لا يختص بها إلا أقل الاختصاص. ولكن ينبغي أن تكون هناك من الناحية الظاهرية إمكانيةٍ مُنظَّمة للتفاوض، وهنا يبرز أمام أصحاب الحاجات سكرتير معين يكون عليهم من الناحية الرسمية أن يتعامَلوا معه. وليس من الضروري أن يكون هذا السكرتير هو صاحب الاختصاص الرئيسي بالنسبة للقضية، إنما الذي في هذا هو الجهاز الإداري وحاجاته الطارئة الخاصة. ولك الآن، يا حضرة موظف المساحة، أن تتصور إمكانية مباغتة أحد أصحاب الحاجات في الليل البَهيم نتيجةً لظروفٍ ما وعلى الرغم من العوائق التي وصفتها لك والتي تتَّسم عامةً بأنها عوائق كافيةً تمامًا إمكانية مباغتة أحد أصحاب الحاجات لسكرتير يكون لديه اختصاصٌ ما بالقضية المقصودة. يبدو أنك لم تُفكِّر في إمكانيةٍ من هذا النوع؟ وأنا أصدقك عن طيب خاطر. ثم إنه ليس من الضروري أن تُفكِّر فيها فإنها إمكانيةٌ لا تطرأ مُطلقًا. لا بدَّ أن يكون صاحب الحاجة الذي يُوفق إلى هذه الإمكانية حبةً تشكلت وتحددت على نحوٍ عجيب، حبةً صغيرةً وماكرة، حتى يستطيع أن ينفذ من هذا الغربال العظيم الذي لا يفوقه غربالٌ آخر؟ إذن فأنت تعتقد أن هذه الإمكانية لا تطرأ مطلقًا؟ نعم، أنت على حق، إنها لا تطرأ. ولكن أين هذا الذي يضمن هذه الاستحالة؟ قد تطرأ هذه الإمكانية ذات ليلة — ولكنني لا أعرف سكرتيرًا واحدًا حدث له هذا، على أن هذا لا يؤكد إلا القليل فإن مَن أعرفهم محدودون بالقياس إلى العدد الكبير من السكرتيرين الذين يمكن أن يجري عليهم مثل هذا، ثم إنه ليس من المؤكَّد أن يعترف سكرتير حدث له هذا، لأن المسألة مسألة شخصية جدًّا ولأنها تمسُّ الحياء الديواني إذا صحَّت هذه العبارة. ومهما يكن من أمرٍ فإن خبرتي تؤكد أن هذه الإمكانية نادرة ولا وجود لها إلا فيما تتناقَله الشائعات، ولا برهان عليها، ولهذا فإنه من السرف الخوف منها. وإذا طرأت في الواقع، فإن الإنسان يستطيع — وهو شيءٌ يمكن للإنسان أن يصدقه — أن يدرأ أذاها بأن يثبت لها، وهذا شيءٌ يسير ليس له مكانٌ في الدنيا. ومهما يكن من أمرٍ فإن الإنسان يتصرف تصرفًا مَرضيًّا إذا ما توارى تحت الغطاء خوفًا منها ولم يجرؤ على النظر من تحتها، وإذا حدث أن اتخذت الاستحالة الكاملة النجاة شكلًا. فهل معنى ذلك أن كل شيءٍ ضاع بلا رجعة؟ على العكس. أما أن كل شيءٍ يضيع فأمرٌ أكثر استحالة من أشدِّ الأمور استحالة. ولكن عندما يكون صاحب الحاجة في الحجرة فإن الوضع يكون في غاية السوء. إن القلب ليحسُّ نتيجةً لهذا بالضيق. إلى متى تستطيع أن تقاوم؟ هذا هو السؤال الذي يوجهه الإنسان إلى نفسه. ولكن كل واحد يَعرف أن المقاومة لن تكون

مقاومة. وينبغي عليك أن تتصوَّر الوضع كما ينبغي. إن صاحب الحاجة الذي لم تره من قبل والذي كنت دائمًا تتوقَّعه. تتوقَّعه بشغفٍ حقيقي وتعتبره بالعقل شخصًا لا سبيل إلى لقياه يجلس هناك. إنه يدعُوك بوجوده الصامت إلى أن تنفذ إلى حياته المسكينة وأن تتقلَّب فيها كأنها مِلكٌ لك وأن تشترك في معاناة مَطالبها التي لا جدوى منها. إنَّ هذه الدعوة في الليل الساكن خلابة ساحرة. والإنسان قد يُلبِّيها، فلا يعود موظفًا رسميًّا. إنه وضعٌ لا يلبث أن يتبين الإنسان فيه أن رفض الرجاء من المحال. أو بعبارةٍ أدق إن الإنسان يحس بالحيرة، أو بعبارةٍ أكثر دقة إنَّ الإنسان يحسُّ بالحيرة لأن العجز الذي يلازم الإنسان هو وينتظر رجاء صاحب الحاجة ويعلم أنه — إذا ما نط صاحب الحاجة برجائه — سيُلبِّيه، حتى إذا كان التنظيم الإداري الرسمي، على ما يعلم، سيَضرب به عرض الحائط هو أسوأ ما يُقابله في حياته. والسبب هو قبل كل شيءٍ آخر — وبغضِّ النظر عن كل شيءٍ — ارتقاءٌ يفوق المفاهيم كلَّها، ارتقاءً يتشبث به الإنسان عنوةً لحظةً من اللحظات. ونحن لم نُخوِّل، حسب مركزنا، صلاحية تلبية رجاءات من نوع الرجاءات التي نعنيها هنا، ولكن قرب صاحب الحاجة منا في الليل يؤدي إلى نشأة مقومات حكومية لدَينا إذا صحَّ هذا التعبير، وإلى التزامنا بأشياءَ خارجة على حدود صلاحيتنا، بل وإلى تنفيذها. إنَّ صاحب الحاجة يَغصبنا في الليل كما يغصبُنا قاطع الطريق في الغابة على إعطائه أشياء لا نستطيع في الأحوال العادية أن نمنحَه إياها. والأمر الآن على هذا النحو: صاحب الحاجة موجود يُقوِّينا ويغصبنا ويُحفزنا، والموضوع يسير طريقه، بينما تجددت الأشياء كلها من الوعي فالأم تسير الحال بعد ذلك عندما يتغيَّر الوضع، عندما يتركنا صاحب الحاجة راضيًا غير عابئٍ بنا، ونقف هنا وحدنا عاجزين في مواجهة تهمة إساءة استخدام السلطة؟! إن هذا شيءٌ لا يتصوَّره الإنسان! ومع ذلك فنحن بالفعل سعداء. وهكذا يمكن أن تكون السعادة انتحارية. ونحن نستطيع أن نبذل الجهود من أجل إخفاء الوضع الحقيقي على صاحب الحاجة. ويكاد لا يكون هناك إنسان يستطيع أن يتبيَّن شيئًا من وضعه الحقيقي وحده. إن صاحب الحاجة، على ما تظن، قد اندفع لأسبابٍ مباغتةٍ تافهة — واهنًا يائسًا جريئًا بليدًا نتيجةً للتعب المفرط والخيبة — إلى داخل حجرةٍ أخرى غير تلك التي كان يُريدها، فهو يجلس جاهلًا مشغولًا بأفكاره، إذا كان مشغولًا بشيءٍ على الإطلاق، مشغولًا بضلاله أو بتعبه. فهل يُمكن أن يتركه الإنسان على هذه الحال؟ لا، لا يُمكن إنَّ الإنسان وهو يثرثر السعداء يشرح له كل شيء. والإنسان لا يصون نفسه في كثيرٍ أو قليل إذ هو يشرح لصاحب الحاجة تفصيليًّا ما حدث وأسبابه، وكيف أن المصادفة نادرة ندرة خارقةً

للمألوف، عظيمةً عظمة فريدة، ويشرح له كيف أنه قد اندفع إلى هذه الفرصة عاجزًا كل العجز، الذي لا يستطيعه إلا أصحاب الحاجات، وكيف أنه يستطيع — يا سيادة موظف المساحة — إنَّ أراد أن يتحكَّم في كل شيء، وألا يكون عليه أن يقدم لقاء ذلك شيئًا آخر سوى رجاءٍ على نحوٍ ما قد جهزت تلبيته لعلاقاته ... يشرح له هذا كله، تلك هي الساعة العصيبة التي يُواجهها الموظف. وإذا ما فعل الإنسان هذا، يا حضرة موظف المساحة، فإنَّ الجزء الضروري يكون قد جرى، ويكون على الإنسان أن يرضى ويقنع وينتظر.

ونام ك، مُنقطعًا عن كل شيءٍ حدث. وتدلَّى رأسه، الذي كان في البداية يرتكن على ذراعه اليُسرى فوق شباك السرير، ومال في نومه لا يعتمد على شيء، وأشدَّ ميلًا شيئًا فشيئًا. لم يعد الاستناد على الذراع يكفي، فالتمس ك سندًا جديدًا دون ما قصد، بأن دسَّ يده اليُمنى في اللحاف، فأمسك قدم بورجل التي كانت قد خرجت من تحت اللحاف مُصادفةً. وتطلع إليه بورجل وترك له القدم على الرغم من كرهه لذلك.

ودقَّ بعضهم دقاتٍ شديدةً على الجدار الجانبي. ففزع ك وتطلع إلى الجدار، فإذا هناك مَن يسأل: هل موظَّف المساحة هناك؟

فقال بورجل: نعم.

وخلَّص قدمه من قبضة ك وتمطَّى فجأةً بعنفٍ وعنادٍ كالصبية الصغار وعاد الصوت يقول: إذن فليأتِ إلى هنا وقد طال انتظاره له.

لم يرعَ صاحب الصوت بورجل، ولم يرعَ خاصةً ك، وكم كانت حاجته شديدة إلى أن يرعى الآخَرون حاله. وقال بورجل هامسًا: إنه أرلانجر.

ولم يبدُ عليه أنه فوجئ بأن أرلانجر في الحُجرة المجاورة. وأردف بورجل: اذهب الآن إليه، فقد تملكه الغضب، وعليك أن تحاول تهدئته وهو في المُعتاد ينام نومًا عميقًا، ولكنَّنا تكلمنا بصوتٍ مُرتفع، فإنَّ الإنسان لا يستطيع أن يتحكَّم لا في نفسه ولا في صوته عندما يتكلَّم في موضوعاتٍ بعينها. فاذهب الآن، وانثنِ لأرى أنك لا تستطيع أن تخرُج بنفسك من النوم الذي يَحتويك. اذهب، فماذا تُريد هنا؟ لا، ليس عليك أن تَعتذِر عن نعاسك، لماذا؟ إنَّ القوى البدنية لا تصل إلا إلى حدٍّ معيَّن. ومَن هذا الذي يستطيع أن يضمَن أن يكون هذا الحد العظيم الأهمية؟ لا، لا يستطيع إنسان أن يضمن هذا. هكذا يُصحِّح العالم نفسك أثناء دوَرانه، ويُحافظ على توازنه. وإن هذا لتدبيرٌ ممتاز، ممتازٌ امتيازًا لا يُمكن تصوُّره هو كذلك، وإن كان من وجهة نظرٍ أخرى تدبيرًا مُؤسفًا. اذهب الآن، إنَّني لا أعرف لماذا تطلع إليَّ هكذا! وإذا لم تذهَب فسيأتي أرلانجر ويغضب مني وهذا شيءٌ أحب كل الحب أن

أتجنَّبه. اذهب ومَن يعلم ماذا ينتظرك هناك. أما هذا فالفُرَص كثيرة. ولكن هناك إمكانيات يصح أن نقول إنها كبيرةٌ كبرًا مفرطًا لا يسمح بالإفادة منها، وهناك أشياء لا يرجع فشلها إلا إليها هي. نعم إن هذا شيء يُثير العجب! أما الآن فأنا آمُل أن أستطيع النوم قليلًا. إنَّ الساعة الآن الخامسة، وسيبدأ الصخب عما قريب. ليتك تَنصرِف أنت على الأقل!

وظلَّ ك وقتًا طويلًا، وقد خدَّره الإيقاظ المفاجئ من نومٍ عميق، في وقتٍ كان فيه يحتاج إلى النوم حاجةً لا حدود لها، وكان جسمه فيه يُعاني كله الآلام نتيجةً للوضع غير المريح الذي كان يتَّخذه، لا يستطيع أن يُقرِّر النهوض، فوضع يده على جبينِه، ونظر إلى حِجره. حتى العبارات المتوتِّرة التي أخذ بورجل يحثُّه بها على الانصراف لم تستطع أن تحمله على الانصراف. إلى أن دفعه إحساسه بعدم جدوى بقائه في هذه الحُجرة مطلقًا إلى التفكير تدريجيًّا في مغادرة الحجرة. وبدَت له الحجرة خربة على نحوٍ لا سبيل إلى وصفه. ولم يكن يعرف هل كانت الحجرة دائمًا هكذا. أم هل قد صارت إلى هذه الحالة. إنه لن يستطيع أن يبلغ هنا شيئًا حتى ولا العودة إلى النعاس! وكان اقتناعه بهذا هو الدافع الحاسم الذي دفعه إلى مُغادَرة الحجرة، وابتسم لهذا قليلًا، ونهَض واتَّكأ على كل ما أمكنه الاتكاء عليه، على السرير على الحائط، على الباب، وانصرف دون ما تحية وكأنما كان قد ودَّع بورجل منذ وقتٍ طويل.

الفصل التاسع عشر

ولعلَّه كان سيَعبر على حجرة أرلانجر في غير اكتراثٍ، لو لم يكن أرلانجر قد وقف بالباب مفتوحًا وأشار إليه. وكانت إشارته إشارةً قصيرةً وحيدةً بإصبع السبَّابة. كان أرلانجر قد تهيَّأ للانصراف تمامًا، وكان يرتدي معطفَ فراءٍ أسود له ياقةٌ صغيرةٌ مُزرَّرةٌ إلى أعلى. وكان هناك خادم يقدم إليه في تلك اللحظة القفاز ويُمسك في يده القبَّعة المصنوعة من الفراء. وقال أرلانجر: كان ينبغي عليك أن تأتي إليَّ منذ مدة.

وأراد أن يعتذر، فأظهر له أرلانجر بأغمضةٍ مُتعبةٍ من عينَيه أنه مُتنازلٌ عن هذا الاعتذار. وقال أرلانجر: الموضوع هو الآتي. كانت هناك في الخمَّارة بنت تعمل بالخدمة اسمها فريدا. وأنا لا أعرف عنها سوى اسمها، أما هي فأنا لا أعرفها. وأنا لا أهتمُّ بمَعرفتها. وكانت فريدة هذه تُقدِّم إلى كلم من حينٍ لآخر البيرة. ويبدو أن هناك الآن بنتًا أخرى. ولكن هذا التغيير لا أهمية له بطبيعة الحال، بالنسبة للجميع على ما يبدُو وبالنِّسبة لكلم بكل تأكيد. وكلما كبر عمل المرء، وعمل كلم بطبيعة الحال أكبر الأعمال، كلما قلَّ ما يبقى لديه من القوة لمقاومة العالم الخارجي، ولهذا فإنَّ كل تغييرٍ تافهٍ في أكثر الأمور تفاهةً يُسبِّب للمرء إزعاجًا شديدًا. إن أقل تغيير على منضدة الكتابة، كإزالة بقعة قذارة كانت عليها منذ الأزل على سبيل المثال، يُسبِّب للإنسان إزعاجًا، وكذلك تعيين خادمةٍ جديدةٍ في الحانة. على أن هذه الأشياء كلها وإن كانت تسبب لكل إنسانٍ في كل عمل من الأعمال إزعاجًا، لا تُزعج كلم، إنَّ هذا شيء من قبيل المحال. ومع ذلك فإننا مُلزَمون بالسهر على راحة كلم بحيث نزيل كل المنغصات التي لا تعتبر بالنسبة إليه من المنغِّصات — ويبدو أنه ليس هناك من الأمور ما يُمكن أن يُعتبر من المنغصات بالنسبة لكلم — إذا ما بدت لنا على هيئةٍ توحي بأنها يمكن أن تسبب إزعاجًا. ونحن لا نزيل المنغِّصات من أجله ولكن من أجلنا نحن،

من أجل ضميرنا وراحتنا. ولهذا فلا بد أن تعود فريدا إلى هذه الخمارة على الفور، ولكن ربما سبَّبت عودتها إزعاجًا. وفي الحالة سنُبعدها من جديد. أما الآن فينبغي أن تعود إلى الخمارة مؤقتًا.

وأنت، على ما علمت، تعيش معها فاجعَلها تعود على الفور. ولا يُمكن أن نُقيم وزنًا في مثل هذا الأمر للمشاعر الشخصية، وهذا شيءٌ بديهي، ولهذا فأنا لا أقبل الدخول في أدنى مناقشةٍ للموضوع، إنني أفعل أكثر مما تستدعيه الصورة عندما أذكر لك أنك إذا أثبتَّ جدارتك في هذا الموضوع المهين فقد تُفيد من ذلك في معاشك. هذا هو كل ما أردت أن أقوله لك.

وأومأ إلى ك برأسه مودِّعًا، ولبس القبعة المصنوعة من الفراء التي قدمها إليه الخادم، وسار في الممر المنحدر بسرعة، وهو يعرج، ومن خلفه الخادم.

كانت هناك أحيانًا أوامر تصدُر ويَسهُل تنفيذها جدًّا، ولكن هذه السهولة لم تكن تُفرح ك. لا لأن الأمر في هذه الحالة كان يتَّصل بفريدا فحسب، ولا لأنه كان أمرا بدا لـ ك كأنه استهزاء، ولكن لأنَّ ك رأى فيه عدم جدوى الجهود التي يبذلها كلها. لقد كانت الأوامر التي في صالحه والأوامر التي في غير صالحه تمرُّ من فوقه، وحتى الأوامر التي في صالحه كانت تضمُّ نواة أخيرة في غير صالحه. ومهما يكن من أمر فقد كانت الأوامر كلها تمرُّ من فوق رأسه ولقد كانت درجته وضيعة لا تسمح له بأن ينفذ فيها وأن يُسكتها أو يجد لصوته آذانًا تسمعه. إذا ما لوَّح لك أرلانجر أن تذهب فماذا تفعل؟ وإذا لم يُلوِّح لك بأن تذهب فماذا يُمكنك أن تقول له؟ والحق أن ك ظلَّ يشعر بأن تعبه قد أضر به اليوم أكثر مما أضرَّ به اضطراب الأحوال — ولكن لم يستطع هو، الذي كان يعتقد أنه يُمكنه أن يعتمد على جسمه والذي ما كان ليأتي إلى هنا لولا هذا الاعتقاد، أن يحتمل عدة ليال من النوم القلق، وليلة بلا نومٍ مُطلقًا، ولماذا أحسَّ هنا بالذات بتعبٍ استحال عليه أن يتحكَّم فيه هنا حيث لا يشعر أحد بالتعب، أو على الأحرى حيث يشعر الجميع بالتعب والتعب المُستمر دون أن يفسد هذا التعب أعمالهم، بل إنَّ التعب ليبدو وكأنه ينشطها، كان معنى هذا أنَّ ذلك التعب من نوعٍ آخر غير تعب ك. لقد كان ذلك التعب تعبًا وسط عملٍ سعيد، لقد كان شيئًا يبدو في الظاهر تعبًا وهو في الحقيقة راحةٌ لا سبيل إلى تبديدها، وسلامٌ لا سبيل إلى تحطيمه. فإذا ما أحسَّ أحدهم ظُهرًا بشيءٍ من التعب، فقد كان ذلك جزءًا من المسار الطبيعي لليوم. ولقد خطر ببال ك أن الوقت بالنسبة للسادة هنا دائمًا ظهرًا.

وكان ممَّا يتطابق مع هذا الخاطر تمام التطابق أن الحياة انتشرت في جوانب الممر كلها الآن، في الساعة الخامسة. وكان صخب الأصوات في الحُجرات يتَّسم بسمةٍ مرحةٍ إلى

أقصى حد. وكان هذا الصخب يلوح أحيانًا كتهليل الأطفال الذين يستعدُّون للقيام برحلةٍ، ويلوح أحيانًا أخرى كانطلاق الدجاج في الحظيرة صباحًا، كان كالفرحة التي تتفق تمام الاتفاق مع النهار الطالع، بل لقد كان هناك رجلٌ في مكانٍ ما يقلد صياح الديكة. حقيقة أن الممر كان لا يزال خاليًا، ولكن الأبواب كانت تتحرك كان هناك من حينٍ لآخر باب ينفرج ثم ينقفل بسرعة، وكان الممر يمتلئ بصوت انفراج الأبواب وانقفالها، وكان ك يرى في الفتحة التي تفصل بين الجدران والسقف رءوسًا صباحيةً مُضطربة الشَّعر تظهر ثم تتوارى وأقبلت من بعيدٍ عربة صغيرة محملة بالملفات يدفعها ببطءٍ أحد الخدم. وكان هناك خادمٌ آخر يسير بجوارها ويَحمل قائمةً في يده ويبدو أنه كان يقارن أرقام الحجرات وأرقام الملفات. وكانت العربة تقف عند غالبية الأبواب، وكانت الأبواب في المعتاد تَنفتِح عند ذاك، وكانت الملفات الخاصة بها تدفع إلى داخلها، ولم يكن يخص بعض الحجرات في بعض الأحيان سوى ورقةٍ صغيرة، وكان حديثًا قصيرًا يتَّصل في هذه الحالات بين الحجرة والممر، لعله توبيخٌ للخادم. فإذا لم ينفتح الباب كوَّم الخادم الملفات على العتبة بدقةٍ وعناية. وكان ك في هذه الحالات يظنُّ أن حركة الأبواب المُحيطة لم تتوقَّف، على الرغم من أن توزيع الملفات عليها قد تمَّ، بل ازدادت. ربما كان الآخَرون ينظرون في شغف إلى الملفات المحكومة على العتبة دون ما سببٍ مفهومٍ، ولا مفهوم كيف أن الإنسان لا يحتاج لتناول الملفات إلا إلى فتح الباب، وهو مع ذلك لا يفعل. ربما كان من المُمكن أن توزع الملفات التي لا يتناولها أحد على السادة الآخرين الذين كرَّروا النظر الآن ليتأكدوا من أن الملفات ما زالت في مكانها ومن أن لهم أن يأمُلوا في الحصول عليها. هذا إلى أن هذه الملفات المكومة كانت غالبها حزمًا كبيرةً. وفكر ك في أن سبب ترك هذه الملفات على العتبة مؤقتًا هو نوع من التحذلق أو الشر أو الفخار الذي له ما يُبرِّره والذي يشجع الزملاء ويزيدهم نشاطًا. واستند ك في هذا الرأي إلى أنَّ الحزمة كانت في بعض الأحيان — عندما يبعد عنها ببصره — بعد أن تظلَّ في مكانها أمام الأعين طويلًا، تجذب فجأة وبسرعةٍ إلى الحجرة، ثم يظلُّ الباب. كما كان جامدًا لا يتحرك، وكانت الأبواب المحيطة تهدأ هي الأخرى إما لأن الشيء الذي كان يُثيرها قد زال، ولكن الأبواب كانت بعد الهدوء تعود من جديد إلى الحركة تدريجيًّا.

وتأمَّل ك هذا كله وقد تملَّكه فضول وتملكه علاوةً عليه اهتمامٌ واندماج. كان يحس بشيء كالارتياح وسط هذا النشاط، وكان ينظر هنا وهناك ويتابع — عن بُعدٍ مناسبٍ — الخدم الذين كانوا يلتفون حولهم وينظرون إليه في أحيانٍ كثيرةٍ نظرةً عنيفةً وقد خفضوا رءوسهم ومطُّوا شفاههم، وكان يتطلع هكذا إلى قيامهم بتوزيع الملفات. وكانت عملية

التوزيع تواجه المزيد من الصعوبات، إما لأن القائمة تضم بعض الأخطاء وإما لأن الخادم لا يستطيع أن يميز بسهولة بين الملفات وإما أن السادة يعترضون اعتراضاتٍ أخرى. ومهما يكن من أمرٍ فقد حدث اعتراض على توزيع بعض الملفات، واضطرت العربة الصغيرة إلى الرجوع، وجرت مفاوضات من خلال فتحة الباب بشأن إعادة الملفات. وكانت المفاوضات ذاتها تواجه صعوباتٍ كبيرةً، وكان يحدث في حالاتٍ كثيرة — إذا كان الأمر أمر إعادة الملفات — أن تنقفل أبواب كانت من قبل تتحرك أنشط حركة، تنقفل بشدةٍ عنيفةٍ وكأنها لا تريد أن تعرف شيئًا عن الموضوع. ثم كانت الصعوبات الحقيقية تبدأ، كان الذي يعتقد أنه صاحب الحق في الملفات فارغ الصبر إلى أقصى حد، وكان يحدث في حجرته صخبًا عظيمًا، ويصفق، ويخبط الأرض برجليه، ويصيح من خلال فتحة الباب مكررًا المرة تلو المرة رقمًا معينًا من أرقام الملفات. وكثيرًا ما كان الخادمان يتركان العربة وحدها، فينشغل أحدهما بتهدئة الثائر الذي فرغ صبره، ويجتهد الآخر في استعادة الملف من وراء الباب المقفل. وكانت مهمة الاثنين صعبة. أما الثائر فكان يزداد ثورة نتيجة لمحاولات تهدئته، ولم يعد يستطيع أن يسمع كلمات الخادم الفارغة، فلم يكن يريد عزاءً بل كان يريد الملفات، ولقد أفرغ أحد هؤلاء السادة على رأس الخادم ذات مرة طست الغسيل من خلال فتحةٍ عالية. أما الخادم الآخر، ويبدو أنه كان أعلى رتبة فقد كان يواجه صعوبة أكبر بكثير. كان، إذا رضي السيد المقصود بالدخول في مفاوضات معه، يقوم بباحثات موضوعية، يرجع فيها الخادم إلى قائمته، ويرجع فيها السيد إلى مذكراته وإلى الملفات ذاتها التي يرجوه الخادم إعادتها، والتي يظل ممسكًا بها في يده قابضًا عليها بحيث لا تبقى منها قطعة صغيرة تقع عليها أعين الخادم المتعطشة للرؤية. وكان الخادم مضطرًّا للعدْو وراء العربة الصغيرة بحثًا عن براهن جديدة، وكانت العربة الصغيرة تسير من تلقاء ذاتها مسافة في هذا الممر المنحدر، وكان مضطرًّا كذلك إلى العدْو إلى السيد المطالب بالملفات وإبلاغه اعتراضات السيد الذي وصلت الملفات إليه والحصول منه على اعتراضاتٍ لمواجهتها. وكانت تلك المفاوضات تدوم طويلًا جدًّا، وكانت في بعض الحالات تنتهي بالاتفاق، فكان السيد يعيد مثلًا جزءًا من الملفات أو يتلقى كتعويض ملفاتٍ أخرى، لأن الخطأ كان يتمثل في إبدال الملفات؛ وكان يحدث أحيانًا أن يتنازل البعض بدون مشاكل عن الملفات التي طالب بها، إما لأن براهين الخادم قد أفقدته الحيلة، وإما لأنه تعب من كثرة التفاوض، وكان في هذه الحالة لا يعيد الملفات إلى الخادم، بل يلقي بها، عن تصميمٍ مفاجئٍ، بعيدًا في الممر، مما كان يؤدى إلى تفكك الأربطة وتطاير الأوراق وكان الخادم عند ذلك يتعب كثيرًا في إعادة الملف إلى حالته. ولكن هذه الأمور كلها تعتبر بسيطةً نسبيًّا إذا قيست بامتناع السيد كليةً من الرد على

الخادم وهو يرجوه المرة بعد المرة أن يعيد إليه الملفات، كان الخادم يقف أمام الباب المغلق ويرجوه ويتوسل ويتلو القائمة ويشير إلى اللوائح دون أن يصل إلى نتيجة، ودون أن يسمع صوتًا من الحجرة، ولم يكن للخادم، على ما يبدو الحق في دخول الحجرة بدون إذن. وكان هذا الخادم الممتاز يفقد في بعض الأحيان سيطرته على نفسه ويذهب إلى عربته الصغيرة ويجلس على الملفات، ويجفف العرق المتصبب على جبينه، ويظل برهةً لا يفعل شيئًا سوى هز القدمين في يأسٍ. وكان الاهتمام بالموضوع عظيمًا في المنطقة المحيطة، وكان التهامس كثيرًا في كل مكان، ولم يكد يكون هناك باب هادئ. وكانت هناك وجوه ملفوفة بأقمشة كثيرة لفًّا يوشك أن يكون كاملًا تظهر أعلى حافة الحائط وتتابع على نحوٍ عجيبٍ دون أن تهدأ لحظة، كل ما يجري. ولاحظ ك وسط هذا الاضطراب أن باب بورجل ظل طوال الوقت مغلقًا وأن الخادمين قد مرَّا على هذه المنطقة وفرغا منها دون أن يخصا بورجل بشيءٍ من الملفات. لعله كان لا يزال نائمًا. ولو صح أنه كان نائمًا في وسط هذا الصخب، فمعنى هذا أنه سليمٌ تمام السلامة. ولكن لماذا لم توضع له ملفات؟ إن الخادمين لم يتركا إلا القليل من الحجرات دون ملفات ويبدو أنها كانت حجرات خالية. أما حجرة أرلانجر فقد شغلها ضيفٌ جديدٌ شديد القلق ولا بد أنه أرلانجر قد طرده بالليل طردًا، والحقيقة أن هذا لا يتفق مع شخصية أرلانجر الفاترة العائمة إلا أقل الاتفاق، ولكن انتظاره ك على العتبة كان يوحي بأن هذا هو ما حدث.

وكان ك بعد كل هذه الملاحظات الجانبية لا يفتأ يعود ببصره إلى الخادم. ولم يكن ما قيل لـ ك عن الخدم عامة وعن كسلهم وحياتهم الناعمة وعجرفتهم ينطبق على هذا الخادم مطلقًا، ولا بد أن هناك حالات استثنائية أو لا بد — وهو الأرجح — أن هناك بين الخدم مجموعاتٍ مختلفة، فقد كان هناك، كما لاحظ ك تقسيمات كثيرة لم يكن يعلم عنها حتى هذا الوقت شيئًا. وقد سر ك خاصة بما اتصف به الخادم من العناد. فلم يكن هذا الخادم يتراجع في صراعه مع الحجرات، فهو لم يكن يرى مَن فيها إلا نادرًا حقيقة أنه كان ينهار — وأين ذلك الذي لا ينهار في مثل ظروفه؟ — ولكنه كان لا يلبث أن يستعيد قواه، فينزلق من فوق العربة الصغيرة ويذهب زامًّا أسنانه لمناطحة الباب الذي جاء دور غزوه. ولقد صده بعضهم مرتين أو ثلاث مرات، بأبسط الوسائل، بالصمت الشيطاني، لكنه لم ينهزم. كان عندما يرى أنه لا يستطيع أن يبلغ مأربه بالهجوم الصريح، يحاول بطريقةٍ أخرى، مثلًا عن طريق الحيلة، على قدر ما فهم ك. فكان يتظاهر بأنه يبتعد عن الباب، ويتركه حتى يفرغ ما لديه من صمت — إن صح التعبير — ويتجه إلى أبوابٍ أخرى، ثم

يعود بعد برهةٍ وينادي الخادم الآخر، ويفعل هذا كله بشكلٍ ملفتٍ للنظر وبصوتٍ عالٍ، ويشرع في تكويم الملفات على عتبة الباب المغلق وكأنما قد غيَّر رأيه، وكأنما لم يكن على حقٍّ في أخذ شيءٍ من هذا السيد، بل كان ينبغي عليه أن يضيف إليه المزيد. وكان عند ذاك يستأنف السير، ولكنه يظل مثبِّتًا نظره على هذا الباب حتى إذا فتح السيد الباب في حذرٍ وتؤدةٍ، على النحو المألوف، ليسحب الملفات إلى داخل الحجرة اندفع الخادم إلى هناك قافزًا ودس قدمه بين الباب وإطاره وأرغم السيد على الأقل أن يتفاوض معه وجهًا لوجه، وهو ما كان يؤدي في المعتاد إلى نتيجةٍ لا بأس بها. وإذا لم تنجح هذه الوسيلة، أو إذا تصور أن هذه الوسيلة ليست هي الوسيلة المناسبة لبابٍ معين، فكان يجرب وسيلةً أخرى. كان ينتقل مثلًا إلى السيد الذي يطالب بالملفات. ويبعد الخادم الآخر الذي لا يفتأ يعمل على نحوٍ آلي ولا يزيد على أن يكون مساعدًا عديم القيمة ويبدأ هو نفسه في إقناع السيد هامسًا متسترًا داسًّا رأسه إلى داخل الحجرة، ولعله يعِده بأشياءَ ويؤكد له أنه في التوزيع التالي سيعاقب السيد الآخر عقابًا مناسبًا، وكان على الأقل يشير إلى باب الغريب مرارًا ويضحك على قدر ما كان تعبه يسمح له. وكانت هناك حالات، حالة واحدة أو حالتان، تخلَّى فيها عن كل محاولة وكان رأي ك أن هذا التخلي ظاهري فقط أو أنه يعتمد على أسبابٍ صحيحة، لأن الخادم يسير هادئًا في طريقه، ولا يلتفت حواليه، راضيًا بالضجة التي يحدثها السيد المجاور، ولا يبين أنه يعاني من الضجة إلا من حينٍ لآخر بإغماضة عينيه فترةً طويلة. وكان السيد نفسه يهدأ تدريجيًّا وكان صياحه عند ذاك يشبه بكاء الأطفال عندما يستحيل إلى بكاءٍ متقطع ثم إلى شهقاتٍ متفرقةٍ تتباعد تدريجيًّا حتى تخفت. ولكنه كان حتى بعد أن يهدأ تمام الهدوء يعود فيصدر صرخةً واحدةً أو يفتح الباب بسرعة ويقفله عنوةً. ومهما يكن من أمرٍ فقد كان واضحًا أن الخادم تصرف هنا تصرفًا يلوح صحيحًا تمام الصحة وبقي في النهاية سيد واحد لم يهدأ، بل صمت طويلًا، ولكنه لم يصمت إلا ليسترد قواه. ثم ليستأنف الجولة دون أن يضعف أو يلين. ولم يكن سبب صراخه وشكواه واضحًا، ولعله لم يكن يتصل بتوزيع الملفات. وفرغ الخادم في هذه الأثناء من عمله، ولم يبقَ في العربة الصغيرة سوى ملفٍ واحدٍ، أو على الأحرى ورقة صغيرة، هي صفحة من كراسة، بقيت نتيجة إهمال المساعد، ولم يعرف الخادم إلى مَن يحملها. وفكر ك: ربما كانت هذه الورقة ملفي أنا! ولقد تحدث البيه رئيس مجلس القرية عن هذه الحالة الصغيرة المفرطة في الصغر. وحاول ك على الرغم من أنه كان في قرارة نفسه يجد فكرته مضحكةً سخيفة، أن يقترب من الخادم الذي كان يتفحص الورقة مهتمًّا. ولم يكن هذا بالعمل السهل، فلم

يكن الخادم يحتمل ميل ك إليه، وكان حتى أثناء قيامه بأشق الأعمال يجد وقتًا لينظر إلى ك نظرةً غاضبةً أو متوترة يحرك لها رأسه حركةً عصبيةً. أما الآن وقد فرغ من التوزيع فقد بدا عليه كأنه نسي ك قليلًا، هذا إلى أنه قد أصبح أشد بلادة، وهذا شيء بديهي بعد أن أخذ منه الإعياء كل مأخذ، كذلك لم يتعب نفسه كثيرًا في الورقة، ولعله لم يقرأ الورقة مطلقًا، بل تظاهر بذلك، وعلى الرغم من أنه لو قدم الورقة لأي واحدٍ من السادة هنا لأثلج صدره، فقد قر رأيه، وقد سئم التوزيع على شيءٍ آخر، فرفع إصبع السبابة إلى شفتيه وأشار إلى مرافقه أن يصمت ومزق — ولم يكن ك قد وصل إليه بعد — الورقة إلى قطع صغيرة دسها في جيبه. وكان هذا، على ما يبدو، هو أول خروجٍ على النظام يلاحظه ك هنا في عمل المكاتب. على أنه كان من المحتمل أن ك لم يفهم الأمر على الوجه الصحيح. وحتى لو كان هذا خروجًا على النظام فلم يكن بدٌّ من غفرانه، فلم يكن الخادم يستطيع في الظروف السائدة هنا أن يعمل على نحوٍ لا يعتوره عيب وكان لا بد للغضب المتراكم والقلق المتجمع أن ينفجرا وإذا لم يتخذ انفجارهما هيئةً أخرى سوى تمزيق الورقة الصغيرة، فما أقربه إلى البراءة وكان صوت السيد الذي لم يكن هناك سبيل إلى تهدئته لا يزال يُدوِّي في الممر، ويبدو أن الزملاء الذين لم يكونوا في الأمور الأخرى يتصرفون بعضهم حيال البعض تصرفًا يتسم بالودِّ الشديد، كانوا متَّفقين كل الاتفاق فيما يختصُّ بالصخب. ولاح الأمر كأنما كان هذا السيد قد تولى مهمَّة إحداث الصخب من أجل الجميع الذين كانوا يُشجِّعونه بصيحاتٍ وإيماءاتٍ ليظل على صخبه. ولم يكن الخادم يهتمُّ الآن لذلك فقد فرغ من عمله، وأشار إلى مقبض العربة الصغيرة حتى يُمسك به الخادم الآخر وانصرَفا كما أتيا، قد ازداد رضاءً وسرعةً حتى إن العربة كانت تتراقص أمامهما على أنهما انتقصا مرةً واحدةً ونظرا خلفهما عندما تبين السيد الصارخ الصاخب على ما يبدو — وكان ك يروح ويجيء أمام بابه لأنه كان يود أن يفهم ما كان السيد يريد — إنه لا يبلغ بالصراخ ما يريد أن يبلغه واكتشف زرَّ جرس كهربائي وفرح بأنه سيحمل عنه العبء فبدأ يدق الجرس بلا انقطاعٍ بدلًا من الاسترسال في الصراخ. ثم ثارت همهمةٌ عظيمةٌ في الحجرات الأخرى، ويبدو أنها كانت تعني التأييد والموافقة ويبدو أن السيد كان يفعل شيئًا كان الجميع يتمنَّون لو فعلوه منذ وقتٍ طويل وانصرفوا عنه لسببٍ غير معروف. هل كان السيد يريد بدق الجرس أن يستدعي الخدم؟ أو أن يستدعي فريدا؟ إذن فعليه أن يدق طويلًا. إن فريدا مشغولةٌ بلفِّ يريمياس في فوطٍ مبلَّلة، وحتى إذا كان قد تماثَل للشفاء، فلن يكون لديها وقتٌ لأنها ستكون راقدةً بين ذراعيه ولكن دق الجرس أحدث في الحال أثرًا. فقد أتى صاحب حان

السادة بنفسه مُسرعًا يلبس حلةً سوداء مُزرَّرة كالمعتاد، ويبدو أنه نسي وقاره لأنه كان يعدو، وقد بسط ذراعيه كأنما استُدعي لمصيبةٍ هائلةٍ نزلت فعليه أن يمسكها وأن يضمها إلى صدره حتى تختنق، وكان كلما اضطرب دقَّ الجرس يُلوِّح كأنه ينتفض إلى أعلى ويزيد من عدوه. وعلى مسافةٍ غير قصيرةٍ من خلفه ظهرت زوجته، وكانت تجري هي الأخرى باسطةً ذراعَيها، ولكن خطواتها كانت قصيرةً رقيقةً وجال بفِكر ك أنها ستَصل مُتأخِّرةً تأخرًا مفرطًا بعد أن يكون صاحب الحان قد فرغ من إجراء اللازم. والتصق ك بالحائط حتى يُفسح لصاحب الحانة الطريق. ولكن صاحب الحانة وقف أمامه بالضبط وكأنما كان هو الهدف الذي سعى إليه، وما لبثت صاحبة الحانة أن وصلت هي الأخرى وأخذ الاثنان يكيلان لـ ك اللوم والتوبيخ فلم يفهم ك من ذلك شيئًا وقد أُخذ على غرةٍ، خاصةً وأن جرس السيد كان يندسُّ وسط اللوم والتوبيخ، بل إنَّ أجراسًا أخرى بدأت تدق، لا عن حاجةٍ ولكن للعبث وتعبيرًا عن فيضٍ من الفرح. وكان ك موافقًا كل الموافقة، من أجل الوصول إلى فهم ذنبه فهمًا دقيقًا، على أن يأخذه صاحب الحانة تحت إبطه ويخرج به بعيدًا عن هذا الصخب الذي كان يتزايد، فقد انفتحت الأبواب على سعتها من خلفهما — ولم يلتفت ك وراءه لأن صاحب الحان من ناحيةٍ وصاحبة الحان من الناحية الأخرى كانا يُكلمانه — ودبَّت الحركة في الممر واشتدَّ النشاط فيه وانتشرت الاتصالات، فأصبح كالحارة الصغيرة الضيقة التي تعج بالنشاط، وكانت الأبواب التي أمامه تنتظر بشوقٍ ظاهر أن يعبُر ك عليها حتى يفتحها السادة، وبين هذا وذاك كانت الأجراس تدقُّ كأنها تحتفل بنصرٍ. وأخيرًا — وكانوا قد وصلوا إلى الفناء الهادئ الأبيض الذي تنتظر فيه الزحافات — علم ك تدريجيًّا بالخبر. لم يكن صاحب الحان ولا صاحبة الحان يفهمان كيف جرؤ ك على فعل شيءٍ من هذا القبيل. وكان ك لا يفتأ يسأل عما فعل. ولكنه ظلَّ وقتًا طويلًا لا يسمع جوابًا لأن الذنب كان يلوح للاثنين واضحًا بديهيًّا ولم يكونا يتصوَّران بحالٍ من الأحوال حسن نيته. وعلم ك بكل شيء بسيط شديد. لقد كان في وقوفه بالممر مخطئًا، فلم يكن له بصفةٍ عامة أن يدخل مكانًا سوى الخمارة، وهذا على سبيل التفضُّل والامتنان، وكان احتمال منعه من ذلك قائمًا في كل وقت. فإذا كان أحد السادة قد استدعاه للحضور، فعليه بطبيعة الحال أن يظهر في مكان الدعوة ولكن عليه أن يعي دائمًا — فله على الأقل ما أوتي كل إنسان من بداهة يعي بها مثل هذه الأمور — أنه يظهر في مكانٍ لا ينتمي إليه، استدعاه إليه، كارهًا غاية الكُره، سيد من السادة لأمرٍ رسميٍّ، فكان للاستدعاء عذره. ولهذا كان ينبغي عليه أن يُعجِّل بالحضور، فيمثل للاستجواب ثم يختفي إن استطاع بسرعةٍ أكبر.

ألم يخالجه في الممر شعورٌ عنيف بعدم الانتماء؟ وإذا كان قد أحسَّ بهذا فكيف أمكنه أن يروح ويجيء هناك كحيوان في المرعى؟ ألم يُستدعَ لاستجواب ليليٍّ؟ ألم يعلم بسبب الأخذ بنظام الاستجوابات الليلية؟ لم يُؤخذ بالاستجوابات الليلية — وهنا سمع ك تفسيرًا جديدًا لمغزاها — إلا لسببٍ واحدٍ، هو استجواب أصحاب المصالح، الذين لا يحتمل السادة منظرَهم بالنهار، بسرعةٍ، في الليل، في نورٍ اصطناعي، حيث يستطيع السيد بعدَ الاستجواب أن ينام وينسى كل ما عرض له من قُبحٍ وبشاعةٍ. أما مسلك ك فلم يكن به أثر من أصول الحيطة والحذر. إنَّ الأشباح نفسها تختفي عندما يَقترب الصباح، أما ك فقد بقي، داسًّا يديه في جيبيه، وكأنما كان يتوقع — نظرًا لأنه لم يَبتعِد — أن يبتعد الممر بكلِّ حجراته وسادته. ولو كانت هناك أقل إمكانية، لاختفى الممر بحجراته وساداته بكل تأكيد، وعلى ك أن يُوقن من ذلك، لأن السادة حسَّاسون حساسيةً لا حدود لها. فليس من بينهم مَن يُمكن أن يطرد ك أو أن يقول له أكثر الأشياء بداهةً وهو أن عليه أن يَنصرف. ليس من بينهم مَن يمكن أن يتصرَّف على هذا النحو، على الرغم من أنهم يرتعدُون لوجود ك ولإفساده عليهم الصباح، والصباح أحب فترةٍ إليهم وهم يفضلون، بدلًا من اتخاذ إجراءٍ حيال ك. أن يُعانوا ويتحمَّلوا، والأمل يداعبهم في أن يتبين ك تدريجيًّا هذا الشيء الواضح غاية الوضوح، وأن يُعاني من ذلك معاناةً مثل مُعاناة السادة حتى يستحيل عليه احتمال وقوفه هنا على نحوٍ فظيعٍ يراه الجميع في الممر صباحًا. ولكن أملهم كان بلا جدوى. إنهم لا يعرفون، أو لا يُريدون أن يعرفوا، في غمرة رقتهم وتواضعهم، إنَّ هناك قلوبًا جامدةً، قاسيةً، لا تلين لأي اعتبار. ألا تبحث العثة الليلية، هذا الحيوان المسكين، عندما يأتي الصباح عن ركنٍ هادئٍ ترقد فيه مكومةً تودُّ لو توارت، وتحزن لأنها لا تستطيع التواري؟ أما ك فعلى العكس، إنه يقف في الوضع الذي يظهر فيه للأعين واضحًا أشد الوضوح، ولو استطاع أن يمنع بوقوفِه طلوع النهار، لَمَا تأخَّر وهو لا يستطيع أن يمنع طلوع النهار، ولكنه يستطيع للأسف أن يُعطِّله ويصعبه. ألم يتطلَّع إلى توزيع الملفات؟ وهذا شيءٌ لا يجوز أن ينظر إليه إلا أصحاب الشأن المُقرَّبون. شيء لم يكن لا لصاحب الحان ولا لصاحبة الحان أن ينظرا إليه وهو يجري في دارهما، شيء لم يسمعا به إلا تلميحًا، كما سمعا به اليوم من الخدم مثلًا. ألم يُلاحظ الصعوبات التي اعترضت توزيع الملفات — وهذا شيء لا سبيل في الحقيقة إلى فهمِه — فكل واحدٍ من السادة يخدم القضية العامة ولا يُفكِّر في فائدته الخاصة، وكان الأحرى به أن يعمل بكل قواه، حتى تتمَّ عملية توزيع الملفات، هذه العملية الهامة الأساسية، بسرعةٍ وبسهولة وبدون أخطاء؟ وألم يخطر ببال ك من بعيدٍ أنَّ السبب الرئيسي

وراء كل الصعوبات التي اعترضَت توزيع الملفَّات أن التوزيع الذي تمَّ بينما كانت الأبواب مغلقة أو تكاد، دون أن تكون هناك إمكانية اتصالٍ مباشرٍ بين السادة، الذين كان يُمكنهم التفاهم في لمح البصر في حين ضيعت وساطة الخدم الساعات الطوال؟ وألم يخطر بباله أنَّ هذا الأمر لا يُمكن أن يظلَّ دون شكوى وأن التعذيب الطويل الذي تعرَّض له السادة والخدم سيكون له على الأرجح أثرٌ ضارٌّ على العمل فيما بعد، ولماذا لم يَستطِع السادة أن يتَّصلوا بعضهم بالبعض؟ ألا يزال ك عاجز عن فهم السبب؟ إنَّ شيئًا من هذا القبيل لم يُصادف صاحبة الحان من قبل، وأكَّد صاحب الحان كلامها بالنسبة لنفسه هو كذلك، على كثرة مَن عرفا من الناس المعاندين. إن هناك أشياء لم يكونا يجرؤان على النُّطق بها، أصبح عليهما الآن أن يُوضِّحاها له بصراحةٍ وإلا فإنه لن يفهم ما هو ضروري. إذن مادام عليهما أن يتكلَّما فإنهما يقولان: إن السادة لم يخرجوا من حجراتهم وذلك بسببه، بسببه هو؛ لأنهم في الصباح، ولم يمضِ على استيقاظهم وقتٌ طويل، يكونون شديدي الخجل، شديدي الحساسية، لا يستطيعون احتمال النظرات الغريبة. إنهم يحسون حقًّا، حتى وإن كانوا يرتدون الملابس كاملةً، كأنهم عارُون لا يستطيعون الظهور أمام الأعين. ومن الصعب أن نذكر سبب خجلهم، ولعلهم يخجلون، هؤلاء العمال النشيطون، لأنهم ناموا، ولعلهم يخجلون من النظر للغرباء أكثر مما يخجلُون من الظهور أمامهم. إنهم لا يريدون أن يدعوا ما قد تغلَّبوا عليه عن طريق الاستجوابات الليلية، أعني منظر أصحاب الحاجات، ذلك المنظر الذي لا قِبل لهم على احتماله، ينصبُّ عليهم فجأةً على نحوٍ مباشر وعلى هيئته الطبيعية وقد أصبح الصباح. إنهم لم يَبلُغوا القدرة على احتمال ذلك. وأيُّ إنسانٍ هذا الذي لا يحترم هذا الوضع؟! لا بد أن يكون إنسانًا مثل ك. لا بد أن يكون إنسانًا يَستهتر بكل شيء. بالقانون وبأكثر أنواع التحفُّظ الإنساني بساطةً، وقد تملَّكته بلادة جامدة وخمول جامد، لا يُهمُّه أن يحول دون توزيع الملفات ولا يتأثَّر بإضراره بسُمعة الدار، إنسانًا يفعل ما لم يحدث من قبل، بحيث يضطرُّ السادة الذين أسقط في أيديهم إلى العمل على الدفاع عن أنفسهم، وإلى الالتجاء في تمالك للنفس لا يخطر ببال البشر العاديِّين إلى الجرس وإلى طلب النجدة لتطرد ك الذي لم تفلح وسيلة أخرى في هزِّه، إنهم وهم السادة، يطلبون النجدة. ولقد أسرع صاحب الحان وصاحبة الحان والعمال جميعًا منذ وقتٍ مبكرٍ إلى هنا، وأوشكوا، لو أسعفتهم الجرأة. أن يظهروا أمام السادة في الصباح دون استدعاء، ليُقدموا العون ولينصرفوا على الفور بعد ذلك. لقد انتظروا هنا على أول الممر يرتعدون من الغيظ، ويحتارُون أشد الحيرة لعجزهم، وجاء الجرس — الذي ما كانوا ينتظرونه — بالخلاص.

وهكذا انتهى أقبح ما في الأمر. ليتَهُم يستطيعون أن يُلقوا نظرةً على تعبير السادة عن فرحهم بعد أن تمَّ خلاصهم! أما ك، فلم ينتهِ الأمر بالنسبة إليه. إنه سيُسأل بلا شكٍّ عن كل ما أحدثه هنا.

وكانوا قد وصلوا في هذه الأثناء إلى قاعة الشراب، ولم يكن من الواضح تمامًا لماذا اقتاد صاحب الحانة ك إلى هناك على الرغم من غضبه الشديد، لعلَّه قد تبيَّن أن تعب ك يحُول بينه الآن وبين مغادرة الدار وارتمى ك قاعدًا على برميلٍ من البراميل دون أن يطلب إليه أحد أن يقعُد أو أن ينتظر. وأحسَّ في الظلمة بالارتياح. ولم يكن هناك في المكان الكبير سوى مصباحٍ كهربائيٍّ واحدٍ ضعيفٍ يُضيء فوق صنابير البيرة. كذلك كانت الحُلكة مخيمةً على الدنيا في الخارج وكان النشاط المتصل بالخارج يوحي بأن الثلوج مُتراكمة. فإذا كان الإنسان هنا في الدفء فعلَيه أن يشكر وأن يعمل ما في وسعه حتى لا يطرده أحد. وكان صاحب الحان وصاحبة الحان لا يَزالان يقفان أمامه، وكأنما كان خطرًا لم يتحوَّل، أو كأنما كان من الممكن أن يهبَّ فجأة — وهو المستهتر المسرف في الاستهتار — ويحاول العودة إلى الممر. كذلك كان الاثنان مُتعبَينِ من الرعب الذي أصابهما في الليل ومن الاستيقاظ قبل الموعد وبخاصةٍ صاحبة الحان التي كانت ترتدي ثوبًا بُنيًّا من قماشٍ يهفهف كالحرير نصفه السُّفلي واسع، عقدته وأقفلت أزراره على نحوٍ مُضطرِب — من أين أخرجته يا ترى وهي على عجل؟ — وكانت تُسند رأسها التي بدَت ملوية على كتف زوجها، وتمسح عينيها بمنديلٍ رقيق وتُوجِّه بين ذلك نظراتٍ صبيانيةٍ شريرة إلى ك. وأراد ك أن يُهدئ من روع الزوجين فقال إن كلَّ ما حُكي له جديدٌ عليه كل الجدة، وإنه على الرغم من جهله لم يبقَ بالممرِّ طويلًا، فلم يكن لديه ما يفعله هناك، ولم يكن بكلِّ تأكيدٍ يريد أن يعذب أحدًا، وأن كل ما حدث إنما يرجع إلى شيءٍ واحدٍ هو تعبه المُفرط. وشكرهما على أنهما أنهيا المشهد الأليم، وقال إنه يُرحب كل الترحيب بأن يسأل عما فعل، فهذا هو السبيل الوحيد للحيلولة دون تأويل مسلكه تأويلًا خاطئًا. إنَّ الذنب يرجع إلى تعبه لا إلى شيءٍ آخر. وتعبه يرجع إلى أنه لم يألف مشقَّة الاستجوابات بعد. فهو حديث عهدٍ بالمكان. وعندما يجمع شيئًا من الخبرة في هذه الناحية فلن يحدث شيء من هذا القبيل مرةً أخرى. وربما كان يُسرف في الاهتمام بالاستجوابات، ولكن هذا شيء لا يمكن أن يعاب عليه. ولقد تحتَّم عليه أن يجتاز استجوابَين الواحد تلو الآخر، أولهما عند بورجل، وثانيهما عند أرلانجر، وكان الاستجواب الأول هو الذي أعياه أشد الإعياء، فلم يَطُل الاستجواب الثاني في الحقيقة ولم يَزِد عن أن توجه إليه أرلانجر طالبًا منه مكرمةً، ولكن الاستجوابَين كانا

أكثر من طاقته، ولعلهما يزيدان على طاقة الآخرين كذلك، على طاقة السيد صاحب الحان مثلًا. والحقيقة أنه لم يخرج من الاستجواب الثاني إلا مُترنحًا، لقد أوشكت حاله أن تكون سكرًا، فقد رأى السيدَين وسمعهما لأول مرة وكان مثلًا عليه فوق هذا وذاك أن يُجيب عليهما. ولقد انتهى الأمر، على قدر ما يُعرف، نهايةً طيبةً، ثمَّ حدثت تلك المصيبة التي لا يكاد يُمكن لإنسانٍ أن يحمله ذنبها بعد كل ما سبقها، ولقد تبيَّن أرلانجر وبورجل وضعه، وليس هناك شكٌّ في أنهما كانا سيتوليان أمره وكانا سيردان عنه كل شيء، ولكن أرلانجر كان مُضطرًّا للانصراف بعد الاستجواب مباشرةً ليذهب على ما يبدو إلى القصر، أما بورجل فيبدو أنه تعب من ذلك الاستجواب — وكيف يمكن أن يكون قد اجتاز الاستجواب دون أن يستبدَّ به الضعف؟ — واستغرق في النوم فلم يشهَد توزيع الملفات. ولو أوتي ك هذه الإمكانية — إمكانية الاستغراق في النوم — لأفاد منها كل الفائدة مسرورًا، ولتنازل راضيًا عن كل النظرات المحرَّمة، خاصةً وأنه لم يكن في الحقيقة قادرًا على أن يرى شيئًا، لو علم أكثر السادة حساسيةً بهذا، لظهرا أمامه دون ما خجل.

وكان لإشارة ك إلى الاستجوابَين — وبخاصة إلى استجواب أرلانجر وللاحترام الذي تحدَّث به عن السيدَينِ أثرهما في استمالة صاحب الحان إليه، فلما طلَب ك لوحًا من الخشب ليضعه على البراميل وينام عليه على الأقل إلى أن ينبلج الصباح بدا على صاحب الحان ميلٌ إلى تلبية هذا الرجاء، ولكن صاحبة الحان عارضت معارضةً واضحةً لا لبس فيها، وهزت رأسها مرارًا فوق ثوبها الذي تبيَّنت الآن اضطرابه وحاولت أن تُصلحه هنا وهناك دون جدوى. وأوشك خلاف على نظافة البيت، يبدو أنه كان خلافًا قديمًا، أن يعود إلى الانفجار من جديد، واتصل بين الزوجين حديث اتخذ في نظر ك لتعبه أهميةً هائلةً. ولاح له أنَّ طردَه من هنا سيكون مصيبةً أضخم من كل ما شهده حتى الآن. لا ينبغي أن يصل الأمر إلى ذلك حتى إذا اتَّفق صاحب الحان وصاحبتها على الوقوف في وجهه. وأخذ ينظر إليهما متربصًا وهو مكومٌ على برميل. حتى انتحت صاحبة الحان جانبًا فجأة نتيجة لحساسيتها الفائقة التي لفتَت نظر ك منذ وقتٍ طويلٍ — ويبدو أنها تحدثت مع صاحب الحانة عن أشياءَ أخرى — وصاحت: ما باله يتطلَّع إليَّ هكذا! اطرده!

وانتهز ك الفرصة فقال، وكان موقنًا يقينًا تامًّا يوشك أن يصل إلى حدِّ البلادة من أنه سيبقى: أنا لا أتطلَّع إليك، بل أتطلَّع إلى الثوب.

وسألت صاحبة الحانة ثائرةً: ولماذا تتطلَّع إلى ثوبي؟

فهز ك كتفَيه.

وقالت صاحبة الحان لزوجها: تعالَ! إنه سكران! هذا الصعلوك! دعه هنا يَنام حتى يفيق من سُكره!

ونادَت صاحبة الحان بيبي فظهرت من وسط الظلام مُضطربة الشَّعر، مُتعبةً، تمسك بيدها في إهمالٍ مقشة، وأمرتها بأن تُلقي إلى ك مخدة.

الفصل العشرون

فلمَّا استيقظ ك ظنَّ في بداية الأمر أنه لم يَكد ينام، كانت الحُجرة على حالها لم تتغيَّر، خاليةً، دافئةً، وكانت الحيطان مُظلمة، وكان المصباح المتدلي فوق صنابير البيرة قد انطفأ، وكان الليل مُخيمًا أمام النوافذ. فلمَّا تمطَّى، وقعت المخدة وقرقع اللوح والبراميل، أتَت بيبي من فورها، وعلم أن الوقت مساءً وأنه قد نام ما يزيد على اثنتَي عشرة ساعة. وكانت صاحبة الحان قد سألت عنه عدة مرات، وكذلك جيرشتيكر — الذي كان ينتظر هنا ويشرَب البيرة في الظلام عندما كان ك يتكلَّم مع صاحبة الحانة، ولم يجرُؤ آنذاك على إزعاج ك فقد أتى مرةً إلى هنا ليرى ك، وكذلك أتَت فريدا، على حد قول بيبي، ووقفت عنده لحظة ولكنها توشك ألا تكون قد أتت من أجل ك بل أتت لتعدَّ بعض الأشياء في قاعة الشراب؛ إذ إنها ستَستأنف عملها القديم عندما يحلُّ المساء. وسألت بيبي وهي تحضر قهوةً وفطيرًا: يبدو أنها لم تعُد تحبك؟

ولكنها لم تسأل في هذه المرة بطريقتها الشريرة السابقة، بل سألت حزينةً وكأنها قد عرفت في هذه الأثناء أنَّ ما في الدنيا من شرٍّ يضيع أمامه ما لديها من شرٍّ ويسخف. لقد كانت تتكلم إلى ك وكأنها تُحدث رفيقًا لها في الآلام، فلما تذوق ك القهوة وظنَّت هي أنه يُريدها أكثر حلاوةً، أسرعت وأحضرت له السكرية ملآنة، ويبدو أن حزنها حال بينها وبين أن تتزيَّن أكثر من المرة الماضية. وكانت تضع في شَعرها الكثير من اللفائف والأربطة وقد أزالت من جبينها وفوديها كل شَعرٍ زائد، وعقدت حول رقبتها سلسلةً صغيرةً كانت تتدلى في فتحة بلوزتها الواسعة. فلمَّا مدَّ ك يده، وقد نعم بنومٍ مريحٍ ونال قهوةً طيبةً، إلى إحدى الأربطة سرًّا وحاول أن يفتحها، قالت بيبي مُتعبةً: دعني!

ثم جلست بجوارِه على برميل. ولم يكن بـ ك حاجةً إلى سؤالها عما بها، فقد بدأت على التوِّ تروي حكايتها موجهةً بصرها جامدًا إلى إبريق القهوة وكأنما كانت تحتاج إلى تلهيةٍ

حتى وهي تروي، وكأنها كانت، حتى وهي تَشتغل بمِحنتها، لا تستطيع أن تَندمِج فيها كليةً لأنها تتجاوز ما لديها من قوة. وعلم ك أول ما علم أنه في الحقيقة يَحمل الذنب في المِحنة التي تتعرَّض بيبي لها، وأن بيبي ليسَت غاضبةً عليه. ولقد أومأت برأسها في همَّةٍ أثناء الرواية حتى لا تفسح مجالًا لاعتراضٍ من جانب ك. فهو قد أخذ فريدا في البداية من الخمَّارة ومكَّن بهذا لبيبي من أن تسلك مدارج الترقي، وليس هناك، سبيل لتصور الموضوع على نحوٍ آخر، فما هذا الذي يمكن أن يكون قد دفع بفريدا إلى التخلِّي عن مركزها؟ لقد كانت تجلس هناك في الخمارة كالعنكبوت في شبكتها، وكانت تمدُّ خيوطها إلى كل ناحية، وكانت هي وحدها التي تعرفها، ولم يكن من المُمكن بحالٍ من الأحوال زحزحة فريدا عن مكانها لم يكن هناك غير شيء واحد يُمكنه أن يتسبَّب في عزلها، ألا وهو حب رجلٍ وضيع. وما شأن بيبي؟ هل كانت في ذلك الوقت تُفكِّر في الوصول إلى هذا المركز؟ لقد كانت خادمةً تعمل في تنظيف وتنظيم الحجرات؛ أي كانت تشغل وظيفة تافهة ضعيفة المستقبل، ولكن بيبي كانت تحلم كما تعلم كل فتاة بالمستقبل العظيم، فليس هناك إنسان يُمكنه أن يمنع نفسه من الحلم، ولكنها لم تكن تُفكِّر جديًّا في إمكانية الترقي ورضيت بما حقَّقته. وفجأة اختفَت فريدا من الخمارة. اختفَت فجأةً، ولم يكن لدى صاحب الحان بديلة جاهزة لها. فأخذ يبحث حواليه ووقع بصره على بيبي التي كانت بطبيعة الحال قد دفعت بنفسها إلى الأمام. وكانت في ذلك الوقت تحبُّ ك كما لم يُحببه إنسان. كانت بيبي قد ظلَّت الشهور الطوال في حجرتها السفلية المظلمة الضئيلة وكانت تعدُّ نفسها لتمضية السنوات، بل وعلى أسوأ الفروض. حياتها كلها، لا يلتفت إليها مُلتفِت. وظهر ك فجأة. ك البطل محرِّر البنات، وشقَّ لها طريقًا إلى أعلى. حقيقة أنه لم يكن يعرف عنها شيئًا، ولم يكن قد فعل ما فعل من أجلها، ولكن هذا لم يُبدِّد امتنانها له، ولقد أمضت في الليلة السابقة على تعيينها — ولم يكن التعيين قد تأكَّد بعدُ ولكنه كان محتملًا جدًّا — الساعات ترجو أن تهمس في أذنه بالشكر. ولقد رفع من عمله في نظرها أنه اختار فريدا بالذات لتكون الحِمل الذي يضعه فوق ظهره، لقد كان في هذا التصرُّف شيء من الأثرة لا سبيل إلى فهمه، إنه في سبيل بيبي، يتخذ فريدا عشيقةً له، فريدا البنت القبيحة المنظَر، المسنَّة، النحيفة، ذات الشَّعر القصير المُضطرب، البنت الخبيثة التي تخفي دائمًا أسرارًا … وإنها لخبيثةٌ خبثًا يتَّفق مع منظرها! وإذا كان قبحها واضحًا في وجهِها وجسمها وضوحًا لا إسرار فيه، فلا بدَّ أن تتَّخذ على الأقل أسرارًا أخرى لا يستطيع أحد أن يكشف أمرها، من هذا علاقتها المُدعاة بكلم. ولقد خطرت ببال بيبي في ذلك الوقت مثل هذه الأفكار: هل من المُمكن أن يكون كلم عاشقًا

لفريدا؟ ألا يخدع نفسه؟ أو ألا يخدع فريدا؟ وهل سيؤدي هذا كله إلى ارتقاء بيبي فقط؟ وهل سيتبين ك الخطأ؟ وهل سيُقرر ألا يغفره؟ وألا يعود إلى رؤية فريدا؟ ألا يعود إلى رؤية بيبي وحدها؟ ولم يكن هذا خيالًا مجنونًا تورَّطَت فيه بيبي، فقد كان في مقدورها أن تقف من فريدا موقف الندِّ للندِّ، وهذا شيء لا يستطيع أحد إنكاره. ولكن فريدا بهرَت بصر ك أولًا وقبل كل شيءٍ آخر بمركزها وبالبريق الذي عرفت كيف تُضفيه على هذا المركز. وتمنَّت بيبي في أحلامٍ استرسلت إليها أن يأتي إليها، وبعد أن تكون قد نالت المركز، فيتوجَّه إليها بالرجاء، وسيكون عليها في هذا الوقت أن تختار بين أمرَين إما أن ترفع ك وتَفقِد المركز أو أن تصدَّ ك وترتفع هي. ولقد رتبت أمرها على أن تتخلَّى عن كل شيء وتنزل إليه وأن تُعلمه الحب الحقيقي الذي لا يُمكنه أن يعرفه عند فريدا، الحب الحقيقي الذي لا يرتبط بأيِّ مركز من مراكز التشريف في الدنيا. ولكن الأمور تطوَّرت على نحوٍ آخر، ومَن الذي يحمل ذنب ذلك؟ ك أولًا وقبل كل شيءٍ آخر، ثم بعد ذلك خُبث فريدا. ك أولًا فماذا يريد؟ وما أغربه من إنسان؟ إلامَ يطمح؟ ما هي هذه الأشياء الهامة التي تشغله والتي تُنسيه الأقرب والأحسن والأجمل؟ إنَّ بيبي هي الضحية، وكل شيءٍ قد أصابه السخف، وكل شيءٍ قد أصابه الضياع. ولو استطاع أحد أن يُشعِل النار في حان السادة ويحرقها عن آخرها كما يحرق الإنسان ورقة في مدفأةٍ، لكان اليوم هو الرجل الذي تختارُه بيبي وتصطفيه. نعم، لقد دخلت بيبي في الخمارة منذ أربعة أيام قبل الغداء بقليل. وليس العمل في الخمَّارة بالعمل السهل إنه عملٌ يوشك أن يكون مهلكًا، ولكن ما يُمكن أن يبلغه الإنسان هنا ليس بالشيء الصغير، ولم تكن بيبي فيما مضى تعيش اليوم ولا تفكر في الغد، وهي إذا لم تكن قد تجرَّأت جرأةً مفرطةً للاستحواذ على هذا المركز فقد أكثرت من الملاحظة وعلمت أمر هذا المركز، فلم تكن إذ شغلت المركز تَفتقِر إلى الاستعداد له. وما يُمكن أن يشغل الإنسان مثل هذا المنصب دون أن يكون مُستعدًّا له وإلا فقده في الساعات الأولى وخاصةً إذا ما تصرف الإنسان هنا على طريقة خادمات الحجرات. وخادمة الحجرات نفسها بمضيِّ الزمن ضائعةً منسية. إن عملها هناك، أو على الأقل عملها في الممر، يُشبه العمل في باطن المنجم. إنها تظل الأيام العديدة لا تَرى — باستثناء بعض أصحاب الحاجات الذين يتكورون على أنفسهم ولا يجرءون على رفع أبصارهم — إنسانًا، سوى خادمتَين أو ثلاثٍ من الزميلات اللاتي يُعانين من المِحنة ذاتها. ليس للخادمة أن تُغادر حجرتها صباحًا؛ لأنَّ السكرتيرين يريدون في هذا الوقت أن يكونوا وحدهم والصبيان هم الذين يأتون إليهم بالطعام من المطبخ، فليس للخادمات شأنٌ بالطعام، وليس للخادمة أن تظهر في الممرِّ في وقتِ تناول

الطعام. وليس للخادمة أن ترتب الحجرة إلا أثناء قيام السادة بالعمل وعليها أن ترتب بطبيعة الحال الحجرات التي تصادف أن غادرها السادة، وعليها أن تُؤدي عملها في سكونٍ تام حتى لا تزعج السادة وهم يعملون ولكن كيف يمكن ترتيب الحجرة في سكونٍ تامٍّ. إذا كان السادة يقيمون في الحجرة الأيام المُتتالية وكان الخدم الرجال، هؤلاء الرعاع الأقذار يعيثُون فيها فسادًا، وإذا بالحُجرة عندما تدخل الخادمة لترتيبها في حالةٍ من القَذارة لا يمكن حتى للفيضان تنظيفها. والحقيقة أنَّ السادة سادةٌ عظام، ولكن على الخادمة أن تقهر قرفها حتى تتمكَّن من ترتيب الحجرة. وليس عمل الخادمة عملًا كثيرًا مفرط الكثرة ولكنه دقيق. وهي لا تسمع مطلقًا كلمةً طيبة، بل تسمع دائمًا اللوم والتوبيخ، وخاصةً هذا اللوم الضائع الفظيع: إنَّ بعض الملفات ضاعت أثناء قيامها بتنظيف الحُجرة. وليس هناك في الحقيقة شيء يضيع، فالخادِمة تُسلِّم أصغر قطعة من الورق تجدُها إلى صاحب الحان، وإذا كانت الملفات تضيع، وهذا ما يحدث فإنَّ الخادمات لسنَ من اللاتي يُضيعنها. وتأتي اللجان للتحقيق، وتضطرُّ الخادمات إلى مغادَرة حُجرتهن، وتَقلب اللجنة السُّرر رأسًا على عقب. وليس لدى الخادمات من المُمتلكات سوى أشياءَ قليلة يحتويها سبَت ولكن اللجنة تستمر في البحث ساعاتٍ وساعات. وهي بطبيعة الحال لا تعثر على ملفات، فكيف يمكن أن تأتي إلى هنا؟ وماذا تعمل الخادمات بالملفات؟ ومع ذلك فالنتيجة شتائم وتهديدات ينقلها صاحب الحان إلى الخادمات عن اللجنة التي خاب رجاؤها. والخادمة لا تعرف الراحة لا بالليل ولا بالنهار، بل تُعاني من الصخب آناء الليل، وأطراف النهار. والخادمات يتمنَّين لو سُمح لهن بالمبيت خارج الحان، ولكن المبيت بالحان مفروضٌ عليهن؛ لأنَّ عليهن إجابة الطلبات إذا ما طلب السادة أشياء بسيطة من المطبخ، وبخاصةٍ في الليل. فجأة يأتي مَن يدقُّ بلكمته على باب حجرة الخادمات، ويُملي الطلب على الخادمة، فتجري الخادمة إلى المطبخ، وتهزُّ صبيَّ الطباخ في المطبخ ليصحو، وتضع الصينية بالطلب أمام باب حُجرة الخادمات، فيأتي الخدم الرجال ويحملونها، ما أسوأ هذا كله! ولكن هذا ليس أقبح ما في الأمر. إن أسوأ ما في الأمر هو عدم حضور مَن يطلب شيئًا. إنه شروع بعضهم في التلصُّص أمام الباب. بالليل البهيم حيث يحبُّ الجميع أن يناموا ويكون غالبيتهم مُستغرقين في النوم فعلًا. عند ذاك تنزل الخادمات من السُّرر — فالسُّرر متَّخذة الواحد فوق الآخر لضيق المكان وليسَت حُجرة الخادمات في حقيقتها سوى دولاب كبير له ثلاثة رفوف — وتتنصَّتن على الباب، وتركعن عنده، تعانق الواحدة الأخرى من فرط الخوف، وصوت المتلصِّص بالباب لا يفتأ يأتي إلى السمع ولو أنه دخل لسعدت الخادمات بدخوله، ولكن هذا لا

يحدث، فالمتلصِّص لا يدخل إليهنَّ. وينبغي أن يقول الإنسان أن هذا التلصُّص لا ينطوي على خطرٍ محدق، فربما لم يكن المُتلصِّص سوى شخصٍ يروح ويجيء أمام الباب ويُفكِّر هل يطلب شيئًا، ولا يستطيع أن يتَّخذ قرارًا. ربما كان الأمر كذلك، وربما لم يكن كذلك. والحقيقة أن الخادمات لا يعرفن السادة قط، فهن لم يرونهم إلا لمامًا. ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ الخادمات يَذُبن في الحُجرة من فرط الخوف، وإذا ما ساد السكون في الخارج. فإنهن يَستنِدن إلى الحائط؛ لأنَّ قوتهن لا تمكنهن من العودة إلى السُّرر. هذه الحياة تَنتظِر بيبي مرةً أخرى، فعليها أن تعود الليلة إلى حُجرة الخادمات وتتَّخذ فيها مكانها. ولماذا؟ بسبب ك، ولكن بعد جهودٍ هائلة. ذلك أنَّ الخادمات، حتى اللاتي يَهتمِمنَ بأنفسهن، عادةً غاية الاهتمام، يهملن أنفسهن هنا في هذا العمل. فلماذا يتزين؟ ليس هناك إنسانٌ يراهن، في أفضل الأحوال إلا العاملون في المطبخ، فمَن كان هذا يرضيها فلتتزيَّن. إن الخادمات دائمًا في الحجرة الصغيرة أو في حجرات السادة التي يعتبر دخولها بملابس نظيفة من الحماقة والتبذير. وإن الخادمات يَعِشن دائمًا في الضوء الصناعي والهواء العطن — لأن التدفئة لا تنقطع — وهنَّ دائمًا مُتعَبات. أما فترة الراحة التي يحصلن عليها، وهي ساعاتٍ قليلة في عصر أحد الأيام أسبوعيًّا، فهن يُفضِّلن قضاءها في مكانٍ مقفول بالمطبخ: حيث ينمن في سكونٍ وبلا خوف فلماذا تتزيَّن الخادمة إذن؟ إنها لا تكاد ترتدي شيئًا. ولقد نقلوا بيبي إلى الخمارة حيث يتطلب العمل منها، إن أرادت أن تنجح فيه، العكس على خط مستقيم. فخادمة الخمَّارة تحت أعين الناس دائمًا ومن بين الناس مَن اشتدَّت رقَّتهم وعظم انتباههم. وعليها أن تظهر دائمًا بأحسن مظهر ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا. لقد كان ذلك تحولًا في حياتها. ويُمكن لبيبي أن تقول عن نفسها إنها لم تُقصِّر في شيءٍ. فلم تعلق بالًا على مُستقبلها في العمل. لقد كانت تعرف أن لديها الإمكانيات اللازمة لهذه المِهنة، بل كانت متأكدة من ذلك تمامًا، وما زالت إلى الآن مقتنعةً بهذا، ولا يوجد إنسان يستطيع أن يزعزع اقتناعها هذا حتى اليوم. يوم هزيمتها. ولقد وجدت صعوبات في فرض نفسها في الفترة الأولى لأنها كانت بنتًا فقيرة بلا ثياب وبلا حليٍّ، ولأنَّ السادة ليس لديهم من الصبر ما يجعلهم ينتظرون ليروا كيف تتطور هذه البنت الجديدة، بل هم يريدون خادمةً للخمارة بمعنى الكلمة على الفور ودون مرحلة انتقال وإلا نفروا منها وقد يظن الإنسان أن مُتطلباتهم ليست عالية لأنَّ فريدا كانت تفي بها. ولكن هذا ليس صحيحًا. ولقد فكَّرت بيبي في هذا مليًّا، واتصلت بفريدا مرارًا بل ونامت معها فترة طويلة. وليس من السهل سبر أغوار فريدا. ومَن لا يتنبَّه — وأين هم السادة الذين يتنبهون؟ يقع في غوايتها. وليس هناك

إنسان يعرف قُبحَ منظر فريدا أدقَّ من فريدا ذاتها، إن الإنسان عندما يراها لأول مرةٍ وهي تحلُّ شَعرها، يضرب يديه معًا من الأسى. إن بنتًا كهذه لا يصحُّ أن تعمل، إذا كانت الأمور تسير في طريق العدل والصواب، حتى خادمة حجرات. وهي تعرف ذلك، كثيرًا ما باتت الليل تبكي، وتضمُّ نفسها على بيبي وتلفُّ شَعر بيبي حول رأسها هي، ولكنَّها عندما تعمل في الخمارة، لا تحسُّ بشيءٍ من شكوكها، وتعتبر نفسها أجمل المخلوقات، وتعرف كيف تفرض ذلك على كل إنسان، إنها تعرف الناس، وهذا هو فنها الحقيقي. وهي تكتب وتغشُّ بسرعة حتى لا يكون لدى الناس من الوقت ما يَكفي للنظر إليها بدقة. ومن الطبيعي أن هذا لا يكفي على مرِّ الزمن؛ فالناس لهم عيون، والعيون ستكون في النهاية صاحبة الحق ولكن فريدا لديها وسيلة جاهزة تستعملها إذا ما تبيَّنت خطرًا من هذا النوع، إنها في هذه الحالة تستعمل، على سبيل المثال كما حدث في الفترة الأخيرة، علاقتها بكلم. نعم علاقتها بكلم! إذا لم تكن تصدق أن لها علاقةً بكلم فألتمس لك طريقة تتأكَّد بها! اذهب إن استطعت إلى كلم واسأله! ما أكثر خبثها! وإذا لم تجرُؤ على الذهاب إلى كلم لسؤاله عن شيءٍ من هذا القبيل — فلن تستطيع الوصول إليه إذا كان لديك أسئلة أهم بكثير لأنَّ كلم بعيد عنك كل البُعد ... عنك وعن أمثالك فقط؛ لأن فريدا تذهب إليه عندما تشاء — فيُمكنك والأمر كذلك أن تتقصَّى، أو عليك أن تنتظر! وليس من المتصوَّر أن يَحتمِل كلم إشاعة مزيفة مثل هذه طويلًا. ومن المؤكَّد أنه يُتابع ما يُحكى عنه في الخمَّارة وفي حُجرات النزلاء، ويُعلِّق على ذلك أهميةً كبيرةً، فإذا كان ما يُحكى عنه خطأً صحَّحه على الفور.

ولكنه لا يُصحِّح الخطأ في حالتنا هذه. إذن فليس هناك ما ينبغي تصحيحه، والأمر هو الحقيقة الخالصة! أما ما يراه الناس فهو لا يتعدَّى حمل فريدا البيرة إلى حجرة كلم وخروجها بالثمن. وأما ما لا يراه الناس فتحكيه فريدا، وينبغي تصديقها. ثم هي لا تحكيه، لأنَّها لا يُمكن أن تكشف مثل هذه الأسرار. لا! إن الأسرار تتكشَّف وحدها من حولها! وعندما تتكشَّف، فإن فريدا لا تتردَّد في نفسها في الحديث عنها، ولكن على نحوٍ مُتواضِع، دون أن تجزم بشيءٍ، بل هي تَعتمِد في حديثها على ما قد ذاع بالفعل. ولكنها لا تذكر كل شيء، فهي لا تذْكر على سبيل المثال أن كلم أصبح يشرب، منذ عُيِّنت هي على المشاريب في الخمارة. من البيرة أقل ممَّا كان يشرب، لا أقلَّ كثيرًا، ولكن أقل بشكلٍ واضح والناس يختلفُون في تعليل ذلك، ولقد مرَّ على كلم وقت كانت البيرة لا تسيغ له كثيرًا، أو لعلَّ فريدا تُلهيه عن شرب البيرة. ومهما يكن مِن أمرٍ، فإنَّ فريدا، على الرغم ممَّا في الأمر من غرابة، عشيقة كلم، وليس من شكٍّ في أنَّ الآخرين عليهم أن يعجبوا بما يرضى به

كلم. وهكذا أصبحت فريدا، دون أن يتدبَّر الناس الأمر، بنتًا رائعة الجمال، وخادمة خلقت للخمارة، بل قد تكون مفرطة الجمال، مفرطة القدرة فلا تكاد الخمارة ترضيها. وهذا هو الواقع — فإن الناس يعجبون بها لأنها لا تزال في الخمارة. والعمل خادمة في خمارة شيء عظيم، ولهذا فإن علاقتها بكلم تلوح قابلة للتصديق، ولكن إذا أصبحت خادمة الخمَّارة عشيقةً لكلم فلماذا يدعُها، يدعها هذا الوقت الطويل، في الخمارة؟ لماذا لا يأخُذ بيدها إلى أعلى؟ وفي استطاعة الإنسان أن يقول للناس ألف مرة إنه ليس في هذا تناقض، وإن كلم لديه أسباب معيَّنة للتصرف على هذا النحو، أو أن ترقية فريدا ستحدُث فجأةً ربما في أقرب وقت، ولكن هذا الكلام لا يؤثر عليهم كثيرًا. إنَّ الناس يتصوَّرون الأمر على ما يبدو معرفةً أفضل، تعبوا تعبًا حال بينهم وبين الشك، وقالوا في أنفسهم، كوني إن شئتِ عشيقة كلم، ولكن إذا كنت قد أصبحت بالفعل عشيقة فدعينا نتبيَّن ذلك مَن ترقيك إلى أعلى! ولكنهم لم يتبيَّنوا شيئًا، وبقيَت فريدا في الخمارة كما كانت، وكانت بينها وبين نفسها مسرورةً لأنَّ الأحوال بقيت على هذا النحو. على أنها فقدت جانبًا من هيبتِها في أعين الناس، ولا بدَّ أنها لاحظت ذلك، فهي تُلاحظ في المعتاد الأشياء حتى قبل أن تحدث. ولو أن بنتًا جميلة لطيفة عملت في الخمارة، ألفت شئونها، فلن يكون بها حاجة إلى الالتجاء إلى الأفانين للاستمرار في العمل، فهي باقية في مكانها ما دامت جميلة، إلا أن يطرأ طارئٌ مفاجئٌ مؤسِف. أما إذا كانت البنت على شاكلة فريدا فإنها تظل دائمًا قلقةً على وظيفتها، وهي بطبيعة الحال — وهذا شيء بديهي — لا تظهر قلقها، بل على العكس تتظاهر بأنها تشكو من العمل وتلعنُه. أما بينها وبين نفسها، فهي تراقب الجو العام دون ما توقف. وهكذا تبيَّنت أن الناس لا يكلفون بها، وأن ظهور فريدا لم يَعُد يدفعهم حتى إلى رفع عيونهم، حتى الخدم كانوا لا يهتمُّون بها، وكانوا يتعلَّقون — وهذا شيء بديهي بأولجا وبمثيلاتها، ولاحظت فريدا أن الاحتياج إليها أخذ يفتر فتورًا مُتزايدًا، ولم يكن في مقدورها أن تستمر في اختراع حكايات جديدة، فلكلِّ شيء حدود، وهكذا قررت فريدا الطيبة أن تفعل شيئًا جديدًا. وأين هو الإنسان الذي كان يستطيع أن يكشف مكنونها! أما بيبي فقد أحسَّت بما تُدبِّره فريدا، وإن لم تتمكن من كشف مكنونه. لقد قررت فريدا أن تحدث فضيحة، هي: عشيقة كلم ترتمي في أحضان أيِّ إنسان، ترتمي في أحضان أوضع إنسان. لسوف يُثير هذا الدهشة، ولسوف يتحدَّث الناس عنه طويلًا، ثم يتذكرون في النهاية معنى أن تكون فريدا عشيقة كلم، وأن تنبذ هذا الشرف العظيم في نشوة حبٍّ جديد. وكانت الصعوبة الوحيدة تتلخَّص في العثور على الرجل المناسب لهذه اللعبة الماكرة. فلا ينبغي أن يكون هذا الرجل واحدًا

ممَّن تعرفهم فريدا، ولا واحدًا من الخدم لأنها لو حاولت أن تتَّخذ لذلك واحدًا من الخدم، فإنه على الأرجح سينظر إليها بعينَين واسعتين مدهوشتين وينصرف إلى حال سبيله، وهو لو رضيَ فلن يستطيع أن يتصنَّع ما يكفي من الجد، ولن يكون من المُمكن، مهما أوتي الإنسان من الفصاحة، أن يشيع بين الناس أنه تهجم على فريدا. وأنها لم تستطع أن تُدافع عن نفسها، وأنها خضعت له في ساعةٍ فقدت فيها وعيها. وحتى إذا وجدت شخصًا وضيعًا غاية الوضاعة، فلا بد أن يكون شخصًا يُمكنه أن يوحي على نحوٍ مقنعٍ، أنه على الرغم من بلادته وغلظته لا يشتاق إلى شيء شوقه إلى فريدا وإلى — آه، يا للعجب! — الزواج بها. وينبغي أن يكون هذا الرجل الوضيع — ولا بد أن يكون على قدر الإمكان أكثر وضاعةً من الخدم، أكثر وضاعة منهم جدًّا — على نحوٍ لا تَنفِر منه كل البنات، بل قد تجد فيه بنتٌ صحيحة العقل شيئًا جذابًا. فأين تجد رجلًا كهذا؟ ولو أن بنتًا غير فريدا بحثت عن هذا الرجل، لما وجدته في حياتها. أما فريدا فقد ساق إليها الحظ موظَّف مساحة إلى الخمَّارة ربما في نفس الليلة التي فكَّرت فيها في هذه الخطة. موظف المساحة! نعم، نعم، ففيمَ يُفكر ك؟ ما هي الأشياء الهامة الخاصَّة التي تجول بخاطره؟ هل سيصل إلى شيءٍ هام خاصٍّ؟ إلى مركزٍ طيب؟ إلى مجد؟ هل يُريد هو شيئًا من هذا القبيل؟ لو كان الأمر كذلك، لكان قد تصرَّف منذ البداية على نحوٍ آخر، وهو في الحقيقة لا شيء، ولكم يتحسَّر الإنسان عندما ينظر إلى حاله! إنه موظَّف مساحة، وربما كان هذا شيئًا؟ ربما كان هذا يعني أنه قد تعلَّم شيئًا، ولكن إذا لم يكن الإنسان يستطيع أن يفعل شيئًا بما تعلَّم، فإن ما تعلَّمه يكون لا شيء. وهو مع ذلك يطالب بحقوق دون أن يكون معتمدًا على أدنى سند، وهو في الحقيقة لا يطالب بحقوق بمعنى الكلمة، ولكن المُثير في الأمر هو أن الإنسان يلاحظ أنه يطالب بحقوق ألا يعلم أن الخادمة الوضيعة تُفرط في الكرم حياله، إذا تكلمت معه طويلًا؟ وإذا هو بمطالبه العالية هذه يَندفع في الليلة الأولى إلى داخل مصيدةٍ بشعة. ألا يخجل؟ ما هذا الذي أعجبه في فريدا؟ إنه الآن يستطيع أن يقول الحقيقة. أيمكن أن تكون هذه المخلوقة الصفراء العجفاء قد أعجبته؟ آه، لا، إنه لم يتطلَّع إليها، كل ما في الأمر أنها قالت له إنها عشيقة كلم، فأحدث ذلك فيه أثرًا لأنه كان جديدًا عليه ... وكان أن ضاع! أما هي فقد أصبح عليها أن تترك الحان، فلم يَعُد لها بطبيعة الحال مكان في حان السادة. ولقد رأتها بيبي في الصباح السابق على خروجها من الحانة، وكان مَن يعملون بالحانة قد تجمَّعوا تواقين إلى النظر إليها. كان نفوذها لا يزال عظيمًا لدرجة أنهم أسفوا عليها، لقد أسف عليها الجميع، ومن بينهم أعداؤها. لقد نجَح تدبيرُها إلى هذا الحد. لقد صعب على الجميع أن يفهموا لماذا

ألقت بنفسها إلى مثل هذا الرجل؟ لقد تصوَّروا أن نازلةً ألَّت بها. وكانت خادمات المطبخ الصغيرات، اللاتي يُعجبن بخادمة الخمَّارة أيما إعجاب، في حالةٍ يُرثى لها. حتى بيبي كانت مُتأثرة، ولم تكن تستطيع أن تُسيطِر على نفسها، على الرغم من أنَّ اهتمامها كان مركَّزًا على شيءٍ آخر. ولكنها لاحظت أن ما كان بفريدا من حزنٍ قليل قِلة مُلفتة للنظر. لقد كان ذلك الذي حدَث لها مُصيبة بشعة، ولقد تصنَّعت هي أيضًا التعاسة، ولكن تصنُّعها لم يكن كافيًا، فلم تنخدع بيبي بتمثيلها. فعلامَ كانت تَعتمِد؟ يا ترى على سعادة الحب الجديد؟ لقد كان هذا الاحتمال مُستبعَدًا، فعلامَ إذن؟ وما هذا الذي أعطاها القوة على أن تصطنع كالمعتاد الود البارد حتى حيال بيبي التي كانت في ذلك الوقت تعتبر خليفة فريدا؟ ولم يكن لدى بيبي في ذلك وقتًا كافيًا للتفكير في هذا؛ فقد كانت مشغولةً جدًّا بالاستعداد للوظيفة إليه. قطعة الجديدة. وكان المفروض أن تبدأ العمل فيها بعد ساعاتٍ قليلة، ولم تكن قد اتخذت تسريحة جميلة، ولا لبست ثوبًا أنيقًا، ولا ارتدَت قميصًا رقيقًا ولا حذاءً صالحًا. وكان من الضروري تدبير كل هذه الأشياء في غضون ساعاتٍ قليلة. وإذا لم يكن تدبير هذه الأشياء في الإمكان، فالأفضل أن يتنازَل الإنسان عن الوظيفة، لأنه سيفقدها بكلِّ تأكيد في نصف الساعة الأول. ولقد تمكَّنت بيبي من تدبير هذه الأشياء جزئيًّا. أما تصفيف الشَّعر فلها فيه موهبة خاصة، حتى إن صاحبة الحان ذاتها استدعتها ذات مرة إليها لتُصفِّف لها شَعرها، ولقد تمكَّنت بيبي من تصفيف شَعرها تصفيفًا حسنًا لأنها تُحسن العمل بيدها، ولأن شَعرها الغزير يتشكَّل كما تريد. كذلك وجدت مَن يُعينها على تدبير الثوب. فقد أخلصت زميلتاها لها، وكانتا تريان في اختيار بنت من مجموعتهن لتُصبح خادمة الخمارة شرفًا لهما، وكانتا تعتقدان أن بيبي ستمنعهما فيما بعدُ عندما تصل إلى السلطة. وكان لدى إحدى البنتَين منذ وقتٍ طويلٍ من القماش الغالي، كانت كنزها، وكانت تعرضها على الأُخريات فيُعجبن بها، وكانت بطبيعة الحال تحلم بأن تستعملها ذات يومٍ في صناعة ثوبٍ رائع. وما كان أحسن تدبيرها، فلمَّا احتاجته بيبي الآن ضحَّت به من أجلها. وساعدت البنتان بيبي عن طِيب خاطر في حياكة الثوب، ولو كانتا تحيكان لنفسهما، ما أظهرتا مَزيدا من الهمة. بل لقد كان العمل في الثوب عملًا مفرحًا سعيدًا. كانت كل واحدةٍ تجلس في سريرها الواحدة فوق الأخرى، وكانتا تَخيطان وتُغنِّيان وتقدمان الواحدة إلى الأخرى الأجزاء الجاهزة وتتبادَلان الكلفة. إن بيبي عندما تفكر في هذا، ينقبض قلبها؛ لأن هذا الجهد راح هباءً، ولأنها تعود إلى صديقتَيها خاوية اليدَين. يا لها من محنة! ويا له من دينٍ تحمَّلت به عن حمق! والذنب ذنب ك قبل غيره. ولقد أعجب الجميع بالثوب، ولاح

هذا الإعجاب به كأنه ضمان للنجاح، وكان العثور في الثوب بعد أن تمَّ على مكانٍ لا يزال يحتاج إلى شريط يُحلِّيه من الصعوبة بمكان. ثم ألم يكن الثوب جميلًا بالفعل؟ لقد أصابه الآن بعض الخلل واتَّسخ، فليس لدى بيبي ثوب آخر، ولهذا كانت مُضطرةً إلى ارتدائه ليلًا ونهارًا، ولكنَّ الناظر إليه لا يزال يرى كم هو جميل، وما كان يُمكن حتى لأخت برناباس اللعينة أن تصنع أفضل منه. إنه ثوب يُمكِن تضييقه وتوسيعه من أعلى ومن أسفل حسب الرغبة، فيظهر بأشكالٍ مختلفة وهو الثوب الواحد — وهذه ميزة خاصَّة وهي من اختراع بيبي. وليسَت حياكة ثوب بيبي بالأمر الصعب بطبيعة الحال، وبيبي لا تتفاخَر بذلك، وإن البنت إذا كانت صغيرة السنِّ صحيحة البدن فكل شيء تلبسُه يُناسبها ويبدو جميلًا أما تدبير الملابس الداخلية والحذاء فكان أمرًا أكثر صعوبةً، وكان هو في الحقيقة بداية الفشل. ولقد ساعدَت الصديقات هنا على قدر ما استطعن، ولكنَّهن لم يستطعن فعل الكثير. فلم تحصل بيبي إلا على ملابس داخلية خَشِنة مرقَّعة، ولم تجد حذاءً له كعب عالٍ، واضطرَّت إلى الاكتفاء بحذاء بيبي كان الأحرى بالإنسان أن يُخفيَه لا أن يظهره. وكان هناك مَن يُواسي بيبي: فلم تكن فريدا تلبس الجميل من الثياب، بل إنها كانت أحيانًا تلبس ملابس رثَّة حتى إن الناس كانوا يُفضلون أن يقدم لهم المشروبات بدلًا منها صبيان المخزن. هذا هو الواقع. ولكن فريدا كانت تسمح لنفسها بذلك لأنها كانت تنعَم بالحظوة والتكريم. وإذا ظهرت سيدة أمام الناس بملابس قذرة مُهمَلة فإنها تستهويهم على نحوٍ أشد، أما إذا فعلت ذلك بنتٌ جديدة مثل بيبي فما تكون العاقبة؟ هذا إلى أنَّ فريدا لم تكن تستطيع أن تهندم نفسها، فهي مجرَّدة من الذوق تمامًا، وإذا أوتي الإنسان بشرةً صفراء فهو لا يستطيع أن يُغيِّرها، ولكن ليس هناك ما يضطرُّه مثل فريدا إلى ارتداء بلوزة مفتوحة فتحةً واسعةً صفراء اللون، حتى إنَّ العين إذا نظرت إليها تضطرب لهذه الصُّفرة المفرطة! وحتى إذا لم يكن هذا هو حالها، فإنها كانت بخيلة بُخلًا يمنعها من الإنفاق على الملبس الجميل. لقد كانت تدَّخر كل ما تكسب، وليس هناك مَن يعرف لماذا. وهي لم تكن تحتاج في العمل إلى المال، بل كانت تُدبر أمرها بالكذب والخبث، ولم تكن بيبي تريد ولم تكن تستطيع أن تتَّخذ فريدا قدوةً لها، ولهذا كان لها أن تتزيَّن حتى تظهر موهبتها كاملة وبخاصَّة في البداية. ولو أنها أوتيت لذلك وسائل أقوى لكانت هي المُنتصِرة برغم مكر فريدا وغباء ك. ولقد كانت البداية طيبةً جدًّا. فقد أتت وهي مُلمَّة بما يتطلبه العمل من نشاطٍ ومعرفة، وما كادت تدخل الخمارة حتى ألفت العمل فيها ولم يَعُد غريبًا عليها، ولم يعتور العمل عيب يجعل كائنًا مَن كان يَفتقِد فريدا في اليوم الأول. أما في اليوم التالي

فقد سأل بعض الحاضرين عن فريدا وإلى أين ذهبت. ولم تَرتكب بيبي خطأً واحدًا، وكان صاحب الحان راضيًا، وكان في اليوم الأول لا يُبارح الخمارة من شدة خوفه، فلمَّا ارتاح باله قلَّ حضوره، وأخيرًا ترك كل شيءٍ لبيبي، عندما وجد أن الخزينة مضبوطة بل وإنَّ الوارد زاد في المتوسط عما كان عليه أيام فريدا. وأدخلت بيبي بعض التجديدات. كانت فريدا تُراقب الخدم مراقبةً جزئية، وبخاصةٍ إذا كان هناك مَن ينظر إليها، لا عن كلفٍ بالعمل، ولكن عن بخلٍ، وعن حبٍّ للسيطرة وعن خوف من النزول عن شيءٍ من حقوقها، أما بيبي فقد تركت هذه المهمَّة كلها لصبيان المخزن الذين يصلحون لهذه المهمَّة أفضل منها. وكانت النتيجة أنها وجدت المزيد من الوقت لخدمة حُجرات السادات فكان النزلاء يتلقون ما يطلبون بسرعة. وكانت مع ذلك تتكلَّم مع كل كلمتين على عكس فريدا التي كانت تدَّعي أنها حِكر على ك وكانت تعتبر كل كلمة توجه إليها وكل محاولةٍ للتقرُّب منها إساءةً إلى كلم. ولقد كان ذلك تصرفًا ماكرًا منها؛ لأنها عندما كانت تسمح لشخصٍ بالتقرب إليها كان يعتبر هذا تفضلًا من نوعٍ لم تسمع به أُذُن. أما بيبي فكانت تكره هذه الأفانين، هذا إلى أنَّ هذه الأفانين لا تفيد في البداية. كانت بيبي تُظهر الودَّ لكل إنسان، وكان كل إنسان يظهر لها الود. وكان يبدو على الجميع الفرح بالتغيير الذي طرأ على الخمارة. وكان السادة المُتعبون إذا ما خلوا في النهاية إلى البيرة، يتغيَّرون من حالٍ إلى حال لكلمة من بيبي أو نظرةٍ منها أو هزةٍ من كتفَيها. وهكذا كانت الأيدي تمتد نشيطةً إلى خصائل شَعرها، ممَّا كان يضطرُّها إلى إصلاح تسريحتها عشر مرات في اليوم الواحد ... ولم يكن هناك مَن يستطيع أن يُقاوم إغراء هذه الخصائل والجدائل، حتى ك نفسه الذي كان يظهر في المعتاد مجردًا من كل فكرٍ. وهكذا انقضت أيام، كانت مليئة بالعمل، ولكنَّها كانت ناجحة. ليتها لم تَنقضِ بهذه السرعة، وليلتَها كانت أكبر ممَّا كانت! لقد كانت الأيام الأربعة قليلة جدًّا حتى إذا أنهك الإنسان نفسه إنهاكًا! ولعلَّها لو زادت يومًا لكفَت، أما أربعة أيامٍ فقط فقد كانت قليلة. حقيقة أن بيبي اكتسبت في الأيام الأربعة المحاسيب والأصدقاء، إن جاز لها أن تُصدق النظرات، لقد كانت تعوم، عندما تأتي بأقداح البيرة، في بحرٍ من الصداقة، ولقد هام بها إلى الجنون كاتبٌ اسمه بارتماير فقدَّم إليها هذا العقد وهذه الدلاية هدية وأعطاها صورةً في الدلاية ... وإنه لتصرُّفٌ جَسور ما في ذلك شك! لقد جرى هذا وغير هذا في فترةٍ لم تتجاوَز أربعة أيام ... وإن في استطاعة بيبي عندما تبذُل جهدها، أن تدفع بفريدا إلى ظلام النسيان تقريبًا في هذه الأيام الأربعة، ولكنَّها لا تكفي لدفعها إلى ظلام النسيان كليةً، وربما كان النسيان قد احتوى فريدا بالفعل، إذا لم تكن قد حرصت على أن تجعل الأفواه

تتحدَّث عنها وتوسَّلت إلى ذلك بفضيحتها الكبيرة التي جدَّدتها في أذهان الناس حتى استبد بهم الفضول لرؤيتها. لقد تحوَّلت هذه البنت التي ملُّوها وسئموها، إلى شيءٍ له سِحره: والفضل في ذلك يرجع إلى ك الذي يتَّسم عمومًا بالبلادة! ولم يكونوا بطبيعة الحال ليُضحُّوا ببيبي من أجل هذا طالَما كانت تقف في الخمارة وتؤثر عليهم بحضرتها. ولكن غالبيتَهم من الشيوخ المسنِّين، الجامدين في عاداتهم، الذين يحتاجون إلى وقتٍ طويل لكي يتعوَّدوا على خادمة خمارة جديدة حتى وإن كانت أفضل من سابقتها، يحتاجون إلى عدة أيام، يحتاجون رغم إرادتهم إلى عدة أيام، ربما إلى خمسة أيامٍ فقط، ولكن أربعة أيام لا تكفي ... ولم تكن بيبي في نظرهم إلا خادمةً مؤقَّتة. ثم جاءت المصيبة التي ربما كانت هي المصيبة العُظمى: في تلك الأيام الأربعة لم ينزل كلم في حجرته بالحان على الرغم من أنه كان في اليومَين الأوَّلين في القرية. ولو أنه أتى لتمَّ لبيبي الامتحان الحاسم، الامتحان الذي لم تكن تخشاه إلا أقل خشية، بل كانت تُرحِّب به. ولعلَّها لم تكن ستُصبح — وهذه أمور من الأفضل بطبيعة الحال ألَّا يتعرض الإنسان لها بكلام — عشيقةً لكلم ... ولعلها لم تكن ستكذب وتدَّعي أنها قد أصبحت عشيقته ... ولكنَّها كانت ستعرف، مثل فريدا، كيف تضع قدح البيرة برقةٍ على المائدة، وكيف تُلقي التحية مُهذَّبة دون إلحاحٍ من نوع إلحاح فريدا، وكيف تستأذن مهذبةً في الانصراف ... ولو كان كلم يبحث في عيني البنات عن شيءٍ، فلا شك أنه كان سيَجده وفيرًا في عينَي بيبي. ولكن لماذا لم يأتِ؟ مصادفةً؟ لقد ظنَّت بيبي آنذاك أنها مصادفة. وكانت طوال اليومين تنتظر مَقْدمه بين لحظةٍ وأخرى، وظلت تنتظر حتى في الليل. وكانت لا تفتأ تقول في نفسها إن كلم سيأتي حالًا، وتجري هنا وهناك بلا سببٍ سوى قلق الانتظار والحرص على أن تكون أول مَن يراه عندما يدخل. ولقد أرهقتها هذه الخيبة المستمرة ولعلَّها لهذا السبب لم تبذل من الجهد ما كانت تستطيع أن تبذله. وكانت إذا وجدت لديها شيئًا من الوقت تصعد إلى الممر الذي حظر دخوله على العاملين في الحانة حظرًا باتًّا، وتختفي في تجويفٍ بالحائط وتنتظر. وكانت تقول في نفسها: ليت كلم يأتي الآن، وليتني أستطيع أن أحمل السيد من حُجرته على ذراعي إلى قاعة الشراب! إنني لن أنهار مهما كان الثقل من الضخامة! ولكنه لم يأتِ. وهذا الممر يخيم عليه سكون هائل لا يستطيع مَن لم يعرفه أن يتصوره. إن السكون هناك لا يحتمل، إنه يدفع الإنسان إلى بعيد. ولقد دفع بيبي إلى بعيد المرة تلوَ مرة ... عشر مرات، ولكنها عادت المرة تلو المرة ... عشر مرات. ولقد كان ذلك حُمقًا؛ فلو كان كلم يريد أن يأتي فإنه سيأتي، ولو لم يكن يريد أن يأتي فإن بيبي لن تستطيع اجتذابه حتى ولو اختنقَت في تجويف الحائط أو كادت أن

تختنق لفرط دَقِّ قلبها. لقد كان ذلك حمقًا، ولكنه إذا لم يأتِ فسيكون كل شيء تقريبًا حمقًا. ولم يأتِ. وبيبي تعرف اليوم لماذا لم يأتِ. ولو رأت فريدا بيبي في تجويف الحائط واضعةً يديها على قلبها، لنعمت بمشهدٍ طريفٍ للغاية. إن كلم لم ينزل لأن فريدا لم تسمح بذلك. ولم يتحقَّق لها هذا بالالتماس، فالتماساتها لا تصل إلى كلم. ولكنها كالعنكبوت، على صلات تمتد إلى كل ناحية، ولا يعلم الإنسان عنها شيئًا، فإذا قالت بيبي لأحدِ روَّاد الحان شيئًا، فإنها تقوله بصراحةٍ، ويمكن لَمن يجلس إلى المائدة المجاورة أن يسمعه. أما فريدا فليس لديها ما تقوله، إنها تضع البيرة على المنضدة وتَنصرِف. ولا يسمع أحد منها إلا هفهفة قميصِها الحريري، وهو الشيء الوحيد الذي تدفع فيه مالًا. وإذا حدث أن قالت شيئًا، فإنها لا تقوله بصراحة، بل تهمس به، وتَميل على أذن الشخص فيرهف مَن يجلس إلى المائدة المجاور السمع. ويبدو أن ما تقوله سخفٌ، ولكنه ليس سخفًا كله. وفريدا لها اتصالاتها، وهي تُسند بعضها على البعض الآخر، فإذا تخلَّى عنها هذا — وأين هذا الذي يُمكن أن يهتمَّ بفريدا إلى الأبد؟ — فإنها تظلُّ معتمدةً على ذاك. ولقد تحرَّكت بالفعل لتستغل هذه الاتصالات. ومكَّنها ك من ذلك، فهو بدلًا من أن يقعد لديها في البيت وبدلًا من أن يحرسها، لا يمكث في البيت إلا لمامًا، بل يتجوَّل ويُجري مناقشاتٍ هنا وهناك، وهو يلتفت إلى كل شيءٍ إلا إلى فريدا، وهو ينتقل من حان الجسر إلى المدرسة الخالية ليُتيح لها مزيدًا من وقت الفراغ. وكل هذا بدايةً جميلةً لشهر العسل. وبيبي هي بكل تأكيد آخِر مَن يلوم ك على أنه يحتمل الحياة مع فريدا، فليس هناك إنسان يحتمل الحياة معها. ولكن لماذا لم يهجرها كليةً؟ لماذا ظل يعود إليها المرة بعد المرة؟ لماذا جعل جولاته توحي بأنه يناضل من أجلها؟ لقد لاح الأمر كأنها قد تبيَّن تفاهته الحقيقية على أثر اتصاله بفريدا، وكأنه يريد أن يجعل نفسه جديرًا بفريدا، وكأنه يريد أن يرقى متعجلًا إلى شيء، وهو لهذا يتخلى عن عشرتها الآن ويرجو أن يجد في المستقبل تعويضًا عن الحرمان. أما فريدا فهي لا تضيع في هذه الأثناء الوقت، إنها تقعد في المدرسة التي يبدو أن ك نقلَها إليها، وتتأمَّل حان السادة وتتأمل ك. ولديها من السعاة اثنان ممتازان تحت أمرها: إنهما مساعدا ك وقد تركهما ك لها كليةً. وإن الإنسان لا يفهم لماذا تركهما ك لها، حتى إذا كان يعرف ك. وهي ترسلهما إلى أصدقائها القدامى فتُجدِّد ذكراها لديهم، وتشكو لهم من أن رجلًا مثل ك يحبسها، وتحرضهم على بيبي، وتعلن أنها ستعود من جديد عمَّا قريبٍ، وترجو العون وتتوسَّل إليهم ألا يكشفوا أمرها لكلم. وتتظاهر بأنها تخاف على كلم، وترجو ألا يتركوه يذهب إلى الخمارة بحالٍ من الأحوال. وبينما تتظاهَر أمام هؤلاء بأن بُعدَ كلم عن الخمارة يَرتجي

حرصًا عليه، تستغلُّ نجاحها هذا عند صاحب الحان فتلفَّت نظرُه إلى أن كلم لم يعد يذهب إلى الخمارة. وكيف يُمكنه أن يذهب إلى هناك بينما بنتٌ كبيبي هي التي تقوم بالخدمة؟ والحقيقة أن صاحب الحان ليس مذنبًا، فبيبي هي أفضل بديلٍ لها، ولكنها لا تكفي حتى ولا لبضع أيام. وك لا يعلم شيئًا عن كل هذا التدبير الذي قامت به فريدا، فهو إن لم يكن هائمًا في جولاته، يَرقد خالي البالي إلى قدمَيها بينما هي تَعُدُّ الساعات التي لا تزال تُفرِّق بينها وبين العودة إلى الخمارة. ثم إن عمل الساعيَين لا يقف عند هذا الحد، إنه يهدف كذلك إلى إثارة غيرة ك والإبقاء على علاقته بفريدا. وفريدا تعرف المساعدَين منذ طفولتها. وليس لديها أسرار تخفيها عليهما، وهما تكريمًا لـ ك يشغفان بها على التوالي، ويواجه ك خطر تحول هذا الشغف إلى حبٍّ شديد. وك يفعل كل شيء إرضاءً لفريدا، ولا يتورَّع في ذلك عن أنكر الأعمال. إنه يدع المساعدَين يُثيران غيرته، ويقبل مع ذلك، أن يظلَّ الثلاثة معًا، بينما يذهب هو إلى جولاته وحده. وكأنما كانت فريدا المساعد الثالث! وتُقرر فريدا أخيرًا اعتمادًا على ملاحظاتها، أن تضرب الضربة الكبرى: إنها تُقرر أن تعود. والحقيقة أن الوقت قد أزف، وإنَّ الإنسان ليدهش كيف تتبيَّن فريدا الماكرة، هذه الحقيقة وكيف تستغلُّها. إنَّ القدرة على الملاحظة والتصميم هي فن فريدا الذي لا يستطيع غيرها أن يُقلده. ولو أوتيت بيبي هذا الفن، لتغيَّرت حياتها أيَّما تغير! ولو أن فريدا قد بقيت في المدرسة يومًا آخر أو يومَين، ما أضحى في إمكانها أن تطرد بيبي، ولأصبحت بيبي نهائيًّا خادمة الخمارة يحبُّها الجميع ويتمسَّكون بها، وتربحت من المال ما يكفي لاستكمال هندامها على نحوٍ مُذهل. لو بقيت يومًا أو يومين لما أمكن منع كلم عن قاعة الشراب مهما كانت الأحابيل. إذن لأتى كلم ولشرب ولأحسَّ بالراحة والرضا، فإذا ما لاحظ أن فريدا لم تَعُد هناك، فإنه سيُسرُّ للتغيير. ولو بقيت يومًا أو يومَين لانطوت فريدا في النسيان بفضيحتها وعلاقاتها ومساعديها وبكلِّ ما أوتيت، ولما خرجت من ظلمات النسيان بعد ذلك أبدًا. وإذا وصلت إلى هذه الحال فعليها أن تتعلَّق بـ ك على نحوٍ أشد، وأن تتعلَّم كيف تحبه إذا كانت تستطيع ذلك؟ لا، إنها لا تستطيع حتى هذا. لأن ك لا يحتاج لأكثر من يومٍ حتى يسأمها وحتى يتبيَّن كيف تخدعه خداعًا مزريًا، تخدعه بكل شيءٍ، بجمالها المزعوم وإخلاصها المدَّعَى وخاصة بحبِّها المفتعَل لكلم. إنه لا يحتاج إلا إلى يومٍ واحدٍ لكي يُلقي بها إلى الشارع ومعها أعمالها القذرة التي تعتمد فيها على المساعدَين. إن الإنسان لا يمكن أن يتصوَّر أن ك يحتاج من الوقت إلى أكثر من يومٍ واحدٍ حتى يتصرَّف على هذا النحو. وبينما هي بين هذَين الخطرين، وقد أوشك القبر أن ينقفل عليها، وما يزال ك في سذاجته يبقي على سبيلٍ أخيرٍ مفتوحًا، إذا بها تتأجَّج

نارًا، على نحوٍ لم يكن هناك إنسانٌ يتوقَّعه لأنه يجافي الطبيعة، وإذا بها تطرد ك الذي لا يزال يحبها ويجري وراءها، تظهر لصاحب الحان، تحت ضغط الأصدقاء والمساعدين على هيئة المنقذة التي تأتي إليه بالخلاص والنجدة، وقد أصبحت نتيجةً لفضيحتها أكثر جاذبيةً من ذي قبل، وقد تأكد بالدليل أن الوضيع والرفيع يشتهيانها، فهي تغرم بالوضيع إلى حين، ثم تنبذه بعد ذلك كما ينبغي وتترفع عليه كما كانت تترفع من قبلُ، مع فارقٍ واحد وهو أن الناس كانوا يشُكُّون في ذلك، أما الآن فقد اقتنعوا. وإذا بها تعود، وينظر صاحب الحان نظرة ترددٍ إلى بيبي — هل يضحي بها بعد أن أثبتت جدارتها؟ — ثم يتخذ قراره في صالح فريدا، فكفة فريدا راجحةً لأنها أولًا وقبل كل شيءٍ آخر ستعيد كلم إلى قاعة الشراب وهذه هي الحال الآن، في هذا المساء. ولكن بيبي لن تنتظر حتى تأتي فريدا وتجعل من عودتها إلى المنصب انتصارًا. لقد سلمت بيبي الخزينة إلى صاحبة الحان، وفي استطاعتها أن تنصرف. وستذهب الآن إلى حجرة الخادمات حيث ينتظرها سريرها هناك، وستحييها صديقتاها بالدموع وستنتزع هي الثوب من فوق جسمها، والأشرطة من شَعرها وتلقي بها في ركنٍ بعيدةٍ عن بصرها حتى لا تذكِّرها دون ما فائدة بأوقاتٍ من الخير أن تظل منسيةً. ولسوف تتناول الدلو الكبير والمقشة وتزم أسنانها وتستأنف عملها. ولكنها لا بد أن تحكي كل شيء لـ ك أولًا، حتى يتبين بوضوح ما لم يتبينه حتى الآن وحده بدون مساعدة، حتى يتبين بوضوح قبح ما فعله بيبي وكيف أتعسها ... وإن كان كذلك قد وقع بطبيعة الحال فريسةً للاستغلال.

وانتهت بيبي من الكلام. وجففت وهي تلتقط نفَسًا عميقًا شيئًا من الدموع من عينيها وخديها ثم تطلعت إلى ك وهي تومئ برأسها، وكأنها تريد أن تقول إن الأمر ليس في الحقيقة أمر مصيبتها هي، فهي وبخاصة من ك، وهي على الرغم من صغر سِنها تعرف الحياة، تستطيع أن تتحملها ولا تحتاج لا إلى مساعدة ولا إلى عزاءٍ من أحد وبخاصةٍ من ك، وهي على الرغم من صغر سِنها تعرف الحياة، وما مصيبتها إلا تأكيد لمعلوماتها السابقة، وإنما الأمر أمر مصيبة ك. ولقد أرادت أن تصور له الأشياء، لأنها رأت من الضروري أن تفعل ذلك قبل أن تنهار آمالها كلها. فقال ك: ما أفظع خيالك يا بيبي! أما أنك لم تكتشفي هذه الأشياء كلها إلا الآن فأمرٌ لا يمكن تصديقه. إن كل ما قلته لا يعدو أن يكون أحلامًا انطلقت من حجرتك، حجرة الخادمات السفلية المظلمة الضيقة. وهي في الحجرة السفلية المظلمة الضيقة في مكانها الصحيح، أما هنا، في الخمارة الطليقة، فهي تبدو غريبةً عجيبةً. وأما أنك لم تتمكني من تثبيت أقدامك هنا بهذه الأفكار، فشيءٌ بديهي. وإن ثوبك وتسريحة

شَعرك اللذَين تفخرين بهما لا يزيدان عن أن يكونا وليدَي تلك الظلمة وتلك السُّرر في حجرتكن وهما بلا شك جميلان جدًّا في حجرتكن، أما هنا فكل إنسانٍ يضحك منهما في سِره أو علانيته. وما هذا الذي حكيته؟ لقد قلتِ إنني وقعت فريسة للاستغلال والغش؟ لا، يا عزيزتي بيبي إنني لم أقع فريسةً للاستغلال والغش مثلك تمامًا. والحقيقة أن فريدا قد هجرتني الآن، أو هي، كما قلتِ قد هربت مع أحد المساعدَين، فأنت إذن ترين بصيصًا من الحقيقة، ومن المستبعد جدًّا بالفعل أن تصبح زوجتي بعد كل ما حدث، وليس من الحقيقة في شيء أنني سئمتها، أو أنني كنت سأطردها في اليوم التالي، أو أنها خانتني على النحو الذي تخون الزوجة عليه زوجها. وأنتن، أيتها الخادمات قد اعتدتنَّ على التجسس من خلال ثقب المفتاح، واحتفظتن من التجسس على هذا النحو بطريقة التفكير المرتبطة به، فأنتنَّ تستنتجن من شيءٍ صغيرٍ ترينه بالفعل، الشيء كله، على نحوٍ رائعٍ ومزيفٍ معًا. والنتيجة في هذه الحالة مثلًا أنني لا أعرف من الأمر إلا أقل منك بكثير. وأنا لا أستطيع — وقدرتي في هذا لا تداني قدرتك من قريبٍ أو بعيد — أن أفسِّر بدقةٍ كدقتك سبب انصراف فريدا عني. وأقرب تفسيرٍ إلى الاحتمال يبدو لي ما أشرت إليه أنت إشارةً عابرةً وهو أنني أهملتها. هذه هي الحقيقة، لقد أهملتها. ولكن إهمالي لها كان يقوم على أسبابٍ ليس هذا مكان الإفاضة فيها. ولو عادت إليَّ لسعدت بعودتها، ولكنني سأعود إلى إهمالها من جديد. هذه هي الحقيقة. لقد كنت، طالما كانت فريدا عندي، مشغولًا دائمًا بجولاتي التي تسخرين منها. أما الآن، وقد هجرتني فريدا فإنني غير مشغول بشيءٍ تقريبًا، ومتعب، وأحس بحاجةٍ إلى مزيدٍ من البطالة ألا تنصحينني بشيءٍ يا بيبي؟

وقالت بيبي وقد تملَّكها الحماس فجأةً وأمسكت ك من كتفَيه: بلى. إننا كلانا مخدوعان، فلنبقَ معًا! تعالَ معي إلى الحجرة السفلية إلى الخادمات.

فقال ك: إنَّني لن أستطيع التفاهم معك طالما كنت تتحدثين عن أننا خدعنا. إنك تُريدين دائمًا أن تكوني قد خُدعت، لأن هذا يروق لك ويُحرِّك وجدانك. أما الحقيقة فهي أنك لا تصلحين لهذه الوظيفة. وإن عدم لياقتك لهذه الوظيفة لتتضح لك جليةً إذا كنت أنا، وأنا في نظرك أجهل الناس، أتبيَّن ذلك. وأنت بنتٌ طيبة يا بيبي، ولكن ليس من السهل على الإنسان أن يتبيَّن ذلك. فأنا على سبيل المثال عندما رأيتك لأول مرة ظننتك فظيعةً ومُتكبِّرة، ولكنك في الواقع لست كذلك ... إن الوظيفة هي التي تصيبكِ بالاضطراب لأنكِ غير لائقةٍ لها. وأنا لا أعني بذلك أن الوظيفة عاليةً جدًّا بالنسبة إليكِ، وما هي بالوظيفة الفائقة للمألوف، وقد تكون، إذا ما دقَّق الإنسان النظر فيها، أرفع من وظيفتكِ السابقة،

وإن كان الفرق في مجموعه غير كبير، فالوظيفتان مُتشابهتان تشابهًا يكاد الإنسان منه أن يخلط بينهما، بل إن الإنسان ليكاد يقول إن العمل كخادمة حجرات يفضل العمل في الخمارة؛ لأنَّ خادمة الحجرات تكون دائمًا مع السكرتيرين أما خادمة الخمارة فإنها، وإن كانت تخدم رؤساء السكرتيرين أحيانًا، مضطرة للتنزل إلى شعبٍ وضيع شديد الوضاعة من أمثالي، وأنا غير مسموح لي بأن أظهر في مكانٍ آخر سوى في هذه الخمارة، فهل تعتبرين إمكانية مخالطتي شيئًا مشرفًا يفوق الحدود؟ إنك تظنين هذا، وربما كانت لديكِ أسبابكِ. ولكنكِ لهذه الأسباب بالضبط غير لائقة لهذه الوظيفة. وهذه الوظيفة مثل كل الوظائف الأخرى. ولكنها بالنسبة إليكِ الجنة، ولهذا فأنتِ تتناولين الأمور كلها بحماسٍ مفرط، فأنت تتزيَّنين كما تتزين الملائكة — حسب تصورك … والحقيقة أنهم يختلفون عما تتصوَّرين كل الاختلاف — وأنت ترتعدين خوفًا على الوظيفة، وتظنين أن هناك مَن يضطهدك، وتبحثين عن كل مَن تظنِّين أنهم يستطيعون أن يساندوك وتحاولين اجتذابهم إليك بالمبالغة في التودُّد إليهم. ولكنك تُسبِّبين لهم بهذا في الإزعاج النفور، لأنهم يريدون؛ إذ يأتون إلى الخمارة، الراحة، والهدوء ولا يريدون مشكلاتك ومشكلات خادمات الخمارة. ومن المحتمل، ومن المحتمل فقط، ألا يكون كبار رواد الخمارة قد لاحظوا انصراف فريدا، أما اليوم فهم يعرفونه ويشتاقون فعلًا إلى فريدا؛ لأن فريدا كانت تدبر أمور العمل على نحوٍ مختلف كل الاختلاف. ومهما يكن من أمرها، ومهما يكن تصورها لمركزها، فقد كانت في العمل واسعة الخبرة، فاترة، مسيطرة على نفسها — وأنت تُشيرين إلى ذلك دون أن تتعلَّمي منه. هل تأمَّلت مرةً نظرتها؟ لم تكن نظرتها نظرة خادمة خمارة، لقد كانت أكثر من ذلك، كانت نظرة صاحبة حان، أو توشك أن تكون كذلك. لقد كانت ترى كل شيء، وكانت ترى كل فردٍ على حدة، وكانت النظرة التي تبقى للفرد، قوية قوة تكفي للسيطرة عليه. وهل يعيبها أن تكون نحيفةً قليلًا، ومتقدِّمة في السِّنِّ بعض الشيء، أو أن يكون هناك شَعر أفضل من شَعرها؟ إن هذه أشياء طفيفة إذا قيست بما هي عليه في الحقيقة. وإن الإنسان الذي تزعجه مثل هذه العيوب ليُبيِّن بانزعاجه منها أنه لا يفهم في الأشياء العظيمة. ولا يمكن أن يأخذ الإنسان على كلم هذا بكل تأكيد. أما أنك لا تصدقين حب كلم لفريدا فيرجع إلى وجهة نظرٍ خاطئة تنظر بها بنت صغيرة غريرة إلى الأمور، إن كلم يبدو لك — بحقٍّ بعيد المنال، ولهذا فإنك تظنِّين أن فريدا لا تستطيع الوصول إليه. عندي براهين يقينية. ومهما لاح لك الأمر بعيدًا عن التصديق، مختلقًا وأنت تخطئين. وأنا في هذا أثق في كلام فريدا وحده حتى إن لم يكن عن تصوراتك عن العالم والموظفين والعظمة

وتأثير جمال النساء، فإنه حقيقي، ولقد كان كلم وفريدا يجلسان كما نجلس نحن الآن الواحد بجوار الآخر ويدك في يدي — ولقد كان هذا أكثر الأمور بداهةً … ولقد كان ينزل إليها، من تلقاء ذاته، بل لقد كان يعدو إليها، ولم يكن هناك مَن يتربَّص به في الممر ويهمل أثناء ذلك عمله. لقد كان كلم مضطرًّا إلى النزول إلى فريدا، ولم يكن ما تتحدثين عنه من نقائص في هندام فريدا يُزعجه. إذن فأنت تذهبين إلى تكذيبها. وأنت لا تَعرفين أنك بهذا تكشفين نفسك وتُظهرين قلَّة خبرتك. إن مَن لا يعرف شيئًا عن علاقة فريدا بكلم يُمكنه أن يتبيَّن من كيانها أن الذي يُحبها شخص أكبر مني ومنك ومن كل مَن في القرية من شعب، وإن أحاديثها تتجاوَز حدود المزاح الذي يتَّصل عادةً بين خادمات الحانات والروَّاد والتي تلوح كأنها هي هدف حياتك. ولكنَّني أظلمك؛ فأنتِ في الحقيقة تعرفين مميِّزات فريدا، وتعرفين قُدرتها على الملاحظة وقدرتها على التصميم، وتأثيرها على الناس، إلا أنك بطبيعة الحال تُفسِّرين الأشياء تفسيرًا خاطئًا، وتظنين أنها تستخدم كل شيءٍ استخدامًا أنانيًّا لصالحها هي ولضرر الآخَرين، أو تستعمله كسلاحٍ ضدك. لا يا بيبي، إنها حتى إذا أوتيت هذه الرماح، لا تستطيع أن تصيب أحدًا يقف على هذا البُعد الهيِّن. أما الأنانية؟ لا، إن الأحرى بالإنسان أن يقول إنها ضحَّت بما كان لديها وبما كان لها أن ترجوه، لتُتيح لنا كلَينا فرصة الصعود إلى مركزٍ أعلى. أما نحن فإننا نُثبت كفاءتنا وخيَّبنا رجاءها واضطررناها إلى العودة إلى هنا اضطرارًا. وأنا لا أعرف هل الأمر فعلًا على هذا النحو، هذا إلى أنني لا أحسُّ بذنبي إحساسًا واضحًا، إلا أنني، عندما أقارن نفسي بك أحسُّ شيئًا من هذا القبيل يجول بخاطري، وكأنما اجتهدنا نحن كلانا على نحوٍ صاخبٍ صبياني غرير إلى أقصى حدود الصخب والصبيانية والغرور للوصول إلى شيءٍ كان هدوء وموضوعية فريدا يُوصِّلان إليه بسهولةٍ ودون إثارة، اجتهدنا نحن كلانا في الوصول إليه بالبكاء والخمش والشدِّ كما يشدُّ الطفل الصغير في ملاءة المنضدة فلا يصل إلى شيء إلا رمي العظمة كلها إلى الأرض. فتنقلب بالنسبة إليه إلى شيءٍ من المحال الوصل إليه. وأنا لا أعرف هل الأمر في الحقيقة على هذا النحو، ولكن أعرف أنه أقرب إلى هذا منه إلى ما تحكمين.

فقالت بيبي: هه، أنت مُتيَّمٌ بفريدا لأنها هجرتك، وليس من الصعب أن يهيم بها الإنسان عندما تكون غائبةً. ولكن ربما كان الأمر على ما قلت وربما كنت على حقٍّ في كل ما ذهبت إليه، وفي سُخريتك مني. وماذا تريد الآن أن تفعل؟ لقد هجرتك فريدا، وليس لديك أمل، لا طبقًا لتفسيري ولا طبقًا لتفسيرك أنت، في أن تعود إليك، وحتى إذا كانت ستعود إليك، فينبغي عليك حتى ذلك الحين أن تقيم في مكانٍ ما، فالجو بارد وليس لديك

فراش، وليس لديك عمل، فتعالَ إلينا، وستُعجبك صديقتاي، وسنعمل جميعًا على راحتك وستُساعدنا في عملنا، وهو في الحقيقة صعبٌ علينا وحدنا صعوبةً مفرطة، وهكذا لن نكون نحن البنات بلا سندٍ ولن نحس خوفًا بالليل، تعالَ إلينا. وصديقتاي هما أيضًا تعرفان فريدا وسنَحكي لك عنها من الحكايات حتى تسأمها. تعالَ. ولدينا صور لفريدا سنقدمها إليك لتراها، لقد كانت فريدا فيما مضى أكثر تواضُعًا من الآن، ولو رأيت صورها صغيرة لما تعرفت عليها بسهولة، إلا من عينَيها اللتَين كانتا فيما مضى تتربصان كما تتربصان الآن، هه، إذن ستأتي إلينا؟

وقال ك: وهل ذلك من المسموح به؟ لقد حدثَت بالأمس فضيحة كبيرة لأنهم قبضوا عليَّ في الممر.

فقالت بيبي: آه لأنهم قبضوا عليك! ولكنَّهم لن يقبضوا عليك عندما تكون عندنا. لن يعلم عنك إنسان شيئًا عندما تكون عندنا. لن يعرف ذلك سوى ثلاثتنا، آه، سيكون ذلك شيئًا مفرحًا بهيجًا! إنني أحس الآن بأن الحياة ستُصبح أكثر احتمالًا عنها قبل هنيهة. ولعلِّي لا أكون قد فقدت الكثير نتيجةً لخروجي من الخمارة. إننا نحن البنات الثلاثة، لم نعانِ الملل لأننا كنَّا معًا، وما ينبغي على الإنسان إلا أن يُحلي الحياة المُرة، وهم يجعلون حياتنا من صغرنا مُرة، ولكننا نتكاتف نحن الثلاثة. ونعيش حياةً جميلةً على قدر الإمكان، وستعجبك هنريته خاصةً، وكذلك إيميليه، ولقد حكَيتُ لهما عنك، فسمعتا حكاياتي مكذبتَين، وكأنما لم يكن المُمكن أن يجري شيء في خارج حدود الحجرة، الحجرة الدافئة الضيقة التي تتلاصق فيها الواحدة بالأخرى تلاصقًا شديدًا. لا، إننا لا نحسُّ بالملل بعضنا من البعض على الرغم من أن كل واحدةٍ منا تعتمد على الأخرى، بل على العكس. إنني عندما أفكر في صديقتي، أكاد أحس بالرضا لأنني أعود. ولماذا أتقدم وأعلو عليهما؟ لقد كنا مُتكاتفاتٍ لسببٍ واحدٍ وهو أن المستقبل موصَد أمامنا نحن الثلاثة، ولقد اندفعتُ أنا من خلال السد وانفصلت عنهما. ولكني بطبيعة الحال لم أنسهما، بل كان همِّي الأول هو فعل شيءٍ من أجلهما. وعلى الرغم من أن أقدامي لم تكن قد رسخت في الوظيفة بعدُ — ولم أكن أعرف ذلك آنذاك — فقد تكلمتُ مع صاحب الحان بشأن هنريته وإيميليه. ولم يعترض على هنريته اعتراضًا لا سبيل إلى التغلب عليه، أما إيميليه — وهي أكبرنا سنًّا، وهي في سنِّ فريدا تقريبًا — فقد اعترض عليها اعتراضًا لا أمل في التغلب عليه، ولكن تصور! أنهما لا تُريدان الانصراف عن حياتهما الحالية. إنهما تعرفان أنها حياة بائسة، ولكنَّهما انطوَتا لها. وأظنُّ أن البنتين الطيبتين عندما بكَتا عند توديعي، كانتا حزينتَين

خاصةً لانصرافي عن الحجرة المُشتركة، وذهابي إلى البرودة — ونحن نتصور كل شيء خارج الحجرة باردًا — واضطرابي في الأماكن الكبيرة الغريبة ومن فيها من أناسٍ أغراب لا لشيءٍ إلا لكسب معاشي، ولقد كنتُ وأنا معهما أكسب معاشي. ويبدو أنهما لن تدهشا عندما أعود الآن إليهما، ولسوف تبكيان وتندبان حظِّي لا لشيءٍ إلا لتلينا لي بعد ذلك. ثم ستريانك وستتبيَّنان أنني أحسنتُ صنعًا عندما تركتهما وذهبت. ولسوف تسعدان عندما تجدان أننا أوتينا رجلًا يكون لنا عونًا وسندًا ودرعًا، ولسوف تفرحان أشد الفرح عندما تعلمان أنَّ الأمر لا بد أن يبقى سرًّا بينَنا وأننا سنتكاتف بسبب هذا السر تكاتفًا أكبر وأمتن، تعالَ، أرجوك، تعالَ إلينا! ولن يكون في حضورك إلينا التزامٌ بشيء، فلن ترتبط بالحجرة أبدًا مثلنا. فإذا أتى الربيع ووجدت في مكانٍ آخر مأوًى، ولم يعد المقام لدينا يحلو لك، فلك أن تذهب. ولن يكون عليك إلا أن تحفظ السر حتى بعد أن تنصرف، وألا تفضحنا؛ لأن ذلك سيكون معناه دنو ساعتنا الأخيرة في حان السادة، هذا إلى أنه ينبغي عليك، وأنت عندنا، أن تلزم الحذر بطبيعة الحال، وألا تظهر في أي مكانٍ لا يكون في تقديرنا غير خطير. وعليك بصفةٍ عامة أن تتبع نصائحنا. هذا هو القيد الوحيد الذي يُقيِّدك. وينبغي أن تحرص عليه حرصنا نحن عليه، أما فيما عدا ذلك فأنت حرٌّ تمام الحرية، ولن يكون العمل الذي نُكلِّفك به صعبًا، وأنا لا أخشى شيئًا من هذه الناحية. هل ستأتي إلينا إذن؟

وسألها ك: وكم يمرُّ من الوقت حتى الربيع؟

وأعادت بيبي كلامه: حتى الربيع.

ثم أردفت: إنَّ الشتاء لدينا طويل، طويلٌ جدًّا، ورتيب. ونحن في حجرتنا السفلية لا نشكو من ذلك، فنحن في مأمنٍ منه. ولكن الربيع يأتي يومًا ما، وكذلك الصيف، ولكلٍّ موعده. وأنا عندما أعمل ذاكرتي أتصور الربيع والصيف قصيرَين جدًّا وكأنهما لا يزيدان على يومين اثنين، وحتى في هذين اليومين يسقط أثناء الجو الجميل بعض الثلج أحيانًا.

وهنا انفتح بابٌ. وارتعد بيبي. لقد بعُدت بأفكارها عن الخمارة بُعدًا شديدًا، ولم تكن فريدا هي التي أتت، بل صاحبة الحان، وتظاهَرَت بالدهشة لرؤيتها ك هنا. واعتذر ك قائلًا إنه كان ينتظر قدوم صاحبة الحان ليشكرَها على السماح له بقضاء الليلة هنا. ولم تفهم صاحبة الحان سبب انتظار ك لها. فقال ك لها، إنه كان يحسُّ بأنها تريد أن تتكلم معه، ورجاها أن تغفر له إن كان قد أخطأ في هذا، وقال إن عليه في الواقع أن ينصرف الآن، فقد طال إهماله المدرسة التي يعمل خادمًا بها، والذنب هو قبل كل شيء آخر ذنب الدعوة التي تلقَّاها بالأمس، وقال إنه قليل الخبرة بهذه الموضوعات، وإنه لن يحدُث مرةً

أخرى أن يُسبب للسيدة صاحبة الحان منغِّصاتٍ كتلك التي حدثت بالأمس. وانحنى وتأهَّب للانصراف وتطلعت صاحبة الحان إليه بنظرةٍ وكأنها تحلم، وأدَّت هذه النظرة بـ ك إلى الانتظار أطول مما كان ينوي. ثم ابتسمت ابتسامةً رقيقة، ولم تُفق لنفسها إلا عندما رأت ك ينظر إليها نظرةً مدهوشة. ويبدو أنها كانت تتوقَّع ردًّا على ابتسامتها وأنها أفاقت الآن عندما لم تتلقَّ ردًّا. وقالت: لقد تجرأتَ بالأمس على ما أظنُّ وقلتَ شيئًا عن ثوبي.

ولم يستطع ك أن يتذكر. فقالت له: ألا تذكر؟ هكذا يتبع الجُبن الجرأة.

واعتذر ك بتعبه في الأمس وقال إنه من الممكن جدًّا أن يكون قد ثرثر بشيء، ولكنه على أية حال لا يذكر. وماذا يمكن أن يكون قد قال في ثياب السيدة صاحبة الحان؟ إلا أنها جميلة جمالًا لم يسبق أن رأى له مثيلًا، أو على أنه لم يسبق أن رأى صاحبة حان تلبس هذه الثياب أثناء العمل. فقالت له صاحبة الحان بسرعة: دع هذه التعليقات. إنني لا أريد أن أسمع كلمةً واحدة منك عن ثيابى. وليس لك أن تهتمَّ بثيابي. وأنا أمنعك من ذلك منعًا باتًّا.

وانحنى ك مرةً أخرى واتجه إلى الباب. فصاحت صاحبة الحان من خلفه قائلةً: وما معنى قولك أنك لم ترَ من قبلُ صاحبة حان تلبس مثل هذه الثياب أثناء العمل؟

ما معنى هذه التعليقات السخيفة؟ إنها سخيفة كل السخف. ماذا تعني بها؟

فالتفتَ ك خلفه ورجا صاحبة الحان ألا تغضب، وقال إن هذه التعليقات بطبيعة الحال سخيفة، فهو لا يفهم شيئًا في الثياب، وإنه في حالته هذه، يرى كل ثوبٍ نظيفٍ غير مرقعٍ ثوبًا جميلًا. كل ما في الأمر أنه اندهش عندما رأى السيدة صاحبة الحان بالليل تلبس ثوب سهرةٍ جميل وسط رجالٍ لا يكادون يرتدُون شيئًا هذا هو كل ما في الأمر.

فقالت صاحبة الحان: ها أنت ذا تتذكَّر. على ما يبدو، تعليقاتك التي قلتَها بالأمس، وتُكملها بسخفٍ جديد. أما أنك لا تفهم في الثياب فصحيحٌ. ولكن عليك في هذه الحالة أن تمتنع — وأنا أرجوك في هذا رجاءً حارًّا — عن إصدار أحكامٍ عن الثياب الثمينة والثياب التي لا تليق للسَّهرة وما إلى ذلك ... وعليك ...

ويبدو أنها أصيبت هنا برعدةٍ. وأردفت: وعليك بصفةٍ عامة ألا تنشغل بثيابي مطلقًا، هل سمعتَ؟

فلمَّا همَّ ك بالاتجاه إلى الناحية الأخرى في صمت، سألته: ومن أين لك المعرفة بالثياب؟

وهزَّ ك كتفيه معبرًا عن أنه لا يعرف شيئًا عن الثياب. فقالت له صاحبة الحان: ليست لديك معرفةٌ بالثياب. ولا ينبغي أن تتجرأ على ادعاء معرفة بها. تعالَ إلى المكتب وسوف أريك شيئًا وأرجو أن يؤدي هذا بك إلى أن تكفَّ كليةً ونهائيًّا عن الجرأة والتهوُّر.

وتقدمته إلى الباب وخرجت قَبْله، فقفَزَت بيبي إلى ك مُتظاهرةً بأنها تريد أن تأخذ منه الحساب، وتفاهمت معه بسرعة، وكان هذا أمرًا سهلًا؛ لأنَّ ك كان يعرف الفناء الذي تُؤدي بوابته إلى الشارع الجانبي، وكانت بيبي تريد أن تنتظر ك بعد ساعةٍ تقريبًا عند الباب الصغير المُجاور للبوابة وتفتح له عندما يدقُّ ثلاث دقاتٍ.

كان المكتب الصغير في الناحية المواجهة للخمارة، ولم يكن الإنسان يحتاج للوصول إليه إلا إلى اجتياز البهو، وكانت صاحبة الحان تقف في المكتب الصغير المضاء، عندما وصل إليه ك، وتنتظر مقدمه بفراغ الصبر. وكان ك قد تعطَّل لأنه وجد جيرشتيكر ينتظر في الممر ويُريد أن يتحدَّث إليه، ولم يكن من السهل رده، حتى تدخلت صاحبة الحان وساعدت ك ولامت جيرشتيكر على إلحاحه.

وسمع ك صوت جيرشتيكر يقول حتى بعد أن انقفلَ الباب: إلى أين؟ إلى أين؟

وكانت كلماته تختلط اختلاطًا قبيحًا بتنهداته وسعاله.

كان المكتب عبارة عن حجرةٍ صغيرة ارتفعت درجة حرارتها ارتفاعًا مفرطًا، وكان هناك عند الحائطين العرضيين قمطر مرتفع للوقوف وخزينة حديدية، وعند الحائطين الطوليَّين دولاب وأريكة. وكان الدولاب يشغل أغلب المساحة، لا لأنه كان يبتلع الحائط الطولي فحسب، بل لأنه كان علاوةً على ذلك يمتدُّ إلى بعيد وسط الحجرة، ويُضيِّقها بحيث كان فتحه على سعته يتطلب ثلاثة أبوابٍ منزلقة. وأشارت صاحبة الحان إلى الأريكة ليجلس ك عليها، أمَّا هي فجلست على الكرسي الوثير الدوار إلى القمطر، وسألت صاحبة الحان: وأنت لم تتعلَّم حتى الخياطة؟

فقال ك: لا، مطلقًا.

– فماذا تكون؟

– موظَّف مساحة.

– وما هذا؟

وشرح لها ك. وأدَّى الشرح بها إلى التثاؤب، فقالت: أنت لا تقول الحقيقة. لماذا لا تقول الحقيقة؟

– وكذلك أنتِ لا تقولين الحقيقة.

– إذن فأنتَ تُعاود الوقاحة، وحتى إذا كنتُ لا أقول الحقيقة فهل أنا مسئولة أمامك؟ وما هو موضع كذبي؟

– أنتِ لستِ صاحبة حان فقط كما تدَّعين.

– هكذا! ما أكثر اكتشافاتك! فماذا أكون غير ذلك؟ إن وقاحتك تزداد فعلًا ازديادًا مفرطًا.

– أنا لا أعرف ماذا تكونين غير ذلك! كل ما في الأمر أنني أرى أنكِ صاحبة حان، وأنك مع ذلك تلبسين ثيابًا لا تُناسب صاحبة حان، بل ولا تُناسب امرأةً قط في القرية على ما أعلم.

– وهكذا نصلُ إلى لبِّ الموضوع. إنكَ لا تستطيع أن تخفي ما تعلم، ولعلك لست وقحًا، لعلك كالطفل الذي يعرف حماقةً ما، ولا يكون هناك من سبيلٍ إلى منعه عن كشف سرِّها. فتكلمْ. ما هو الشيء الغريب في هذه الثياب؟

– ستَغضبين مني إذا تكلمت.

– بل سأضحك، فلن يكون كلامك سوى ثرثرةٍ صبيانية. فما أمر ثيابي؟

– إذن فأنتِ تُريدين أن تعرفي أنها من قماشٍ جيدٍ، ثمين، ولكنها قديمة العهد، كثيرة الزخرف، كثيرة التعديل ومستهلكة ولا تلائم لا سنَّك ولا قوامك ولا مركزك. ولقد لفتَت نظري على الفور عندما رأيتها لأول مرة منذ نحو أسبوعٍ هنا في البهو.

– لقد وصلنا. إنَّها قديمة العهد، كثيرة الزخرف، وماذا أيضًا؟ ومن أين لكَ هذه المعرفة كلها؟

– هذا هو ما أراه، ولا يحتاج الإنسان في ذلك إلى تعليم.

– أنت ترى هذا بكل بساطة، وأنت لا تحتاج إلى الاستفسار من أي إنسانٍ، بل تعرف من فورك الشكل اللائق. وما دام الأمر كذلك فلا غنى لي عنك، لأنَّني أعشق الملابس الجميلة. وما تقول في أنَّ هذا الدولاب مليء بالثياب؟!

ودفعت الأبواب المنزلقة إلى جانب، فرأى ك الثياب متلاصقة في الثوب، تملأ الدولاب كلَّه على عرضه، وكانت الثياب معتمة الألوان في غالبها، رمادية وبنية وسوداء، وكانت كلها معلقة ومنشورة بعناية. وقالت: هذه هي ثيابي! كلها قديمة العهد، كثيرة الزخرف والحشو. كما تقول. وما هذه الثياب التي تراها هنا إلا تلك التي لا أجد لها مكانًا في حجرتي العلوية، فلديَّ بها دولابانِ كبيران مملوءان، دولابان كلٌّ منهما في حجم هذا الدولاب تقريبًا. هل تدهش لذلك؟

– لا، لقد كنت أتوقَّع شيئًا من هذا القبيل. لقد قلتُ لكِ إنك لستِ صاحبة حان فقط، إنك تطمَحين إلى شيءٍ آخر.

– إنني لا أطمح إلا إلى شيءٍ واحدٍ وهو أن ألبس ملابس جميلة، أما أنت فمجنون أو طفل أو إنسان شرير جدًّا خطير جدًّا. اذهب! اذهب!

وعاد ك إلى البهو، وأمسك جيرشتيكر مرةً أخرى بكمِّه، وهنا صاحت صاحبة الحان: سأتلقَّى غدًا ثوبًا جديدًا، وربما استدعيتُك.

هنداوي